سيدنا

محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

شمائله الحميدة، خصاله المجيدة

بقلم

عبد الله سراج الدين

سَيِّدُنا

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

شمائله الحميدة ، خصاله المجيدة

بقلم

عبد الله سراج الدّين

احقر محمد اشرف عفی عنہ
نوری مسجد الصفا [illegible] العابدین

يطلبُ مِنَ المؤلف
☎ ٢٢١٥٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين .

وبعد ؛ فقد جمعت في هذا الكتاب فصولاً موجزةً تعبر عن بعض الشمائل المحمدية ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وتحكي بعض جوانب أخلاقه العليّة ، وسيرته السنيّة ، لعلها تذكر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وتعلم الجاهل ، وإنه ليتحتّم الأمر على كل عاقل مكلف أن يتعرف إلى أوصاف هذا الرسول العظيم والنبي الكريم ، ليسير بنور سيرته ، وليتأسى بكمال أخلاقه ﷺ .

وإذا كانت العقلاء تطمح إلى معرفة عظماء العالم وكبرائه فإن أحق ما يجب أن تطمح إليه وتطمع فيه هو التعرف إلى سيد السادات وفخر الكائنات ، الذي رفعه الله تعالى أعلى الدرجات ، ورقاه فوق جميع أهل المراتب والمقامات ﷺ .

وإن أحداً من الناس مهما علا فضله ، واتسع علمه ، وكمل عقله ، لا يستطيع أن يحيط بمحاسن هذا النبي الكريم ، ولا أن يستقصي أنواع كماله ، وألوان جماله ، بل كلّهم عاجز عن التعبير عن تلك المعاني المحمدية ، والصفات المصطفوية :

وإنّ قميصاً خيط من نسج تسعةٍ وعشرين حرفاً عن معانيه قاصرُ

المقدمة في وجوب التعرف الى جناب رسول الله ﷺ
ووجوب الاطلاع على شمائله الشريفة وسجاياه اللطيفة

قال الله تعالى : « واعلموا أنّ فيكم رسول الله . . . . » الآية .

وقال تعالى : « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ! . . » .

إن حقاً على جميع العقلاء المكلفين أن يتعرفوا إلى هذا الرسول الكريم وشمائله الحميدة وخصائله المجيدة ، وذلك لوجوه متعددة :

الوجه الأول : أن الله تعالى أمر العباد أن يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ﷺ فقال : « آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير » .

والإيمان به ﷺ يتطلب من العباد أن يعرفوا فضل هذا النبي الكريم ورفعة مستواه على غيره . وما أسبغ الله تعالى عليه من الكمالات النفسية ، وما أدّبه من الآداب الكريمة الرضية ، وما وهبه من الخُلُق العظيم والخَلْق الحسن الكريم ، وما أبدع فيه سبحانه من المحاسن ، وجمع فيه مجامع الكمالات ، فجعل جوهره الكريم عالياً على سائر الأفراد والأجناس ، بحيث لا ينقاس بغيره من الناس .

وكيف يقاس بغيره ؟ وقد ميّزه الله تعالى بمميّزات الكمال ، وخصّه بأكرم الخصال . وأعلاه ذروة الخُلُق العظيم ، وجمله في أحسن صورة وأبدع تقويم ، وخصه سبحانه بأنواع الاختصاص فرباه بعنايته ، ورعاه برعايته ، فقال سبحانه : « ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى » .

وتولى سبحانه إقراءه وتعليمه ، في حين أنه ﷺ نشأ أمياً ، فقال له سبحانه : « إقرأ باسم ربك » أي لا بدراستك ولا بثقافتك ، وقال : « سنقرئك فلا تنسى » وقال : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وإن مقام « يوحى إليّ » المذكور في قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » — يلفت الأنظار إلى موضع الاعتبار ، في شأن هذا الرسول المختار ، ويشير إلى خصائص هذا النبي الكريم الذي هيّأه الله تعالى وأهّله وأعدّه وأمدّه في روحه وجسمه ، وعقله وفهمه ، وسمعه وبصره ، وسائر مداركه وجوارحه ، وجوانحه ، وأعطاه قابلية الاختصاص لأن يتلقى الوحي بجميع طرق الوحي من رب العالمين .

ومن ثمّ لما واصل ﷺ الصيام ، واصل بعض أصحابه معه ، فنهاهم عن الوصال ، فقالوا : نراك تواصل يا رسول الله ، فقال : « إني لست مثلكم — وفي رواية : إني لست كهيئتكم — أبيت يطعمني ربي ويسقيني » . كما جاء في الصحيحين .

فهو ﷺ بشر لا كالبشر ، كما أن الياقوت حجر لا كالحجر .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أمر العباد باتباع النبي ﷺ فقال تعالى : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » فجعل سبحانه الدليل الصادق على محبته هو اتباع النبي ﷺ ، وقال تعالى : « واتبعوه لعلكم تهتدون » أي إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة .

وهذا يتطلّب البحث عن أعماله ﷺ وعن أقواله وأحواله ، ويتطلّب التعرّف إلى سجاياه الكريمة وأخلاقه العظيمة ، ليُتأسّى به وليُتّبَع في ذلك اتباعاً كاملاً شاملاً ، إلاّ فيما خصّه الله تعالى به من الأحكام والأحوال .

ومن ثمّ كان أصحاب النبي ﷺ يحرصون كل الحرص على تتبّع أفعاله وأقواله ، وأحواله وآدابه وأخلاقه ، ليتبعوه في ذلك ، بل كانوا يحرصون كل الحرص على تتبُّع عاداته ﷺ ، لأنّ عادات السادات هي سادات العادات ، فكيف بعادات سيد السادات عليه أفضل الصلوات والتسليمات ؟ !

قال العلامة السنوسي رحمه الله تعالى في شرح مقدمته : وقد عُلم من دين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ضرورة اتباعه ﷺ من غير توقّف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله ، إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ ، فقد خلعوا

تعالهم لما خلع نعله ﷺ ، ونزعوا خواتيمهم الذهبية لما نزع ﷺ خاتم الذهب ، وحسر أبو بكر وعمر في قصة جلوسهما على البئر كما فعل عليه السلام ، وكاد يقتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق ، عندما رأوا النبي ﷺ يحلق رأسه الشريف وحَلّ من عمرته في قضية الحديبية ، وكان الصحابة يبحثون البحث العظيم عن هيئات جلوسه ﷺ ونومه ، وكيفية أكله وشربه ، وغير ذلك ليقتدوا به . ا هـ . بل كانوا يحبون ما يحبه ﷺ من الطعام (١) ويكرهون ما يكره (٢) .

وقد ذكرنا في كتابنا هذا جانباً من جوانب أخلاقه ﷺ وآدابه وأعماله وأقواله ، وأذكاره وعباداته ، ليقتدى به في ذلك ﷺ .

الوجه الثالث : أن الله تعالى أوجب على المؤمنين أن يحبوا النبي ﷺ فوق محبة الآباء والأبناء ، والأزواج والعشيرة ، والتجارة والأموال ، وأوعد من تخلف عن تحقيق ذلك بالعقاب ، فقال سبحانه : « قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها ، وتجارة تخشَوْنَ كسادها ، ومساكنُ ترضَوْنها ، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » . ولا ريب أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال ، كما قرره الإمام الغزالي رضي الله عنه وغيره .

فإذا كان الرجلُ يُحَبُّ لكرمه ، أو لشجاعته ، أو لحلمه ، أو لعلمه ، أو لتواضعه ، أو لتعَبّدِه وتقواه ، أو لزهده وورعه ، أو لكمال عقله أو وفور

---

(١) كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن خياطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه ، قال أنس : فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام ، فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً من شعير ومرقاً فيه دباء — أي قرع — فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء فلم أزل أحبه من يومئذ .

(٢) كما ورد في صحيح مسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه لما صنع طعاماً للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثوم ، فقيل لأبي أيوب : لم يأكل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أحرام هو ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ، ولكني أكرهه » قال أبو أيوب : فإني أكره ما تكره . . . الحديث .

فهمه ، أو جمال أدبه ، أو حسن خلقه ، أو فصاحة لسانه ، أو حسن معاشرته ، أو كثرة برّه وخيره ، أو لشفقته ورحمته أو نحو ذلك من صفات الكمال . . .
فكيف إذا تأصّلتْ واجتمعت هذه الصفات الكاملة وغيرها من صفات الكمال ، في رجل واحد ، وتحقّقتْ فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال ، على أكمل وجوهها ، ألا وهو السيد الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، الذي هو مجمع صفات الكمال ومحاسن الخصال ، قد أبدع الله تعالى صورته العظيمة ، وهيئته الكريمة ، وطوى فيه أنواع الحسن والبهاء ، بحيث يقول كل من نعته : لم يُرَ قبله ولا بعده مثله .

ولذلك كان من الواجب على المكلف أن يتعرف إلى جمال هذا الرسول الكريم ، ومحاسنه الخلقية ، وكمالاته النفسية والروحية ، والقلبية والعقلية والعلمية . وذلك لينال مقام محبته الصادقة ، لأنّ المعرفة هي سبب المحبة ، فكلما زادت المعرفة بمحاسن المحبوب ، زادت المحبة له ، قال سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت خالي هند بن أبي هالة — وكان وصّافاً — عن حِلْيَة النبي ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . . . الحديث ، كما سيأتي .

الوجه الرابع : أن اطلاع الإنسان على أوصافه ﷺ العظيمة وشمائله الكريمة — ليُعطي صورةً علميةً تنطبع في القلب ، وترتسم في المخيلة ، كأنه قد رأى محبوبه ﷺ .
فقد كان ﷺ يذكر لأصحابه أوصاف الرسل قبله ويقرّب إليهم ذلك بأشباههم ، حتى إنهم يصيرون بحال كأنهم قد رأوهم ، وذلك أقرب سبيل للتعرف بهم ، وأقرب طريق للتحبب فيهم .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسري بي لقيتُ موسى قال — الراوي — : فنعته النبي ﷺ — أي وَصَفَه — رَجِل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيتُ عيسى ، فنعته ﷺ فقال :

رَبْعَةً أحمرَ ، كأنما خرج من ديماس — يعني الحمام — ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . . » الحديث .

الوجه الخامس : أن في ذكر شمائله ﷺ وسماع أوصافه ونعوته ، تحيا قلوب المحبين ، وتطرب أرواحهم وعقولهم ، ويزداد حبهم ، ويتحرك اشتياقهم .

قال العارف الكبير الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

ألا إن تَذكار الأحبة ينعشنا ونحيا بذكراكمْ إذا لم نراكُمُ

إذا نحن أيقاظ وفي النوم إن غبنا فلولا معانيكم تراها قلوبنا

ولكنَّ في المعنى معانيكمُ معنا لمتنا أسىً من بُعدكم وصبابةً

ولولا هواكم في الحشا ما تحرّكنا يحرّكنا ذكر الأحاديث عنكمُ

ويرحم الله القائل :

أخلايَ إن شطَّ الحبيب ورَبْعه وعزَّ تلاقيه وناءتْ منازلهْ

وفاتكمُ أن تنظروه بعينكم فما فاتكم بالسمع هذي شمائله

صلى اللهُ عليه وسلم

حول محاسن صورته الشريفة ﷺ

اعلم — علمنا الله تعالى وإياك — أن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية . وأكمل خِلقة آدمية ، فهو ﷺ مجمع المحاسن المبدّعات ؛ والفضائل والكمالات الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة ، وقد أجمعت كلمة الذين رأوه ووصفوه ؛ على أنه ﷺ لم يُرَ له مثيل سابق ولا نظير لاحق .

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . . متفق عليه .

وعنه رضي الله عنه أنه قال : كان النبي ﷺ مربوعاً . بعيد ما بين المنكبين . له شَعَر يبلغ شحمة أذنيه . رأيته في حُلةٍ حمراء . لم أر شيئاً قطُّ أحسنَ منه ﷺ . رواه مسلم .

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل . ضخم الرأس . شثْن الكفين والقدمين . مُشْرَباً وجهه بحمرة . طويلَ المسرُبة ، إذا مشى تكفأ كأنما يقلع من صخر . لم أر قبله ولا بعده مثله . . رواه الإمام أحمد .

وعن علي رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسول الله ﷺ قال : لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل المُمغَّط . ولا بالقصير المتردّد . وكان رَبْعة من القوم . ولم يكن بالجَعْد القَطَط . ولا بالسبْط . كان جعْداً رَجِلاً . ولم يكن بالمطهم ولا بالمُكلثَم . وكان في وجهه تدوير . أبيضُ (١) . مُشْرب بحمرة . أدعج العينين . أهدب الأشفار . جليلُ المشاش والكَتَد . أجردُ . ذو مَسْرُبةٍ . شثْن الكفين والقدمين : إذا مشى تقلعَ كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ . وإذا التفتَ التفتَ معاً . بين كتفيه خاتَم النبوّة وهو خاتم النبيين . أجودُ الناس صدراً . وأصدقُ الناس لهجةً وألينهم عريكةً . وأكرمهم عِشْرَةً . من رآه بديهةً هابه . ومن خالطه معرفةً أحبه . يقول ناعته : لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه (٢) .

---

(١) وأما ما ورد في بعض الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان أسمر : فقد أعله الحافظ العراقي بالشذوذ . وقال : هذه اللفظة – يعني أسمر – انفرد بها حميد عن أنس ، ورواه غيره من الرواة عن أنس بلفظ « أزهر اللون » وقد ورد وصف لونه صلى الله عليه وسلم بالبياض عن خمسة عشر صحابياً كما نب عليه المحققون .

(٢) قال الحافظ أبو عيسى الترمذي بعدما روى هذا الحديث : سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين يقول : سمعت الأصمعي يقول في تفسير صفة النبي صلى الله عليه وسلم :

الممغط : الذاهب طولا ، وقال : سمعت أعرابياً يقول في كلامه : تمغط في نشابته أي مدها مداً شديداً . فهو اسم مفعول من التمغيط ، كما حكاه في « جامع الأصول » عن المحدثين . وقال القسطلاني : الممَّغِط بتشديد الميم الثانية وبكسر الغين ، اسم فاعل ، وأصله : منمغط ، فقلبت النون ميماً وأدغمت . ا هـ من شرح المواهب باختصار ٤ : ١٩٩ .

وروى البيهقي وغيره (١) أن رسول الله ﷺ ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي ، فمرُّوا بخيمة أمِّ معبدٍ عاتكة بنت خالد الخزاعية — وكانت أمُّ معبد امرأةً برزة (٢) جلدة — أي قوية — تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي (مَن يمر بها) فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك ، وقالتْ : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى — أي ما أحوجناكم بل كنا نضيفكم — وإن القوم مُرمِلون مُسنتون (٣) فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كِسر — أي جانب — خيمتها فقال : « ما هذه الشاة يا أمَّ معبدٍ ؟ » . فقالتْ : شاة خلَّفها الجهد (٤) عن الغنم فقال ﷺ : « فهل فيها من لبن ؟ » فقالتْ : هي أجهد — أي أضعف — من ذلك ، فقال : « أتأذنين لي أن أحلبها » ؟ فقالت : إن كان بها حَلَب فاحلُبْها — وفي رواية : قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلْباً فاحلُبها — فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ومسحَ ضرعها — وفي رواية :

= المتردد : الداخل بعضه في بعض قصراً .

وأما القطط : فالشديد الجعودة . والرجل : الذي في شعره حجونة أي : تثن قليلا .

وأما المطهم : فالبادن الكثير اللحم . والمكلثم : المدور الوجه . والمشرب : الذي في بياضه حمرة .

والأدعج : الشديد سواد العين . والأهدب : الطويل الأشفار . أي طويل شعر الأشفار لأن الأشفار هي الأجفان التي تنبت عليها الأهداب .

والكتد : مجتمع الكتفين ، وهو الكاهل . والمسربة : هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة . والشثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . والتقلع : أن يمشي بقوة . والصبب : الحدور ، يقال : انحدرنا في صبوب وصبب . وقوله : جليل المشاش يريد رؤوس المناكب . والعشرة : الصحبة ، والعشير : الصاحب . والبديهة : المفاجأة . يقال بدهته بأمر أي فجأته به . ا هـ .

(١) ورواه الحاكم وصححه وصاحب الغيلانيات وابن عبد البر وابن شاهين وابن السكن والطبراني وغيرهم . اهـ من الزرقاني على المواهب ، وقال ابن كثير : وقصة أم معبد الخزاعية مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً ا هـ . ثم أورد هذا الحديث .

(٢) عفيفة جليلة مسنة .

(٣) أي أصابتهم السنة الجدباء .

(٤) أي منعها الهزال عن لحوق الغنم للمرعى .

ظهرها — وذكر اسم الله ودعا بإناءٍ لها يُرِيض الرهط — أي يشبع الجماعة حتى يُرِيضوا [١] — وتفاجّت [٢] ، واجترّت — وفي رواية : ودرّت — فحلب فيه ثجّاً [٣] حتى ملأه ، فسقى أمّ معبد وسقى أصحابه فشربوا عَلَلاً بعد نَهَل ، حتى إذا رووا شرب ﷺ آخرهم وقال « ساقي القوم آخرهم شرباً » ثم حلب ﷺ فيه ثانياً عوداً على بدءٍ فغادره — أي تركه — عندها — وفي رواية : قال لها ﷺ : « ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك » — .

ثم ارتحلوا ، فقلما لبث — أي ما لبث إلا قليلاً — أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عِجافاً يتساوكن هُزلاً ، مخّهن [٤] قليل ، فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوب في البيت والشاء عازب [٥] ؟ ! فقالت : لا والله إلاّ أنه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كذا وكذا — وفي رواية : كيت وكيت — فقال : صفيه لي يا أمّ معبد ، فقالت : رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة ، حسن الخَلق ، مليح الوجه ، لم تَعِبْه ثَجْلة [٦] ، ولم تُزْرِ به صَعْلة [٧] ، قسيم وسيم [٨] ، في عينيه دَعَج [٩] ، وفي أشفاره وَطَف [١٠] ، وفي صوته صَحَل [١١] ، أحْوَر [١٢] ، أكحل [١٣] ، أزجُّ [١٤] ، أقرن [١٥] ، في عنقه سطع [١٦] ، وفي لحيته كثاثة ،

(١) أي حتى يرووا من اللبن ويثقلوا فيناموا .

(٢) أي فتحت ما بين رجليها .

(٣) الثج : هو السيلان .

(٤) المخ : هو الودك الذي في العظم .

(٥) أي بعيدة عن المرعى .

(٦) الثجلة : بفتح الثاء وسكون الجيم : عظم البطن .

(٧) الصعلة : بفتح الصاد وسكون العين : صغر الرأس .

(٨) صفتان تدلان على الحسن .

(٩) الدعج : شدة سواد حدقة العين .

(١٠) الوطف : مفتوح الطاء : كثرة شعر الحاجبين والعينين .

(١١) الصحل : بفتح الصاد والحاء : هو كالبحة في الصوت .

(١٢) الحور : أن يشتد بياض العين وسواد سوادها ، هو المحمود والمحبوب .

(١٣) الكحل : بفتحتين : سواد في أجفان العين خلقة .

(١٤) الأزج : هو دقيق طرف الحاجبين .

(١٥) الأقرن : هو مقرون الحاجبين ، ولكن هذا مخالف لحديث هند بن أبي هالة الذي سيأتي ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، وهو المشهور ، وقد يجاب عن هذا بأن بين الحاجبين الشريفين شعراً خفيفاً يظهر إذا وقع عليه غبار السفر ، وحديث أم معبد كان في حال السفر . اهـ. ملخصاً من شرح المواهب .

(١٦) أي ارتفاع وطول .

إذا صمت فعليه الوقار . وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، كلامه فصل لا نزر [١] ولا هذر [٢] . كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجمله من بعيد ، وأحسنه من قريب ، ربعة ، لا تَشْنَؤه [٣] عين من طول ، ولا تقتحمه [٤] عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قداً ، له رفقاء يَحفون به : إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود [٥] ، لا عابس ولا مفنِّد [٦] .

فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفتُه لالتمست أن أصحبه — وفي رواية : لو رأيته لاتبعته — ولأجهدنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا . ثم هاجرت مع زوجها إلى النبي ﷺ وأسلما [٧] .

وروى مسلم والترمذي عن الجُرَيري — بالتصغير — أنه قال لأبي الطفيل : رأيتَ رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم . قلت : كيف رأيته ؟ — وفي رواية الترمذي : فقلت : صفه لي — فقال : كان رسول الله ﷺ أبيضَ مليحَ الوجه — وفي رواية : أبيض [٨] مليحاً مقصَّداً [٩] .

---

(١) النزر : بسكون الزاي : هو القليل .

(٢) الهذر بفتح الذال : الكثير .

(٣) أي لا يبغض لفرط طوله ، والمراد ليس فيه طول مبغوض إلى النفوس .

(٤) أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً .

(٥) محفود : أي مخدوم ، والمحشود الذي عنده حشد وهم الجماعة .

(٦) المفند : الذي يكثر اللوم .

(٧) انظر شرح المواهب وتاريخ ابن كثير .

(٨) يعني أيضاً مشرباً بحمرة كما دلت عليه بقية الروايات .

(٩) أي متوسطاً في جميع أوصافه ، والوسط هو مجمع كمال الطرفين المتقابلين .

تلألؤ وجهه المنير واشراق مُحياه

كان ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم مُحيا ، اجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول الله ﷺ ، على أنه ﷺ ، كان منير الوجه ، مُشرِق المحيا . يتلألأ بالنور الباهر ، والضياء الزاهر ، والبهاء الظاهر ..

فمن الصحابة من ضرب المثل لبهاء نوره ﷺ بالشمس ، ومنهم من شبه ذلك بالقمر ، ومنهم من شبّه لمعة إشراقات وجهه الشريف بلمعة القمر . وجميع هذا مما يثبت لنا إشراقات وجهه الظاهرة ، وأنواره الباهرة ﷺ .

وإليك الأحاديثَ الساطعة والأدلةَ القاطعة :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ، كأنَّ الشمس تجري في وجهه [1] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : وكانو ا يقولون : هو كما وصفه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه :

أمينٌ مصطفى للخـــير يدعو ... كضوء البدر زايله الظـــلام

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للرُّبيِّـع بنت معوِّذ : صفي لنا رسول الله ﷺ فقالت : يا بنيَّ لو رأيتَه لرأيتَ الشمس طالعة . رواه الترمذي والبيهقي وغيرهما .

---

(١) ورواه الإمام أحمد والبيهقي وابن حبان وابن سعد .

قال عمرو بن سالم الخزاعي حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهو صلى الله عليه وسلم بين أصحابه في المسجد — يستنصره على قريش لما نقضوا العهد

يا رب إني ناشـد محمـداً ... حلف أبينـا وأبيـه الأتلدا

قد كنتم ولداً وكنـا والـداً ... ثمـة أسلمنـا ولم ننزع يـدا

فانصر هـداك الله نصراً أبـداً ... وادع عبـاد الله يأتوا مـددا

فيهم رسول الله قد تجـردا ... أبيض مثـل البدر يسمو صعدا

وروى الترمذي من حديث هند بن أبي هالة من رواية الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت خالي هند بن أبي هالة — وكان وصافاً — عن حلية النبي ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . . الحديث كما سيأتي .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان (١) وعليه حُلة حمراء فجعلتُ أنظر إليه وإلى القمر فلهوَ عندي أحسن من القمر . رواه الترمذي .

وعن أبي إسحاق السَّبيعي أنه قال : سأل رجل البراء بن عازب : أكان وجه رسول الله ﷺ مثلَ السيف ؟ (٢) فقال : لا ، بل مثل القمر . رواه البخاري والترمذي .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه وقال رجل : كان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف ؟ فقال جابر : لا بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً (٣) .

وفي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر . . الحديث .

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهَمْداني (٤) عن امرأة من همْدان سماها (أبو إسحاق) قالت : حججتُ مع رسول الله ﷺ مرات ، فرأيتُه على بعير له يطوف بالكعبة ، بيده محجن عليه بُردان أحمران ، يكادُ يَمَسُّ شعره منكبه إذا مرَّ بالحجر استلمه بالمحجن ، ثمَّ يرفعه إلى فيه فيقبِّله ، قال أبو إسحاق : فقلتُ لها : شبهيه ﷺ فقالت : كالقمر ليلة البدر لم أرَ قبله ولا بعده مثله .

---

(١) يقال : ليلة ضحيا وإضحيان وهي : المقمرة من أولها إلى آخرها .

(٢) أي : أهو مثل السيف في اللمعان والإضاءة ؟

(٣) يعني أن وجهه صلى الله عليه وسلم مثل الشمس في الإشراق والضياء ومثل القمر في الملاحة والبهاء وفيه استدارة ، صلى الله عليه وسلم ، كما في شرح المواهب .

(٤) هو السبيعي المتقدم ، وهو تابعي جليل روى له الأئمة الستة .

ولما قدم ﷺ المدينة جعل أهلها يتناشدون :

طلع البــدر علينـــا من ثنيـــات الوداعِ
وجب الشكر علينـــا ما دعـــا لله داع
أيهـــا المبعوث فينا جئت بالأمر المطـــاعِ

فوجهه ﷺ المشرق بالأنوار ، والفياض بالمعاني والأسرار ، دليل ساطع وبرهان قاطع على أنه رسول الله تعالى حقاً وصدقاً .

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : أوّل ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه — أي أسرعوا إليه — فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه ﷺ واستبنته — أي تحققته وتبينته — عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب — أي بل هو وجه إمام المرسلين — . قال : فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : « أيُّها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذي وصححه .

ومن أجل ذلك قال عبد الله بن رواحة :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيِّنــةٌ كانت بديهتُـه تُنبيك بالخبرِ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم لوناً ، لم يصفه واصفٌ قطُّ إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر ، وكان عرقُه في وجهه مثلَ اللؤلؤ وأطيبَ من المسك الأذفَر . رواه أبونعيم وغيره .

وفي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهـه ثِمال اليتامى عصمةَ للأرامل

وروى ابن عساكر وأبو نعيم والخطيب بسند حسن ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل والنبي ﷺ يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهتُّ ، فقال : « مالكِ بُهِتِّ ! » قلت : جعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهُذَلي لعلم أنك بشعره أولى حيث يقول :

ومُبَرّأً من كل غُبرَ حيضَةٍ وفسادِ مرضعَةٍ وداءِ مُغيل [١]
وإذا نَظَرتَ إلى أسِرَّةِ وجهه بَرَقتْ بُروقَ العارض المتهلل

وذكر ابن أبي خيثمة : كان ﷺ أجلى الجبين ، إذا طلع جبينه بين الشعر أو طلع من فلق الشعر . أو عند الليل ، أو طلع بوجهه على الناس ، تراءى جبينه كأنه هو السراج المتوقِّد يتلألؤ . وكانوا يقولون هو ﷺ كما قال شاعره حسان رضي الله عنه :

متى يبدُ في الليل البهيم جبينُه يَلُح مثلَ مصباحِ الدُّجى المتوقِّدِ
فمن كان أو من قد يكون كأحمدٍ نظامٌ لحقٍ أو نكالٌ لملحد

وفي حديث طارق بن عبد الله المحاربي — كما في « سنن الدارقطني » — قال : قالت الظعينة : « لا تلاوموا . فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه » تعني بذلك وجه رسول الله ﷺ .

عرقه الشريف وطيب رائحته

كان من صفاته ﷺ : أنه طيِّب الرائحة وإن لم يمسَّ طيباً ، ومع ذلك كان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات . ليسنَّ ذلك لأمته فيتبعوه ، ولأنه حُبِّب إليه الطيب . كما في الحديث الذي رواه الترمذي أن النبي ﷺ قال : « حُبِّب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء . وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة » .

ومما يدل على أن طيب الرائحة كان صفة له ﷺ وهي أطيب الطيب كله ، وأن رائحته الزكية أطيب من النفحات العنبرية والمسكية : ما ورد في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : ما شممتُ عنبراً قطُّ ، ولا مسكاً ، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ، ولا مسستُ شيئاً قط : ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ . رواه الشيخان وغيرهما ، وفي رواية الترمذي : قال أنس : ولا شممتُ مسكاً قطّ ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ .

---

(١) أي : لم تحمل به في بقية حيض ولا حملت بغيره حالة رضاعه ، فيفسد رضاعه ، كما في شرح المواهب .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أزهر اللون ، كأنه عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، ولا مسستُ ديباجةً ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ، ﷺ ؛ رواه مسلم

وروى أبو نعيم والخطيب أن آمنة أم رسول الله ﷺ لما ولدته قالت : ثم نظرت إليه فإذا هو كالقمر ليلة البدر ؛ ريحه يسطع كالمسك الأذفَر .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى — يعني صلاة الظهر — ثم خرج إلى أهله وخرجت معه ؛ فاستقبله ولدانٌ — أي صبيان — فجعل ﷺ يمسح خدّيْ أحدهم واحداً واحداً . قال جابر : وأما أنا فمسح خدّي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار [١] . رواه مسلم .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي جُحيفة أن النبي ﷺ توضّأ وصلى الظهر ثم قام الناس ، فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم ، قال : فأخذت يده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك . وأصل الحديث في الصحيحين .

فانظر يا أخي في هذه الأحاديث فإنها تدل دلالة واضحة على طيب رائحته طيباً ذاتياً محمدياً صِرفاً ؛ أكرمه الله تعالى به في جملة صنوف الإكرام والإنعام .

تطيُّب الصحابة بعرق النبي ﷺ وتبرُّكهم به

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : دخل علينا النبي ﷺ فقال [٢] عندنا ؛ فعرق فجاءت أمي (أم سُلَيم بنت مِلحان) بقارورة [٣] فجعلت تسلت العرق فيها . فاستيقظ النبي ﷺ فقال : « يا أم سُلَيم ما هذا الذي تصنعين ؟ » قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب .

---

(١) جؤنة العطار : بضم الجيم وهمزة بعدها وقد تخفف بإبدالها واواً ؛ وهي سليلة مستديرة مغشاة كالسفط يجعل فيها العطار عطره .

(٢) أي : فنام وقت القيلولة وهي نصف النهار .

(٣) وهي إناء من زجاج يوضع فيه الطيب وقد يطلق على غير الزجاج .

وروى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها [١] وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأُتِيَتْ فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه ﷺ على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت أم سُليم عتيدتها [٢] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع [٣] النبي ﷺ فقال : « ما تصنعين يا أم سُليم ؟ » ، فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . فقال : « أصبت » .

وروى مسلم عن أنس عن أم سليم أن النبي ﷺ كان يأتيها فيَقيل عندها — أي ينام في وقت القائلة — فتبسط له نِطْعاً فيقيل عليها [٤] ، وكان النبي ﷺ كثير

---

(١) وكانت محرماً له صلى الله عليه وسلم .

(٢) هو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعز عليها من متاعها .

(٣) أي : استيقظ من نومه .

(٤) قال الإمام النووي في شرحه على هذا الحديث : إنها كانت محرماً له صلى الله عليه وسلم ، ففيه الدخول على المحارم والنوم عندهن ا هـ . وقال أيضاً في « تهذيب الاسماء » : أم سليم : اختلف في اسمها ، فقيل : سهلة ، وقيل : رملة ، وقيل : أنيسة ، وقيل : رميثة ، وقيل : الرميصاء ، وهي بنت ملحان — بكسر الميم وقيل بفتحها — وهي أم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا خلاف في هذا بين أهل العلم ، ثم قال : وكانت أم سليم هذه وأختها خالتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الرضاع ، وكانت من فاضلات الصحابيات ا هـ ، فلا ينبغي أن يتوهم من حديث أم سليم أنه صلى الله عليه وسلم كان يخلو بامرأة أجنبية عنه ، فإن أم سليم كانت محرماً له ، خالته من الرضاع .

بل انه صلى الله عليه وسلم قد تبرأ من ذلك الوهم ونفى عنه أن يظن به ذلك ، ففي الصحيحين عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب — أي أرجع — فقام معي ليقلبني — أي يودعني من حيث جئت — فر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على رسلكما — أي مهلكما دون إسراع — إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً — أو قال : شيئاً » ، وفي هذا تشريع لأمته من بعده أن أحدهم مها ارتفعت درجته وطابت نفسيته فإنه لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية أصلا .

العرق ، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير ، فقال النبي ﷺ : « يا أم سليم ما هذا؟ » قالت : عرقك أدرف [١] به طيبي ، وفي رواية أحمد: فدعا لها بدعاء حسن .

وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت : كنا عند عتبة أربع نسوة — أي زوجات له — فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب ، لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمسُّ عتبة الطيب إلا أن يمسّ دهناً يمسح لحيته ، ولهو أطيب ريحاً منا ، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا : ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة ، فقلتُ له يوماً : إنا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيبُ ريحاً منا ، فممّ — أي من أيّ سبب — ذلك ؟ فقال عتبة : أخذني الشّرَى [٢] على عهد رسول الله ﷺ ، فأتيته فشكوت ذلك إليه ﷺ فأمرني أن أتجرّد ، فتجرّدت عن ثوبي ، وقعدت بين يديه وألقيت ثوبي على فرجي [٣] فنَفَثَ رسول الله ﷺ في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده ، فعبق [٤] بي هذا الطيب من يومئذٍ [٥] .

وأخرج أبو يعلى والطبراني من حديث أبي هريرة في قصة الذي استعان بالنبي ﷺ على تجهيز ابنته فلم يكن عنده شيء فاستدعى ﷺ بقارورة — أي إناء صغير — فسلَتَ له فيها من عرقه وقال له : « مُرها فلتتطيبْ به » فكانت إذا تطيبت به شمّ أهل المدينة رائحة ذلك الطيب فسُمُّوا بيت المطيَّبين . ا هـ ، من فتح الباري .

طيب العلوي ﷺ ينفع كل شيء مسه وكل طريق مرّ فيه

روى الطبري والبيهقي عن وائل رضي الله عنه قال : لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمسُّ [٦] جلدي جلده ، فأتعرّفه [٧] بعدُ في يدي ، وإنه لأطيب رائحة من المسك .

---

(١) بالدال المهملة وبالمعجمة كما قال النووي .

(٢) هو مرض في الجلد يورث الحكة .

(٣) يعني أنه ستر عورته كلها .

(٤) لازمه ولزق به .

(٥) رواه الطبراني في الكبير والصغير .

(٦) « أو » للتنويع فهو يخبر عن حالتين .

(٧) أي فأعرف أثره بعد مفارقته لي .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت كفُّ رسول الله ﷺ ألين من الحرير، وكأنَّ كفه كفُّ عطارٍ، مسها بطيب، أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصغير فيُعرف من بين الصبيان بريحها. رواه أبو نعيم والبيهقي.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة. وجدوا منه رائحة الطيب، وقالوا: مرَّ رسول الله من هذا الطريق. رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان في رسول الله ﷺ خصال، لم يكن يمرُّ في طريق فيتبعه أحد، إلاَّ عرف أنه ﷺ سلكه، من طيب عرقه وعَرْفه [1]، ولم يكن يمرُّ بحجر إلاَّ سجد له. رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم [2].

ويرحم الله القائل:

ولو أن ركباً يمَّموك لقادهم   نسيمك حتى يَستدلَّ به الركب

وفي المسند عن وائل بن حُجر أن النبي ﷺ أتي بدلوٍ من ماء فشرب منه. ثم مجّ في الدلو، ثم في البئر، ففاح منه مثل ريح المسك.

حول خصائص ريقه الشريف ﷺ

لقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ خصائص كثيرة في ريقه الشريف، ومن ذلك: أن ريقه ﷺ فيه شفاء للعليل. ورواء للغليل، وغذاء وقوة وبركة ونماء...

فكم داوى ﷺ بريقه الشريف من مريض فبرىء من ساعته!.

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب اللهَ ورسوله، ويحبه

---

(١) عرقه: بالقاف، وعرفه بالفاء، وهو ريحه الطيب.

(٢) انظر المواهب.

الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول الله وكلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال ﷺ : « أين عليّ بن أبي طالب ؟ » فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » ، فأُتي به ، وفي رواية مسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ ، فجئت به أقوده أرمد ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، فبرىء كأنه لم يكن به وجع . . . الحديث .

وفي زوائد ابن حبان عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي يقول : إن رسول الله ﷺ تفَل في رِجل عمرو بن معاذ حين قُطعتْ رجله فبرأ .

وإن ريقه الشريف ﷺ غذاء للمغتذي ، كما روى البيهقي في الدلائل أن النبي ﷺ كان يوم عاشوراء يدعو برضعائه — أي صبيانه الذين ينسبون إليه — وبرُضعاء ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فيتفل في أفواههم ويقول للأمهات : « لا ترضعنهم إلى الليل . . . » فكان ريقه ﷺ يكفيهم عن الرضاع .

وأعطى النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه لسانه ، وكان قد اشتدّ عليه الظمأ ، فمصه حتى روي ، كما رواه ابن عساكر .

وروى الطبراني وأبو نعيم أن عميرة بنت مسعود الأنصارية وأخواتها دخلن على النبي ﷺ يبايعنه ، وهنّ خمس، فوجدْنه يأكل قديداً ، فمضغ لهن قديدةً . قالت عميرة : ثم ناولني القديدة فقسمتها بينهن ، فمضغت كل واحدة قطعة فلقينَ الله تعالى وما وجد لأفواههنّ خلوف — أي تغيُّر رائحة فم — .

نظافته ﷺ وأمره بالنظافة

كان ﷺ أنظفَ خلق الله تعالى بدناً وثوباً وبيتاً ومجلساً : فلقد كان بدنه الشريف ﷺ نظيفاً وضيئاً ، كما تقدم في حديث هند بن أبي هالة أنه ﷺ « أنور المتجرِّد » وذلك أن أعضاءه المتجرّدة عن الشعر والثوب ، هي في غاية الحسن ، ونصاعة اللون ، وفي هذا دليل نظافته ﷺ ، وكما ورد في الحديث : كأنّ عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة .

وروى الترمذي عن أبي الطفيل أنه قال : كان رسول الله ﷺ أبيضَ مليحاً مقصّداً — أي متوسطاً بين الطول والقصر — .

وروى الترمذي عن ابن أبي جحيفة عن أبيه قال : رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمراء ، كأني أنظر إلى بريق ساقيه . وذلك لأن ثوبه ﷺ كان إلى أنصاف ساقيه تحت الركبة . وإن طيب عَرْفه وعرقه ﷺ لهو أكبر دليل على نظافة جسمه ﷺ .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألينَ من كف النبي ﷺ ، ولا شممت ريحاً قطّ أو عَرْفاً — وفي رواية : أو عرقاً — أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ (١) .

وعن أبي قِرصافة قال : لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ، ورجعنا من عنده منصرفين ، قالت لي أمي وخالتي : يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل ، ولا أحسنَ منه وجهاً ، ولا أنقى ثوباً ، ولا ألين كلاماً ، ورأينا كأنّ النور يخرج من فيه (٢) .

فهو ﷺ أنظف خلق الله بدناً وأنقاهم ثوباً ، وكان ﷺ يستاك حين خروجه ودخوله منزله .

أمره بالنظافة

كان ﷺ يأمر بالنظافة ويحثّ عليها ، ويحذّر من الوساخة ، وقد جاء ذلك منه على وجوه متعدّدة .

أولاً : بيانه ﷺ أن من مبادىء الإسلام النظافة :

روى الترمذي عن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى

---

(١) العرف هو الريح الطيب .

(٢) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم اهـ .

طيِّب [١] يحب الطيِّب ، نظيف [٢] يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جَواد [٣] يحب الجود ، فنظِّفوا أفنيتكم ولا تشبَّهوا باليهود » .

وعن سليمان بن صُرَد أن رسول الله ﷺ قال : « استاكوا وتنظفوا ، وأوْتروا فإنَّ الله عز وجلَّ وتر يحب الوتر » [٤] .

وروى الخطيب وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إنَّ الإسلام نظيف ، فتنظفوا ، فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « تنظفوا بكل ما استطعتم فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف » [٥] .

ثانياً : حثُّه ﷺ على نظافة البدن بشتى وسائل النظافة :

فمن ذلك : أمره ﷺ بالغُسل وتحذيره من ترك ذلك .

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « على كلِّ رجلٍ مسلم في كل سبعة أيام غُسل يوم ، وهو يوم الجمعة » [٦] .

ومن ذلك : حثه ﷺ على تعهد أطراف البدن بالنظافة ، وإزالة الأوساخ عنها ، وأن ذلك من الفطرة الدينية التي جاءت بها جميع الرسالات الإلهية .

---

(١) أي : منزه عن النقائص ومقدس عن الآفات والعيوب ، يحب الطيب أي الحلال الذي يعلم أصله وجريانه على الوجه الشرعي العاري عن ضروب الحيل وشوائب الشبه . اهـ من فيض القدير .

(٢) قال العلامة الخفاجي : وإطلاق « النظيف » على الله تعالى في الحديث ولم يذكره أحد من أسمائه تعالى ، كما قيل وقع للمشاكلة ، والمتقدمون يسمونها ازدواجاً أيضاً ، فلا وجه للاعتراض عليه ، وقيل إنه بمعنى القدوس ، اهـ ملخصاً .

(٣) بالتخفيف أي كثير الجود والعطاء . اهـ فيض القدير .

(٤) رواه ابن أبي شيبة والطبراني ، وأفاد المناوي أنه حسن لغيره .

(٥) عزاه الخفاجي في شرح الشفاء إلى الرافعي في تاريخ قزوين وقال : وبما ذكرناه من أن الحديث روي من طرق متعددة تجبر ضعفه ، علم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ، ومعناه صحيح موافق للشرع اهـ .

(٦) ورواه النسائي وابن حبان .

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « عشر من الفطرة[1] : قصّ الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقصُّ الأظفار ، وغسل البراجم [2] ، ونتف الإبط [3] ، وحلق العانة ، وانتقاص [4] الماء » .

وقد حذّر النبي ﷺ من إهمال ذلك مدة طويلة ، ففي سنن أبي داود عن حسن رضي الله عنه قال : وقّتَ لنا رسول الله ﷺ في قص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط وحلق العانة ، أن لا تُترك أكثر من أربعين ليلة . يعني أنه إذا دعت الحاجة إلى الترك أو لم يتمكن من الغسل والقص والتقليم في كل أسبوع ، فلا يجوز له أن يؤخر أكثر من أربعين ليلة ، فإنه حينئذٍ آثم ، كما نصّ الفقهاء على ذلك [5] .

غسل اليدين قبل الطعام وبعده

ثالثاً : حثّه ﷺ على التنظف من آثار الطعام والشراب .

روى الحكيم الترمذي عن عبد الله بن بُسْر عن النبي ﷺ أنه قال : « قصُّوا أظافركم ، وادفنوا قلاماتكم ، ونقّوا براجمكم ، ونظفوا لِثاتكم من الطعام

(١) أي من الفطرة الدينية التي فطر الله تعالى العباد عليها ، قال تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » وهي من الأمور التي جاءت بها جميع الرسل واتفقت عليها جميع الشرائع السماوية .

(٢) البراجم : عقد الأصابع في ظهر الكف ، والرواجب عقدها من بطنها .

(٣) أي : نتف شعر الإبط ولا بأس بحلقه .

(٤) قال الشيخ علي القاري في شرح الشفاء : انتقاص الماء هو الاستنجاء ، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة ، والمذكور في اللغة أنه بالقاف والمهملة ، وأما بالفاء فنضحه على الذكر ، اهـ .

(٥) ويستحب دفن الأظفار والشعر ، لما روى الحكيم الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر ، والظفر ، والدم ، والحيضة ، والسن ، والقلفة ، والمشيمة ، وقد روى بعض ذلك الطبراني أيضاً ، كما في الفتح الكبير .

واستاكوا ، ولا تدخلوا عليّ قُحراً بُخراً » [1] .

وروى الترمذي عن سلمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بركةالطعام : الوضوء قبله ، والوضوء بعده » والمراد هنا الوضوء اللغوي ، وهو غسل اليدين ، لا الوضوء الشرعي ؛ وهو غسل الأعضاء المفروضة ، كما دلّ على ذلك حديث الترمذي عن ابن عباس بسند صحيح أن النبي ﷺ قُرِّبَ إليه طعام ، فقالوا . ألا نأتيك بوَضوء ؟ فقال : « إنما أمرتُ بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » .

رابعاً : حثّه ﷺ على نظافة الثياب :

كما روى الطبراني وأبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ « إن من كرامة المؤمن على الله نقاء ثوبه ورضاه باليسير » أي من أمور الدنيا .

وروى أبو نعيم عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال : « أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه ؟ » .

وفي هذا يوبخ ﷺ على وساخة الثياب ، ولم يخاطب ذلك الرجل بخاصّته لئلا يكسر خاطره بمقابلته بما يكره ، وليبين أن الحكم لا يختص به ، بل توبيخه موجه لكل من ترك ثيابه وسخةً .

وكان ﷺ ينهى عن تعريض الثياب للوسخ ، فعن الأشعث بن سليم أنه قال سمعت عمّي تحدث عن عمها قال : بينا أنا أمشي في المدينة إذا إنسان خلفي يقول : « ارفع إزارك،فإنه أنقى [2] — وفي رواية : أتقى — وأبقى » فإذا هو رسول الله ﷺ

---

(١) كذا في الجامع الصغير وفسر المناوي في شرحه الكبير « قحراً » : مصفرة من شدة الخلوف ، وبخراً : من البخر بفتحتين ، وهو نتن الفم ، ثم قال : هكذا الرواية لكن قال الحكيم : المحفوظ عندي قحلا فلجاً ولا أعرف القحر . ا هـ .

(٢) من النقاء ، وهو النظافة ، كما أن رواية « أتقى » تدل على التنزه عن الأوساخ لما أن في ذلك تقوى الله تعالى للبعد عن الخيلاء والكبر ، ا هـ شرح الزرقاني .

فقلت : يا رسول الله إنما هي بُرْدة مَلْحاء (١) . فقال : « أما لك فيَّ أسوة ؟ ! » فنظرت فإذا إزاره ﷺ إلى نصف ساقيه (٢) . أخرجه الترمذي في الشمائل بهذا اللفظ.

خامساً — حثُّه ﷺ على تنظيف البيوت والأفنية . كما تقدم في الحديث : « فنظِّفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » .

سادساً — حثُّه ﷺ على تنظيف الجوامع ، وأن ذلك من القُرُبات وكبار الحسنات .

روى أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « عُرِضتْ عليَّ أجور أمتي حتى القَذاة يُخرجها الرجل من المسجد ، وعُرِضَتْ علي ذنوب أمتي ، فلم أرَ ذنباً أعظم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أوتيها رجل ثم نسيها » .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « عُرِضت عليَّ أمتي بأعمالها ، حسنِها وسيئها ، فرأيت في محاسن أعمالها إماطة الأذى عن الطريق ، ورأيت من سيء أعمالها النخامة في المسجد لم تدفن » .

فتنظيف المسجد حتى من القذاة — وهي : أصغر من الأذى — فيه أجر كبير ، وترك النخامة والأوساخ في المسجد فيه وزر كبير .

وإذا كان المؤمن مأموراً أن يزيل النخامة من المسجد ؛ ولا يجوز له أن يتركها إذا رآها ؛ فكيف يجوز له أن يتنخم فيه أو يوسخ المسجد ؟ ! فإن ذلك أعظم ذنباً ؛ فعلى المسلمين أن يتنظفوا وينظفوا مساجدهم ، حذراً من الوزر وطمعاً في الأجر .

كما وأنه ﷺ حثَّ على تبخير المساجد وتنظيفها وصيانتها .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور ، وأن تُنَظَّف وتُطيَّب (٣) .

---

(١) تأنيث أملح . والملحة : بياض يخالطه سواد ، على ما في الصحاح . قيل : الملحاء هي التي فيها خطوط من سواد وبياض . والمراد أنه ثوب لا يلبس في المجالس والمحافل ، إنما هو ثوب مهنة لا ثوب زينة . اهـ كما في شروح الشمائل .

(٢) وفي هذا إرشاد اللابس إلى الرفق بما يلبسه ، وحفظه وتعهده ، لأن إهماله تضييع وإتلاف .

(٣) قال المنذري : ورواه أحمد والترمذي وصححه وأبو داود وابن ماجه .

وعن سمرة بن جندب أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجد في ديارنا وأمرنا أن ننظفها [1] .

فكان ﷺ يأمر بنظافة المساجد العامة ؛ والمساجد الخاصة التي تُبنى في الدار ليصلي فيها الإنسان نوافله وقيامه ؛ ويعبد ربه فيها ؛ وهي من السنة المطلوبة ؛ كما نص عليه الفقهاء .

سابعاً — حثُّه ﷺ على نظافة الطرق والساحات العامة ونَهيُه عن تلويثها بالأوساخ والمضارّ ؛ وبيانه أن ذلك يعتبر شعبةً من شعب الإيمان التي لا يتم الإيمان إلاّ بها .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون — وفي رواية : وستون — شعبة ، فأفضلها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

فإذا كان المؤمن لا يجوز له بمقتضى إيمانه أن يترك أذىً رآه في الطريق ويمكنه أن يزيله ، وليس ثمة غيره يزيله ، فمن باب أولى وأحقّ وأوجب أنه لا يجوز له أن يلقي الأذى في الطريق .

فاعتبر يا مسلم واعلم بأن نظافة الطريق والشوارع من الإيمان ، وليست هي من التفضل ولا من باب الامتنان .

وقد أمر ﷺ بتنحية الأذى عن الطريق فقال — كما روى ابن حبان عن أبي برزة — : « نَحِّ الأذى عن طريق المسلمين » .

وأوعد من آذى المسلمين في طريقهم ، كما روى الطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم » .

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه . كما في الترغيب .

وروى الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضيَ الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَن غسل سَخيمته [1] على طريق من طرق المسلمين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا اللاعنَيْن » قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟ قال « الذي يتخلى في طرق الناس أو في ظلهم » أي ساحات مجتمعهم وجلوسهم .

وأثنى ﷺ على الرجل يزيل الأذى عن الطريق . روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره ، فشكر الله له ، فغفر الله له » .

فأكرِمْ وأعظِم بهذا النبي الكريم ﷺ الذي جاء بسعادة الدنيا ونظافتها ، وسعادة الآخرة ونضارتها .

ثامناً — إن مشروعية الوضوء والغسل اللذين جاء بهما رسول الله ﷺ لهي أكبر شاهد على أن النظافة هي أصل أصيل في دين الإسلام ، وأنها من أهم المبادىء التي جاء بها رسول الله ﷺ ، فإن في الوضوء والغسل إزالة للنجس ، ورفعاً للحدث ، ونظافة من الوسخ والدنس ، إلى ما هناك من بقية الحِكَم الشرعيَّة ، في إزالتهما آثار الذنوب والخطايا ، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا توضأ العبدُ المسلم — أو المؤمن — فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء — أو مع آخر قطرِ الماء — فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء — أو مع آخر قطر الماء — فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء — أو مع آخر قطر الماء — حتى يخرج نقياً من الذنوب » [2] .

---

(١) المراد بالسخيمة هنا الأقذار والأوساخ ، وإذا كانت حضارة الأمم تطالبهم بنظافة الأبدان والبلدان ، فإن إيمان المؤمنين وشرعهم وحضارتهم الإسلامية تطالبهم بالنظافة على أكمل وجوهها .

(٢) قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه مالك ومسلم والترمذي ، وليس عند مالك والترمذي غسل الرجلين . اهـ .

وهناك حِكَم طبِّيَّة جمَّة مترتبة على مشروعية الوضوء والغسل: من استجمام القوى واستعادة النشاط للبدن، وإزالة آثار الإفرازات الجسمية . إلى ما وراء ذلك مما يطول شرحه..

تاسعاً — إنَّ الأحاديث النبوية الواردة في الحثّ على السواك وبيان آثاره والتحذير من تركه ، لهي أكبر دليل على أن النظافة والرعايات الصحية هي من مبادىء الإسلام . أما آثاره :

فقد روى النسائي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « السواك مَطْهَرَة للفم مرْضاة للربّ » .

وروى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « عليكم بالسواك ، فإنه مَطْيبة للفم : مَرْضاة للرب تبارك وتعالى » .

وأما حثه عليه ﷺ فقد قال : « لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك — أي لفرضته عليهم — مع كل صلاة » رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم بلفظ « عند كل صلاة » والنسائي وابن ماجه وابن حبان بلفظ « لأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة » وفي رواية أحمد « لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء » ، وفي رواية البزار والطبراني « لفرضتُ عليهم السواك عند كل صلاة ، كما فرضت عليهم الوضوء » .

وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعةً بغير سواك » رواه أبو نعيم بإسناد حسن ، كما في ترغيب المنذري .

ولذا كان ﷺ يكثر من استعمال السواك . ففي صحيح مسلم وغيره عن شُرَيح بن هانىء قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته ؟ قالت : بالسواك .

عاشراً — حثه ﷺ على التنظّف والتخلّل بعد تناول الطعام :

فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « حبّذا المتخلّلون من أمتي » قال : وما المتخللون يا رسول الله ؟ فقال :

« المتخللون في الوضوء ، والمتخللون في الطعام ، أما تخليل الوضوء : فالمضمضة والاستنشاق ، وبين الأصابع ، وأما تخليل الطعام : فمن الطعام ، إنه ليس شيء أشدّ على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلي » رواه الطبراني في الكبير ، ورواه الإمام أحمد مختصراً ، كما في الترغيب .

جماله ﷺ

إن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية ، وأكمل خِلْقة آدمية . انطوت فيه جميع المحاسن المبدَعات ، والفضائل والكمالات .

قال الله تعالى : « يزيد في الخلْق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير » فهو سبحانه يزيدُ في كمال الخَلق وجماله ما يشاء أن يزيد ، وقد زاد سبحانه في جمال خَلْقِ هذا النبي الكريم ﷺ ومحاسنه ، حتّى اعتلى ذروة الخَلْق الحسن الكريم كما زاد سبحانه في كمال خُلُقه ﷺ حتّى اعتلى ذروة الخُلُق العظيم ؛ قال سبحانه « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولقد أجمعتْ كلمة الصحابة الذين وصفوه على أنه لم يُرَ قبله ولا بعده مثلَه ﷺ .

قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل ، ضخم الرأس ، شَثْن الكفين والقدمين والكراديس [1] ، مُشْرباً وجهُه بحمرة ، طويل المسرُبة ، إذا مشى تكفأ كأنما يقلع من صخر ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله [2] .

وقال البراء بن عازب : كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير . . . متفق عليه .

---

(١) أي عظيم الكفين والقدمين والكراديس وهي رؤوس العظام .

(٢) رواه أحمد بهذا اللفظ وقد تقدم نحو هذا في رواية الترمذي .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيتُ أحسنَ من رسول الله ﷺ ، كأنَّ الشمس تجري في وجهه ﷺ . رواه الترمذي .

تجمله ﷺ وأمره بذلك

كان ﷺ يتجمل ، ويأمر أصحابه بالتجمل . وكان يؤكد ذلك في المجتمعات والمقابلات عامّة ، وفي الجُمَع والأعياد خاصةً .

روى البيهقي أنه ﷺ كانت له حُلة يلبسها للعيدين والجمعة .

وروى ابن السي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج ذات يوم إلى إخوانه فنظر في كوز من ماء إلى لُمته — أي إلى شعره — وهيئته ثم قال : « إنَّ الله جميل يحب الجمال ، إذا خرج أحدكم إلى إخوانه فليتهيأ في نفسه » [١] .

والتجمل هو : الأخذ بما يحفظ على الإنسان جماله والبعد عما يَشينه في مَنظره وهيئته .

وأخرج أبو نعيم والواقدي عن جندب بن مَكِيث أن النبي ﷺ كان إذا قدم عليه وفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر أصحابه بذلك . فرأيته وفَد عليه وفْد كِنْدة ، وعليه حُلة يمانيَة ، وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك [٢] .

وقد بيَّن النبي ﷺ أن حسن السَّمْت والزيّ الحسن من شمائل الأنبياء وخصالهم الأصيلة .

روى الترمذي عن عبد الله بن سَرجِس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الهَدْي الصالح ، والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوَّة » .

---

(١) انظر شرح المناوي على الجامع الصغير الجزء الثالث .

(٢) انظر الجزء الأول من التراتيب .

وفي رواية مالك في الموطأ : « القَصْد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوَّة » [1] .

وكان ﷺ ينكر على من عرّض هيئته للشّين ؛ ففي الموطأ « باب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها » ثم أسند إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة أنمارٍ ؛ قال جابر : فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ أقبل ؛ فقلت : يا رسول الله هلّمّ إلى الظل ، قال : فنزل رسول الله ﷺ فقمت إلى غَرارةٍ — ظرف شبيه العدل — فالتمست فيها شيئاً فوجدتُ جِروَ قِثّاءٍ [2] فكسرته ؛ ثم قرّبته إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « من أين لكم هذا ؟ » فقلت : خرجنا به يا رسول الله من المدينة .

قال جابر : وعندنا صاحب لنا نجهّزه يذهب يرعى ، قال : فجهّزته ثم أدبر يذهب في الظهر ؛ وعليه بُردان له قد خَلِقا — أي بَليا — قال : فنظر رسول الله ﷺ إليه فقال : « أما له ثوبان غيرُ هذين ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، له ثوبان في العَيْبة [3] كسوته إياهما ، قال : « فادعه ، فمرْه فليلبسهما » قال فدعوته فلبسهما ، ثم ولى يذهب ، فقال رسول الله ﷺ : « ما له ؟ ضُرِب عنقه ، أليس هذا خيراً له ؟ » قال : فسمعه الرجل ، فقال : يا رسول الله في سبيل الله — أي ضرب الله عنقه في سبيل الله — فقال رسول الله ﷺ : « في سبيل الله » قال : فقتل الرجل في سبيل الله .

---

(١) أما السمت الحسن فهو — كما قال المناوي — حسن الهيئة والمنظر . وأصل السمت : الطريق ، ثم استعير الزي الحسن والهيئة المثلى في الملبس وغيره ، وأما الهدي الصالح : فهو السيرةَ السوية والسير الحسن . وأما الاقتصاد أو القصد : فهو التوسط في الأمور والتحرز في طرفي الإفراط والتفريط ، كالجود فإنه وسط بين البخل والإسراف ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وهكذا دواليك . وأما التؤدة : فهي التأني في الأمور ، وعدم الاستعجال فيها ، ليتبين له عواقبها ، وشرها وخيرها .

(٢) أي : وجد في العدل صغاراً من القثاء ، وهو اسم لما يقال له الخيار والعجور والفقوس ، اهـ ، كما في شرح الزرقاني على الموطأ ٤ : ٢٦٨ .

(٣) بفتح العين وسكون التحتية فموحدة : المستودع للثياب .

وعن مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب قال : إني لأحبُّ أن أنظر إلى القارىء أبيضَ الثياب . وقال عمر بن الخطاب : إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم : جمع رجل عليه ثيابه .

وروى أبو نعيم وابن لال وغيرهما عن ابن عمر مرفوعاً : « إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً ، إذا وسَّع عليه وسَّع على نفسه » [١] .

وروى الحاكم بإسناده عن سهل بن الحنظلية عن النبي ﷺ أنه قال : « أحسنو لباسكم ، وأصلحوا رحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناس » [٢] .

وروى الطبراني والبيهقي عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة ، ويكره البؤس والتباؤس ، ويُبغض السائل المُلحِف ، ويحب الحييّ العفيف المتعفف » .

قوة بصره الشريف ﷺ

قال الله تعالى : « ما زاغَ البصرُ وما طغى » . فقد وصفه الله تعالى — وهو ﷺ في المشهد الأعلى — بأنه ما زاغ بصره . أي لم يحَرْ . — وما طغى . أي لم يجاوز المنظور إليه . المتجلِّي عليه . وفي هذا دليل قوة بصره وثباته . لأنّ البصر إذا بهره النور الساطع . إما أن يزيغ ويحار . وإما أن يجاوز المنظور إلى غيره كللاً وضعفاً منه ، فلم يقع منه ﷺ شيء من ذلك ، لما أعطاه الله تعالى من القوة في بصره .

ومن خصائصه البصرية : أنه كان يرى ما لا يرى غيره ، كما في سنن الترمذي وغيرها عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إني أرى ما لا ترون .

---

(١) انظر شرح الزرقاني على الموطأ .

(٢) انظر الفتح الكبير .

وأسمع ما لا تسمعون . . » الحديث . فكان يرى جبريل والملائكة الكرام دون أن تتمثل بصورة .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته ، وله ستمائة جناح ، كلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدّر والياقوت ، ما الله به عليم .

أما رؤيته الملائكة : فمن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ جالساً في الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على النبي ﷺ والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فردَّ النبي ﷺ : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه ، كما يُحِبُّ ربُّنا أن يُحمد وينبغي له . فقال له ﷺ : « كيف قلت ؟ » فردَّ عليه كما قال ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها — أي أسرع إليها — عشرة أملاك ، كلُّهم حريصٌ على أن يكتبها ، فما دَرَوْا كيف يكتبونها ، حتى رفعوها إلى ذي العزَّة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدي » [1] .

ومن ذلك رؤيته الملائكة تغسِّل حنظلة الشهيد رضي الله عنه ، ورؤيته جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين .

كما وأنه ﷺ كان يرى الأبعاد الشاسعة بقوة وعناية ربانية .

ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كذبتني قريش قمتُ في الحِجْر ، فجلى لي الله — أي أظهر لي — بيت المقدس ، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

فهو ﷺ في مكة عند الحِجْر يرى بيت المقدس جلياً

كما وأنه ﷺ أراه الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائي وابن حبان في صحيحه إلا أنهما قالا : « كما يحب ربنا ويرضى » .

ففي صحيح مسلم وغيره عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله زَوَى — أي جمع — لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها . . » الحديث .

وروى الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله تعالى قد رفع ليَ الدنيا ، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه » [1] .

وكان ﷺ يرى من ورائه كما يرى من أمامه .

ففي الصحيحين — واللفظ لمسلم — عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « هل تَرَوْن قِبلَتي هاهنا ؟ فو الله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ثم انصرف ، فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي فإنما يصلي لنفسه ؟ ! إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يديَّ » .

وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ذاتَ يوم ، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال : « يا أيها الناس إني إمامُكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ، ولا بالقيام ولا بالانصراف [2] فإني أراكم أمامي ومن خلفي ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيتُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قالوا : وما رأيتَ يا رسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار » .

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب الجزء السابع .

(٢) بالتسليم آخر الصلاة ، أو المراد به : الخروج من المسجد بعد السلام ، لاحتمال التذكير أو التنبيه على أمر يهمهم .

حول قوة سمعه الشريف ﷺ

إنَّ الله تعالى أعطى رسوله سيدنا محمداً ﷺ قوة في السمع خاصةً ، فكان يسمع ما لا يسمع غيره .

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطّتِ (١) السماء ، وحُقَّ لها أن تئِطَّ . ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضعٌ جبهته لله تعالى ساجداً . واللهِ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى » (٢) .

ومن ذلك سماعه ﷺ فتح باب السماء :

روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا ، فقال : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفّة من دقيق ، ولا كفٌّ من سويق » فلم يكن كلامه بأسرعَ من أن سمع هدَّةً في السماء أفزعته ، فقال ﷺ : « أمر الله تعالى القيامة أن تقوم ؟ » فقال — جبريل — : لا ، ولكن أمر إسرافيل . فنزل إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك ، أسيِّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فإن شئتَ نبياً ملِكاً ، وإن شئتَ نبياً عبداً . فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال : « بل نبياً عبداً — ثلاثاً — فلو أني قلت : نبياً ملِكاً لسارت الجبال معي ذهباً » (٣) .

---

(١) أي ظهر لها صوت من كثرة الملائكة فوقها ، وهو مشتق من الأطيط : صوت الرحل .

(٢) رواه الترمذي وأحمد وغيرهما ، ومعنى تجأرون : تستغيثون وتلجأون .

(٣) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، والبيهقي في الزهد وغيره ، ونحو ذلك أيضاً في شرح الزرقاني ، ثم أورد المنذري رواية ابن حبان في صحيحه أيضاً .

ومن ذلك سماعه عذاب المشركين في قبورهم : روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسولُ الله ﷺ في حائط لبني النجار ونحن معه ، إذ جادتْ به بغلته فكادت تُلقيه ، وإذا أقبُرٌ ستة أو خمسة ، فقال ﷺ : « من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ » فقال رجل : أنا ، فقال : « متى ماتوا ؟ » قال : في الشرك ، فقال ﷺ « إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها ، فلولا أنْ لا تَدافَنُوا ، لدعوتُ اللهَ أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه . . . » الحديث .

فكان ﷺ يسمع عذاب المعذَّبين في قبورهم ، وبيَّن أنه لولا خشية أن لا يَدفن بعضهم بعضاً إذا سمعوا عذاب القبر : لدعا الله أن يسمعهم ذلك ولكن إذا سمعوا عذاب القبر اعتراهم الخوف والفزع ، وذلك مما يؤدّي إلى ترك دفن بعضهم مخافةً من سماع ذلك .

ومن ذلك سماعه ﷺ هدّة صخرة هوتْ من شفير جهنم :

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ صوتاً هالَه — أي أفزعه — فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الصوت يا جبريل ؟ » فقال : هذه صخرة هَوَتْ من شفير جهنم ، من سبعين عاماً ، فهذا حين بلغت قعرها ، فأحبَّ الله أن يسمعك صوتها ، فما رُؤِيَ رسول الله ﷺ ضاحكاً مِلء فيه حتى قبضه الله عز وجلّ [1] .

ومن ذلك سماعه ﷺ عذاب المقبورين النمامين والغيابين ، والذين لا يستنزهون ولا يستترون من البول :

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرَّ بحائط من حيطان مكة أو المدينة ، فسمع صوت إنسانين يُعَذّبان في قبورهما ، فقال النبي ﷺ :

---

(١) عزاه الحافظ المنذري للطبراني بهذا اللفظ ، وعزاه الحافظ الزرقاني إلى ابن أبي شيبة برجال ثقات .

« إنهما ليعذبان وما يعذَّبان في كبير [1] . ثم قال : بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله . وكان الآخر يمشي بالنميمة » .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : مرَّ النبي ﷺ في يوم شديد الحر نحو بقيع الغَرْقَد ، وكان الناس يمشون خلفه ، قال : فلما سمع صوت النعال وَقَرَ ذلك في نفسه . فجلس حتى قدَّمهم أمامه . فلمّا مرَّ ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين ، قال : فوقف النبي ﷺ فقال : « مَنْ دفنتم ههنا اليوم ؟ » قالوا : فلان وفلان ، قالوا : يا نبي الله وما ذاك ؟ ! قال : « أما أحدهما فكان لا يتنزَّه من البول ، وأمّا الآخر فكان يمشي بالنميمة » وأخذ جريدةً رطبةً فشقها ، ثم جعلها على القبرين ، قالوا : يا نبي الله لمَ فعلتَ هذا ؟ قال : « ليُخَفِّفَ عنهما » قالوا : يا رسول الله حتى متى هما يعذبان ؟ فقال : « غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمزُّعُ — أي تَقَطُّعُ — قلوبكم وتزيُّدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » .

طول صوته الشريف ﷺ

كان صوت النبي ﷺ على غايةٍ من الحسن ، وقد أعطاه الله تعالى قدرة في الإسماع ، وبلوغ صوته المسافات الشاسعة ، والأماكن الواسعة ، التي لا يبلغها صوت غيره .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : ما بعثَ الله نبياً إلا حسنَ الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً [2] وأحسنهم صوتاً .

---

(١) قال العلامة الخطابي قوله «وما يعذبان في كبير » : إنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما أو يشق فعله لو أرادا أن يفعلاه وهو التنزه من البول وترك النميمة . ولم يرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة في حق الدين ، وأن الذنب فيهما هين سهل اهـ .

(٢) وأما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج ، في يوسف : « فإذا أنا برجل — أي يوسف عليه السلام — أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن ، كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب » — كما في رواية البيهقي والطبراني وابن عائذ — فيحمل ذلك على أن المراد غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده القول بأن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم : « فإذا هو — يوسف — قد أعطي شطر الحسن » . قال ابن المنير : المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم . انظر كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه : قرأ رسول الله ﷺ في العشاء « والتين والزيتون » فلم أسمع صوتاً أحسنَ منه .

وروى أبو الحسن بن الضحاك عن جبير بن مطعم قال : كان النبي ﷺ حسن النغمة (١) .

وفي حديث أم معبد المتقدم : كان في صوته ﷺ صَحَل (٢) .

وكان صوته ﷺ يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره :

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهنّ (٣) .

وعن عبد الرحمن بن معاذ التيمي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتّحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ، ونحن في منازلنا ، فطفق يعلمهم مناسكهم ، حتى بلغ الجمار فوضع أصبعيه السبابتين ثم قال : « ارموا بحصى الخَذْف » (٤)

وروى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس : « اجلسوا » فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني غَنْم (٥) فجلس مكانه (٦) .

---

(١) انظر شرح المواهب .

(٢) قال ابن الأثير : الصحل – بفتح الصاد والحاء – كالبحة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

(٣) رواه البيهقي ، والعواتق : جمع عاتق وهي الشابة أول ما تدرك ، وقيل : التي لم تنفصل عن والديها ولم تتزوج ، وقد أدركت وشبت . وأما الخدور : فجمع خدر ، وهو الستر ، ويطلق على البيت إن كان فيه امرأة ، وإلا فلا ، وإنما خصهن البراء بالذكر لبعدهن واحتجابهن في البيوت ، فسماعهن صوت النبي صلى الله عليه وسلم – وهو في المسجد وهن في خدورهن – آية دالة على قوة صوته صلى الله عليه وسلم وبلوغه حيث لا يبلغه صوت غيره اهـ كما في شرح الزرقاني على المواهب .

(٤) رواه أبو داود والنسائي وأحمد ، كما في شرح المواهب .

(٥) بمعجمة مفتوحة فنون ساكنة فميم ، بطن من الخزرج ، كما في شرح المواهب .

(٦) وهذا مبادرة في امتثال أمره صلى الله عليه وسلم مع أنه ليس مأموراً بذلك ، لأن أمره صلى الله عليه وسلم موجه للحاضرين الخطبة بالجلوس ، ولكن كمال الأدب يقتضي ذلك ، فانظر أدب الصحابة معه صلى الله عليه وسلم .

وروى ابن ماجه عن أم هانىء رضي الله عنها قالت : كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي — أي على سريري — . فسماعها ذلك — وهي داخل بيتها البعيد عن مكان القراءة — دليل على أن صوته الشريف كان يبلغ مكاناً لا يبلغه غيره . فسبحان من خصه بالخصائص الكبرى والآيات العظمى ﷺ ! .

حلاوة منطقه ﷺ

كان رسول الله ﷺ حلوَ المنطق ، حسنَ الكلام . إذا تكلَّم أخذ بمجامع القلوب ، وسبى الأرواح والعقول .

وكان إذا تكلم يخرج النور من بين ثناياه .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان رسول الله ﷺ أفلج الثَّنيَّتين ، إذا تكلم رِيء [1] كالنور يخرج من بين ثناياه [2] .

وعن أبي قِرْصافة أنه قال : لما بايعنا رسولَ الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين . قالت لي أمي وخالتي : يا بني ما رأينا مثلَ هذا الرجل أحسنَ منه وجهاً ، ولا أنقى منه ثوباً ، ولا ألين كلاماً ، ورأينا كأنَّ النور يخرج من فيه [3] صلى الله عليه وسلم .

فصاحة لسانه وبلاغة كلامه ﷺ

كان رسول الله ﷺ أفصحَ خلق الله تعالى لساناً ، وأوضحهم بياناً ، أُوتي جوامع الكلم ، وبدائع الحِكم ، وقوارع الزجر ، وقواطع الأمر ، والقضايا المحكمة ، والوصايا المبرمة ، والمواعظ البالغة ، والحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة .

(١) على وزن « قيل » على الأفصح ، ويقال : بضم الراء وكسر الهمزة اهـ ، كما في شرح المواهب .

(٢) عزاه الحافظ الزرقاني إلى الترمذي والدارمي والطبراني .

(٣) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه ما لم يسم .

جاء في المسند وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودّع فقال : « أنا محمد النبي الأمي — قالها ثلاثاً — ولا نبي بعدي . أوتيت فواتحَ الكَلِم ، وخواتمه ، وجوامعه . . » الحديث .

فكيف لا يكون أفصح خلق الله تعالى ، وقد آتاه الله تعالى الكلم الجامع للمعاني الكثيرة ، في الألفاظ اليسيرة .

وفي حديث عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر : « يا أيها الناس ! إني قد أعطيتُ جوامع الكلم وخواتيمه ، واختُصِرَ ليَ اختصاراً ولقد أتيتكم بها — أي الشريعة — بيضاء نقيّةً ، فلا تتهوّكوا ، ولا يضرنّكم المتهوّكون . . » الحديث [1] .

وروى أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر : يا نبيّ الله مالكَ أفْصَحَنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال ﷺ : « كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ ، فجاءني بها جبريل ، فحفظتها » [2] .

قال الحافظ الزرقاني : بل زاد رسول الله ﷺ على ذلك ، فكان يخاطب كلّ ذي لغة بلغته ، اتساعاً في الفصاحة . أي : واتساعاً في اطلاعه ﷺ على جميع لغات العرب . ولهجاتهم الفصيحة ، كما ورد في المسند وغيره : عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس من امبر امصيام في امسفر » [3] .

---

(١) وقد أورد الحافظ ابن كثير الحديث بطوله معزواً لأبي يعلى ، ثم قال : ورواه ابن أبي حاتم وله شواهد .

(٢) قال الحافظ الزرقاني : رواه أبو نعيم في تاريخ اصبهان بإسناد ضعيف ، وكذا ابن عساكر وأبو أحمد الغطريف بلفظ : « إن لغة إسماعيل كانت درست ، فأتاني بها جبريل فحفظتها » اهـ ٤ : ١٠٠ و ١ : ١٣١ من شرح المواهب ، وفيه : أخرج الزبير بن بكار بسند جيد عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه مرفوعاً : « أول من فتق الله لسانه بالعربية البينة إسماعيل » .

(٣) بإبدال اللام ميماً في الثلاثة ، على لغة بعض أهل اليمن ، حيث خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بلغتهم ، وأصل هذا الحديث في الصحيحين .

ومن ذلك حديث عطية بن عروة السّعدي أن النبي ﷺ قال فيما قال له : « فإن اليد العليا هي المنطية ، والسفلى هي المنطاة » قال : فكلّمنا رسول الله ﷺ بلغتنا ، أي بلغة بني سعد ، وهي إبدال العين نوناً [١] .

آدابه في الكلام ﷺ

كان ﷺ يتكلم بكلام مفصَّل مبيّن ، بحيث لو أراد مستمعه أن يعدّه لأمكنه ذلك : لوضوحه وبيانه .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدّث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه ، رواه الشيخان وزاد الاسماعيلي في روايته : إنما كان حديث رسول الله ﷺ فَهْماً تفهمه القلوب .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه .

وروى عن جابر رضي الله عنه قال : كان في كلامه ﷺ ترتيل أو ترْسيل .

وفي الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثاً [٢] حتى تُفهَم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم ، سلّم عليهم ثلاثاً ، وكان ﷺ يتكلّم بكلام فَصْلٍ لا هزْر ولا نَزْر ويكره الثرثرة في الكلام ، والتشدق به .

---

(١) وقد أورد هذا الحديث بتمامه في شرح المواهب ، وعزاه إلى ابن عبد البر والحاكم ، قال الحافظ القسطلاني : وقد كان هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم : أن يكلم كل ذي لغة بلغته ، على اختلاف لغة العرب ، وتراكيب ألفاظها وأساليب كلمها ، اهـ .

(٢) ومن حكمة ذلك : أن تكون الأولى للإسماع ، والثانية للوعي ، والثالثة للفكرة . أو : الأولى للإسماع ، والثانية للتنبيه ، والثالثة للأمر على أن الثلاثة فيها غاية الاعذار والبيان ، فمن لم يفهم بها لا يفهم بما زيد عليها .

وكان ﷺ يكره التنطُّعَ في الكلام والتكلفَ في فصاحته : كما ورد في سنن أبي داود والترمذي بالسند الجيد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله عز وجل يُبغض البليغ من الرجال : الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقر بلسانها »(١) .

وكان ﷺ إذا خطب لا يُخلّ ولا يُملّ :

روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قَصْداً ، وخطبته قَصْداً . أي وسطاً .

وروى أبو داود عن جابر بن سمرة : كان رسول الله ﷺ لا يُطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات يسيرات .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : شهدت مع رسول الله ﷺ الجمعة ، فقام متوكئاً على عصاً — أو قوس — فحمد الله وأثنى عليه : كلمات خفيات ، طيبات ، مباركات .

حاله ﷺ وهو يخطب :

كان ﷺ يتغير حاله عند الموعظة ، اهتماماً وإعظاماً ، ويُعْرف ذلك في وجهه ﷺ .

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا خطب اشتدَّ غضبه ، وعلا صوته ، واحمرَّت عيناه ، كأنه منذرُ جيشٍ يقول : صبَّحكم ومسَّاكم .

وروى الطبراني والبزار عن جابر : كان النبي ﷺ إذا أتاه الوحي أو وعظ : قلتَ نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيتَه أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشْراً(٢) .

---

(١) قال في النهاية : هو الذي يتشدق في الكلام ، ويفخم به لسانه ، ويلفه ، كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً إ هـ .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم .

وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوّام قال : كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فيذكّرنا بأيام الله . حتى يعرف ذلك من وجهه ، وكأنه نذير قوم يُصبّحهم الأمر غدوة . وكان إذا كان حديثَ عهد بجبريل ، لم يتبسّم ضاحكاً حتى يرتفع عنه .

قوّة وعظه وتذكيره وتأثيره في الصحابة :

كان ﷺ إذا وعظ أثر في قلوب السامعين ، وطيّب نفوسهم ، حتى إنهم لتذرفُ دموعهم ، وترقُ وتخشع قلوبهم ، ويرتقي الحال بهم إلى المشاهدات والمعاينات .

فعن حنظلة بن الربيع قال : لقيني أبو بكر الصديق فقال لي : كيف أنت يا حنظلة ؟ فقلت له : نافَق حنظلة . فقال لي : انظر ما تقول ! فقلت له : نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده عافَسْنا الأزواج والأولاد والضّيْعات ، ونسينا كثيراً . » الحديث .

وروى الترمذي عن العرْباض بن سارية أنه قال : وَعَظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجِلت منها القلوب ، وذرَفت منها العيون .

وفي رواية لغير الترمذي : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة مضَت — احترقت — منها الجلود ، وذرفت منها العيون ، ووجِلت منها القلوب . فقلنا : كأن هذه موعظة مودع يا رسول الله ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أنِ اتقوا الله ، وأنْ تتبعوا سنّتي وسنة الخلفاء الهادية المهدية من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ ، فإنّ كلّ بدعة ضلالة » [1] .

وقال أُسَيْد بن حُضير : لو أني أكون على أحوالٍ ثلاثة من أحوالي ، لكنت من أهل الجنة : حين أقرأ القرآن وحين أسمعه ، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ ، وإذا شهدت جنازة .

---

(١) وانظر الجزء الثالث من المطالب العالية .

بل كانت خُطَبه ومواعظه ﷺ تؤثر في الجمادات : كما ورد في المسند — وأصله في مسلم — عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر « وما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدْرِه ، والأرْضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة ، والسَّموات مطويَّاتٌ بيمينه : سُبحانَه وتعالى عمَّا يُشركون» ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر :

يمجِّدُ الرَّبُّ نفسَه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملِك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر ، حتى قلنا ليخرَّنَّ به ! أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ كما في رواية مسلم .

فالمنبر يهتز تأثراً بوعظه وتذكيره ﷺ . فويل للقلوب التي لا تهتزُّ بمواعظه ﷺ .

تنبيهه ﷺ الخطباء والواعظين إلى مسئوليتهم عند رب العالمين :

لما كانت مواقف الخطابة والوعظ والتذكير مواقف مهمة خطيرة : لذلك كان ﷺ ينبه الخطباء إلى إخلاص النية في خطبهم . وأن وراء ذلك مسؤوليةً عند رب العالمين .

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً بإسناد جيد (١) عن مالك بن دينار عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ما أراد بها ؟ » . قال : فكان مالك بن دينار إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم يقول : تحسبون أن عيني تَقَرُّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ سائلي عنه يوم القيامة : ما أردتَ به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي . لو لم أعلم أنه أحبُّ إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبداً .

كما وأنه ﷺ حذَّر من تصنع الكلام ليسبيَ به قلوب الرجال فروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن تعلَّم صَرْفَ

---

(١) كما في ترغيب المنذري ١ : ١٢٥ .

الكلام ليَسبيَ به قلوب الرجال — أو الناس — لم يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً » [١] .

حبه ﷺ الفصاحة وكراهية اللحن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ما رأينا أفصح منك ؟ فقال : « إنّ الله تعالى لم يجعلني لحّاناً [٢] ، اختار لي خير الكلام : كتابَه القرآن » [٣] .

وفي المستدرك عن علي بن الحسين رضي الله عنهما : أقبل العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وعليه حُلّتان ، وله ضفيرتان ، وهو أبيض ، فلما رآه تبسّم ، فقال العباس : يا رسول الله ما أضحكك ؟ أضحك الله سنّك . فقال : « أعجبني جمالُ عم النبي » ﷺ . فقال العباس : ما الجمالُ ؟ قال : « اللسان » [٤] ، وعند العسكري : ما الجمال في الرجل ؟ قال : « فصاحة لسانه » [٥] .

وقد جمع علماء السلف رضي الله عنهم الدواوين الجامعة لبعض جوامع كَلِمِه ﷺ ، ونحن نذكر منها أربعين حديثاً ، لعل الله تعالى يكتب لنا أجر ما ورد في الحديث الذي رواه ابن النجار عن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : « مَن حفظ على أمّتي أربعين حديثاً من سنّتي ، أدخلته يوم القيامة في شفاعتي » .

---

(١) قال في النهاية : قد تكررت هاتان اللفظتان في الحديث : فالصرف : التوبة ، وقيل : النافلة ، والعدل : الفدية ، وقيل : الفريضة .

(٢) أي بل جعل لساني لساناً عربيـاً مبيناً .

(٣) عزاه في الجامع الصغير وشرحه إلى الشيرازي في الألقاب وإلى الديلمي في الفردوس .

(٤) قال الحافظ الزرقاني : وهو حديث مرسل .

(٥) ورواه القضاعي والخطيب ، وروى الديلمي من حديث جابر مرفوعاً : « الجمال : صواب المقال ، والكمال : حسن الفعال بالصدق » . وروى العسكري عن ابن عمر : مر عمر بقوم يرمون ، فقال : بئسما رميتم ، فقالوا : إنا متعلمين ، فقال عمر : لذنبكم في لحنكم أشد علي من ذنبكم في رميكم ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « رحم الله امرأً أصلح من لسانه » اهـ ، كما في شرح المواهب .

وفي رواية ابن عدي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة »[1] .

﴿ الحديث الأول ﴾

في وصيته ﷺ لابن عباس يبين له فيها ما يجب أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي : « يا غلام إني أعلمك كلماتٍ : احفَظِ الله يحفَظْكَ ، احفَظِ اللهَ تجِدْهُ تُجاهَكَ ، إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله ؛ واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ؛ وإن اجتمعتْ على أن يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّت الصُّحُف » .

زاد الإمام أحمد في روايته : « تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يعرِفْكَ في الشدَّة ؛ واعلم أنَّ الصبر على ما تكره خير كثير ؛ وأنَّ النصر مع الصَّبر ؛ وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْب ، وأنَّ مع العُسرِ يُسراً » .

---

(١) قال الإمام النووي : طرقه كلها ضعيفة ، وقال ابن عساكر : الحديث روي عن علي وعمر وأنس، وابن عباس وابن مسعود ، ومعاذ وأبي أمامة ، وأبي الدرداء وأبي سعيد بأسانيد فيها كلها مقال، ليس للتصحيح فيها مجال ، لكن كثرة طرقه تقويه ، وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه ، ا ﻫ كما في شرح فيض القدير . وانظر كلام العلامة ابن حجر المكي في شرحه على الأربعين .

وعلى القول بأنه ضعيف — مع تعدد طرقه — فإن الجمهور على أن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، كما هو مفصل في شرحنا على البيقونية .

﴿ الحديث الثاني ﴾

في وصيته ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي (١) فقال : « كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيل ؛ وعُدَّ نفسك من أهل القبور » .

وفي رواية النسائي وأحمد زيادة في أوله : « اُعبُدِ اللهَ كأنَّك تراه . » .

وهذه الوصية فيها بيان مراحل السير والسلوك ، إلى مقام ملك الملوك ؛ وقد تضمَّنت هذه المراحلُ الثلاثة ؛ جميع منازل السائرين ، ومقامات الواصلين . ولنا في شرح هذا الحديث بحث واسع نفيس ؛ نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ الحديث الثالث ﴾

يبين فيه النبي ﷺ العمل الذي يجعل المسلم محبوباً عند الله وعند الناس

روى ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دُلَّني على عملٍ إذا عملتُه أحبَّني اللهُ وأحبَّني الناسُ . فقال : « ازهدْ في الدُّنيا يحبَّك اللهُ ؛ وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبَّك الناس » (٢) .

---

(١) يروى بالإفراد والتثنية .

(٢) قد رواه ابن أبي الدنيا عن الشيخ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، معضلا ، كما في ترغيب المنذري .

﴿ الحديث الرابع ﴾

يوصي فيه النبي ﷺ أن لا يكون الإنسان كَلاً على الناس طامعاً فيما عندهم وأن يتوجه بكليته إلى كلٍّ من صلواته ، لأنها ربما كانت آخر صلواته .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال ﷺ : « عليك بالاياس مما في أيدي الناس وإياك والطَّمعَ ، فإنه الفقر الحاضر ، وصلِّ صلاتَك وأنت مُودِّع . وإيَّاك وما يُعتذر منه » (١) .

﴿ الحديث الخامس ﴾

يوصي فيه النبي ﷺ بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، وعدم التسويف والكسل عنها ، قبل أن تشغله الشواغل ، أو تمنعه الموانع

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمالِ سبعاً ! (٢) هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنسياً ، أو غنىً مُطغياً ، أو مرضاً مُفْسِداً ، أو هرماً مُفَنِّداً (٣) ، أو موتاً مُجْهِزاً (٤) ، أو الدَّجَّالَ فشرُّ غائبٍ يُنتظَر ، أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمرُّ » (٥) .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الحاكم والبيهقي في الزهد وقال الحاكم — واللفظ له — صحيح الإسناد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عمر . ا هـ .

(٢) أي : سابقوا وقوع أحد هذه السبعة فيكم ، وذلك باهتمامكم بالأعمال الصالحة واشتغالكم بها ، كما في فيض القدير .

(٣) أي : موقعاً في الكلام المنحرف عن سَنَن الصحة من الخرف والهذيان .

(٤) أي : سريعاً .

(٥) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصحح إسناده . كما في ترغيب المنذري وفيض القدير .

﴿ الحديث السادس ﴾

ينهى فيه النبي ﷺ أن يكون الإنسان إمّعة ، بل يكون محسناً متبعاً للحق

عن حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا إمَّعَةً (١) : تقولون إنْ أحسن الناس أحسَنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسنَ الناسُ أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلموا » (٢) .

﴿ الحديث السابع ﴾

يوصي فيه النبي ﷺ بالصدق ، ويبين عواقبه الحسنة ويحذِّر من الكذب ، ويبين عواقبه السيئة

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصِّدق ، فإن الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّة ، وما يزالُ الرجلُ يصدُق ويتحرى الصِّدقَ حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقاً ، وإيَّاكُم والكذبَ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور ، والفجورُ يهدي إلى النار ، وما يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتب عند الله كذَّاباً » (٣) .

فقد أوصى ﷺ بالصدق : صدقِ الأقوال بموافقتها لواقع الأمر الشرعي وصدقِ الأفعال بإخلاص النية فيها لله تعالى ، وصدقِ الأحوال بحصولها عن مراقبةِ الله تعالى ، ثم بيَّن ﷺ أن التحققَ بالصدق يوصل صاحبه إلى البرِّ ، ومعناه في اللغة : سعة الخير وكثرته ، والمراد به هنا سعة الخير الإيماني والتحقق بشُعب الإيمانِ الكثيرة العظيمة .

قال الله تعالى : « ولكنَّ البرَّ مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخِر ، والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين ، وآتى المالَ — على حبِّه — ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل ،

---

(١) قال في النهاية : الإمعة — بكسر الهمزة وتشديد الميم — الذي لا رأي له فهو يتابع كل أحد على رأيه ، والهاء فيه للمبالغة ، وقيل : هو الذي يقول لكل أحد : أنا معك . اهـ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه ، كما في الترغيب وغيره .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه ؛ واللفظ له ، كما في الترغيب وغيره .

والسائلين ،وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

فانظر في قوله تعالى « أولئك الذين صدقوا » بعدما عدّد شُعَب البر واقرِن بين ذلك وبين الحديث النبوي الذي نحن فيه تفهم المراد .

كما بين ﷺ أن من تحقق بالبر الإيماني فإن ذلك يوصله إلى الجنة .

ثم حذّر النبي ﷺ من الكذب في الأقوال والأعمال والأحوال ، وبين أن ذلك ينتهي بصاحبه إلى الفجور ، ومعناه في الأصل : مجاوزة الشيء حدّه ، والمراد هنا أن الكذب يؤدي بصاحبه إلى مجاوزة حدوده الشرعية ، التي حدّها الله تعالى وأوقفه عندها ، وأن ذلك الفجور يوصل صاحبه إلى النار لا محالة ، فجميع الأقوال والأعمال والأحوال والمقامات ، مرتبط بعضها ببعض ، ويوصل بعضها إلى بعض ، ولها آثارها ، ولها نتائجها في الخير وفي الشر .

﴿ الحديث الثامن ﴾
في فضل المحبة الإيمانية وأثرها

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ — أي ولم يستطع أن يعمل بعملهم — فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحبّ » (١) .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشدّ منه ، قال رجل : يا رسول الله الرجلُ يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ، ولا يعمل بمثله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع مَن أحَبَّ » (٢) .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) انظر الترغيب للحافظ المنذري .

﴿ الحديث التاسع ﴾

يحذر فيه النبي ﷺ من سوء الظن ويبين ما يجب على المسلم نحو أخيه

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث ؛ ولا تحسَّسوا ، ولا تجَسَّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا — عبادَ الله — إخواناً كما أمركم الله، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذُله ولا يحقِرُه ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرىءٍ من الشرِّ أن يَحقِرَ أخاه المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمُه وماله وعرضه »[1] ، وفي رواية لمسلم : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

﴿ الحديث العاشر ﴾

يوصي فيه النبي ﷺ المؤمن أن يكون حريصاً على ما ينفعه في دينه ودنياه ، مستعيناً على ذلك بالله تعالى ، وينشطه للعمل ويحذره من العجز والكسل

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمنُ القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير ، احْرِصْ على ما ينفعُك ، واستعِنْ بالله ولا تعجِز ، وإن أصابك شيءٌ فلاتقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل ، فإنَّ « لو » تفتح عمل الشيطان » .

﴿ الحديث الحادي عشر ﴾

في وصيته ﷺ بتقوى الله في السر والعلانية

عن معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقِ الله حيثما كنتَ ،

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه مالك والبخاري ومسلم — واللفظ له ، وهو أتم الروايات — وأبو داود والترمذي ، اهـ . والمراد بقول المنذري « وهو أتم الروايات » أي بعد جمعها إلى بعضها كما يتبين ذلك لمن راجع صحيح مسلم .

وأتبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن » . رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

وروى الطبراني بإسناد رواته ثقات عن أبي سلمة عن معاذ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : « اعبُدِ اللهَ كأنَّكَ تراه ، واعدُدْ نفسَكَ في الموتى ، واذكر اللهَ عند كلِّ حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملتَ سيئةً فاعمل بجنبِها حسنةً : السرُّ بالسرِّ ، والعلانيةُ بالعلانيَة » [1] .

﴿ الحديث الثاني عشر ﴾

في وصيته ﷺ ببر الوالدين والعفة عن التطلع إلى النساء

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بِرُّوا آباءَكُم ، تَبَرَّكُمْ أبناؤكُم ، وَعِفُّوا تَعِفَّ نساؤكُمْ » [2] .

﴿ الحديث الثالث عشر ﴾

يبين فيه النبي ﷺ الصفات التي تجعل صاحبها في ظلّ الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « سبعةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظلِّه ، يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه : الإمام العادل ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ ، ورجل قلبه معلَّقٌ بالمساجد ، ورجلان تحابَّا في الله : اجتمعا على ذلك ، وتفرَّقا عليه ، ورجل دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال : إني أخافُ الله ، ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينُه ، ورجل ذكر اللهَ خالياً ففاضتْ عيناه » [3] .

---

(١) كذا في الترغيب ، قال : وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، ورواه أيضاً هو وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها . اهـ .

(٣) رواه الشيخان وغيرهما ، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في عدة من الأحاديث ، جملة واسعة من الذين يظلهم الله تعالى في ظله ، جمعها بعض المحدثين فارجع إليها إن شئت .

﴿ الحديث الرابع عشر ﴾

يحذّر فيه النبي ﷺ الإنسان أن يتكلم بالكلمة دون أن يتبين ما فيها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنّ العبدَ يتكلّم بالكلمة ما يتبيّن فيها [1] يَزِلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » . رواه الشيخان .

ورواه الترمذي بلفظ : « إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً » ورواه الحاكم بلفظ : « إنّ الرجل يتكلم بالكلمة ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغتْ ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار » . ورواه البيهقي بلفظ : قال رسول الله ﷺ : « إنّ العبد ليقول الكلمة ، لا يقولها إلا ليُضحكَ بها المجلسَ يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض ، وإنّ الرجل ليَزلّ عن لسانه ، أشدّ ممّا يَزِلُّ عن قدميه » .

ورواه أبو الشيخ بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل عسى رجل منكم أن يتكلّم بالكلمة ، يُضحِكُ بها القومَ ، فيسقطَ بها أبعد من السماء ، ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة ، يُضحكُ بها أصحابَه فيَسخطَ اللهُ بها عليه ، لا يرضى عنه حتّى يدخله النار » [2] .

﴿ الحديث الخامس عشر ﴾

يبين فيه النبي ﷺ أحوال الناس في الدنيا وعواقبهم في الآخرة

عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثٌ أقسمُ عليهنّ وأُحدّثكم حديثاً فاحفظوه .

قال : ما نَقَصَ مالٌ من صدقةٍ ، ولا ظُلِمَ عبدٌ مَظْلَمَةً صبرَ عليها إلاّ

---

[1] قال الحافظ المنذري : قوله « ما يتبين فيها » أي : ما يتفكر هل هي خير أم شر ؟ اهـ .

[2] انظر جميع هذه الروايات في الترغيب للمنذري .

زاده الله عزّاً ، ولا فتح عبد بابَ مسألة (١) إلاّ فتح اللهُ عليه باب فقرٍ .

قال : وأُحدِّثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعةِ نَفَرٍ : عبدٌ رزقَهُ اللهُ مالاً وعلماً ؛ فهو يتّقي فيه ربَّه ، ويصلُ فيه رحِمَه ، ويعلم أنّ لله فيه حقاً ، فهذا بأفضلِ المنازلِ ، وعبدٌ رزقَه اللهُ علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادقُ النيّة يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ بعملِ فلان (٢) ، فهو بنيّته ، فأجرهما سواء ، وعبدٌ رزقه اللهُ مالاً ولم يرزقْه علماً ، يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتّقي فيه ربَّه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أنّ لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلان ، فهو بنيّتِه (٣) ، فَوِزْرُهما سواء » (٤) .

﴿ الحديث السادس عشر ﴾
يبين فيه النبي ﷺ أنواع عمل الخير وآثارها

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « صنائع المعروف ، تقي مصارعَ السُّوءِ ، وصدقة السِّرِّ تطفىءُ غَضَبَ الربِّ ، وصِلة الرحمِ تزيدُ في العُمُرِ » (٥) .

وجاء في رواية أمّ سلمة رضي الله عنها زيادة على ذلك : « وكلُّ معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدُّنيا ، هم أهلُ المعروفِ في الآخرة ، وأهلُ المنكر في الدُّنيا ، هم أهلُ المنكر في الآخرة ، وأوّلُ من يدخل الجنّة أهل المعروف » (٦) .

(١) أي : شحاذة وسؤال مال الناس ، ولم يك مضطراً ، أما المضطر : فله أن يسأل قدر الضرورة ، إذا لم يجد ما يسد حاجته بعمل ونحوه .

(٢) أي : لتصدقت وعملت من الخيرات ، كما يعمل فلان الغني التقي السخي .

(٣) يعني : أنه نوى أن لو كان عنده مال لخبط فيه وهتك ، وفسق وعمل ما عمل فلان ، أي في إسرافه على نفسه وفسقه ، فهو بنيته لذلك يلحقه إثم ذلك .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٥) إلى هنا رواية الطبراني في الكبير بإسناد حسن .

(٦) هذه الزيادة رواية الطبراني في الأوسط وقد رواها الحافظ المنذري بصيغة « روي » .

﴿ الحديث السابع عشر ﴾

يبين فيه النبي ﷺ وجوب محبته فوق محبة كل مخلوق

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمِنُ أحدُكم حتى أكُونَ أحبَّ إليه من والدِه وولدِه والنَّاسِ أجمعين » . متفق عليه .

﴿ الحديث الثامن عشر ﴾

يبين فيه النبي ﷺ الصفات التي يجد بها المؤمن حلاوة الإيمان

عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ بِهِنَّ حلاوَةَ الإيمان : مَن كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، ومَن أحبَّ عبداً لا يُحِبُّه إلاَّ لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذَه اللهُ منه ، كما يكره أن يُقذَفَ في النَّار » .

وفي رواية : « ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان وطعمَه : أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ في اللهِ ويبغضَ في الله ، وأنْ توقدَ نارٌ عظيمةٌ فيقعَ فيها ، أحبُّ إليه من أن يُشركَ بالله شيئاً » (١) .

﴿ الحديث التاسع عشر ﴾

فيما ورد من حقوق المسلمين على بعضهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حَقُّ المسلمِ على المسلم ستٌّ » قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟ قال : « إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصَحَكَ فانصحْ له ، وإذا عطس فحمِدَ اللهَ تعالى فشمِّتْه ، وإذا مرضَ فعُدْه ، وإذا ماتَ فاتْبَعْه » (٢) .

---

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي .

(٢) رواه البخاري بلفظ « خمس » ومسلم بهذا اللفظ .

﴿ الحديث العشرون ﴾

في التحذير من الحسد والبغضاء وأن ذلك هو الداء الذي هلكت به الأمم

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاءُ هي الحالقة ، لا حالقة الشعر ولكن حالقة الدِّين ، والذي نفسُ محمدٍ بيده : لا تدخلُوا الجنَّةَ حتى تؤمِنوا ، ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا ، ألا أُنبِّئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « أفْشوا السَّلامَ بينكم » (1) .

﴿ الحديث الحادي والعشرون ﴾

في بيـان حقوق الطريق وآدابـه

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوسَ في الطرقات » قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدَّثُ فيها (2) ، قال : « فإن أبيتم إلاَّ المجالسَ ، فأعْطوا الطريقَ حقَّها » قالوا : يا رسول الله ، وما حقُّ الطريق ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر » رواه الشيخان .

وفي رواية أبي داود زيادة : « وإرشادُ السبيل » وعند الطبراني : « وإغاثةُ الملهوف » .

﴿ الحديث الثاني والعشرون ﴾

في بيان أن من خاف الله تعالى سعى إلى النجاة من عذابه وذلك بطاعة الله تعالى

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خاف

---

(1) رواه الترمذي وأحمد ، ورواه البزار بسند جيد كما في ترغيب المنذري ومجمع الزوائد ، وصدر الحديث في صحيح مسلم وغيره .

(2) يعنون أنهم قد يضطرون إلى الجلوس فيها للتحدث في أمر مهم .

أدْلج(1) ومن أدلج بلغ المنزل ،ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة » (2) .

﴿ الحديث الثالث والعشرون ﴾

فيه بيان فضل التفريج عن المسلم والسّتر عليه ، والتيسير والعون له وفضل طلب العلم والاجتماع على تلاوة كتاب الله تعالى ومدارسته

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبةً من كُرَبِ الدُّنيا ، نفَّسَ اللهُ عنه كربةً مِنْ كُرَبِ يوم القيامة ، ومن سَتَرَ مسلماً سَتَره الله في الدُّنيا والآخرة ، ومَنْ يسَّرَ على معسرٍ يسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرة ، واللهُ في عوْنِ العبد ما كان العبدُ في عون أخيه ، ومَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهَّل اللهُ له به طريقاً إلى الجنَّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلاَّ نزلتْ عليهم السكينة ، وغشيتهم الرَّحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللهُ فيمن عنده ، ومن بَطَّأ به عمله ، لم يُسْرِعْ به نسبُه »(3) .

﴿ الحديث الرابع والعشرون ﴾

في بيان وجوه مسؤولية العبد يوم القيامة

عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَزُولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع : عن عُمُرِه فيمَ أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيمَ أنفقه ، وعن جِسمه فيمَ أبلاه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

---

(1) قال العلامة المناوي : « أدلج » بسكون الدال مخففاً : سار من أول الليل ، وأما التشديد فمعناه سار من آخره ا هـ . والمعنى : أن من مشى في الصحراء ، وأقبل عليه الليل ، فإن خوفه من سباع الصحراء وضياعها ، يحمله على أن لا يبيت ، بل يتابع سيره حتى يبلغ منزله ومأمنه . وفي هذه عبرة للسائرين والسالكين .

(2) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه الحاكم وصححه ، وأقره الذهبي .

(3) رواه مسلم وأصحاب السنن .

ورواه البزار والبيهقي والطبراني بإسنادٍ صحيح[1] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصالٍ : عن عُمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

﴿ الحديث الخامس والعشرون ﴾

خطبته ﷺ يحض فيها على التمسك بكتاب الله تعالى والاهتداء بهديه ﷺ

عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه ، كأنه منذر جيش ، يقول : « أمّا بعدُ ، فإنّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله ، وإنّ أفضل الهدي هديُ محمدٍ ، وشرّ الأمور مُحدَثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة ،وكلّ ضلالة في النّار ، أتتكم الساعةُ بغتةً ، بُعثتُ أنا والساعة هكذا ، صبحتكم الساعة ومسّتكم ، أنا أولى بكل مؤمنٍ من نفسه ، مَنْ تركَ مالاً فلأهله ، ومَن تركَ دَيْناً أو ضَياعاً ، فإليّ وعليّ ، وأنا وليُّ المؤمنين »[2] .

﴿ الحديث السادس والعشرون ﴾

خطبته ﷺ في أول جمعة صلاها في المدينة [3]

« الحمدُ لله أحمده ، وأستعينه وأستغفره ، وأستهديه وأومن به ، ولا أكفرُه ، وأعادي مَن يكفره ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنُّورِ والموعظة ، على فترةٍ من الرسل ،

(١) كما في مواضع متعددة من الترغيب للمنذري .

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وأبوداود كما في الجامع الصغير وشرحه الكبير .

(٣) قال الحافظ ابن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم أنه قال : وذكر هذه الخطبة .

وقلّةٍ من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاعٍ من الزمن ، ودنوٍّ من الساعة ، وقربٍ من الأجل ، ومنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رشَد ، ومن يعصِهما فقد غوى وفرّط وضلّ ضلالاً بعيداً .

« وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله .

فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه ، ولا أفضلَ من ذلك نصيحةً ، ولا أفضلَ من ذلك ذكرى ؛ وإنه تقوى لمن عمل به على وجلٍ ومخافةٍ ، وعونُ صدقٍ على ما تبتغون من أمرِ الآخرة ، ومن يُصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السرّ والعلانية — ولا ينوي بذلك إلاّ وجه الله تعالى — يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرءُ إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويُحذركم اللهُ نفسَه ، واللهُ رؤوفٌ بالعباد .

« والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ! فإنه يقول تعالى : « ما يُبَدّلُ القولُ لديّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد » .

« واتّقوا اللهَ في عاجلِ أمركم وآجلِه في السرّ والعلانية ، فإنه مَن يتّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سيئاته ويُعظمْ له أجراً ، ومَن يتّقِ اللهَ فقدْ فازَ فَوْزاً عظيماً .

وإنّ تقوى الله تَقي مَقتَه ، وتَقي عقوبتَه وتقي سَخَطه ؛ وإنّ تقوى اللهِ تُبَيِّضُ الوجهَ وترفعُ الدرجة .

خُذوا بحظّكم ولا تُفَرّطُوا في جنبِ الله ؛ قدْ علّمَكُم اللهُ كتابه ، ونَهَجَ بكم سبيلَه ، ليعلمَ الذين صدَقوا وليعلمَ الكاذبين .

« فأحْسِنُوا كما أَحْسَنَ اللهُ إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في اللهِ حقّ جهاده ؛ هو اجتباكُم وسمّاكم المسلمين . ليهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنةٍ ، ويحيى مَن حَيّ عن بيّنَةٍ ، ولا قوّة إلاّ بالله ، فأكثروا ذكرَ الله ، واعملوا لما بعدَ الموتِ ، فإنه مَن أصلح ما بينه وبين الله يكْفِه اللهُ ما بينَه وبين الناس ؛ ذلك بأنّ

اللهَ يقضي على الناس ، ولا يقضون عليه ؛ ويملك من النَّاس ولا يملكونَ منه ، اللهُ أكبر ؛ ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم » .

قال الحافظ ابن كثير : هكذا أوردها ابن جرير ، وفي السند إرسال ، وقال البيهقي : باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، ثمَّ أورد ابن كثير إسناد البيهقي إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أولَ خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمَّ قال :

« أما بعد — أيها النَّاس — فقدِّموا لأنفسكم ، تعلمُنَّ والله ليَصعقنَّ أحدُكم ثمَّ ليدعنَّ غنمه ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه — ليس له ترجمان ولا حاجبٌ يحجبُه دونه — : ألم يأتك رسُولي فبلَّغك ، وآتيتُك مالاً ، وأفضلتُ عليك ، فما قدَّمتَ لنفسك . فينظر — أي العبد — يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدَّامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاعَ أن يقيَ وجهَهُ من النَّار ولو بشِقِّ تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمةٍ طيِّبةٍ ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام (عليكم [1]) وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته .

ثمَّ خطب رسول الله ﷺ مرةً أخرى : فقال « إنَّ الحمدَ لله أحمده ، وأستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، مَن يهْدِه اللهُ فلا مضلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلاَّ اللهُ وحده لا شريكَ له .

« إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله ، قد أفلحَ مَنْ زيَّنَهُ اللهُ في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديثِ الناس ، إنه أحسنُ الحديثِ وأبلغُه ، أحِبُّوا مَنْ أحَبَّ الله ، أحِبُّوا اللهَ من كلِّ قلوبكم ، ولا تملُّوا كلامَ الله وذكرَه ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم ، فإنه من يختارُ اللهُ ويصطفي ، فقد سمَّاه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصالحَ من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتيَ الناسُ من الحلالِ والحرامِ .

(١) هذه الكلمة زيادة من سيرة ابن هشام .

« فاعبدوا اللهَ ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتّقوه حقّ تُقاتِه ، واصدقوا اللهَ صالحَ ما تقولونَ بأفواهِكم ، وتحابُّوا بروحِ اللهِ بينكم ؛ إنّ اللهَ يغضبُ أن يُنْكَثَ عهده . والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

قال ابن كثير بعد ما أورد ذلك : وهذه الطريق أيضاً مرسلة : إلاّ أنها مقوِّية لما قبلها ، وإن اختلفت الألفاظ . ا هـ (١) .

﴿ الحديث السابع والعشرون ﴾

خطبته ﷺ في الحث على التوبة ، وصلة العبد بينه وبين ربه والتحذير من ترك صلاة الجمعة ، وخطر ذلك

عن جابر رضي الله عنه قال : خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغَلُوا ، وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم : بكثرةِ ذكركم له ، وكثرةِ الصدقة في السرّ والعلانية ، تُرْزَقُوا وتُنْصَرُوا وتُجبَرُوا ، واعلموا أنّ اللهَ افترَضَ عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا ؛ إلى يوم القيامة . فمن تركها في حياتي أو بعدي ، وله إمام عادل أو جائر ، استخفافاً بها ، وجحوداً بها ، فلا جَمَعَ اللهُ له شمله ، ولا باركَ له في أمره ، ألا ولا صلاةَ له ، ألا ولا زكاةَ له ، ألا ولا حجّ له ، ألا ولا صومَ له ، ألا ولا برّ له حتى يتوب ، فمن تابَ تابَ اللهُ عليه » (٢) .

﴿ الحديث الثامن والعشرون ﴾

خطبته ﷺ يذكر فيها أنواعاً من التذكير والتحذير

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : صلى بنا رسولُ الله

---

(١) انظر البداية ٣ : ٢١٤ .

(٢) قال في الترغيب : رواه ابن ماجه ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري أخصر منه ا هـ .

ﷺ يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدَعْ شيئاً يكونُ إلى قيام السّاعة إلاّ أخبرنا به ؛ حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال :

« إنّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلوة ، وإنّ اللهَ مستخلفكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا تمنعنّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَه ، ألا إنه يُنصَبُ لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة بقدر غَدرَتِه ، ولا غَدرةَ أعظم من غدرة إمامِ عامّةٍ يُركَزُ لواؤُه عند استه .

« ألا إنّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتّى : فمنهم مَن يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموتُ مؤمناً ، ومنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموتُ كافراً ، ومنهم مَنْ يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموتُ مؤمناً ، ومنهم مَنْ يُولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموتُ كافراً .

« ألا وإن منهم البطيءَ الغضب سريعَ الفيء [1] ، والسريعَ الغضب سريعَ الفيء ، فتلك بتلك ، ألا وإنّ منهم بطيءَ الفيء سريعَ الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء .

« ألا وإنّ منهم حسنَ القضاء ، حسنَ الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، فتلك بتلك ، ألا وإنّ منهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن خيرهم الحسنُ القضاء الحسنُ الطلب ، وشرّهم سيء القضاء سيء الطلب .

« ألا وإنّ الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم ، أما رأيتم في حُمرة عينيه ، وانتفاخِ أوداجه ؟ فمَنْ أحسّ بشيء من ذلك فليلْصَقْ بالأرْض » .

قال أبو سعيد : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا وإنه لم يبقَ من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه » .

ورواه الإمام أحمد بزيادة : « إنكم تُتِمُّون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » .

---

(١) أي سريع الرجوع عن الغضب إلى الرضا .

﴿ الحديث التاسع والعشرون ﴾

خطبة النبي ﷺ يذكر فيها عظمة الله تعالى وقيّوميته وتصرفه سبحانه في مخلوقاته بالقسط

روى الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصَرُه من خلقه » .

﴿ الحديث الثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على الحياء من الله تعالى حقَّ الحياء

رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله : « أيها الناس ! استحيوا من الله حقَّ الحياء » فقال رجل : يا رسول الله إنا لنستحيي من الله تعالى ! فقال ﷺ : « مَنْ كان منكم مستحيياً فلا يَبيتَنَّ ليلةً إلا وأجلُه بين عينيه ، وليَحفظْ البطن وما حوى [1] ، والرأس وما وعى [2] ، وليذكر الموت والبِلى ، وليترك زينةَ الدنيا » . رواه الطبراني في الأوسط .

ويشهد لهذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » قلنا : يا نبي الله إنا لنستحيي من الله والحمد لله ! قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء » .

---

(١) أي : وما حواه البطن من الطعام والشراب ، ومن الشهوات ، وذلك أن يكون حلالا في حلال .

(٢) وما وعاه الرأس من المدارك السمعية والبصرية ، والقوى العقلية والفكرية والكلامية ، ونحو ذلك فيصرفها فيما شرعه الله تعالى ورضيه .

﴿ الحديث الحادي والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يصف فيها أولياء الله تعالى ويذكر فيها عظم الكبائر

عن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « إنَّ أولياء الله المصلُّون ، ومن يُقيمُ الصلواتِ الخمسَ التي كتبهنَّ اللهُ عليه ، ويصومُ رمضانَ ويحتسب صومَه ، ويؤتي الزكاةَ محتسباً طيِّبةً بها نفسُه ، ويجتنبُ الكبائرَ التي نهى اللهُ عنها » .

فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله وكم الكبائر ؟

فقال : « تسعٌ أعظمُهُنَّ : الإشراكُ بالله ، وقتلُ المؤمن بغير حق ، والفرارُ من الزَّحْف ، وقَذفُ المحصَنة ، والسِّحرُ ، وأكلُ مالِ اليتيم ، وأكلُ الرِّبا ، وعقوقُ الوالدين المسلمَين ، واستحلالُ البيتِ الحرام قبلتِكم أحياءً وأمواتاً ، لا يموتُ رجلٌ لم يعملْ هؤلاءِ الكبائرَ ، ويقيمُ الصَّلاةَ ويؤتي الزكاةَ إلاَّ رافقَ محمداً ﷺ في بُحْبوحة جنةٍ [1] أبوابُها مصاريعُ الذهب » [2] .

﴿ الحديث الثاني والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحذِّر فيها من الظلم والشُّحِّ والفحش

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خطبَنا رسولُ الله ﷺ فقال : « إيَّاكُم والظُّلمَ ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة ، وإيَّاكُم والفحشَ والتَّفحُّشَ وإيَّاكم والشُّحَّ ، فإنما هَلَكَ مَن كان قبلَكم بالشُّحِّ ، أمرَهم بالقَطيعة [3] فقطَعوا ، وأمرَهم بالبُخل فبخِلوا ، وأمرَهم بالفُجُورِ فَفَجَروا » .

فقام رجلٌ فقال : يا رسولَ الله أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ قال ﷺ : « أنْ يَسلَمَ

---

(١) بحبوحة المكان : وسطه .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن . اهـ

(٣) أي : بقطيعة الرحم وقطع الرحمة للعباد .

المسلمون من لسانك ويدك » فقال ذلك الرجلُ أو غيرُه : يا رسولَ اللهِ أيّ الهجرةِ أفضلُ ؟ قال : « أنْ تَهجُرَ ما كَرِهَ ربُّك » (١) .

﴿ الحديث الثالث والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحذر فيها من إيذاء المسلمين وتتبع عوراتهم

روى الترمذي عن ابن عمر رضي اللهُ عنهما قال : صعِدَ النبيُّ ﷺ المنبر ، فنادى بصوتٍ رفيع — أي مرتفع — فقال : « يا معشرَ مَنْ أسلمَ بلسانِه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبِه ! لا تُؤذُوا المسلمين ، ولا تَتَبَّعوا عوراتِهم — أي زلاتِهم وعثراتِهم — فإنه من تتبَّعَ عورةَ أخيه المسلم ، تتبَّعَ اللهُ عورتَه ، ومَن تتبَّعَ اللهُ عورتَه يفضحْه ولو في جوفِ رَحْلِه » .

ونظر ابنُ عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظَمَكِ وما أعظمَ حرمتَكِ ! والمؤمنُ أعظمُ حُرمةً عند اللهِ منكِ .

قال في الترغيب : ورواه ابن حبان في صحيحِه إلاَّ أنه قال فيه : « يا معشرَ مَنْ أسلمَ بلسانِه ، ولمْ يدخُلِ الإيمانُ قلبَه ! لا تُؤذوا المسلمين ولا تعيِّرُوهم ، ولا تطلَّبوا عثراتِهم ... » الحديث .

﴿ الحديث الرابع والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحذِّر فيها أمته أن يتنافسوا على الدنيا وينسوا دينهم

روى الشيخان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهلِ أُحُد صلاتَه على الميت ، ثم انصرَف إلى المنبر فقال : « إني فَرَطٌ لكم ، وأنا شهيدٌ عليكم ، وإني — والله — لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض — أو مفاتيح الأرض — وإني — والله — ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها » .

---

(١) قال المنذري في الترغيب : رواه أبو داود مختصراً ، والحاكم — واللفظ له — وقال صحيح على شرط مسلم . اهـ .

وفي رواية : صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحُد بعد ثمان سنين ، كالمودِّع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « إني بين أيديكم فرَطٌ وأنا شهيدٌ عليكم . وإنَّ موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تُشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها » .

وفي روايةٍ : « ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها ، وتَقْتَتِلوا وتَهلِكوا كما هلك مَنْ كان قبلكم » . قال عقبة : فكانت آخرَ ما رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر .

﴿ الحديث الخامس والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على الاستعداد للآخرة

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب يوماً فقال في خطبتــه : « ألا وإنَّ الدنيا عرضٌ حاضرٌ ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، ألا وإنَّ الآخرةَ أجلٌ صادق ، ويقضي فيها ملكٌ قادر ، ألا وإنَّ الخيرَ كله بحذافيره في الجنَّة ، ألا وإنَّ الشرَّ كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذرٍ ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ، فمن يعملْ مثقال ذرَّةٍ خيراً يرَه ، ومَنْ يعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شراً يرَه » (١) .

﴿ الحديث السادس والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحذّر فيها من ترك الصلاة عليه ﷺ حين يُذكر ، ومن التقصير في شهرِ رمضان ، ومن التقصير مع الوالدين عموماً ، وخصوصاً عند الكبر

عن كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه قال قال رسولُ الله ﷺ : « احضُرُوا المنبر » فحضرنا ، فلما ارتقى درجةً قال : « آمين » فلما ارتقى الدرجةَ الثانية قال « آمين » فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال « آمين » فلما نزلَ قلنا : يا رسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنّا نسمعه ؟ !

---

(١) في المشكاة : رواه الشافعي رضي الله عنه ، وروى نحوه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس مرفوعاً ، كما في المشكاة والمواهب وغيرهما .

فقال : « إنَّ جبريل عليه السلام عَرَضَ لي فقال : بَعُدَ مَن أدركَ رمضان فلم يُغفر له ! قلت : آمين ، فلما رَقَيْتُ الثانية قال : بَعُدَ مَن ذُكِرْتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك ! فقلتُ : آمين ، فلمّا رَقَيْتُ الثالثةَ قال : بَعُدَ مَنْ أدركَ أبويه الكِبَرُ عنده أو أحدَهما فلم يُدخِلاه الجنَّةَ ! قلت : آمين » .

رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ :

عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فلما رقي عتبةً قال « آمين » ثم رقي أخرى فقال « آمين » ثم رقيَ عتبةً ثالثةً فقال « آمين » .

ثم قال : « أتاني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد مَنْ أدركَ رمضان فلم يُغفر له فأبعده الله ! فقلت : آمين ، قال : ومَن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النارَ فأبعده الله ! فقلت : آمين . قال : ومَن ذُكِرتَ عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله ! فقلت آمين .

ورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحه أيضاً بلفظ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ صعد المنبر فقال : « آمين. آمين . آمين » قيل : يا رسول الله إنك صعدتَ المنبرَ فقلتَ « آمين آمين آمين » ؟ فقال : « إن جبريل عليه السلام أتاني فقال : مَن أدرك شهرَ رمضان فلم يُغفَرْ له فأبعده الله . قل آمين . فقلت : آمين . . . » ثم ذكر بقية الحديث .

﴿ الحديث السابع والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحذر فيها من الدعوى في العلم والقرآن

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قام ليلةً بمكة من الليل فقال : « اللهم هل بلَّغتُ » ثلاث مرات . فقام عمر بن الخطاب — وكان أوّاهاً — فقال : اللهم نعم وحرّضتَ وجهدتَ ونصحتَ ، فقال ﷺ : « ليَظهرنَّ الإيمانُ حتّى يَردَّ الكفرَ الى موطنه ، ولتُخاضنَّ البحارُ بالإسلام ، وليأتينَّ على الناس

زمانٌ يتعلمون فيه القرآن ، يتعلمونه ويقرؤونه ثم يقولون : قد قرأنا وعَلِمنا ، فمن ذا الذي هو خير منا ؟

قال ﷺ : فهل في أولئك من خير ؟ قالوا : يا رسول الله : مَنْ أولئك ؟ فقال : « أولئك منكم — أي من هذه الأمة — وأولئك هم وَقُودُ النار » .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن ان شاء الله تعالى . اه

ويشهد لهذا الحديث ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر ، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلمُ منا ؟ من أفقه منا ؟ » .

ثم قال ﷺ لأصحابه : « هل في أولئك من خير ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أولئك منكم من هذه الأمة ، وأولئك هم وَقود النار » .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الأوسط ، والبزار بإسناد لا بأس به ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني أيضاً من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه . اه .

﴿ الحديث الثامن والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يبين فيها أحوال الناس في المحشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول : « إنكم ملاقو الله حُفاة عُراةً غُرْلاً — وفي رواية : مشاة — » .

وفي رواية : قال ابن عباس : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةً عراةً غُرْلاً « كما بدأنا أوَّلَ خلق نُعيده ، وعداً علينا إنّا كُنّا فاعلين » ألا وإنَّ أوَّلَ الخلائق يُكْسى إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنّه سيُجاءُ برجال من أمّتي ، فيؤخَذُ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقولُ كما قال العبدُ الصالح : « وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم ، إلى قوله : العزيز الحكيم » قال : فيُقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم ، فأقول : سُحقاً سُحْقاً » . رواه الشيخان والترمذي وغيرهم .

﴿ الحديث التاسع والثلاثون ﴾

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على نشر أحاديثه وتبليغها ويدعو لمن فعل ذلك بنضارة الوجه

عن جُبير بن مُطعم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ بالخَيف — خيفِ مِنى — يقول [(١)] : « نَضَّر اللهُ عبداً سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها ، وبلَّغها مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه ، ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ : إخلاصُ العمل لله تعالى ، والنصيحةُ لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتَهم تحفظ مَنْ وراءهم » [(٢)] .

وجاء في صحيح ابن حبان زيادة على ذلك : « ومَن كانت الدنيا نيتَه فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرةُ نيتَه جمعَ اللهُ أمرَه ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » [(٣)] .

﴿ الحديث الأربعون ﴾

في وصاياه ﷺ الجامعة للحكم والآداب

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أوصني ، قال : « أُوصيك بتقوى الله ، فإنها زَيْن لأمرك كله — وفي رواية ابن حبان — فإنه رأسُ الأمر كلِّه » .

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال : « عليكَ بتلاوةِ القرآن ، وذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنه ذِكْرٌ لك في السماء ، ونورٌ لك في الأرض » .

---

(١) وجاء في رواية الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسجد الخيف من منى . . . الحديث . كما في ترغيب المنذري .

(٢) قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه أحمد وابن ماجه والطبراني في الكبير مختصراً ومطولا ، إلا أنه قال « تحيط » بياء بعد الحاء . رووه كلهم عن محمد بن إسحاق ، عن عبد السلام ، عن الزهري ، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري ، وإسناد هذه حسن . اهـ .

(٣) انظر الجزء الأول من الترغيب .

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال : « عليك بطول الصَّمْت ، فإنه مَطْرَدَةٌ للشيطان ، وعونٌ لك على أمر دينك » ، قلتُ : زدني ، قال : « إياكَ وكثرةَ الضحك ، فإنه يُميتُ القلب ، ويَذهبُ بنور الوجه » .

قلتُ : زدني ، قال : « قل الحقَّ وإن كان مُرّاً » قلتُ : زدني ، قال : « لا تخفْ في الله لومةَ لائم » ، قلتُ : زدني ، قال : « ليحجُزْكَ عن النّاس ما تعلمُ من نفسك » .

رواه الإمام أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، والحاكم — واللفظ له — وقال : صحيح الإسناد [١] .

وجاء في رواية صحيح ابن حبان بعد قوله ﷺ : « وإياك وكثرةَ الضحك » قلتُ : يا رسول الله زدني قال : « عليك بالجهاد فإنه رهبانيّةُ أمّتي » قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « أَحِبَّ المساكين وجالِسْهم » ، قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « انظر إلى مَنْ هو تحتك [٢] ، ولا تنظرْ إلى مَنْ هو فوقك ، فإنه أجْدرُ أنْ لا تزدريَ نعمةَ الله عندك » .

قلت : يا رسول الله زدني ، قال : « قل الحقَّ وإن كان مُرّاً » قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « لِيَرُدَّكَ عن الناس ما تعلمه من نفسك [٣] ، ولا تجد عليهم فيما يأتون [٤] ، وكفى بك عيباً أن تعرفَ من الناس ما تجهله من نفسك » .

---

(١) كما قال الحافظ المنذري في الترغيب : ٣ : ٥٣٠

(٢) أي : من الأمور الدنيوية .

(٣) أي : ليمنعك عن التكلم في الناس والوقيعة فيهم ، ما تعلم في نفسك من العيوب ، فقلما تخلو أنت من عيب يماثل عيوب الناس أو أقبح منه ، وأنت تشعر أو لا تشعر بذلك . كما في شرح المناوي .

(٤) أي : ولا تغضب عليهم فيما يفعلونه معك ، يقال : وجد عليه موجدة : غضب . اهـ شرح المناوي على الجامع الصغير .

وفي رواية الطبرانيّ [1] : « وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرفَ من الناس ما يجهلُ من نفسه ، ويستحيي لهم مما هو فيه ، ويؤذي جليسه » ثم ضرب رسولُ الله ﷺ بيده على صدري فقال : يا أبا ذرٍّ : « لا عَقْلَ كالتدبير ، ولا ورَعَ كالكَفِّ [2] ، ولا حَسَبَ [3] كحُسْنِ الخُلُق » .

﴿ الحديث الحادي والأربعون ﴾

يبين فيه النبي ﷺ جملة من فضائله الكريمة

روى الإمام مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ : أعطيتُ جوامعَ الكَلِم ، ونُصرتُ بالرُّعب ، وأحِلَّت لي الغنائم ، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافةً ، وخُتِم بيَ النبيُّون » .

فكان ﷺ كثيراً ما يتحدَّث بنعمة الله تعالى عليه ، بأنَّ اللهَ تعالى أعطاه جوامع الكلم ، وذلك : قوة الإيجاز في الألفاظ مع بسطٍ وكثرةٍ في المعاني .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بُعثت بجوامع الكلم ، ونُصرتُ بالرعب ، وبينا أنا نائم رأيتُني أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعتْ في يديَّ » .

وروى أبو يعلى في مسنده عن عمر مرفوعاً : « أُعطيتُ جوامعَ الكلم ، واختُصر لي الكلام اختصاراً » كما تقدَّم في جملة من الأحاديث الواردة في ذلك .

---

(١) كما في الجامع الصغير رامزاً إلى حسنه . وقال الشارح : ورواه أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه : ابن لال والديلمي .

(٢) أي : الامتناع عما يضطرب القلب في تحليله وتحريمه .

(٣) أي : ولا مجد ولا شرف مثل حسن الخلق .

أرجحية عقله الشريف ﷺ على سائر العقول

العقل مَوْهبَة إلهية وهبه الله تعالى للإنسان ، وشرّفه به على جميع أنواع الحيوان ، به يَعرف العاقلُ حَسَنَ الأشياء وقبيحها ، وكمالها ونقصانها ، وبه يعلم خيرَ الخَيْرَيْن وشَرَّ الشرَّيْن (١) .

ولقد بلغ سيدنا محمدٌ ﷺ رسولُ الله تعالى ، من أرجحيَّة العقل وكماله الغايةَ القصوى التي لم يبلغها أحد سواه ، وذلك بنعمة الله تعالى وفضله عليه ﷺ ، قال الله تعالى : « ن . والقلمِ وما يَسطُرون . ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون » أي : أنت في أعلى مستوى كمال العقل ، وسموِّ الفكر ، فلقد أقسم سبحانه بقوله « ن » وهو المَدَدُ الإلهي الفياض ، وبالقلم الأوَّل المستفيض ، وبما يسطُرُه المسطرون في المستوى الأعلى ، الذي سمع رسول الله ﷺ صريفَ أقلامه ، وما تسطِّره الأقلام المستمدة من القلم الأول .

أقسم بهذا القسم العظيم على سعة عقل هذا الرسول الكريم ، وأنه ليس فيه شائبة جنون ، وإنما هو صاحبُ العقل الأكمل ، والعلم الواسع الأفضل ، وأنه كيف لا يكون عقله فوق كل العقول ، وقد أنعم الله عليه وأكرمه فخصَّه بالنبوَّة الجامعة والخاتمة ، والرسالة العامَّة ، ونزول القرآن الجامع للعلوم كلها ، فإنَّ هذه النعم لا يتحملها إلاَّ من خصَّه الله تعالى بأكمل العقول وأرجحها .

ولذا قال : « ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون » أي ما أنت بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ، والقرآن الجامع لأنواع العلوم والحكمة ، ما أنت بمجنون ، فهو ينفي ما اختلقه أعداؤه ﷺ ، ويُثبت له بالدليل القاطع أرجحيَّة العقل والحكمة ، وذلك أن من أُوحي إليه القرآن الجامع للعلوم والمعارف ، وأُوحي إليه الحكمة العالية التي هي فوق كل حكمة ، كيف يُتصوَّر أن يكون فيه شائبة خلل أو نقص ؟ ! .

---

(١) وقد ذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه مراتب العقول ، وأن بعض مراتب العقل ينتهي إلى بعض ، إذا ارتفعت الحجب والقواطع ، فارجع إلى تفاصيل ذلك في كتبه .

وفي رواية الطبراني (١) : « وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرفَ من الناس ما يجهلُ من نفسه ، ويستحيي لهم مما هو فيه ، ويؤذي جليسه » ثم ضرب رسولُ الله ﷺ بيده على صدري فقال : يا أبا ذرٍّ : « لا عقلَ كالتدبير، ولا ورَعَ كالكفِّ (٢) ، ولا حسَبَ (٣) كحُسْن الخُلُق » .

﴿ الحديث الحادي والأربعون ﴾

يبين فيه النبي ﷺ جملة من فضائله الكريمة

روى الإمام مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ : أعطيتُ جوامعَ الكَلِم ، ونُصرتُ بالرُّعب ، وأحلَّت لي الغنائم ، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافةً ، وخُتِم بيَ النبيُّون » .

فكان ﷺ كثيراً ما يتحدَّث بنعمة الله تعالى عليه ، بأنَّ اللهَ تعالى أعطاه جوامع الكلم ، وذلك : قوة الإيجاز في الألفاظ مع بسطٍ وكثرةٍ في المعاني .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بُعثت بجوامع الكلم ، ونُصرتُ بالرعب ، وبينا أنا نائم رأيتُني أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعتْ في يديَّ » .

وروى أبو يعلى في مسنده عن عمر مرفوعاً : « أُعطيتُ جوامعَ الكلم ، واختُصر لي الكلام اختصاراً » كما تقدَّم في جملة من الأحاديث الواردة في ذلك .

---

(١) كما في الجامع الصغير رامزاً إلى حسنه . وقال الشارح : ورواه أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه : ابن لال والديلمي .

(٢) أي : الامتناع عما يضطرب القلب في تحليله وتحريمه .

(٣) أي : ولا مجد ولا شرف مثل حسن الخلق .

أرجحية عقله الشريف ﷺ على سائر العقول

العقل مَوْهبة إلهية وهبه الله تعالى للإنسان ، وشرّفه به على جميع أنواع الحيوان ، به يَعرف العاقلُ حَسَنَ الأشياء وقبيحها ، وكمالها ونقصانها ، وبه يعلم خيرَ الخَيْرَيْنِ وشرَّ الشرَّيْن [1] .

ولقد بلغ سيدنا محمدٌ ﷺ رسولُ الله تعالى ، من أرجحيَّة العقل وكماله الغايةَ القصوى التي لم يبلغها أحد سواه ، وذلك بنعمة الله تعالى وفضله عليه ﷺ ، قال الله تعالى : « ن . والقلمِ وما يَسطُرون . ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون » أي : أنت في أعلى مستوى كمال العقل ، وسموّ الفكر ، فلقد أقسم سبحانه بقوله « ن » وهو المَدَدُ الإلهي الفياض ، وبالقلم الأوّل المستفيض ، وبما يسطّرُه المسطرون في المستوى الأعلى ، الذي سمع رسول الله ﷺ صريفَ أقلامه ، وما تسطّره الأقلام المستمدة من القلم الأول .

أقسم بهذا القسم العظيم على سعة عقل هذا الرسول الكريم ، وأنه ليس فيه شائبة جنون ، وإنما هو صاحبُ العقل الأكمل ، والعلم الواسع الأفضل ، وأنه كيف لا يكون عقله فوق كل العقول ، وقد أنعم الله عليه وأكرمه فخصّه بالنبوّة الجامعة والخاتمة ، والرسالة العامّة ، ونزول القرآن الجامع للعلوم كلها ، فإنّ هذه النعم لا يتحملها إلاّ من خصّه الله تعالى بأكمل العقول وأرجحها .

ولذا قال : « ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون » أي ما أنت بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ، والقرآن الجامع لأنواع العلوم والحكمة ، ما أنت بمجنون ، فهو ينفي ما اختلقه أعداؤه ﷺ ، ويُثبت له بالدليل القاطع أرجحيّة العقل والحكمة ، وذلك أن من أُوحي إليه القرآن الجامع للعلوم والمعارف ، وأُوحي إليه الحكمة العالية التي هي فوق كل حكمة ، كيف يُتصوَّر أن يكون فيه شائبة خلل أو نقص ؟ ! .

---

(١) وقد ذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه مراتب العقول ، وأن بعض مراتب العقل ينتهي إلى بعض ، إذا ارتفعت الحجب والقواطع ، فارجع إلى تفاصيل ذلك في كتبه .

« وإن لك لأجراً » أي بسبب صبرك على طعنهم بك « غيرَ ممنون » غير مقطوع « وإنك لعلى خلق عظيم » .

فهو ﷺ أكمل خلق الله عقلاً ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضلُ الناس أعقلُ الناس ، وذلك نبيكم محمد ﷺ .

وقال وهب بن منبِّه التابعي الثقة ، الذي روى له الشيخان وغيرهما : قرأتُ في أحدٍ وسبعين كتاباً — أي : من الكتب السابقة — فوجدتُ في جميعها ، أنَّ الله تعالى لم يعطِ جميعَ الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها ، من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلاَّ كحبة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً ﷺ أرجحُ الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً [١] .

وإنَّ العقل الكامل هو الأصل الذي تنشأ عنه الخصال الحميدة ، والمواهب الرشيدة ، وبه تُقتبس الفضائل ، وتجتنب الرذائل ، وهو الذي يُسْلِم صاحبَه إلى مجامع الخير والفضل ، كما ورد في حديث إسلام خالد بن الوليد ، حين دخل على رسول الله ﷺ ، فسلم عليه بالنبوَّة ؛ قال : فردَّ عليَّ السلام بوجه طَلْق ، فقلتُ : إني أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأنك رسول الله . فقال له : « تعالَ » فأقبل فقال رسولُ الله ﷺ : « الحمدُ لله الذي هداكَ ؛ قد كنتُ أرى لكَ عقلاً ، رجوتُ أن لا يُسلمَك إلا إلى الخير . . » الحديث .

وروى الطبراني [٢] عن قُرَّة بن هبيرة رضي الله عنه أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال : إنه كان لنا أربابٌ وربَّاتٌ نعبدُهنَّ من دون الله عزَّ وجل ، فدعوناهنَّ فلم يُجبن ، وسألناهنَّ فلم يُعطينَ ، فجئناك ، فهدانا اللهُ بك ؛ فنحن نعبدُ الله ، فقال رسولُ الله ﷺ : « قد أفلحَ مَن رُزقَ لُبّاً » فقال : يا رسول الله ألْبِسْني ثوبين من ثيابك قد لبستَهما ، فكساه ، فلما كان بالموقف من عرفات ، قال رسول الله ﷺ : « أعِدْ عليَّ مقالتَك » فأعاد عليه ، فقال رسولُ الله ﷺ : « قد أفلح مَنْ رُزِقَ

---

(١) كما في شرح المواهب .

(٢) قال في مجمع الزوائد : فيه راو لم يسم ، وبقية رجاله ثقات .

لُبّاً » أي : عقلاً راجحاً اهتدى به إلى الإسلام ، وفعل المأمورات ، وترك المنهيات . قال تعالى : « إنما يتذكّرُ أولوا الألباب » .

وفي هذا بيان منه ﷺ أن العقل الرجيح ، يُلزِم صاحبَه بالتمسك بهذا الدين الإسلامي ، لأنه دين كامل صحيح ، وهو غاية بغية العقل الرجيح ، كما رُوِيَ عنه ﷺ : « رأس العقل بعد الإيمان بالله : الحياءُ وحُسْنُ الخُلُق » (١) . لأنّ الإسلام هو الدين المحكم ، وهو المعقول المبرم ، قال الله تعالى : « إنا أنزلناه قُرآناً عربياً لعلكم تعقلون » أي : تعقلون معانيه وأوامره ومناهيه ، فتعلمون يقيناً أنه لا يأمركم إلا بما هو خيرٌ لكم ، ولا ينهاكم إلا عمّا هو شرٌّ لكم ، كما قال ابن مسعود : إذا سمعتَ اللهَ يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فأرْعِها سمعَك ، فكل من استمعَ إلى هذا الدين وعَقَلَه ووعاه وفهمه ، لا بد أن يُسلم له ويستسلم إليه .

ولما دخل الأعرابيُّ الفطريُّ العاقلُ على رسول الله ﷺ وبيّن له ﷺ أوامرَ الإسلام ومناهيه ، فخرج الأعرابيُّ وأعلن إسلامَه فقال له قومُه : بمَ عرفتَ أنّه رسول الله ؟ فقال الأعرابي : ما أمر محمدٌ ﷺ بأمر قال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيءٍ فقال : ليتَه أمرَ به .

وقد أدرك عبد المطلب حقيّة الآخرة بعقله ، وذلك أنه قال يوماً : ما من ظالم يشتدُّ ظلمه إلا انتقم الله منه قبل أن يموت ، فقيل له : فلان جار وطغى ! فقال : انتقم الله منه يوم كذا . فقيل له : فلان ، فقال : انتقم الله منه يوم كذا . فقيل له : فلان جار وطغى ولم يُصبْه شيء ! ففكّر طويلاً ثم قال : إذاً لا بدّ من يوم آخر ينتقم الله منه .

وإلى ذلك نبّه الله تعالى العقلاء فقال سبحانه : « أمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات ، سواءً محياهم ومماتهم ؟ ! ساء ما يحكمون ، وخلق اللهُ السّموات والأرض بالحقّ ، ولتُجزى كلُّ نفْس بما كسبَتْ وهم لا يُظْلَمون » .

ومن ثَمّ قال تعالى مخبراً عمّا يقول الكفّارُ يوم القيامة : « وقالوا : لو كنّا

---

(١) رواه صاحب الفردوس عن أنس ، وضعفه النسائي ، كما في فيض القدير .

نسمعُ أو نعقلُ ما كنّا في أصحاب السعير » يعني : أنهم لو سمعوا لهذا الدّين لعلمو وعقلوا أوامره ، ومعانيه وحِكَمه وأحكامه ، لكنهم عمُوا وصمُّوا .

وعن الحسن البصري مرسلاً يرفعه : « لمّا خلقَ اللهُ العقلَ قال له : أقبِلْ ، فأقبلَ ، ثم قال له : أدبر ، فأدبَرَ ، فقال : ما خلقتُ خلقاً أحبَّ اليَّ منكَ ، بك آخذُ وبك أُعطي » فأحبُّ العقولِ إلى الله تعالى هو عقل سيدنا محمد ﷺ ، لأنه أكمل العقول وأرجحها وأوسعها .

ويتجلى لك كمالُ عقله ﷺ وسعةُ فكره ، في جميع قضاياه وأعماله وأقواله وأحواله ، ونحن نذكر لك أطرافاً موجزة هي قطرة من بحره ﷺ .

أولاً — إن مواجهته ﷺ للعالم الذي انتشرت الجاهلية الجهلاء في جميع طبقاته ومللِه : عربهم وعجمهم ، حتى إنهم ضلَّت عقولهم ، وجهلوا دينَهم ، وصاروا يعبدون أوثاناً وأحجاراً نحتَتْها أيديهم ، وربما صنعَ أحدُهم صنماً صغيراً من تمر أو عجوة فعبده مدة مديدة ، حتى إذا جاعَ أكله ! .

فمواجهة هذه العقلية الصخْرة المتحجِّرة المنحرفة ، وتحويلها إلى عقلية لطيفة سليمة صائبة ، لهو أمر كبير يحتاج إلى عقل رجيح ، وفكر صحيح ، وقوة بيان ، وفصاحة لسان ، وبرهان ساطع ، ودليل قاطع ، وتحمُّل وأناة ، وحلم وصفح ، وعلم واسع بمختلف الحجج وأنواع الأساليب .

ولا ريب أنَّ جميع ذلك كان بتعاليم أحكم الحاكمين ، وبوحي ربِّ العالمين ، فإنه سبحانه هو الذي خطَّ له طريق الدعوة ، وبين له أساليبها ، وأوضح له مناهجها ، ليسير عليها ، كما قال سبحانه : « ادْعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسنُ ، إنَّ ربَّكَ هو أعلمُ بمنْ ضلَّ عن سبيلِه ، وهو أعلم بالمهتدين » .

ولكنَّ التعاليمَ الإلهية والإيحاءات الربانيَّة ، لا بدَّ لها من عقلٍ كبير ، مشرق منير ، قد أعدَّه الله تعالى لحملها ، ثم تطبيقها وتنزيلها في منازلها اللائقة بها ، فإن الناس تتفاوتُ مراتبهم ، فمنهم : من إذا عرُضتْ عليه الحكمة سلَّمَ لها ، واستسلم لأمرها ، ومنهم : من أخذت بنفسه الشهواتُ المفرطةُ مأخذَها ، فيحتاج إلى وعظ

وتذكير بسوء ما يعمل ، وعواقب ما يقترف ، ومنهم : من تسلطت على قلبه الشبهات الاعتقاديّة الفاسدة ، فهو يحتاج إلى ما يزيلها من قلبه بالحجج القاطعة ، والجدل بالّتي هي أحسن . ولذا نوّعَ اللهُ تعالى أساليبَ الدعوة ، لأنَّ كلَّ أسلوبٍ له موقعه وأثره وموضعه .

ومن هنا يُعلم يقيناً أن أعقلَ العقلاءِ هو سيدنا محمد ﷺ .

ثانياً — إنَّ من تأمل في أساليب حجته على عَبَدَةِ الأوثان ، ومن نظر في أدلته على اليهود والنصارى ، وإلزامهم الحجة وإفحامهم وإلقامهم حجر الخذلان ، تراءتْ له إشعاعاتٌ من عقليته الكبرى ﷺ ، وأيقن أنَّ عقله ﷺ أكمل العقول وأعلاها ، وأوسعها وأفضلها .

فهذا حُصَين والد عمران ، الذي يعبد سبعة أصنام في الأرض ، ويرى أنها آلهة ، وكان معظّماً في قريش ، فجاؤوا إليه وقالوا له : كلِّم لنا هذا الرجل — أي محمداً ﷺ — فإنه يذكر آلهتَنا ويسبُّهُم ، وجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « أوسعوا للشيخ » أي كبير السنِّ وهو حصين ، فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : أنك تشتم آلهتَنا وتذكرهم ؟

فقال ﷺ : « يا حصين ، كم تعبد مِن إله ؟ » قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السماء . فقال ﷺ : « فإذا مسَّكَ الضرُّ من تدعو ؟ » فقال حصين : أدعو الذي في السماء ، فقال ﷺ : « فإذا هلك المال من تدعو ؟ » فقال حصين : أدعو الذي في السَّماء ، فقال ﷺ : « فيستجيبُ لك وحده وتُشركهم معه ؟ ! أرضيتَه في الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك ؟ » .

فقال حصين : لا واحدة من هاتين ، فقال ﷺ : « يا حصين أسلم تسلمْ » فقال : إنَّ لي قوماً وعشيرةً ، فماذا أقول ؟

فقال : « قل اللهمَّ أستهديك لأَرْشَدِ أمري ، وزدني علماً ينفعني » فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم . فقام اليه عمران ابنه فقبَّل رأسَه ويديْه ورجلَيه ، فلما رأى ذلك النبيّ ﷺ بكى ، وقال : « بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين

— أبوه — وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ولم يلتفتْ ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقَّة » .

فلما أراد حصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه : « قومُوا فشيِّعوه إلى منزله » أي : إكراماً له ، فلما خرج من سُدَّة الباب رأتْه قريش وقد أسلم ، فقالوا : صبأ ، وتفرَّقوا عنه (١) .

وانظر في أسلوب حجته ﷺ مع الرجل الذي جاء يطلب منه أن يرخِّصَ له بالزِّنا ، كما ورد في المسند أنه ﷺ جاءه رجل يستأذنه في الزنا ، فقال له ﷺ : « أترضى أن يزنيَ الناسُ بأمك ؟ » فقال : لا ، فقال ﷺ : « وكذلك الناس يكرهون . أترضى أن يزنيَ الناسُ بأختك ؟ » فقال : لا ، قال : « فكذلك الناس يكرهون » . ثم قال : « أترضى أن يزنيَ الناسُ بابنتك ؟ » فقال : لا . قال : « فكذلك الناس يكرهون » ، فقال : يا رسول الله أُشهدك أني تُبْتُ من الزنا .

فانظر في لطافة هذا الأسلوب في الحجة ، ودقَّتها وقوَّة تأثيرها في النفوس !

ثالثاً — إن حسن تأليفه ﷺ بين قومه الذين كانوا أشتاتاً منقسمين على بعضهم ، ورفعَه الخلافَ من بينهم ، وإبعاده إياهم عن الشحناء والبغضاء ، لا سيما في محازّ الاختلافات ، ومثار العصبيَّات والقَبَلِيَّات ، إنَّ هذا لمن أكبر الشواهد على سعة عقله ﷺ ، وسموِّ فكره ، وإليك حادثةَ وضع الحجر الأسود في موضعه ، وتنازع قبائل العرب وتنافسهم ، وتزاحمهم على ذلك حتى همُّوا ببعضهم ، فلم يخرجهم من ذلك إلاَّ رأيه السديد ﷺ ، حتى إنهم أصبحوا راضين ، وكان ذلك قبل بعثته ﷺ ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة !

وذلك أنَّ قريشاً لما جدَّدت بناء الكعبة تنازعوا في رفع الحجر الأسود ، وتنافسوا رجاءَ أن تنال كلَّ قبيلة شرف رفْعِه ووضعه في موضعه ، وعَظُم القيلُ والقالُ بينهم ، ثم إنهم قالوا : نُحكِّم أوَّلَ داخل من باب بني شيبة ، فكان ﷺ أوَّلَ مَنْ دخل منه . فأخبروه ، فأمر ﷺ بثوبٍ فجيء به ، فوضع الحجرُ وسط الثوب وأمرَ كلَّ

(١) عزاه في الإصابة إلى ابن خزيمة بإسناده .

فخذ من أفخاذ العرب أن يأخذوا بطرف من الثوب — أي بجانب منه — فرفعوه كلُّهم ، فلمّا أنهَوْه إلى مقرِّه ، أخذه ﷺ فوضعه بيده في موضعه [١] .

فانظر كيف سلك بهم رسول الله ﷺ طريقَ الإنصافِ ليرفع من بينهم الخلاف .

رابعاً — ومن أعظمِ ما يدلُّ على آرجحيّة عقله الشريف ﷺ وفرط ذكائه : مواقفه اليقظة مع المتصدِّين له بالعداوة ، وأخذُه بأنواع الحذر منهم ، وردُّه مكرهم عليهم ، ويظهر ذلك في الوقائع معهم ، ونقدِّم إليك نماذجَ موجزة :

أ — أخذه بأسباب التحفظ من مكرهم وخديعتهم ؛ كما ورد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُتي بي إلى النبي ﷺ مَقْدَمَه المدينة — أي حين قدم المدينة — فقيل له ﷺ : هذا من بني النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأتُ عليه ﷺ ، فأعجبه ذلك ، فقال لي ﷺ : « تعلَّمْ كتابَ يهود — أي كتابتهم ولغتهم — فإني ما آمنهم على كتابي » قال زيد : ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُه ، فكنتُ أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له ﷺ [٢] .

وقال في الإصابة : ورويناه في مسند عبد بن حُمَيد من طريق ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت قال : قال لي النبي ﷺ : « إني أكتب إلى قوم ، فأخاف أن يزيدوا أو ينقصُوا فتعلم السريانية » قال زيد : فتعلمتها في سبعةَ عشر يوماً .

وفي « خِطَط » المقريزي : كتابة السريانية قديمة ، لها أصل في السنة ، فقد أخرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود في كتاب المصاحف عن زيد بن ثابت قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد ، فهل تستطيعُ أن تَعَلَّم كتاب العبرانيَّة ؟ — أو قال السريانية » فقلت : نعم ، فتعلمتها في سبع عشرة ليلة .

فقد أمر ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية ، ليكاتب اليهود بلغتهم ، وليأمن تلاعبهم في المكاتبات ، ولغير ذلك ، ومن ثَمَّ قيل : مَن تعلَّم لغةَ قومٍ أمِنَ مكرَهم .

---

(١) وقد روى هذه القصة أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما ، كما في الجزء الأول من شرح المواهب .

(٢) عزاه الحافظ في الإصابة إلى البخاري تعليقاً ، وإلى البغوي وأبي يعلى موصولا .

ب — إرساله ﷺ من يكشف عن عدد العدو وعُدّته ، وأساليبه في معرفة ذلك :

فقد روى أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما ، أنّ النبي ﷺ بعث يوم بدر علياً كرّم الله تعالى وجهه والزبير وسعد بن مالك في نفر ، إلى ماء بدر ، يلتمسون له الخبر عن العدو : عددِهم وعُدّتِهم ، فأصابوا راوية لقريش فيها غلام — أي عبد مملوك — لبني الحجاج ، وغلام لبني العاص ، فجعلوا يسألونهما عن عدد القوم المشركين ، فطفقَا يقولان : العدد كثير ، فأتَوْا بهما رسول الله ﷺ وهو يصلي ، فلمّا سلّم قال : « أخبراني عن قريش » فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي تراه بالعُدْوة القُصوى ، فقال ﷺ : « كم القوم ؟ » فقالا : كثير ، فقال : « ما عِدّتهم ؟ » قالا : ما ندري ، فقال ﷺ : « كم ينحرون — أي من الإبل — كلّ يوم ؟ » فقالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال ﷺ لأصحابه : « القوم — أي العدو — ما بين التسعمائة والألف » وكان الأمر كذلك [1] .

ج — إرساله ﷺ من يكشف له عن خبر الأعداء، من طريق خفي الحال والقال:

ومن ذلك إرساله حذيفةَ يوم الأحزاب ، وقوله : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتينا . وفي رواية : اذهب فائتني بخبر القوم ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتيني » [2] .

د — إرساله ﷺ من يُخذّل بين صفوف أعدائه مخادعة لهم ، واختياره الرجل المناسب لأن يتدخل بين العدو ، يخدعهم ويفرّق شملهم :

ومن ذلك : ما فعله ﷺ يوم الأحزاب ، حين أتاه نُعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ، فقال : إني أسلمتُ ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فَمُرْني بما شئت ، فقال ﷺ : « إنما أنتَ فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعتَ ، فإنّ الحرب خَدْعة ، فاذهب فشتّتْ جموعَ العدو وألْقِ بينهم بدهائك » .

---

(١) انظر شرح المواهب ٢ : ١٢٠ .

(٢) عزاه في شرح المواهب وغيره إلى ابن إسحاق .

فخرجَ حتى أتى بني قُريظة — وهم طائفة من اليهود — وكان لهم نديماً ، فقال : قد عرفتم ودّي إياكم ، وخاصةَ ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقتَ لستَ عندنا بمتّهم . فقال لهم : إن قريشاً وغَطَفان (١) ليسوا كأنتم — أي مثلكم — البلدُ بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإنهم جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليهم ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره — أي بغير بلدكم — فإن رأوْا نُهْزَةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوْا بينكم وبينه — أي محمد وأصحابه — ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقةً لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا لنعيم : لقد أشرتَ بالرأي .

ثم أتى نُعيم بن مسعود قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً ؛ وإنه قد بلغني أمر رأيتُ حقاً عليَّ أن أبلغكموه ، نصحاً لكم فاكتموه عني ، قالوا : نفعل ، فقال نُعيم : إن يهودَ ندموا على ما صنعوا ، وأرسلوا إلى محمد : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، أيُرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغَطَفان رجالاً نضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم — محمد — : نعم . قال نُعيم : فإن بعثتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً .

ثم إن نعيماً أتى غَطفان فقال : إنكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليَّ ، ولا أراكم تتهمونني — أي بل أنا مصدّقٌ عندكم — فقالوا : صدقتَ وما أنت عندنا بمتهم ، قال نعيم : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فقال لهم مثل ما قال لقريش .

وكان من صُنْعِ الله لرسوله ﷺ أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى يهود من بني قريظة ، عكرمةَ في نفر من القبيلتين : إنا لسنا بدار مُقام ، وقد هلك

(١) وقد جاؤوا من مكة ، وتجمعوا على جانب المدينة المنورة ، لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتحالفت معهم بنو قريظة من اليهود المقيمين في المدينة على ذلك .

الخَفَّ والحافر — أي الإبل والخيل — فاغدوا للقتال ، حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا — أي يهود بني قريظة — إليهم — إلى قريش وغطفان — : إن اليوم يوم السبت ، لا نعمل فيه شيئاً وكان قد أحدث فيه — أي في السبت — بعضُنا حَدَثاً ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم — أي مُسِخوا — ولسنا بمقاتلين معكم حتى تُعْطونا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن اشتدَّ عليكم القتال ، أنْ ترجعوا إلى بلادكم — مكة وما حولها — وتتركونا والرجل — أي محمداً — ولا طاقةَ لنا به .

فقالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعم به لَحَقٌ ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ، فأبَوْا عليهم ، وخذَّل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شديدة البرد ، فأكْفأت قدورهم ، وطرحتْ أبنيتهم [١] .

هـ — تعميته الأمور على أعدائه وتلبيس الأمور عليهم :

كان ﷺ يُلبِّس أمور الحرب على أعدائه ويُعمِّيها عنهم ، كيلا يتفطنوا لها ، ويستعدوا للدفع ، أو يزيدوا في الجمع ، وفي ذلك حقن للدماء .

جاء في الصحيحين عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة — أي غزوة تبوك — غزاها في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغزا عدداً كبيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أُهْبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد — أي فصرَّح لهم بالجهة التي يريدها — ولم يورِّ بغيرها .

كما أنه ﷺ لبَّس الأمر على أعدائه ليلة الهجرة ، حين قصدوا بيته ﷺ ليقتلوه ، فأمر علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه ﷺ ، ويتسجَّى ببردته ﷺ .

---

(١) ذكر ذلك ابن إسحاق ، كما في شرح المواهب ، ولخص ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح .

و — أخذه ﷺ بالأسباب التي فيها تخويف وإرهاب :

كان ﷺ يأخذ بالأسباب التي فيها إرهابُ أعدائه وتخويفُهم ، وذلك ليُضْعِفَ من حدّتهم ، ويكفَّ من شرهم وضُرّهم ، وشراسة نفوسهم .

فقد ورد أن النبي ﷺ لما توجّه لفتح مكة ، وانتهى إلى مَرِّ الظّهران ، أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش ، وترهبَ من كثرتها ، حتى قاله أبو سفيان ومن معه حين رأوها من بعيد : لكأنها نيران عرفة — أي في كثرتها — وكان ذلك مما ألقىٰ الخوفَ في قلوبهم .

كما أمر ﷺ عمه العباس أن يُجلس أبا سفيان على الطريق عند مضيق خَطْم الجبل ، وذلك ليشاهد جيوش المسلمين وكتائبهم حين تمر عليه ، ثم جعلتْ تمرّ عليه كتيبةٌ كتيبة ، فجعل أبو سفيان يقول للعباس : مَنْ هذه الكتيبة يا عبّاس ؟ وطفق العباس يخبره عن تلك الكتائب واحدةً واحدةً ، وذلك مما حمل أبا سفيان على التطامن والاستسلام ، إلى أن دخل في الإسلام .

ز — انتقاؤه الشجعان الأكفاء لمقاومة المعارك العنيفة :

كان ﷺ ينتقي لخوض المعارك العنيفة أكْفاء الرجال من الأبطال ، حسب الاستعداد والمناسبة ، لخوض تلك المعركة الدامية ، ثم يتبين للصحابة بعد ذلك دقةُ نظره ﷺ في تعيين ذلك الرجل الذي انتقاه ، وصواب رأيه فيه .

فهذا يوم خيبر يقول ﷺ : « لأُعْطينّ الرايةَ غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويفتح الله على يديه » فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو منه أن يُعطاها ، فقال ﷺ : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه ، فأرسل إليه ، فأُتِيَ به وهو أرمد ، فبصق ﷺ في عينيه ودعا له فقال : « اللهم أذهِبْ عنه الحرَّ والقَرَّ — أي البرد — فبرأ كأنْ لم يكن به وجع » .

وفي رواية البيهقي والطبراني عن علي كرّم الله وجهه قال : فما رمدتُ ولا صُدعت مذ دفع إليّ رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر ، وفي رواية يونس عن ابن إسحاق : وكان علي رضي الله عنه يلبس القَباء المحشوّ الثخين في شدّة الحر

فلا يبالي الحرَّ ، ويلبس الثوب الخفيف في شدة البرد فلا يبالي البرد ، فسئل عن ذلك ؟ فأجاب بأن ذلك بدعائه ﷺ يوم خيبر .

وفي يوم أحُد لما اشتدت المعركة قال ﷺ : « مَنْ يأخذُ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال ، منهم : الزبير بن العوام فطلبه ثلاث مرات ، كل ذلك يُعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دُجانة سماك بن خرَشة فقال : وما حقُّه يارسول الله ؟ قال : « أن تضرب به وجه العدو حتى ينحني » ، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، فلما رآه ﷺ يتبختر قال ﷺ : « إنها لمِشْيةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » قال الزبير : والله لأنظرن مايصنع أبو دجانة ، واتبعتُه ، فأخذ بعصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار : أخرج عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألاّ أقومَ الدهرَ في الكيُّول (١) أضربْ بسيف الله والرسول

فجعل لايلقى أحداً من المشركين إلا قتله ، قال الزبير : وكان في المشركين رجل لايَدع لنا جريحاً إلا ذَفَّف عليه (٢) فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتّقاه بدَرقته ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دجانه فقتله ، ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل عنها وقال : أكرمتُ سيفَ رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة (٣) .

ح — انتقاؤه الرسل الأذكياء العقلاء لبعثهم إلى الأمراء والملوك ، يبلغون ويُدْلون بالحجج المعقولة والحِكَم المقبولة :

يشهد لهم بذلك حُسْن عرضهم في مواقفهم مع الملوك ، وقوة بيانهم وبرهانهم .
فهذا العلاء بن الحضرمي يبعثه رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوَى ، ومعه كتاب

---

(١) الكيول : بفتح الكاف وتشديد الياء : مؤخرة الصفوف .
(٢) بالذال المعجمة وبالمهملة : أسرع في قتله ، كما في شرح المواهب .
(٣) انظر شرح المواهب .

يدعوه إلى الاسلام ، فلما قدم عليه قال له : يامنذر إنك عظيم العقل فلا تصغرن في الآخرة ، إن هذه المجوسية شرُّ دين ، ليس فيها تكريم للعرب ، ولا علم عند أهل الكتاب أنهم ينكحون مايُستحيا من نكاحه ، ويأكلون مايُتكرم عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ، ولستَ بعديم العقل ولا الرأي ، فانظر هل ينبغي لمن لايكذب في الدنيا أن لاتصدقه ؟ ولمن لايخون أن لاتأمنه ؟ ولمن لا يُخلِفُ أن لاتثقَ به ؟ .

فإن كان هذا هكذا : فهذا هو النبي الأميّ الذي — والله — لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليتَ ما أمر به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أوليتَه زاد في عفوه ، أو نقص من عقابه ، إذْ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر .

فقال له المنذر : قد نظرتُ في هذا الذي في يدي — دين المجوسية — فوجدتُه للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟! ولقد عجبتُ أمس ممن يقبله — أي يدخل في الاسلام — وعجبتُ اليوم ممن يردُّه — أي لايدخل فيه مع أنه المعقول — وإن من إعظام ماجاء به أن يُعظم رسوله ، وسأنظر .

أي فيما أصنع من الذهاب إلى هذا الرسول ﷺ — أو مكاتبته ، أو غير ذلك ، لا في أنه يُسْلم أو لا يُسْلم ، فإن قوله « وعجبتُ اليوم ممن يرده » اعترافٌ منه بأنه دين حق . اهـ كما في شرح المواهب وغيره .

وهذا المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، شقيق أم سلمة أم المؤمنين ، بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال أحد ملوك حمير ، فلما قدم عليه المهاجر قال له : ياحارث إنك كنتَ أول من عرض عليه المصطفى نفسه فتخطيْتَ عنه ، وأنتَ أعظم الملوك قدراً ، وإذا نظرتَ في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا سرك يومك فخفْ غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبتْ آثارُها ، وبقيتْ أخبارُها ، عاشوا طويلاً وأمّلوا بعيداً ، وتزودوا قليلاً .

فمنهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النقم ، وأنا أدعوك إلى الرب الذي

إن أردتَ الهدى لم يمنعْك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد ، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسنَ مما يأمر به ، ولا أقبحَ مما ينهى عنه .

واعلم أن لك رباً يميت الحي ، ويحيي الميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . اهـ كما في الروض الأُنُف .

ط — معاملته ﷺ وحسن سياسته ، ومداراته للناس ، على مختلف طبقاتهم ، تأليفاً لهم ، واستمالتهم نحو الحق الذي جاء به ، بتلطيف الحال ولين المقال :

كما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « رأس العقل بعد الإيمان بالله : التوددُ إلى الناس »(1) .

وكان يداري السفهاء والحمقى ، ليكفَّ من غائلتهم وشرهم ، وليستميلهم ويجلب قلوبهم نحو السَّداد والرَّشاد .

ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال : « بئس أخو العشيرة ، وبئس (2) ابن العشيرة » فلما جلس تَطَلَّق (3) النبي ﷺ في وجهه ، وانبسط إليه ، وفي رواية : فلما دخل ألانَ له الكلام ، فلما انطلق الرجل قالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله حين رأيتَ الرجل قلتَ له كذا وكذا ، ثم انطلقتَ في وجهه ، وانبسطت إليه ؟ ! فقال ﷺ : « ياعائشة متى عهدتِني فَحَّاشاً؟ إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتِّقاءَ شره . وفي رواية : اتقاءَ فحشه » أي لأجل اتقاء قبح قوله وفعله . فلما دخل هذا الرجل ، وكان يقال له الأحمق — أي فاسد العقل — لم يقابله ﷺ بغلظة وفحش ، بل ألانَ له القول ، وسلك معه مسلك المداراة .

---

(1) رواه البيهقي والبزار ، وسنده ضعيف ، كما في فيض القدير وشرح المواهب ، وعزاه في فتح الباري إلى البزار بلفظ : رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس ، وتعقبه السخاوي بأن لفظ البزار « التودد إلى الناس » اهـ كما في شرح المواهب .

(2) بالواو ، وفي رواية : بأو ، وهو شك من الراوي حينئذ .

(3) قال في الفتح : أي أبدى له طلاقة ، وفي رواية : بش اهـ .

ولذا قال العلماء : هذا الحديث أصل في المدارة ، وفرّقوا بين المدارة المطلوبة ، وبين المداهنة المذمومة : أن المداراة هي بذل الدنيا لصلاح أمر الدنيا أو الدين ، أو صلاح الدنيا والدين معاً ، ومن ذلك البذل : لينُ الكلام ، وترك الإغلاظ في القول والرفق بالجاهل في التعليم ، والرفق بالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه مالم يُظهر ماهو فيه ، والانكار عليه بلطمة حتى يرتدع عما هو فيه [1] .

قال الإمام القسطلاني : وهي مباحة وربما استُحْسِنت ؛ قال الحافظ الزرقاني : وربما استُحسنت فكانت مستحبة أوواجبة ؛ وللديلمي في الفردوس عن عائشة مرفوعاً : « إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » ، ولابن عدي والطبراني عن جابر مرفوعاً : « مداراة الناس صدقة » [2] اهـ .

وأما المداهنة فهي : بذل الدين لصلاح الدنيا ، وهي مذمومة ، وقد نزّه الله تعالى نبيه ﷺ عنها ، فقال : « ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدهنون » وإنما كان ﷺ يداري ولا يداهن .

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُقبل بوجهه على شرّ القوم ، يتألّفهم بذلك . . . الحديث رواه الترمذي وغيره ويأتي بتمامه .

خامساً — ومن أعظم الأدلة على كمال عقله الشريف ﷺ وأرجحيّته : سعةُ علومه ﷺ فقد أفاض الله تعالى عليه العلوم العظمى ، والمعارف الكبرى ، وأراه الآيات ، وأيّده بالبيّنات ، وصدّقه بالمعجزات ، وجمع له جميع أنواع الوحي الآلهي ، وذلك لايقوم به ولا يقدرلتحمُّله إلا من خصّه الله تعالى بأعظم قلب، وأوسع عقلٍ ،ألا وهو السيِّد الأكرم ﷺ .

ومما ينبغي أن يُعلم في هذه المناسبة أن جميع ماجاء به رسول الله ﷺ من القضايا والأوامر ، والارشادات والتعليمات ، والجزئيات والكليات ، هي أمانيُّ العقلاء والحكماء ، وغايات أهل النظر والفكر [3] ، ويتضح لك ذلك من وجوه :

---

(١) انظر شرح المواهب .

(٢) كلا الحديثين فيه ضعف ، كما في شرح المناوي .

(٣) كما أعلن ذلك العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه للمنذر بن ساوى حين أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إليه واعترف له بذلك المنذر كما تقدم .

الوجه الأول — إن موضع التكاليف الشرعية هو العقل ، حتى إذا فُقِد العقل ارتفع التكليف ، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم أوامر التكليف ، فلو جاءت الأوامر الشرعية التي جاء بها ﷺ على خلاف ما تقتضيه العقول السليمة ، لكان لزوم التكليف بها على العقلاء في غير موضعه .

الوجه الثاني — لوكانت أوامره ومناهيه وقضاياه غير معقولة ، لكان التكليف بها تكليفاً بما لا يُطاق ، لأنه تكليف بالتصديق بما لا يصدقه العقل .

الوجه الثالث — لوكان فيما جاء به ﷺ مناقضة للعقول ، لكان الكفار في زمنه أول من ردُّوا عليه بذلك ، لأنهم كانوا في غاية الحرص على ردِّ ماجاء به ﷺ ، حتى إنهم كانوا يفترون عليه وعلى شريعته ؛ فتارةً يقولون ساحر ، وتارة مجنون ، وتارة يكذبونه ؛ كما أنهم كانوا يقولون في القرآن : سحر وشعر ، وغير ذلك من كلامهم المتناقض ، فان السحر والشعر كيف يتفق مع الجنون . . . !! .

فلو كانت قضاياه ﷺ غير معقولة لكان أولى ما يقولون : إن هذا لا يعقل ، أو مخالف للعقول ونحو ذلك ، ولَمَّا صَدَرَ منهم ذلك التناقض في قولهم ساحر وشاعر ونحو ذلك ! .

الوجه الرابع — إن جميع العقلاء والحكماء في زمنه ﷺ شهدوا بحقّية ما جاء به ، وأنه المعقول المحكم ، ولذلك سلّموا وأسلموا .

فهذا المنذر بن ساوى يقول : ومايمنعني من دين فيه أمنية الحياة ؟ كما تقدم .

وهذا النّجاشي حين قال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : إنا كنا قوماً أهلَ جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القوي فينا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله عزّ وجلّ لنوحّده ونعبده ، ونخلع ماكنا نحن وآباؤنا نعبد من دون الله : من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحق الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم .

فقال النجاشي بعد ذلك : مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الانجيل ، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى ابن مريم ، والله لولا

ماأنا فيه من الملك لأتيت هذا النبيَّ حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه . رواه أحمد وفي رواية للطبراني : لأتيتُه حتى أقبِّل نعليه ﷺ .

وهذا أكثم بن صيفي يبعث جماعةً من قومه إلى النبي ﷺ حين بلغه مَخْرج النبي ﷺ ، فأتيا النبي ﷺ فقالا له : نحن رُسُل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك : من أنت ؟ ومأأنت ؟ وبِمَ جئت ؟

فقال ﷺ : « أما : من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ؛ وأما : ماأنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون » .

فقالا : ردِّد علينا هذا القول ، فردَّده عليهم حتى حفظوه .

فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه ، فسألْنا عن نسبه ، فوجدناه زاكيَ النسب وَسَطاً في مضر — أي شريفاً — وقد رمى إلينا بكلمات ، قد سمعناها ، فلمَّا سمعهنَّ أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولاتكونوا فيه أذناباً [1] .

فجميع ما جاء به رسول الله ﷺ هو المعقول المحْكَم ، لذا استسلمتْ له أهل الأفكار والعقول ، ولا يمكن أن يكون فيما جاءَ به ﷺ متناقضات عقلية ، أو محالات فكرية أصلاً ، ولكن قد يأتي بعظائم من الحكمة العالية السامية ، التي تعجز العقول البشرية عن الاحاطة بها ، واستيعاب جميع أسرارها لضعف العقول عن ذلك ، كما تضعف الأبصار عن التحديق في ضياء الشمس ، والاحاطة بنورها ، وإنما ترى الأبصار من نور الشمس مالا يَسعها إنكاره ، ولكنها لاتستطيع إدراكه وإحاطته . فالشريعة المحمدية هي أحكام الله تعالى وإن أحكام الله تعالى صادرة عن علمه سبحانه وحكمته ، وأنّى للمخلوق أن يحيط علماً بذلك كله ؟! .

(١) قال الحافظ ابن كثير : رواه أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة

سعة علمه ﷺ وكثرة علومه التي لا يُحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه

كان رسول الله ﷺ واسعَ العلم ، عظيمَ الفهم ، أفاض الله تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة ، والمعارف العالية الوفيرة ، وقد أعلن سبحانه وتعالى بسعة علمه ﷺ ، وأعلم بعظيم فضله ، فقال سبحانه : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمّك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فهو ﷺ أعلمُ خلق الله تعالى ، وأعرفهم بالله تعالى ، كما ورد في الصحيحين أنه ﷺ قال : « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » . وفي رواية الأصيلي « أنا أعرفكم بالله » . ومن تدبّر في تعاليم الله تعالى لرسله وأنبيائه صلوات الله تعالى عليهم ، الواردة في القرآن الكريم ، يتضح له جلياً أن سيدنا محمداً ﷺ قد علمّه الله تعالى علوماً هي أكثر وأوفر وأجمع وأعمّ ، وذلك لأنه سبحانه قال : « وعلمّك ما لم تكن تعلم » . فجيء بـ « ما » التي هي للعموم والشمول ، لتعمّ جميع العلوم التي علمّها الله تعالى لرسله وأنبيائه ، ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله سبحانه عليه .

روى الحافظ أبو بكر بن عائذ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما وُلد النبي ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان : أبشر يامحمد ! فما بقي لنبيٍّ علم إلا وقد أُعطيتَه ، فأنت أكثرهم علماً وأشجعهم قلباً (١) .

وجاء في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه أن الناس سألوا نبيّ الله ﷺ حتى أحفَوْه بالمسألة — أي أكثروا عليه الأسئلة — فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني ، لاتسألوني عن شيء إلا بيّنتُه لكم — وفي رواية : إلاّ أخبرتكم به مادمتُ في مقامي هذا » فلما سمع القوم أرَمُّوا — أي سكتوا — ورهبوا —

---

(١) أورد ذلك العلامة القسطلاني في المواهب ، نقلا عن الشيخ بدر الدين الزركشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا أرسله ابن عباس ، ومرسل الصحابي وصل في الأصل ، وحكمه الرفع ، إذ لا مجال فيه للرأي : اهـ .

أي خافوا — أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت أُلتفتُ يميناً وشمالاً، فاذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى فيُدعى لغير أبيه، فقال: يانبيَّ الله مَن أبي؟ قال: « أبوك حذافة » . ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: رضينا بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله من سوء الفتن.

فقال رسول الله ﷺ : « لم أرَ كاليوم قطُّ في الخير والشر، إني صُوِّرتْ لي الجنةُ والنارُ فرأيتُهما دون هذا الحائط » .

فليعتبر المعتبر في قوله ﷺ : « لاتسألوني عن شيء إلا بيَّنته لكُم » .

ومع هذا كله فقد أمره الله تعالى أن يسأله الزيادة في العلم دائماً أبداً، قال تعالى: «وقل ربِّ زدْني علماً » . ولم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يسأله الزيادة من شيء إلا الزيادة من العلم.

فلذلك كان ﷺ يدأب في دعائه بزيادة العلم ليله ونهاره، فاذا استيقظ في الليل قال: « لاإله إلا أنت، سبحانك اللهم وبحمدك، استغفرك اللهم لذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتَني، وهبْ لي من لدنك رحمةً، إنك أنت الوهاب » كما في صحيح مسلم وغيره.

وروى الترمذيُّ وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ دعا فقال: « اللهم انفعني بما علَّمتَني، وعلِّمني ماينفعني، وزدْني علماً، والحمد لله على كل حالٍ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » .

كما وأنه ﷺ دائم الترقي في العلوم والمعارف الإلهية، تتوارد عليه الفيوضات الالهية والفتوحات الربانية، كما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: « إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا . . » الحديث.

ففي كل يوم يُفيض الله تعالى علوماً ومعارف، وقد أمره الله تعالى أن يُعلِّم الناس من بعض تلك العلوم المفاضة عليه، حسب مايحتاجون ويتحمَّلون ويستعدُّون على الوجه الذي أمره الله به.

هذا ، وإن أحداً من خلق الله تعالى لايستطيع أن يُحيط بأبواب علوم رسول الله ﷺ ، ولا بأنواعها بل ولا أجناسها ، لا يُحيط بذلك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه جميع ذلك .

وإنني أذكر بعض الوجوه من الحجج الدالة على سعة علمه ﷺ وكثرة علومه ، ليتعلم الجاهل ، وليتنبه الغافل ، وليزداد إيمان المؤمن الكامل، بهذاالرسول الكريم ﷺ .

الدليل الأول — هذا القرآن الكريم الذي أقرأه الله تعالى إيَّاه ، وجمعه له في صدره الشريف ، وعلَّمه إيَّاه ، وبيَّنه له ، وأمره بتبيانه للناس ، وكشف له عن حقائقه القرآنية والفرقانية ، وعن معانيه وأسراره وأنواره ، وظاهره وباطنه .

قال الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علَق اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علَّم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

وهذه الآيات الخمسة هي فاتحة نزول القرآن على النبي ﷺ جاءه بها جبريل عليه السلام ليلة نبوَّته .

كما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : أوَّلُ مابُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلَق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حِراء فيَتَحنَّث فيه — وهو التعبُّد — الليالي ذواتِ العدد ، وكان يتزوَّدُ لذلك حتى جاءه الحق وهو بغار حِراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم . علَّم الانسان مالم يعلم . » الحديث .

فهذا جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ، ويقول له : اقرأ ، فيقول : ماأنا بقارىء ، أي لأنه نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، فهنا يقول جبريل عليه السلام ثلاث مرات : اقرأ ، ثم يضمه إليه بعد كل قَوْلة ضمة

قوية ، وذلك ليفيض عليه ما أوحاه الله تعالى إليه : من المعاني والاسرار والأنوار ، المنوطة في الجسم والقلب والروح ، ثم يقول له : « اقرأ باسم ربك » يعني : أنت اقرأ باسم ربك ، لابدراستك ولا ثقافتك ، لأنك ليس لك سابقة دراسة ولا تعلُّم ، وبهذا يصبح رسول الله ﷺ قارئاً عالماً ، يتلو كلام الله تعالى بعد أن مضتْ عليه أربعون سنة لم يأتِ قومه بآية ؛ وفي هذا برهان قاطع ، ودليل ساطع أن محمداً رسول الله ناطق بالوحي عن الله تعالى .

قال الله تعالى : « قل لو شاء الله ماتلوْتُه عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله ، أفلا تعقلون ؟! » .

يعني أن من تَعقَّل أمر سيدنا محمد ﷺ أيقن أنه رسول الله حقاً ، لايحتمل أمره غير ذلك ، وأن قضيَّتَه ليست من باب العبقرية ، ولا من باب الفهم والذكاء ، وإنما قضيتُه أنه رسولٌ يوحي الله تعالى إليه .

بل إنه سبحانه وتعالى أبطل مزاعم المنكرين لنبوَّة سيدنا محمد ﷺ ، الذين ادَّعَوْا أن ماجاء به من الهدى والعلم والرشاد ، هو من باب الثقافة والحصافة ، أو من باب فرط الذكاء ، وجَوْدة العبقري ، أبطل جميع تلك المزاعم بأنه أُميٌّ لم يتعلم قراءةً ولا كتابة ، ولم يستمع إلى معلِّم ، فقال تعالى : « وماكنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تَخُطُّه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون» .

ولما اتَّهمه أعداؤه بانه ﷺ كان يستمع إلى بعض الموالي من العجم ، فجاء بما جاء ، ردَّ عليهم سبحانه وتعالى بقوله : « ولقد نعلم أنَّهم يقولون : إنما يعلمه بشر » . أي : وهو غلام مملوك لبعض بطون قريش ، وكان أعجمياً ، فقال تعالى : « لسانُ الذي يُلحدون إليه : أعجميٌّ ، وهذا لسان عربيٌّ مبين ! » .

والمعنى أن هذا المملوك الذي زعموا أن الرسول ﷺ أخذ عنه : هو أعجمي اللسان ، عديمُ البيان ، وقد جاءهم رسول الله ﷺ بهذا القرآن العربي المبين ، فكيف يُتصور في العقل أن يكون هذا القرآن العربي المبين من هذا الرجل الأعجمي الذي لايَبين ؟ ! .

فلم يأتِ رسول الله ﷺ بهذا القرآن من تِلقاء نفسه ، ولا من مخلوق آخر ، لعجزهم عن الاتيان بمثله ، وإنما هو من عند رب العالمين .

قال الله تعالى : « الرحمن . علّم القرآنَ . خلق الإنسان ، علّمه البيان » .

أوّل إنسان علّمه الرحمنُ القرآنَ : هو سيدُ ولدِ آدم محمد ﷺ وعنه تلقّتِ الناسُ القرآن وتعلموه منه ، كما وأنه ﷺ هو أول من علمه الله البيانَ عن معاني القرآن .

فهو سبحانه علّم رسوله ﷺ القرآن : تلاوةَ نصّه ومعانيَه ، وحِكَمه ومعارفه وأسراره ، وإشاراته وخصائصه .

قال تعالى : « سنُقرئك فلا تنسى » وقال : « لاتحرّك به لسانك لتعجلَ به ، إنّ علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه ، ثم إن علينا بيانَه » .

والمعنى : إن علينا يامحمد ﷺ أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك ، وعلينا إثباتَ قراءته في لسانك . فلا تعجل بالقرآن قبل أن يَتمّ وحيه لتأخذه على عجل ، مخافة أن يتفلّتَ منك .

فهو سبحانه الذي جمع له القرآن في صدره ، واقرأه إياه بلسانه ، ثم تكفّل له ببيانه ، فقال « إن علينا بيانه » أي : بيان معانيه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه

ومن ذلك : تعليمُ الله تعالى للنبي ﷺ خصائصَ الكلمات القرآنية ، كما يدله عليه الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري ، عن أبي اسحاق ، عن المهلّب بن أبي صُفرة ، قال : حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنْ بُيّتّم الليلة — وفي رواية : إن بَيّتكم العدوُّ — فقولوا : حم لاينصرون » [(١)] .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص الآيات القرآنية ، كما ورد في آخرسورة البقرة ، ففي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرضَ بألفَيْ عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولايُقرأ بهنّ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقربَها شيطان » [(٢)] .

---

(١) وذلك أنهم كانوا في بعض الغزوات ، فقال لهم ذلك صلى الله عليه وسلم . قال الحافظ ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى : فقولوا حم لا ينصروا ، أي : إن قلتم ذلك لا ينصروا .اه وذلك دليل أن في « حم » حماية .

(٢) قال الترمذي : حديث غريب ، ورواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ومن ذلك : ماورد في خصائص العشر الآيات من أول سورة الكهف وآخرها ، وأنها عصمة من الدّجال ، ففي مسند أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدّجال » (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال » (٢) .

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن علي بن الحسين ، عن أبيه عن علي مرفوعاً : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإنْ خرج الدجال عُصم منه » (٣) .

وكما ورد في آيات أول سورة يس ، فقد روى ابن اسحاق وغيره أن النبي ﷺ حين رَقَبه المشركون ليلة الهجرة ، خرج عليهم وفي يده حفنة من تراب فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويقرأ « يس . والقرآن الحكيم » حتى انتهى إلى قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ، ومن خلفهم سدّاً ، فأغشيْناهم فهم لايبصرون » . وانطلق رسول الله ﷺ وباتوا رُصّداء على بابه ، ثم جعل كل رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ، وحال الله تعالى بينهم وبين رسوله ﷺ ولم يروه حين خرج من بينهم .

وهذا باب واسع جداً وليس موضع تفصيله هنا .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص السور ، كما يدل على ذلك ما ورد في سورة يس ، وأنها قلب القرآن ، وأن لها الخصائص الكثيرة ، وسورة الدخان ، وأن من قرأها في ليله أصبح مغفوراً له ، وسورة تبارك ، ووقايتها من عذاب القبر ، وسورة البقرة وبركاتها ، وسُوَر المعوّذات وحصاناتها لقارئها ، وغير ذلك مما ثبت

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : ورواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف . . » وقال : حسن صحيح . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي « من قرأ عشر آيات من الكهف . . » فذكر الحديث . اهـ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ، وأصل هذا الحديث في المسند وغيره .

الأحاديث النبوية (١) فإن ذلك يدلنا على أن له ﷺ علماً كبيراً واسعاً بخصائص الحروف القرآنية والآيات والسُّور .

فسبحان الفتاح العليم الذي فتح له وعلمه ﷺ .

ومن ذلك : علمه ﷺ باشارات القرآن الكريم الخفيّة ، فوق العبارات الجلية ، يدل على ذلك مارواه الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلتْ « إذا جاء نصر الله والفتح » علم النبي ﷺ أنْ قد نعيتْ إليه نفسه . وفي رواية أيضاً عن ابن عباس قال : لما نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح » قال رسول الله ﷺ : « نُعيَتْ إليّ نفسي » فإنه مقبوض في تلك السنة .

وروى الإمام أحمد — وأصله في مسلم — عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، وقال : « إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمّتي ، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبّح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً ، فقد رأيتُها ! « إذا جاء نصر الله والفتح » إلى تمام السورة .

وإن علم رسول الله ﷺ بمعاني القرآن الكريم وخصائصه ، وحقائقه وإشاراته ودلالاته ، وأسراره ومضامينه ، إن علمه بذلك لايعلم قدره ولا يحيط بكمية ماهنالك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه ذلك ﷺ .

قال تعالى : « مافرّطنا في الكتاب من شيء » وقال سبحانه : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبُشرى للمسلمين » .

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنْزل القرآن على سبعة أحرف ، لكلّ حرف منها — وفي رواية : لكل آية — ظهر وبطن ، ولكلّ حرف حدٌ ، ولكلّ حدّ مُطّلَعٌ » (٢) .

---

(١) وقد ذكرنا جانباً من ذلك في رسالة « تلاوة القرآن المجيد » .

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود ، ورواه البغوي في شرح السنة عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً كما في فيض القدير على الجامع الصغير ، وعزاه العلامة الزركشي في البرهان إلى صحيح ابن حبان . ومعنى قوله « ولكل حرف حد» أن لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه ، ومعنى قوله «ولكل حد مطلع» أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به ، وظهره : ما ظهر تأويله ، وبطنه : ما خفي تفسيره . اهـ من شروح المناوي على الجامع الصغير .

وفي سنن الترمذي وغيره من حديث سيدنا علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في القرآن الكريم : « .. وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس فيه الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يَخلُق على كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه .. » الحديث .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لاتنقضي عجائبه ، ولا تُبْلَغ غايته .

وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فلْيتلُ القرآن [1] .

فالقرآن الكريم بحر العلوم والمعارف ، جمعه الله تعالى لرسوله ﷺ بعلومه وحقائقه ، وقد قال ابن عم رسول الله ﷺ وصهره الكريم أمير المؤمنين عليٌّ كرم الله وجهه : لو تكلَّمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين جملاً . فما ظنك بعلوم سيدنا رسول الله ﷺ ومفاهيمه القرآنية ؟ ! نعم إن جميع ماعرفه العارفون وتكلم به الوارثون المحمديون ، إنما هو رشاشات من بحره ﷺ وقبسات من أنواره ، وإشراقات من أسراره ﷺ .

وقد بحث العلماء والعرفاء في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، فلم ينتهوا إلى استقصاء أصولها ، وإنما تكلم كلٌّ منهم على حسب علمه ، وقدر فهمه الذي أُعطيه ، ولكن بحر معاني القرآن وأسراره لايتناهى .

وفي الاتقان وغيره عن القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى أنه قال في قانون التأويل : علوم القرآن : خمسون علماً ، وأربعمائة علمٍ ، وسبعة آلاف علمٍ وسبعون ألف علمٍ ، على عدد كَلِم القرآن ، مضروبة في أربعةٍ ، إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحدّ ومُطَّلَع ، وهذا مطلق ، دون اعتبار تركيبٍ وما بينها من روابط ، ففي هذا مالا يحصى ولا يعلمه إلا الله تعالى . ا هـ .

---

(١) وروى سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال : من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين ، كما في الإتقان .

وقال العلامة الراغب : إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبيّنا محمد ﷺ مختتمة ، وشرائعهم بشريعته من وجه منتَسِخَة ، ومن وجه مُكَمَّلة متَمَّمة — جعل كتابه المنزل عليه متضمّناً لثمرة كتُبه التي أوْلاها أولئك ، كما نبَّه عليه بقوله : « رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهّرة . فيها كتب قيّمة » وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم ، متضمّن للمعنى الجمّ ، بحيث تقصُر الألباب البشرية عن إحصائه ، وتعجز الآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبَّه عليه سبحانه بقوله : « ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحرُ يمدّه من بعده سبعةُ أبحرٍ مانفِدت كلماتُ الله » ا هـ .

وقال العلامة الزركشي في البرهان : في القرآن الكريم علم الأولين والآخرين وما من شي إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه الله تعالى ، حتى إن بعضهم استنبطَ عمُرَ النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين : « ولن يُؤخّرَ اللهُ نفساً إذا جاءَ أجلُها » فانها رأس ثلاث وستين سورة ا هـ .

والبحث في علوم القرآن ومفاهيمه وإشاراته ليس موضعه هنا ، وإنما ذكرنا منها نماذجَ موجزةً ، يُستَدلّ بها على سعة علوم سيدنا رسول الله ﷺ ومعارفه القرآنية ، التي لايحيط بأنواعها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ﷺ .

الدليل الثاني :

ومن الأدلة على سعة علمه وكثرة علومه ﷺ : الحكمةُ التي أنزلها الله تعالى عليه . قال الله تعالى : « وأنزل اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ .. » الآية . وقال تعالى : « واذْكُرْنَ مايُتلى في بيوتِكُنَّ من آياتِ الله والحكمةِ ، إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

والحكمة هي السنة الظاهرة في أفعاله ﷺ وأقواله ، وأحواله وإقراره ، كما نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواضع من كتبه ، وهو قول جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم ، كما نقل الحافظ ابن كثير ذلك عنهم ، عند قوله تعالى « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » .

وإنما سُميت السنة النبوية بالحكمة : لأن الحكمة تشتمل على سَداد القول ،

وصواب العمل ، وإيقاع ذلك في مواقعه ، ووضعه في مواضعه اللائقة به ، ولا شك أن أقواله ﷺ وأفعاله ، وأحواله وإقراره ، جميع ذلك هو عين الحكمة .

كما أنه سبحانه سمى السنة النبوية بـ « الميزان » حيث قال سبحانه : « الله الذي أنزل الكتابَ بالحق والميزانَ ، وما يُدريك لعل الساعة قريب » فالميزان هنا المقرونُ بالكتاب : هو الحكمة المحمدية والسنة النبوية ، المقرونة بالكتاب في قوله تعالى وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . . » الآية ، لأن القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً .

وإنما سُميت السنةُ النبوية المشتملةُ على أقواله وأفعاله ﷺ وأحواله « ميزاناً » لأنها ميزان الأقوال والأفعال والأحوال ، بحيث يجب على الأمة أن تعرض أقوالها وأفعالها وأحوالها على سنته ﷺ ، فما وافق الميزان فهو صحيح ورجيح ، ومقبول ونجيح ، وما خالف الميزان — أي السنة — فهو قبيح ومردود على صاحبه ، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « كلُّ عملٍ ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » .

وفي قوله تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » دليل استدلَّ به كثير من العلماء المحققين ، على أن السنة نزلت بالوحي من عند الله تعالى ، كما دلَّ على ذلك أيضاً قوله تعالى : « وما يَنطق عن الهوى . إنْ هو إلا وحيٌ يُوحي » . فانَّ النطق أعمُّ من التلاوة ، فلم يقل سبحانه : وما يتلو ، أو : ما يقرأ عن الهوى ، حتى يقال إن ذلك خاصٌّ بالقرآن الكريم ، بل قال سبحانه : « وما ينطق عن الهوى » أي : وما ينطق محمد رسول الله ﷺ بالقرآن والحديث عن الهوى « إنْ هو » أي : مانُطقه بذلك « إلاَّ وحيٌ يُوحى » يوحيه الله تعالى إليه بنوع من أنواع الوحي .

وروى أبو داود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه » . والمراد بـ « مثله معه » : السنة ، كما ذكره جمهور كثير من العلماء ، فإن الله تعالى آتى رسوله ﷺ السنة النبوية كما آتاه الكتاب وهو القرآن العظيم .

وروى البيهقي في المدخل باسناده عن حسّان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، يعلمه إيّاها كما يعلمه القرآن (١) .

واستدلوا على ذلك أيضاً بما ورد في الصحيحين وغيرهما — واللفظ البخاري — عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أكثرَ ماأخافُ عليكم مايُخرِجُ الله لكم من بركات الأرض — وفي رواية : إن مما أخافُ عليكم ما يُفتحُ عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

فقال رجل : هل يأتي الخير بالشرّ ؟ قال أبو سعيد : فصَمَتَ النبي ﷺ حتى ظننتُ — أي عرفتُ — أنه ﷺ يُنزَل عليه — وفي رواية : فظننا أنه ينزل عليه — أي ينزل عليه الوحي — ثم جعل يمسح رسول الله ﷺ عن جبينه (٢) فقال : « أين السائل ؟ » فقال : أنا . فقال ﷺ : « لا يأتي الخير إلا بالخير (٣) — وفي رواية : إنه لايأتي الخير بالشرّ — إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوة ، وإن كلَّ ما أنبتَ الربيع (٤) يقتُل حَبَطاً أو يُلمُّ ، إلا آكلةَ الخضرة ، أكلتْ حتى إذا امتدّتْ خاصرتاها استقبلت الشمسَ فاجترّتْ وثَلَطتْ وبالتْ ، ثم عادتْ فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقّه ووضعه في حقه ، فنِعْم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقّه كان كالذي يأكل ولا يشبع » .

---

(١) انظر شرح الطريقة المحمدية للعارف الكبير الشيخ النابلسي رضي الله عنه .

(٢) أي : يمسح العرق ، كما جاء في رواية الدارقطني ، وجرى ذلك على عادته صلى الله عليه وسلم عندما يوحى إليه ، حيث يتفصد جبينه الشريف عرقاً ، ولذلك أيقنت الصحابة أنه الوحي .

(٣) وفي رواية الدارقطني : كررها ثلاث مرات .

(٤) وفي رواية : وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم . أما الحبط : فهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل . وأما قوله : أو يلم — بضم أوله — فمعناه يقرب من الهلاك . وهذا مثال ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تهافت على الدنيا ومالها ، وعمي بها عن دينه وآخرته ، وجمع ومنع ، ولم يعرف حق الله تعالى في هذا المال ، حتى بطر وفجر ، ومثال لمن أخذ هذا المال من الدنيا بحقه ووضعه في حقه وأدى حقوقه الواجبة عليه ، ولم يشغله ذلك عن دينه ، ولم يتعام بذلك عن آخرته ، فنعم الرجل ! .

فاستدل كثير من العلماء بهذا الحديث على أن الحديث النبوي هو نازل بالوحي من عند الله تعالى .

كما استدلوا على ذلك أيضاً بما رواه البخاري وغيره أن يَعْلى بن أمية قال لعمر رضي الله عنه : أرني النبي ﷺ حين يُوحَى إليه ، قال : فبينما النبي ﷺ بالجِعْرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمِّخ بطيب ؟ .

فسكت النبي ﷺ ساعةً فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى رضي الله عنهما ، فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظِلَّ به ، فأدخل — يعلى — رأسَه فإذا رسول الله ﷺ مُحْمَرُّ الوجه ، وهو يغِطُّ ، ثم سُرِّي عنه ، فقال : « أين الذي سأل عن العمرة ؟ » فأُتي بالرجل ، فقال : « اغسِل الطيبَ الذي بك ثلاث مرات وانزِعْ عنك الجبَّة ، واصنَعْ في عمرتك ما تصنعُ في حجتك » .

الدليل الثالث : ومن الأدلة على كثرة علومه : إظهارُه ﷺ على المغيَّبات .

فمن علومه ﷺ إظهار الله تعالى له على كثير من المغيَّبات ، قال الله تعالى : « عالمُ الغيب ، فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يَسلُك من بين يديه ومن خلْفه رَصَداً » .

وقال تعالى : « وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبَّأتْ به ، وأظهره الله عليه : عرَّفَ بعضَه ، وأعرض عن بعض ، فلما نبَّأها به ، قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنيَ العليمُ الخبير » .

واطِّلاعه ﷺ على المغيَّبات هو على وجوه متعددة نذكر أطرافاً منها :

الوجه الأول : إطلاعه ﷺ على بدء الخلق ، حتى دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، كما دلَّ عليه ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فأخبرَنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، حفِظه مَن حفظه ، ونسيه مَن نسيه .

وفي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً ، ماترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلاّ ذكره ، علمه مَن علمه وجَهِله مَن جهله . قال حذيفة : وقد كنتُ أرى الشيء قد كنتُ نسيتُه فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غاب فرآه فعرفه .

كما أخبر ﷺ عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة . ففي صحيح مسلم عن عمرو ابن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر وصعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهرُ ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلّى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمُنا أحفظُنا .

فما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه . وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : والله ما أدري أنسيَ أصحابي أم تناسَوْا ؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلُغ مَن معه ثلثمائة فصاعداً إلاّ سمّاه لنا : باسمه واسم أبيه واسم قبيلته .

كما أنه ﷺ أخبر عن جميع أشراط الساعة الصغرى والوسطى والكبرى ، وأخبر عن أحوال الآخرة وبرازخها ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار ، وتفاصيل أمورهم كلها ، كما هو مبيّن في كتب السنة ، وفي هذا دليل على سعة العلوم التي أفاضها الله تعالى عليه ﷺ .

الوجه الثاني : إطلاعه ﷺ على العوالم ، كما صحّ في أحاديث المعراج من أنه ﷺ عُرج به إلى السموات السبع ودخلها ، واحدةً واحدةً ، ورأى فيها ما رأى ، واجتمع مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم عُرج به إلى سِدرة المنتهى ، ورأى آياتها وعجائبَها ، والتجليات المتواردة عليها ، ثم إلى مستوىً سمع فيه صَريفَ الأقلام ، إلى ما هنالك من العوالم العلويّة .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم العرش ، بدليل انه ﷺ بيّن سعةَ العرش ،

وأنه أوسعُ العوالم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السموات السبعُ والأرضون السبع عند الكرسي إلاّ كحلْقةٍ مُلْقاةٍ في أرض فلاةٍ ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة » [1] .

كما أنه ﷺ تكلّم عن العرش وأن له قناديل ، وهي العوالم العرشية ، وأن له الظلالَ ، وأن له القوائم ، كما في الصحيحين : « . . فإذا موسى آخِذٌ بقائمة من قوائم العرش » .

وأن له الكنوز ، وتحدّث ﷺ عن حَمَلة العرش ، وعن قوة حملة العرش وعِظَمِهِنّ ، كما ورد في المسند أن النبي ﷺ قال « أنا محمدٌ النبي الاميُّ ، ولا نبيَّ بعدي — قالها ثلاثاً — أوتيتُ فواتحَ الكَلِم وخواتمَه ، وعَلِمتُ كم خزنةُ النار ، وحملةُ العرش . . » الحديث .

وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال : « أُذِنَ لي أن أُحدّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ، أن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام » . وفي رواية الطبراني : « مسيرة سبعمائة عام خَفَقَان الطير السريع » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم الجنة والنار ، ومُثّلتا له ، في عدة مناسبات ، ففي حديث المعراج « ثم أُدخلتُ الجنة ، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك الأذفر » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم البرزخ وأحوالهم وشؤوناتهم ، وعالم الحشر ، وأحوال الناس فيه ، وعالم العَرْض ، وعالم الحوض ، وأخذ الصحف والحساب والميزان والصراط ، وأحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وحدّث عن جميع تلك العوالم وفصّل أمورهم ﷺ .

---

(١) رواه ابن مردويه ، وكذلك روى نحوه ابن جرير وغيره ، كما في تفسير الحافظ ابن كثير .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على العوالم العلوية ، وما يجري بين الملأ الأعلى من الاختصام حول الكفَّارات والدرجات ، وتجلَّتْ له الأشياء كلها وعرفها ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: « إني قمت من الليل فصليتُ ما قُدِّر لي ، فنعَستُ في صلاتي حتى استثقلتُ ، فإذا أنا بربي عز وجلَّ فقال لي : يا محمد فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قلتُ : لا أدري » وفيه أن الله تعالى أفاض على النبي ﷺ العلوم حتى قال : « فتجلَّى لي كل شيء وعرفت . وفي رواية : فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض . وفي رواية الطبراني : فعلَّمني كلَّ شيء . وفي رواية له : فما سألني عن شيء إلاَّ علمتُه . ثم قال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات والدرجات . . » الحديث [١] .

الوجه الثالث : عرضُ الامم عليه ﷺ . وذلك أنه ﷺ عُرضت عليه الامم كلُّها : الامم قبله وأمته بعده ، ومثّلتْ له أمته ﷺ في عدة مناسبات ، وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « عُرضتْ عليَّ الأمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط [٢] ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبيَّ وليس معه أحد ، إذْ رُفع لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمّتي ، فقيل لي : هذا موسى ﷺ وقومه ، ولكن انظر إلى الافق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الافق الآخر ، فإذا سَواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب : هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يتطيَّرون . وفي رواية : ولا يكتوون — وعلى ربهم يتوكّلون » [٣] .

وروى الطبراني والضياء عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال : « عُرضَت عليَّ أمتي البارحةَ لدى هذه الحُجْرة ، حتى لأنا أعْرَفُ بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوِّروا لي في الطين » .

---

(١) انظر تمام الحديث في كتابنا : الصلاة في الإسلام .

(٢) تصغير رهط ، وهي الجماعة دون العشرة .

(٣) وهذه رواية مسلم باختصار .

الوجه الرابع : رفع الدنيا له وإراءته إياها : كما وأنه ﷺ رفع الله له الدنيا فنظر إليها .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد رفع لي الدنيا ، فأنا أنظر إليها ، وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه » (١) . ويشهد لهذا الحديث : ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . . » الحديث كما تقدم .

بل أراه الله تعالى جميع الأشياء ، كما روى مسلم وغيره عن أسماء رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « ما من شيء لم أكن أُريتُه إلاّ رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار ... » الحديث . فعمّت رؤيته ﷺ لجميع ما هنالك واطلع عليه .

الوجه الخامس من إظهاره على المغيبات : رؤيته ﷺ آثار الأمور الغيبية قبل وقوعها .

جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام (٢) المدينة فقال : « هل تَرَوْن ما أرى ! » قالوا : لا ، قال : « فاني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » .

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه عن غزوة بدر قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » قال عمر : فوالذي بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التي حدّها رسول الله ﷺ . الحديث .

وفي رواية لمسلم عن أنس فقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ها هنا وها هنا . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ أي : ما جاوز الموضع الذي عيّنه رسول الله ﷺ وأشار إليه .

---

(١) انظر شرح المواهب .

(٢) الأطم : هو البناء المرتفع .

الوجه السادس : انجلاء الأمور الغيبيّة الخفية له ﷺ قبل ظهورها وإخباره عنها .
ومن ذلك ما روى الامام أحمد وغيره أن النبي ﷺ بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : « يدخل عليكم من هذا الباب — أو من هذا الفجّ — رجل من خير ذي يَمَن ، ألا إن على وجهه مَسْحة مَلَك » وفي رواية للطبراني : « يطلُع عليكم خيرُ ذي يمن ، عليه مسحة ملك » فطلع جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

وروى الامام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلُع الآن عليكم رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الانصار تنطفُ لحيته من وضوئه » وفي رواية البيهقي : فجاء سعد بن مالك فدخل منه . . الحديث .

وعن مزيدة بن مالك قال : بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال : « يطلُع عليكم من هذا الفجّ رَكْبٌ من خير أهل المشرق » فقام عمر فتوجّه في ذلك الوجه فرأى ثلاثة عشر راكباً ، فرحّب وقرّب ، وقال : مَن القوم ؟ قالوا : قوم من عبد القيس . . الحديث (١) .

الوجه السابع : انكشاف الضمائر النفسية له ﷺ وإخباره بذلك .

روى الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وروى ابن سعد عن أبي إسحاق السَّبيعي قالا : رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي ، والناس يطأون عقبه — أي يمشون وراءه — فقال أبو سفيان في نفسه : لو عاودتُ هذا الرجلَ القتال ، وجمعتُ له جمعاً . فجاء عليه الصلاة والسلام حتى ضرب في صدر أبي سفيان وقال له : « إذن يُخْزِيَك » فقال أبو سفيان : أتوب إلى الله وأستغفر الله ، ما أيقنتُ أنك نبيٌّ إلا الساعةَ ، إني كنتُ لأحدِّث نفسي بذلك (٢) .

ومن ذلك : ما رواه الامام أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وأبو يعلى ، ورجالهما ثقات . وفي بعضهم خلاف ، وقال الزرقاني: سنده جيد ، وهذا الوفد وفد عبد القيس الوارد ذكرهم في الصحيحين .

(٢) انظر شرح المواهب ، وذلك يوم فتح مكة .

عنه قال : قلتُ لرجل : هلمّ فلنْجعلْ يومَنا هذا لله عزّ وجلّ — أي : نشتغل فيه بالعبادة — قال أبو موسى : فوالله لكأنّ رسول الله ﷺ شاهد هذا اليوم ؛ فخطب فقال : « ومنهم من يقول : هلمّ فلنجعل يومنا هذا لله عزّ وجلّ » فما زال يقولها حتى تمنّيت أن الأرض ساخَت بي . أي : غاصت بي .

وقد روى الطبراني باسناد رجاله رجال الصحيح ، وأورد أهل السِّيَر ، قصة عُمير بن وهب الجُمَحي ، لما تكفّل له صفوان بن أمية بوفاء ديونه ، ونفقة عياله ، على أن يقتل رسولَ الله ﷺ ! وأسرّا ذالك بينهما ، ثم ذهب عمير متوشّحاً سيفَه المسموم إلى المدينة ، فاستأذن على رسول الله ﷺ ، فأذِن له ، فقال له ﷺ : « ما جاء بك ؟ » فقال : جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم ، فقال له ﷺ : « فما بالُ السيف في عنقك ؟ » فقال عمير : قبّحها الله من سيوف ، فهل أغنَتْ عنا شيئاً؟! فقال : « اصدُقني ماالذي جئتَ له ؟ » قال : ما جئتُ إلا لهذا .

فقال له ﷺ « بلى ، قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فتذاكرتما أصحاب القَليب من قريش ، فقلتَ : لولا دَينٌ علي وعيالي ، لخرجتُ حتى أقتل محمداً ! فتحمّل صفوان لك بدَينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائلٌ بيني وبين ذلك » .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام .

وروى ابن سعد وغيره عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : خرج النبي ﷺ ، وأبو سفيان جالسٌ في المسجد ، فقال أبو سفيان في نفسه : ما أدري بمَ يَغلبنا محمد ؟ فأتاه النبي ﷺ فضرب في صدره وقال : « بالله نغلبك » فقال أبوسفيان : أشهد أنك رسول الله [1] .

---

(١) كذا في شرح الزرقاني على المواهب .

وروى ابن هشام وغيره أن فَضالة بن عُمير بن الملوَّح همَّ أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف بالبيت، عام الفتح ، فلما دنا من النبي ﷺ قال له ﷺ : « أفضالة — وفي رواية : يا فضالة » فقال : نعم يا رسول الله . قال : « ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ » فقال : لا شيء . كنتُ أذكر الله . فضحك رسول الله ﷺ ثم قال له : « استغفرِ الله » أي : مما حدّثت به نفسك ، وقولك : لاشيء . ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر فضالة، فسكن قلبه . أي — ثبت فيه الاسلام ومحبة خير الأنام — فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبَّ إليَّ منه ﷺ .

قال فضالة : فرجعتُ إلى أهلي فمررتُ بامرأةٍ كنتُ أتحدّث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ! فقال فضالة :

قالت : هلمَّ إلى الحديث، فقلتُ: لا ... يأبى عليَّ الله والإسلامُ !
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلَه ... بالفتح يوم تُكسَّر الأصنامُ
لرأيت دينَ الله أضحى بيِّناً ... والشركُ يَغشى وجهه الإظلامُ [1]

الوجه الثامن : اطلاعه ﷺ على الأمور القلبية وإجابته السائل قبل سؤاله ، وهذا باب واسع جداً . فمن ذلك : ما رواه الامام أحمد عن وابصةَ بن مَعْبَد رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ وأنا أريد أن لا أدعَ شيئاً من البِّر والاثم إلا سألتُه عنه فقال لي : « أدنُ يا وابصة » فدنوت منه حتى مسَّتْ ركبتي ركبته ، فقال : « يا وابصة أخبرك ما جئتَ تسأل عنه أو تسألني ؟ » فقلت: يا رسول الله أخبرني، فقال ﷺ : « جئتَ تسألني عن البر والإثم » قلتُ : نعم . فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكُتُ بها في صدري ، وقال : « يا وابصة استَفْتِ نفسَك ، البرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النفس ، واطمأنَّ إليه القلب ، والاثمُ ما حاك في القلب وتردَّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوْك » .

(١) كذا في شرح المواهب والإصابة وغيرها .

الوجه التاسع : بشائره الغيبية . فعن عبد الله بن بُسْر قال : وضع رسول الله يده على رأسي فقال : « يعيش هذا الغلامُ قَرْناً » فعاش مائة سنةٍ ، وكان في وجهه ثُؤْلول فقال : « لا يموت حتى يذهب الثؤْلول من وجهه » فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه (١) .

ذكرى حول الآية المتقدمة ، وهي قوله تعالى : «عالم الغيب ، فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً » .

فانه سبحانه بيّن لعباده أنه هو الذي يعلم الغيب المطلق علماً ذاتياً لانهاية له ، كما قال تعالى : « قل لا يعلم مَن في السموات والأرض الغيبَ إلا الله . . » وقال تعالى : « له غيبُ السموات والأرض . . » الآية . وقال تعالى : « وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو . . » الآيـة .

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه يُظهر على غيبه من ارتضى من رسول ، فيُطلعُه على ما شاء من الغيب حسب الحكمة الآلهية .

فقد أطْلع عيسى عليه السلام على بعض المغيبات ، ليكون ذلك آية على صدق نبوته وحجةً على قومه ، قال تعالى : « وأُنبِّئُكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين » .

فهو سبحانه يُطلع رسله عليهم الصلاة والسلام على ما شاء من المغيبات ، بمقتضى حكمته ، ليكون ذلك بيِّنةً على صدق نبوتهم ، حيث لم يكن ذلك بواسطة آلات ، ولا بتدخل أسباب عادية ، أو دلالة علامات عرفية ، بل بمجردِ إنباء الغيب الآلهي .

ومن هنا يُعلم أن علم التنجيم ، وعلم الفلك ، وعلم الارصادات الجوية ، ونحوها من العلوم التي تُستنتج منها بعض المعلومات الخفية ، فإنها منوطة بأصولٍ علمية ، ومبنية على قواعد وضوابط عرفية عادية ، تُعطي تلك النتائج الخفيّة ، فلا يُقال :

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني والبزار ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة . اهـ .

إنها من باب العلم بالمغيبات أصلاً ، إذ أن علم الغيب شرطه أن يكون مجرّداً عن الموادّ والوسائط الكونية ، والأسباب العادية ، والعلامات العرفية ، كما نبّه على ذلك المحققون .

إذ لا يُقال للطبيب الذي يتعرّف من مقياس النبض على قوة القلب وضعفه ، والذي يتعرّف بجَسّ المريض وفحصه الطبي على مرضه الخفيّ — لا يُقال : إن هذا من باب العلم الغيبي ، كما أن العالم الفلكي الذي يتعرّف بالارصادات والمقاييس الجوية ، إلى التغيُّرات الحارّة والباردة ونحوها — لا يقال إن ذلك من علم الغيب !

ثم إن قوله تعالى : « عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .. » الآية : هذا لا يُنافي قولَه تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب . . » الآية ، لأن المنفيّ في هذه الآية هو علمُ الغيب المطلق المحيط بكل شيء ، والمعنى : لا أقول لكم إني أعلم الغيب المطلق المحيط بكل شيء : كلياً وجزئياً ، فإن ذلك لله تعالى وحده . ومثل ذلك ما أخبر به الله تعالى عن نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب . . » الآية .

أو المراد : إني لا أعلم الغيب إلا أن يعلمنيَ الله تعالى ، ويُطلعني على ما شاء من الغيب .

كما وأن قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . » الآية ، لاينفي عن أولياء الله تعالى اطلاعهم على بعض المغيَّبات ، وذلك : لأنه إنْ أريد بـ « الرسول » في الآية الكريمة : الرسول البشري — كما عليه الجمهور — فاطّلاع الأولياء على بعض المغيبات إنما حصل لهم باتباعهم لرسولهم ، وبواسطته يكرمون ، وحينئذ يكون ذلك داخلاً في الكرامات ، وكل كرامة لوليّ فهي معجزة لنبيّه ، قد نالها باتباعه له ، صلوات الله على نبينا وعلى الأنبياء أجمعين .

وإن أريد بـ « الرسول » : الرسول الملَكي — كما قاله بعضهم — فهو ينزل بالوحي النبوي على الأنبياء ، وينزل بالالهام الصادق على قلوب الأولياء ويُلقي اليهم ويحدّثهم .

وكيف يجوز إنكار اطلاع الأولياء على بعض المغيّبات ، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ؟ ! ومن ذلك ما ورد في الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم مُحدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » .

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي أحد منهم : فعمر » .

قال في فتح الباري : والمحدَّث : هو من أُلقي في رُوعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى ، فيكون كالذي حدَّثه غيره به ، وقيل : « مكلَّم » أي : تُكلِّمه الملائكة بغير نبوة ، وهذا ورد من حديث أبي سعيد مرفوعاً ولفظه : قيل يا رسول الله كيف يحدَّث ؟ قال : « تتكلَّم الملائكة على لسانه » وقوله ﷺ « فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر » : لم يَرِدْ مورد التردُّد ، بل هذا من باب التأكيد ، كما يقول الرجل : إن يكن لي صديق فإنه فلان ، يريد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء عنه ، ولذا ورد في الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . اهـ .

فهذه الأحاديث صريحة في إثبات الالهام ، والتحدث عن المغيبات ، وفي سنن الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « اتَّقوا فِراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله . ثم قرأ : إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين » .

وروى ابن جرير عن ثوبان مرفوعاً « احذروا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وبتوفيق الله » .

وروى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن لله عباداً يَعرفون الناس بالتوسُّم » .

ومن ذلك قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه لما دخل عليه الرجل وقد نظر إلى امرأة أجنبية ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم علينا وفي عينيه أثر الزنا ! فقال الرجل: أوَحيٌ بعد رسول الله يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : لا ، ولكن فراسةُ مؤمنٍ صادقةٌ .

الدليل الرابع — من الأدلة على كثرة علومه ﷺ :

علمه ﷺ بأصناف المخلوقات ، وأنواع أمم الحيوانات ، وبأحكامها وبأوضاعها وتفاصيل أمورها . روى الطبراني باسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لقد تركَنا رسولُ الله ﷺ وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلاّ ذكر لنا منه علماً [١] .

وروى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : لقد تركَنا رسول الله ﷺ وما يُحرِّك طائر جناحيه في السماء إلاّ ذكر لنا منه علماً . وزاد الطبراني في روايته أيضاً فقال النبي ﷺ : « مابقي شيء يُقرِّب من الجنة ويباعد من النار ، إلا وقد بُيِّن لكم » .

فقد ذكر ﷺ للصحابة علماً كبيراً حول عالم الطير ، وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان واسعَ العلم في نواحي أصناف العالم كله .

وأيضاً فيه دليل على أنه ﷺ بيّن جميع المهامِّ الكونية ، المتعلقة بمصالح العالم وسعادة البشر ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإنه ﷺ الذي تناول ذكر عالم الطير كيف يتصور منه أنه يُهمل بيان ناحية إصلاحية من نواحي المصالح البشرية ، ويترك ذكرها ، ويتناولُ ذكر عالم الطير وأحكامه ؟ ! لا . بل إنه ﷺ بيّن جميع النواحي الإصلاحية وطرق السعادات البشرية على أكمل وجوهها .

وقد روى أبو يعلى باسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : قلّ الجراد في سنة من سِني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها ، فسأل عمر عن الجراد ؟

---

(١) انظر مجمع الزوائد : الجزء الثامن ، وتفسير ابن كثير في مواضع منه .

فلم يُخبر بشيء ، فاغتمّ لذلك ، فأرسل راكباً إلى كذا ، وآخرَ إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل : هل رُؤي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قِبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبّر ثلاثاً ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله عزّ وجلّ ألفَ أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البرّ ، وأوّل شيءٍ يهلك من هذه الأمم الجراد ، فاذا هلكت تتابعتْ مثلَ النّظام إذا قُطع سلْكه » (١) .

وهذه الأحاديث بيانٌ لقوله تعالى : « وما من دابّةٍ في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحَيْه إلا أممٌ أمثالهم ، ما فرّطْنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يُحشرون » .

وقد بيّن النبي ﷺ ما يترتّب على حشرها المخبر عنه في هذه الآية ، وما يجري بينها من القصاص يوم القيامة .

ففي صحيح مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء – أي التي لا قرن لها – من الشاة القَرْناء » . ورواه أحمد بلفظ : إن رسول الله ﷺ قال : « يُقْتصّ للخلق بعضهم من بعض ، حتى للجمّاء من القرناء ، وحتى للذرّة من الذرّة » . قال الحافظ المنذري : ورواته رواة الصحيح . اهـ .

فالطير أمّة من الأمم ، والنمل أمّة من الأمم ، كما ورد في الصحيح : « قرصَتْ نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأُحْرِقَتْ ؛ فأوحى الله إليه : أنْ قرصتكَ نملة أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبّح ! » .

والنحل أمة كما أخبر سبحانه : « وأوحى ربك إلى النحل أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون . . » الآيات .

والمراد بالأمة هنا : صنفٌ من المخلوقات ذات نظام في حياتها ومعاشها وتناسلها وذات انتظام في مجتمعها ، فمنها الآمر والمأمور ، إلى ما هنالك .

(١) انظر هذا الحديث في تفسير ابن كثير وغيره .

قال تعالى : « قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطِمنّكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون »فلما أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يمرَّ بجنوده نادت قائدة النمل ورئيستهم ، نادتهم فأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم مخافةَ أنْ تطأهم أقدامُ الجيش ، وبيّنتْ لهم أنهم إذا لم يدخلوا المساكن فسوف تطؤهم الأقدام ، ويكون الجيش معذوراً في ذلك ، لأنهم لا يشعرون بأن النمل تحت أقدامهم .

هذا ، وإن بحار علومه ﷺ لا يُحيط بها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما — واللفظ للبخاري — عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس ، فصلى الظهر ، فلما سلّم قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال : « مَن أحبَّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء — أي عن أيِّ شيء كان — إلا أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا » قال أنس : فأكثر الأنصارُ البكاء ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول : « سلوني » فقال أنس : فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله؟ قال : « النار » . فقام عبد الله بن حذافة : فقال من أبي يا رسول الله ؟ قال : « أبوك حذافة » ثم أكثر أن يقول « سلوني ، سلوني » فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربّاً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً . قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ، ثم قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لقد عُرضتْ عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرْض هذا الحائط وأنا أصلي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر » .

فقد أذن ﷺ للصحابة أن يسألوه عن أيّ شيء بدا لهم ،ما دام في مقامه ذلك ، وفي هذا أكبر دليل على سعة علومه التي علّمه الله تعالى إياها ﷺ . قال الله تعالى : « وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » .

قلبه الشريف ﷺ

إن قلب سيدنا محمد ﷺ هو خيرُ القلوب وأزكاها ، وأوسعها وأقواها ، وأتقاها وأنقاها ، وألينها وأرقّها ، وهو القلب الواعي اليقظان ، الفيّاض بأنوار الإيمان والقرآن .

فخيرُ القلوب قلبه الشريف ﷺ ، جاء في مسند أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتَعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يُقاتلون عن دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيّئاً فهو عند الله سيّئ (١)

كما وأن قلبه الشريف ﷺ هو أزكى القلوب وأطهرها ، فقد شُقّ صدره الشريف منذ صغره واستُخرج من قلبه حظُّ الشيطان . كما روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه (٢) ، فشقّ عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرج منه علقةً ، فقال : هذا حظُّ الشيطان منك (٣) ، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأَمَه (٤) ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمانُ يسعَوْن إلى أمّه ، يعني : ظِئْره — أي مرضعته — فقالوا : إن محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه وهو منتقَع اللّون — أي متغيّر اللون — .

قال أنس : وقد كنتُ أرى أثر ذلك المِخْيط في صدره ﷺ .

وهذا الشقُّ للصدر الشريف قد حصل له ﷺ أوّل مرة وهو صغير السنّ عند حليمة .

وقد اختُلف في سنّه ﷺ وقتئذ ؛ فقيل وقيل . قال الحافظ الزرقاني : والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمّه وهو ابن أربع سنين ، وأن شقّ الصدر إنما كان في الرابعة ، كما جزم به الحافظ العراقي في نظم السيرة ، وتلميذه الحافظ ابن حجر في سيرته . اهـ .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ، ورجاله موثقون اهـ ، من الجزء الأول والثامن .

(٢) أي : ألقاه على قفاه . (٣) أي : نصيبه لو بقي معك . (٤) أي : أصلح موضع الشق .

وأما المرّة الثانية : فقد شُقّ صدره الشريف ﷺ وهو ابن عشر سنين ، وقد روَى ذلك عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، بسند رجاله ثقات وابن حبّان والحاكم ، وابن عساكر والضياء المقدسي في المختارة ، عن أُبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله : ما أوّل ما ابتُدئتَ به من أمر النبوّة ؟ .

فقال ﷺ : « إني لفي صحراء ، ابن عشر حجج ، إذا أنا برجلين — أي ملكين في صورة رجلين — فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه : أهوَ هو ؟ قال : نعم ، فأخذاني بوجوه لم أرها لخلق قطُّ — أي لحسن جمالها — ، وأرواح لم أجدها من خلق قطُّ ، وثياب لم أرها على خَلْق قطُّ — أي لحسنها وبهجتها — فأقبلا إليّ يمشيان ، حتى أخذ كلٌّ واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأخذهما مساً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعْه . فأضجعاني .

وفي لفظ : فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقاه فيما أرى ، بلا دم ولا وجع ، فكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب ، والآخر يغسل جوفي ثم قال : شُقّ قلبه ، فشقّ قلبي ، فأخرج الغِلّ والحسد منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به . . الحديث (١) .

قال العلامة محمد بن يوسف الشامي في سيرته الشامية : والحكمة فيه : أن العشر قريب من سنّ التكليف ، فشُقّ قلبه ﷺ وقُدِّس ، حتى لا يتلبّس بشيء مما يُعاب على الرجال . ا هـ (٢) .

وأمّا المرّة الثالثة : فقد شقّ صدره الشريف ﷺ عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي إليه حين نُبِّىء ، فقد روى أبو داود الطيالسي والحارث أبو محمد التميمي في مسنديهما ، والبيهقي وأبو نعيم في دلائلهما ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهراً بحراء ، فوافق ذلك شهر رمضان ، فخرج رسول الله ﷺ وسمع : السلام عليكم ، قالت — خديجة — : فظننتُ أنه فجأة الجنّ ، فقال : أبشروا فان السلام خير .

---

(١) انظر الحديث بنصه في شرح الزرقاني ١ : ١٥٣ .

(٢) انظر شرح الزرقاني وغيرها .

ثم رأى يوماً آخر جبريل عليه السلام على الشمس : جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب قال : « فهِبتُ [١] منه » قالت : فانطلق يريد أهله ، فاذا هو بينه وبين الباب ، قال : « فكلّمني حتى أنِستُ به ، ثم وعدني موعداً ، قال : فجئتُ لموعده ، واحتبس عليّ جبريل . وفي رواية : فأبطأ عليّ » فلما أراد أن يرجع إذا هو به — أي بجبريل — وبميكائيل صلى الله عليهما ، فهبط جبريل إلى الأرض ، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض ، قال : « فأخذني جبريل فسلقني لحلاوة [٢] القفا وشق عن بطني وفي رواية : فألقاني لحلاوة القفا — أي وسطه — ثم شق عن قلبي ، فأخرج منه ما شاء الله ، ثم غسله في طستٍ من ذهبٍ ثم أعاده فيه ثم كفأني — أي قلبني — كما يُكفأ الإناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مسّ الخاتم » .

والحكمة في هذا الشقّ — كما أفاده المحققون — هو الزيادة في إكرامه وإمداده ﷺ ، وتقويته وإعداده ، ليتلقّى ما يُوحى إليه بقلبٍ قويٍّ في أكمل الأحوال القدسية المرضية .

وأما المرّة الرابعة : فقد شُقّ صدره الشريف ليلة الإسراء ، كما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه ، عن مالك بن صَعْصَعة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ حدّثه عن ليلة أسري به : قال : « بينما أنا في الحطيم — وربما قال : في الحِجْر — مضطجعاً ، إذ أتاني آتٍ ، فشقّ ما بين هذه إلى هذه — يعني ثُغْرَة نحْره إلى شِعرته — ، فاستخرج قلبي ، ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوء إيماناً — وفي رواية للبخاري : بطستٍ ملىء حكمةً وإيماناً — فغُسل قلبي ، ثم حُشِيَ — أي حُشي إيماناً وحكمة — ثم أعيد — وفي رواية للبخاري : ثم أُتيت بماء بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً

---

(١) في رواية : فهلت منه . وهو من كلامه صلى الله عليه وسلم .

(٢) هذا لفظ الحديث الوارد في مسند أبي داود الطيالسي ص ٢١٥ من الطبعة الأولى بمطبعة حيدر آباد . وانظر بقية الروايات في شرح الزرقاني على المواهب ١ : ٢٢٥ . ومعنى سلقني : قلبني ، كما تفسره الرواية الثانية . وانظر النهاية لابن الأثير .

فأفرغه في صدري ، ثم أطبقه — ثم أُتيتُ بدابّة : دون البغل وفوق الحمار ، أبيض . . . الحديث .

والحكمة في هذا الشقّ — كما أفاده العارفون — هي الزيادة في إكرامه ﷺ وإعظامه ، والزيادة في إمداده وإعداده ، للتأهُّب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته ، ومشاهدة الأنوار والأسرار ، وتجلّيات الجمال والجلال .

قال في المواهب وشرحه : ورُوي شقُّ صدره مرةً خامسةً وهو ابن عشرين سنةً — فيما قيل — ولا تثبت ، فلا تذكر إلا مقرونةً ببيان عدم الثبوت . ا هـ [1] .

وقال الحافظ القسطلاني أيضاً : ثم إن جميعَ ما ورد من شقّ الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة : مما يجب التسليم له ، دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحيَّة القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك . قال الشارح الزرقاني : لأن القدرة إنما تتعلّق بالممكن دون المستحيل ، هكذا قاله القرطبي في المُفْهِم ، والطّيبي ، والتُّورِبِشْتي ، والحافظ في الفتح والسيوطي وغيرهم ، ويؤيده الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المِخْيَط في صدره ﷺ .

وقال أيضاً : قال السيوطي : وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار ذلك وحمله على الأمر المعنويّ ، وإلزام قائله القولَ بقلب الحقائق : فهو جهل صُراح ، وخطأ قبيح ، نشأ من خذلان الله تعالى لهم ، وعكوفهم على العلوم الفلسفية ، وبُعدهم عن دقائق السنّة ، عافانا الله من ذلك . انتهى كلام السيوطي [2] .

فما أزكى قلب سيدنا محمد ﷺ وما أبرَّه ، وما أكرمَه وما أعظمه ! حقاً إنه أعظم القلوب وخيرها وأزكاها .

سعة قلبه الشريف ﷺ وقوته : قال الله تعالى : « نَزَل به الروح الأمين . على قلبك لتكونَ من المنذرين » . ففي هذه الآية إيماء إلى تخصيص قلبه الشريف ﷺ ،

---

(١) انظر شرح الزرقاني ١ : ١٣٥

(٢) كما في شرح المواهب ٦ : ٣٥ .

بنزول القرآن عليه دون سائر القلوب ، وذلك لكمال اتساعه الذي منحه الله تعالى إياه ، وقوة تحمُّله لتنزُّلات القرآن العظيم ، الذي لوأنزل على الصمّ الراسيات والجبال الشامخات ، لتصدّعتْ وتشقّقت من خشية الله تعالى . قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدّعاً من خشية الله . . » الآية .

وإن قلباً نزل عليه القرآن الكريم بأسراره وأنواره ، وحروفه ومعانيه ، وروحه وحقائقه ، حقاً إن هذا القلب أوسع القلوب وأقواها ! قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ماكنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ، وإنكَ لتهدي إلى صراط مستقيم » .

فأفاض من بحر أسرار قلبه الشريف ، على قلوب أتباعه ، وأشعّ في مرايا قلوبهم من مشارق أنواره ؛ ومن تدّبر في قوله تعالى « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » : فهم المعنى .

قلبه الشريف ﷺ أتقى القلوب : جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . . » الحديث .

فهذا القلب الذي هو أتقى القلوب المشار إليه في الحديث ، هو قلب سيدنا محمد ﷺ الذي قال : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » الحديث في الصحيحين .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ **أنقى القلوب وأسلمها** . ففي سنن أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يُبلّغني أحد عن أحدٍ من أصحابي شيئاً ، فإني أحبُّ أن أخرج اليكم وأنا سليمُ الصدر » .

وروى ابن ماجه باسنادٍ صحيح عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله : أيُّ الناس أفضل ؟ قال : « كلُّ مَخموم القلب ، صدوقُ اللسان » . قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟ قال : « هو التقيُّ النقيُّ ، لا إثمَ فيه ، ولا بَغْيَ ، ولا غِلّ ، ولا حسد » .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ **ألين القلوب وأرقها .** قال الله تعالى : « فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك . . » الآية . فلم يكن رسول الله ﷺ غليظ القلب بل كان ليناً .

وروى الطبراني عن أبي عِنَبة الخولاني أن النبي ﷺ قال : « إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض ، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها » [(١)] .

يقظة قلبه الشريف ﷺ : لقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ يقظة القلب ، فهو في توجُّه إلى الله تعالى ووَعي عنه دائمَيْن ، لا تعتريه غفلة ، ولا يطرأ على قلبه ﷺ شائبة نوْمة ، ولذا كانت رؤياه المنامية من جملة طرق الوحي وأنواعه ، كما أن نومه لا ينقض وضوءه ﷺ ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففي صحيح البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها في حديث قيام النبي ﷺ بالليل ، قالت عائشة : قلت : يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتر ؟ فقال : « يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « . . . وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عَربَهم وعَجَمَهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب [(٢)] ، وقال : إنما بعثتُكَ لأبتليكَ وابتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء [(٣)] تقرأه نائماً ويقظانَ . . . » الحديث .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن . وقال شيخه العراقي : فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ، لكنه صرح بالتحديث فيه اهـ من فيض القدير للمناوي .

(٢) قيل : المراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية السابقة ، فيكون الحديث محمولاً على حال الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فإن الجهالة عمتهم فأعمتهم ، فمقتهم الله تعالى إلا بقايا قليلة ممن تمسك بالكتاب : أي بالكتب السماوية .

(٣) والمعنى : أن الماء لا يمحوه من الأرض ، فإن محي من السطور فهو محفوظ في الصدور ، وذلك لأن الله تعالى هو تكفل بحفظه حيث قال : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » فحفظه في محافظ وألواح لا يمحوها الماء ، ألا وهي صدور العلماء والقراء ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . . . » الآية .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : جاءتْ ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم — وفي رواية الترمذي : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي — فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان . فقالوا : ان لصاحبكم هذا مثلاً ، قال : فاضربوا له مثلاً ! فقالوا : مثلُه كَمَثَل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة [1] ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدُبة ، ومَنْ لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدُبة . فقالوا : أوِّلوها له يَفْقَهْها — أي يفهمها — فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : فالدارُ الجنةُ ، والداعي محمدٌ ﷺ . فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله » . الحديث .

وفي سنن الدارمي : أُتي النبي ﷺ فقيل له : لِتَنَمْ عينُك ، ولْتسمعْ أُذنك ، ولْيعْقِل قلبُك ، قال : « فنامَتْ عيناي ، وسمعتْ أُذناي ، وعقل قلبي ، فقيل لي : سيِّد بنى داراً ، فصنع مأدبة ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضي عنه السيِّد ، ومن لم يجب الداعي : لم يدخل الدارَ ، ولم يَطْعَمْ من المأدبة ، وسخِط عليه السيِّد . قال : فالله السيِّد ، ومحمدٌ الداعي ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنَّة » .

وقد ذكر علماء السلف والخلف طرق الوحي وأنواعه ، ومن جملتها رؤياه المنامية ﷺ ، كما دلَّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها : أوَّل ما بُدىء به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصَّادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءتْ مثل فَلَق الصبح . . الحديث .

وقد استدلَّ السهيلي وغيره على أنها من الوحي بقول الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لولده كما أخبر اللهُ تعالى عنه : « يا بُنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحُك » ثم قيامه بتنفيذ الرؤيا .

---

(١) المأدبة : هي الأطعمة التي تعد للولائم ، والمراد بالمأدبة هنا الجنة .

خاتم النبوّة

لقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان بين كتفيه خاتَم النبوّة ، وهو كما قال علماء الحديث : بَضْعَةُ لحمٍ ناشزَةٌ — أي مرتفعة — في ظهره الشريف ، عند ناغض كتِفه اليسرى ، عليها شعرات كأنها خِيلان ، يزهو بالنور ، وتعلوه المهابة ، وينفح بالطيب .

روى الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا وصفَ رسول الله ﷺ في جملة أوصافه : بين كتفيه خاتَم النبوّةِ ، وهو خاتم النّبيّين . . الحديث كما تقدّم .

وروى الترمذي عن رُمَيْثة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ — ولو أشاء أن أُقبِّل الخاتم الذي بين كتفيه من قربه لفعلتُ — يقولُ لسعد بن معاذ يوم مات : « اهتزّ له عرش الرحمن » .

أوصاف خاتم النبوة :

جاء في خاتم النبوّة أوصاف متعددة ، ولا تنافي بينها ، كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى .

ففي الصحيحين — واللفظ للبخاري — عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال : ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالتْ : يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعٌ (١) ، فمسح رسولُ الله ﷺ رأسي ، ودعا لي بالبركة ، وتوضّأ ، فشربتُ من وضوئه ، ثمّ قمتُ خلفَ ظهره ، فنظرتُ إلى خاتم النبوّة بين كتفيه مثلَ زِرِّ الحَجَلَة (٢) .

---

(١) وفي رواية : وقع — بكسر القاف — ، والمراد أنه كان يشتكي رجله .

(٢) قال الإمام النووي في شرحه : أما زر الحجلة فبزاي ثم راء — أي : واحد الأزرار التي توضع في العرى التي تكون للخيمة — قال : والحجلة : بفتح الحاء والجيم ، هذا هو الصحيح المشهور ، والمراد بالحجلة واحدة الحجال ، وهي : بيت كالقبة — أي : كالقبة الصغيرة تعلق على السرير — لها أزرار كبار وعرى ، هذا هو الصواب المشهور ، الذي قاله الجمهور . اهـ .

وروى الترمذي عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرجِس رضي الله عنه أنه قال : أتيتُ النبي ﷺ وهو في ناسٍ من أصحابه ، فدُرتُ هكذا من خلفه ، فعرف الذي أُريد ، فألقى الرداء عن ظهره ﷺ ، فرأيتُ موضع الخاتم على كتفيه مثلَ الجُمْع [١] ، حولها خيلانٌ كأنها ثآليل ، فرجعتُ حتى استقبلته فقلتُ : غفرَ الله لك يارسول الله ! فقال : « ولكَ » فقال القوم : استغفر لك رسول الله ﷺ؟ فقال : نعم ، ولكم ، ثمَّ تلا هذه الآية : « واستغْفِرْ لذنبِكَ وللمُؤمنينَ والمؤمنات »

وقد رواه مسلم وفيه : ثمَّ دُرْتُ خلفه ﷺ فنظرتُ إلى خاتمِ النبوَّة ، بين كتفيه عند ناغِض [٢] كتفه اليسرى ، جُمْعاً ، عليه خيلانٌ كأمثال الثآليل .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال : رأيتُ خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام .

وروى الإمام أحمد والترمذي — واللفظ له — عن أبي نَضْرَة العَوَقي قال : سألتُ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه عن خاتم رسول الله ﷺ ؟ فقال : كان في ظهره بَضْعةٌ ناشزة — أي قطعة لحم مرتفعة — .

وروى الترمذي وغيره عن علْباء قال : حدثني عمرو بن أخْطَب الأنصاري قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا زيد أُدْنُ مني فامْسحْ ظهري » فمسحتُ ظهره ، فوقعتْ أصابعي على الخاتم ، قلتُ : وما الخاتم ؟ قال : شَعَراتٌ مجتمعات .

قال العلماء : واختلاف أقوال الرواة في أوصافِ خاتمِ النبوَّة ، ليس من باب

---

(١) بضم الجيم وإسكان الميم ، ومعناه أنه كجمع الكف ، وهوصورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها ، كما أوضحه النووي . والمراد : أن تجمع الأصابع وتضم إلى باطن الكف ، كالقابض على الشيء كما بينه الحافظ الزرقاني .

قال : وأما الخيلان : فبكسر الخاء المعجمة وإسكان الياء ، جمع خال ، وهوالشامة في الجسد . والله أعلم . اه

(٢) قال الإمام النووي : وأما ناغض الكتف : فبالنون والغين والضاد المعجمتين ، والغين مكسورة ، وقال الجمهور : النغض والناغض : أعلى الكتف ، وقيل : هو العظم الرقيق الذي على طرفه ، وقيل : ما يظهر منه عند التحرك . ا هـ .

التنافي بينها ، وإنما هي باعتبار أنَّ كلاً منهم شبَّهَ بما سَنَحَ له وظهر ، لأنه ﷺ كان يستره ، باعتبار أنه في ظهره الشريف ﷺ ، فواصفه إما رآه من غير قصد ، أو أنه ﷺ أراه له ، مع ملاحظة الرائي مقام الهيبة والوقار والأدب مع النبي ﷺ .

وقال العلامة القرطبي في شرحه على صحيح مسلم : الأحاديثُ الثابتة دالَّةٌ على أنَّ خاتم النبوَّة كان شيئاً بارزاً أحمر ، عند كتفه الأيسر ، إذا قُلِّل : قدر بيضة — أي قيل فيه قدر بيضة الحمام — وإذا كُثِّر : جُمْعُ الكفِّ — أي : قيل فيه قدرُ جُمعِ الكفِّ (١) — .

حكمة وضعه بين الكتفين الشريفين :

ذكر العلماءُ في ذلك وجوهاً من الحِكَم . قال الحافظ ابن كثير : ومن أحسن ما ذكره ابن دحية رحمه الله ، وغيره من العلماء قبله ، في الحكمة في كون الخاتم كان بين كتفي رسول الله ﷺ : إشارة إلى أنه لا نبيَّ بعدك يأتي من ورائك (٢) . اهـ.

وقال في الفتح : قال العلماء : السرُّ في ذلك أنَّ القلب في تلك الجهة ، وقال العلامة السهيلي في الروض الأُنُف : وحكمة وضعه — أي الخاتم — عند النُّغض — من الكتف اليسرى — لأنه معصوم من وسوسة الشيطان ، وذلك الموضع منه يدخل الشيطان . اهـ . فكان ذلك حفظاً له من الشيطان .

وروى ابن عبد البرّ بسند قويّ إلى ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أنَّ رجلاً سأل ربَّه أن يُرِيَه موضعَ الشيطان من ابن آدم ، فأُرِيَ جَسَدَه مُمْهى (٣) يُرى داخله من خارجه ، وأُرِيَ الشيطانَ في صورة ضِفدِع ، عند كتفه حذاء قلبه ،

---

(١) انظر جميع ذلك في شرح الزرقاني وفتح الباري .

(٢) انظر البداية ٦ : ٢٨ .

(٣) قال الزرقاني : ممهى بضم الميم الأولى وسكون الثانية وتخفيف الهاء ، من أمهاه ، أي مصفى . وفي النهاية : ممهى على وزن مصفى .

له خُرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه ، فإذا ذكر اللهَ تعالى العبدُ خنَس .

قال في الفتح : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلى وابن عدي ولفظه : « إنّ الشيطان واضع خطْمه على قلب ابن آدم . . » الحديث . قال : وأورد ابن أبي داود في كتاب الشريعة من طريق عروة بن رُوَيم ، أنّ عيسى عليه السلام سأل ربه أن يُريَه موضعَ الشيطان من ابن آدم ، قال : فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه على ثَمَرَة القلب ، فإذا ذكَرَ العبدُ ربَّه خنَس ، وإذا غفَل وسوس . اهـ [1] .

متى خُتِم له بخاتم النبوة : اختلف العلماء هل أنه ﷺ وُلِد وعليه خاتم النبوّة أم إنه وضع له بعد ولادته ؟

فقيل : وُلد به ، نقله ابن سيد الناس ، وردّه في الفتح ، ثم قال : واختلفَ القائلون بالثاني — أي بأنه وضع له بعد الولادة —

فقيل : حين ولد ﷺ وضع له خاتم النبوّة . واستدلوا على ذلك بحديث فيه نكارة .

وقيل : عند شقّ صدره ﷺ وهو في بني سعد ، لما ورد في حديث عتبة بن عبد عند الإمام أحمد والطبراني . قال الحافظ الزرقاني : وقطع به القاضي عياض ، وقال الحافظ — ابن حجر — : وهو الأثبت . اهـ .

وقيل : إنه عند المبعث ، لما تقدّم في حديث عائشة رضي الله عنها وفيه : « وختَم في ظهري حتى وجدتُ مسّ الخاتم في قلبي وقال : اقرأ . . » الحديث .

وقيل : إنه ليلة المعراج ، لما ورد عند أبي يعلى وابن جرير والحاكم في حديث المعراج من حديث أبي هريرة [2] .

---

(١) انظر فتح الباري ٧ : ٣٧٤ .

(٢) انظر فتح الباري وشرح المواهب .

قال الحافظ الزرقاني : وطريق الجمع أن الختم تكرَّر ثلاث مرات : في بني سعد — أي في صغره ﷺ — ثم عند المبعث ، ثم ليلة الإسراء ، كما دلت عليه الأحاديث — أي الأحاديث الثابتة — قال : ولا بأس بهذا الجمع ، فإنّ فيه إعمالَ الأحاديث كلها ، إذ لا داعي إلى ردّ بعضها ، وإعمال بعضها ، لصحة كلٍّ منها . وإليه أشارَ الشامي — أي في سيرته — قال : وأما رواية بعد الولادة ، فضعيفة ، وأما إنه وُلِدَ به : فضعيف أيضاً ، يُطلب زاعمه بدليله . ا هـ [1] .

سبب تسميته بخاتم النبوة : قال العلامة القرطبي وغيره : سُمي بذلك لأنه أحد العلامات الواضحة التي يعرفه بها أهل الكتب السابقة . ا هـ .

وذلك لما ورد في جملة صفاته ﷺ وأمارات صدقه ، في الكتب السماوية السابقة — أن بين كتفيه ﷺ خاتم النبوّة .

ولذلك لما أخبر بعض الرهبان سلمان الفارسي بظهور النبي في الحجاز ووصفه له ، وأنّ من علامات صدقه : عدمَ قبولِ الصدقة ، وقبولَ الهدية ، وأنّ بين كتفيه خاتم النبوّة ، فجاء إلى رسولِ الله ﷺ يفحص عنها ، فلما رأى الخاتم آمن بالنبي ﷺ .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن بُريدة رضي الله عنه قال : جاء سلمان الفارسي إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، بمائدة عليها رُطَب ، فوُضِعَت بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « يا سلمانُ ما هذا ؟ » فقال : صدقة عليك وعلى أصحابك . فقال : « ارفعها ، فإنّا لا نأكل الصدقة » قال : فرفعها . فجاء سلمانُ الغَدَ بمثله فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا سلمان؟» فقال : هديةٌ لكَ . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ابسُطوا » ثمّ نظر إلى الخاتم على ظهر رسول الله ﷺ فآمن به .

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ١ : ١٦٠ .

وكان — رقيقاً (١) — لليهود ، فاشتراه (٢) رسول الله ﷺ بكذا وكذا درهماً ، على أن يغرس لهم نخلاً ، فيعمل سلمان فيه حتى يُطعِم ، فغرس رسول الله ﷺ النخيل إلاّ نخلةً واحدةً غرسها عمر ، فحملت النخل من عامها ولم تحمل النخلة . فقال رسول الله ﷺ : « ما شأن هذه النخلة ؟ فقال عمر : يا رسول الله أنا غرستها ، فنزعها رسول الله ﷺ وغرسها فحملتْ من عامها .

ومن ذلك ما ورد في قصة — بُحَيراءَ أو بَحيرا — الراهب ، ومعرفته بالنبي ﷺ بسبب خاتم النبوّة المخبَر عنه في الكتب السابقة .

روى الترمذي عن أبي موسى قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب — بَحيرا — هبطوا فحلّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم .

قال : فهم يحلّون رحالهم فجعل يتخلّلهم الراهب — أي يمشي بينهم ويطلب في خلالهم شخصاً — حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمةً للعالمين . فقال له أشياخ قريش : ما علمك ؟ — أي ما سبب علمك بذلك ؟ —

---

(١) وسبب ذلك أنه كان في بلاد فارس بين قوم مجوس ، فهرب من بينهم ولحق بجماعة من الرهبان في القدس ، فدله أحدهم على ظهور النبي صلى الله عليه وسلم بأرض العرب ، فقصد الحجاز مع جمع من الأعراب ، فباعوه لليهود . اهـ كما في شروح الشمائل للترمذي .

(٢) قال العلامة البيجوري : أي : تسبب في كتابة اليهود له ، لأمره بذلك ، فتجوز بالشراء عما ذكر ، وقوله « بكذا وكذا درهماً » أي بعدد يشتمل على العطف ، ولم يبينه في هذا الحديث ، وفي بعض الروايات أنه أربعون أوقية ، قيل : من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقد بقي عليه ذلك حتى أُتيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاج من ذهب ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ » فدعي فقال له : « خذها فأدها مما عليك » قال سلمان : فأين تقع هذه مما علي ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « خذها ، فإن الله سيؤدي بها عنك » فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم ، فعتق سلمان رضي الله عنه . اهـ .

فقال — الراهب — : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفل من غضروفة كتفه ، مثل التفّاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو — أي النبي ﷺ — في رِعْيَة الإبل ، فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظِلُّه ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس ﷺ مال فيء الشجرة عليه . فقال — أي الراهب للقوم — انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ، فقال : أنشدكم اللهَ أيُّكم وليُّه — أي قريبه — قالوا : أبو طالب . فلم يزلْ يُناشده — أي يناشد أبا طالب — حتى ردَّه أبو طالب — أي أعاد النبيَّ ﷺ إلى مكة خوفاً عليه من الروم أن يقتلوه — وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوَّده الراهب من الكعك والزيت .

قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال الجزري : إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيحين أو أحدهما ، وذِكْر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ ، وعدَّه أئمتنا وهماً ، وهو كذلك ، فإنَّ سنَّ النبي ﷺ إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، وأبو بكر أصغر منه بسنتين ، وبلال لعله لم يكن وُلد في ذلك الوقت . اهـ كما في المرقاة .

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة : الحديث رجاله ثقات ، وليس فيه سوى هذه اللفظة — أي ذكر أبي بكر وبلال — فيحتمل أنها مدرجة فيه ، منقطعة من حديث آخر ، وهماً من أحد رواته . اهـ .

حول خلقه العظيم ﷺ

قال الله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . نٓ . والقلمِ وما يَسطُرون . ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنون . وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنُون . وإنَّكَ لعلَى خُلُقٍ عظيمٍ » .

أقسمَ اللهُ تعالى بنون ، وهو المدد الإلهي الفيّاض ، الذي منه استمداد القلم الأعلى المستفيض ، وهو أوّل ما خلق الله تعالى ، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنّ أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتُبْ . قال : يا ربّ وما أكتبُ ؟ فقال : اكتُبْ ما هو كائن إلى يوم القيامة . . » الحديث .

ثمّ أقسم سبحانه بجميع ما تسطره الملائكة وما يسطره المسطّرون : ما أنت يا محمد ﷺ بفضل نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ، بمجنون ، لأنّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة ، وشريعتك المستقيمة ، هي في أعلى درجة العلم والحكمة ، فكيف يُتصوّر هذا ويلتقي مع قولهم فيك مجنون ؟ ! بل المجنون هو الذي يتّهم صاحبَ العلم والحكمة والفهم بالجنون !

« وإنّ لك » يا رسول الله على هذا التحمّل والصبر على أذاهم بالقول والفعل « لأجراً غيرَ ممنون » أي غير مقطوع ، « وإنك » يا رسول الله في الأخلاق السامية التي علوت قِمتها ، وانتهيتَ إلى ذروتها ، إنك حقاً « لعلى خُلُقٍ عظيم » .

فهو ﷺ عظيم في كل ناحية من نواحي الأخلاق الكاملة ، فهو عظيم ﷺ في حلمه وسماحته ، عظيم في كرمه وسخائه ، عظيمٌ في شجاعته ، عظيم في تواضعه ، عظيمٌ في كريم عشرته ، عظيم في حيائه ، عظيم في أدبه ، عظيم في رحمته ورأفته ، عظيم في سائر أخلاقه ﷺ !

وكيف لا يكون صاحبَ الخلق العظيم وقد تخلّقَ بالقرآن العظيم ! كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : كان خُلُقه القرآن : يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه . رواه مسلم وأبوداود .

وروى ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : كان أحسنَ الناسِ خُلُقاً ، كان خلقُه القرآن : يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، لم يكن فاحشاً ولا مُتَفحِّشاً ، ولا صَخَّاباً في الأسواق ، ولا يَجْزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ثمَّ قالت : إقرأ : « قد أفلحَ المؤمنون . . » إلى العشر الآيات ، فقرأ السائل ، فقالت : هكذا كان خلقه ﷺ .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : « لبَّيك » فلذلك أنزل الله تعالى : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » [1] .

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أن رجلاً نادى النبي ﷺ ثلاثاً ، كلُّ ذلك يردُّ عليه : « لبَّيكَ لبَّيكَ » [2] .

سيدنا محمد ﷺ هو المثل الأكمل في الخَلْق والخُلُق

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : كانَ رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً .

فهو ﷺ أجمل خلق الله تعالى خَلْقاً ، وأكملهم خُلُقاً ، بل هو فيَّاض المكارم والكمالات على العالم .

ففي مسند أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاق » .

وروى الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه ﷺ قال : « بُعِثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق » .

---

(١) رواه ابن مردويه وأبو نعيم بسند ضعيف . اهـ من شرح الزرقاني ٤ : ٢٤٥ .

(٢) قال في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى في الكبير عن شيخه جبارة بن المغلس ، وثقه ابن نمير ، وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح . اهـ ٩ : ٢٠ .

قال الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : وإنما كان خلُقُه عظيماً لأنه لم يكن له ﷺ همَّةٌ سوى الله تعالى .

فقد جمع ﷺ مكارم الأخلاق التي جاءت بها الأنبياء قبله ، وجاء بها كلِّها ، وزادهم كمالاً على كمال ، وجمالاً فوق جمال .

ولقد أثنى الله تعالى على حبيبه سيدنا محمد ﷺ بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في التوراة والانجيل وسائر الكتب الإلهية ، كما أثنى عليه ومدحه بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في القرآن العظيم .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . فقال : أجلْ إنه ﷺ لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن :

يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً ، وحِرْزاً للأمِّيِّين ، أنت عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخَّاب (١) بالأسواق ، ولا يدفع السيئةَ بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضَه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملَّة العوجاء ، بأنْ يقولوا : لا إله إلاَّ الله ، ويفتحَ به أعيُناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً (٢) .

وعن وهب بن منبِّه : أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من بني إسرائيل ، يقال له شَعْياء ، أنْ قُم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي ، فقام فقال :

يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنصِتي ، فإنَّ اللهَ تعالى يريد أن يقضي شأناً ، ويدبِّر أمراً ، وهو مُنفِّذه :

إنَّه يريد أن يبعث أُمِّياً من الأُمِّيِّين ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ، ولا صخَّابٍ

---

(١) الصخب والسخب : الصياح واضطراب الأصوات للخصام .

(٢) أي : يفتح قلوباً مغشاة مغطاة بظلمتها ، فيفتحها بنور الإيمان الذي جاء به صلى الله عليه وسلم .

في الأسواق ، لو يَمُر على السراج لم يطفئه من سكينتِه ، ولو يمشي على القَصَب واليابس لم يُسمَع من تحت قدميه ؛ أبعثه بشيراً ونذيراً ، لا يقول الخنا [١] ، أفتحُ به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُماً ، وقلوباً غُلفاً ، وأُسدِّده بكلِّ أمر جميل ، وأَهَبُ له كلَّ خُلُقٍ كريم ، وأجعلُ السكينةَ لباسَه ، والبِرَّ شعارَه ، والتقوى ضميرَه ، والحكمةَ منطقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعتَه ، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه ، والحقَّ شريعتَه ، والعدلَ سيرتَه ، والهدى إمامَه ، والإسلامَ ملَّتَه ، وأحمد اسمَه .

وأُعَرِّفُ به بعد النكرة ، وأُكَثِّرَ به بعد القلَّة ، وأُغْني به بعد العَيْلَة ، وأجمعُ به بعد الفُرقة ، وأُؤلِّف به بين أُمم متفرقة ، وقلوبٍ مختلفة ، وأهواء مشتَّتة ، وأستنقذ به فِئاماً من الناس عظيماً من الهلَكَة ، وأجعلُ أمَّتَه خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحِّدين مؤمِنين ، مخْلصين ، مصدِّقين بما جاءت به الرسُل [٢] .

كمال لطفه ﷺ ولين عريكته

قال الله تعالى : « فبِما رحمةٍ منَ اللهِ لِنْتَ لهُم ، ولوْ كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا منْ حَولِك » الآية .

كان ﷺ ليِّن الجانب ، سهلَ الخُلُق ، حسنَ المعاشرةِ مع الأهل والأصحاب وسائر الناس ، يعطي جليسَه حظاً كبيراً من الانبساط والملاطفة وحسن المقابلة .

روى الترمذي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسُول الله ﷺ يقول :

---

(١) الخنا : هو الفحش في القول .

(٢) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وأورده القسطلاني في المواهب وعزاه لابن إسحاق .

« أجود الناس صدراً، وأصدقهم لهجةً، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشْرَة .. » الحديث .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : لم يكن النبي ﷺ فاحِشاً ولا مُتفحِّشاً ، وكان يقول : « إنَّ من خيارِكم أحاسنكم أخلاقاً » .

ومن لطفه ﷺ أنه ما كان يقابل أحداً بما يكره . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لم يكن النبي ﷺ سبَّاباً ، ولا فاحشاً ، ولا لَعَّاناً ، وكان يقول لأحدِنا عند المعتَبة : « ما لَهُ تَرِبَتْ جبينُه ! » .

بل كان ﷺ أشدَّ الناس لطفاً . روى أبو نعيم في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أشدَّ النّاسِ لطفاً ، والله ما كان يمتنعُ في غداةٍ باردة من عبد ولا أمَة تأتيه بالماء ، فيغسل وجهه ﷺ بالماءِ وذراعيه ؛ وما سأله سائلٌ قط إلاَّ أصغى إليه ، فلا ينصرفُ ﷺ حتى يكون هو — أي السائل — الذي ينصرف عنه ؛ وما تناول أحدٌ يده قطُّ إلاَّ ناوله إيّاها ، فلا ينزِعُ ﷺ يدَه حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينزعها منه .

انبساطه ﷺ مع الأهل وذوي القربى

روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : استأذن عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نساء [1] من قريش يكلِّمْنَه ويستكثِرْنَه [2] ، عاليةً أصواتُهنَّ . فلمَّا استأذنَ عمر قُمْنَ يبتدِرْنَ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : أي نسوة من أزواجه صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون معهن غيرهن — أي من أقاربه المحارم .

(٢) قال الإمام النووي في شرحه : قال العلماء : معنى يستكثرنه : يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه بحوائجهن وفتاويهن . وقوله « عالية أصواتهن » : قال القاضي عياض : يحتمل أن هذا قبل النهي عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن علو أصواتهن إنما كان باجتماعهن ، لا أن كل واحدة بانفرادها صوتها أعلى من صوته صلى الله عليه وسلم . اهـ .

الحجاب [١] ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل ، ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحكَ الله سنك يارسول الله [٢] ، فقال ﷺ : « عجبتُ من هؤلاءِ اللاّتي كنَّ عندي ، فلمّا سمعْنَ صوتك ابتدرن الحجاب » .

فقال عمر : فأنت يا رسول الله أحقّ أنْ يهبْنَ ، ثم قال عمر : أي عَدُوّات أنفُسهن أتَهبْنَني ولا تَهبنَ رسول الله ﷺ ؟ ! قلن : نعم أنت أغلظُ وأفظُّ [٣] ، فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما لَقيَكَ الشيطانُ قطُّ سالِكاً فَجّاً إلاَّ وسلكَ فَجّاً غيرَ فَجِّك » [٤] .

كريم عشرته وحسن معاملته مع زوجاته ﷺ وسائر أهله

كان رسول الله ﷺ كريمَ العِشْرة مع زوجاتِه وسائر أهله ، يلاطفُهنَّ ويمازحُهنَّ ، ويعاملُهنَّ بالودِّ والإحسان .

روى التّرمذي عن عائشة رضي اللهُ عنها قالتْ قال رسول الله ﷺ : « خيرُكمْ خيركُم لأهلِه ، وأنا خيركُم لأهلي » وزاد ابن عساكر في روايته : « ما أكْرَمَ النِّساءَ إلاَّ كَريم ، ولا أهانهُنَّ إلاَّ لَئيم » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِن أكمَلِ المؤمنين إيماناً أحسنَهم خلُقاً ، وألطفهم بأهلِه » رواه التّرمذي . وروى الحاكم

---

(١) أي : لأن عمر هو بالنسبة إليهن أجنبي ، فيجب الاحتجاب منه ، وفي هذا دليل مشروعية حجاب المرأة بالنسبة للأجنبي عنها حتى الوجه ، فإنه يجب ستره أيضاً .

(٢) أي : أدام الله فرحك الموجب لبروز سنك وظهور نورك ، ولكن لا بد له من سبب ، وظهور أمر عجب ، فأطلعني عليه ، وشرفني بالإشارة إليه . ا هـ من المرقاة .

(٣) أي : أنت يا عمر كثير الغلظة والفظاظة ، بخلافه صلى الله عليه وسلم ، فإنه لين الجانب كثير الرفق .
قال الإمام النووي : قال العلماء : وليست لفظة « أفعل » هنا للمفاضلة ، بل هي بمعنى فظ غليظ . ا هـ .

(٤) الفج : هو الطريق الواسع ، ويطلق على المكان بين الجبلين .

— وقال صحيح الإسناد — عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال : « خيرُكم خيرُكم للنساء » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً : أحسنُهم خُلُقاً ، وخيارُكُمْ خياركم لنسائهم » . رواه الترمذي وقال : حسنٌ صحيح .

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألينَ الناس ، بسّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قَطُّ ماداً رجليه بين أصحابه ﷺ — وذلك لعظيم أدبه وكمال وقاره — .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجتُ مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية — أي حديثة السن — لم أحمِل اللحم ولم أبْدُن ، فقال للناس : « تقدّموا » فتقدّموا ، ثم قال لعائشة رضي الله عنها : « تعاليْ حتى أسابقَك » فسابقتُه ﷺ فسبقْته ، فسكت عني ، حتى حملتُ اللحم وبَدُنْتُ وسمنْتُ ، فخرجتُ معه ﷺ في بعض أسفاره ، فقال ﷺ : « تقدّموا » فتقدّموا ؛ ثم قال : « تعاليْ أُسابِقْكِ » قالت عائشة رضي الله عنها : فسبقني ، فجعل يضحك ﷺ ويقول : « هذه بتلك » [1] . رواه أبو داود وأحمد .

وكان ﷺ يعاونُ أهلَه في الأمور البيتيّة .

روى البخاري عن الأسود قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي يصنع في أهله ؟ فقالت : كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة . وفي هذا تنبيه للأمة أن يسيروا على هذا الكمال ، ولا يكونوا من جبابرة الرجال ، خاصة مع الأهل والعيال .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساء خيراً في مناسبات متعددة ، وفي مجتمعات

(١) يعني أني سبقتك في هذه المرة الثانية ، في مقابل سبقتك تلك المرة الأولى ، وأراد بذلك أن لا تحزن .

خاصة وعامة . ففي الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : « استوصوا بالنساء . . » الحديث .

وفي سنن الترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم حجة الوداع : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً . . » الحديث .

استماعه ﷺ الى حديث الزوجات بالملح والفكاهات تأنيساً لهن وملاطفة

روى الشيخان والترمذي — واللفظ له — عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلستْ إحدى عشْرة امرأة فتعاهدْنَ وتعاقَدْنَ أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنّ شيئاً (١) .

فقالت الأولى : زوجي لحم جملٍ غَثّ ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيُرتقى ، ولا سمين فيُنْتَقَل (٢) .

قالت الثانية : زوجي لا أَبُثُّ خبرَه ، إني أخافُ أن لا أذَرَه ، إنْ أذكرْه أذكرْ عُجرَه وبُجرَه (٣) .

قالت الثالثة : زوجي العَشَنَّق (٤) ، إنْ أَنطِقْ أُطلَّقْ ، وإنْ أسكُتْ أُعلَّق .

---

(١) أي على أن لا يخفين شيئاً من أخبار أزواجهن : مدحاً أو ذماً ، بل يذكرن جميع ذلك .

(٢) تعني : أنها تشبه زوجها في رداءته بلحم جمل غث — أي شديد الهزال — كائن على رأس جبل وعر — أي صعب الوصول إليه — والمقصود : أن زوجها متكبر سيء الخلق ، لا يوصل إليه إلا بمشقة ، ولا ينفع زوجته في عشرة ولا في غيرها .

(٣) أي : لا أنشر ولا أظهر خبره . ثم عللت ذلك بقولها : إني أخاف أن لا أذره — أي إني أخاف أن لاأتركه — يعني أنها تخاف من ذكره أن يطلقها، ويترتب على ذلك الشقاق والفراق، وضياع الأطفال ، وقيل : المعنى إني أخاف أن لا أذره بعد الشروع في خبره ، والمراد بالعجر والبجر : عيوبه الظاهرة والخفيـة .

(٤) هو السيء الخلق ، السفيه .

قالت الرابعة : زوجي كليل تِهامة (١)، لاحَرَّ ولا قَرَّ ، ولا مخافة ولا سآمة .

قالت الخامسة : زوجي إنْ دخلَ فَهِد ، وإنْ خرج أَسِد ، ولا يَسأَلُ عمَّا عهِد (٢) .

قالت السادسة : زوجي إن أكلَ لَفَّ ، وإن شربَ اشتفَّ ، وإن اضطجع التفَّ ، ولا يولجُ الكَفَّ ليعلم البثَّ (٣) .

قالت السابعة : زوجي عَيَاياء (٤) — أو غياياء — طباقاء ، كلُّ داءٍ له داء ، شجَّكِ أو فلَّكِ ، أو جمع كلا لك (٥) .

قالت الثامنة : زوجي المسُّ مسُّ أرنب ، والريح ريحُ زَرْنَب (٦) .

قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العماد (٧) ، طويلُ النِّجاد (٨) ، عظيمُ الرماد (٩) ، قريبُ البيتِ من الناد (١٠) .

---

(١) تهامة : هي مكة المكرمة وما جولها من الأغوار ، والمقصود من هذا التشبيه أن تصف زوجها بكمال الاعتدال في أموره ، وسهولة أخلاقه . كما في حاشية البيجوري .

(٢) تعني أنه كالأسد في الحروب ، في قوته وشجاعته ، ولا يسأل عما عهد — أي عما علم في بيته من الطعام والشراب وغيرهما ، لجوده وكرمه . انظر حاشية البيجوري .

(٣) أي : إن أكل أو شرب لم يبق بقية لعياله ، ولا يتفقد حال أهله إذا مرضن أو اشتكين . وقيل غير ذلك . كما في حاشية البيجوري .

(٤) عياياء : أي عاجز عن إحكام أموره وتدبيرها ، غياياء : ذو ضلالة وغي ، طباقاء : أحمق ، إذا اجتمعت عليه الأمور ، فلا يهتدي لها .

(٥) أي : إن ضربك جرحك ، أو فلك : أي كسرك ، أو جمعها لك .

(٦) فهي تمدحه بأن مسه كمس الأرنب في اللين والنعومة ، وبأنه طيب الرائحة كريح الزرنب : وهو نوع نبات رائحته طيبة .

(٧) كناية عن علو حسبه وشرف نسبه .

(٨) تصفه بطول القامة ، والنجاد : حمائل السيف ،فالطويل يحتاج إلى طول حمائل سيفه ، والعرب تمدح بذلك.

(٩) تصفه بالجود ، وكثرة الضيافة من اللحوم والخبز ، فيكثر وقوده فيكثر رماده .

(١٠) النادي والندي: مجلس القوم ، فهي تصف زوجها بالكرم ، لأنه لا يقرب البيت من النادي إلا من صفته الكرم ، كما في شرح النووي .

قالت العاشرة : زوجي مالكٌ ، وما مالك؟ مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، إذا سمعنَ صوتَ المِزْهَر ، أيْقَنّ أنهنّ هوالك (١) .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناسَ من حُليّ أذُنيّ (٢) ، وملأَ من شحمٍ عضديّ (٣) ، وبجّحني فبَجِحتْ إليّ نفسي (٤) ، وجدني في أهل غُنيمةٍ بِشَقّ ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ، ودائس ومُنَقّ (٥) ، فعنده أقول فلا أُقَبّح ، وأرقد فأتصبّح ، وأشربُ فأتقمّح (٦) .

أمّ أبي زرع ، فما أم أبي زرع ؟ عكومها رداح (٧) ، وبيتُها فَساح .

ابن أبي زرع ، فما ابن أبي زرع ؟ مَضجَعه كمَسَلّ شطْبة ، وتُشبعه ذراع الجَفْرة (٨) .

---

(١) تعني أن له إبلا كثيراً ، فهي باركة بفنائه ، لا يوجهها تسرح إلا قليلا قدر الضرورة ، فإذا نزل به الضيفان كانت الإبل حاضرة ، فيقريهم من ألبانها ولحومها ، ويضرب لهم المزهر والمعازف ، فإذا سمعت الإبل أصوات المزهر علمت أنه قد جاءه الضيفان وأنهن منحورات هوالك . ا ه من شرح النووي .

(٢) قال الإمام النووي : ومعناه حلاني قرطة وشنوفاً ، فهي تنوس – أي : تتحرك – لكثرتها .

(٣) المعنى : أنها سمنت عنده وامتلأت شحماً .

(٤) أي : فرحني ففرحت ، وعظمني فعظمت عندي نفسي .

(٥) الصهيل : صوت الخيل ، والأطيط : صوت الإبل . والمعنى : أنه وجدها في أهل غنم قليلة ، فهم في ضيق عيش ، فحملها إلى أهل خيل وإبل وبقر ، تدوس الزرع في بيدره لتخرج الحب من السنبل . ومنق : بفتح النون وتشديد القاف ، وهو الذي ينقي الحب وينظفه من التبن بعد الدوس . وروي منق بكسر النون من نقت الدجاجة إذا صوتت . كما في حاشية البيجوري على الشمائل .

(٦) والمعنى : تشرب حتى تروى ، وتدع الشراب من شدة الري .

(٧) العكوم : الأعدال ، جمع عكم . والرداح : العظيمة . والمعنى : أن أعدالها وأوعية طعامها عظيمة ثقيلة .

(٨) قال الإمام النووي : الجفرة بفتح الجيم . الأنثى من أولاد المعز ، وقيل من الضأن ، وهي ما بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها ، والمراد : أنه قليل الأكل ، والعرب تمدح به . ا ه .

بنت أبي زرع ، فما بنتُ أبي زرع ؟ طوع أبيها وطوع أمِّهَا ، وملء كسائها ، وغيظ جارتها .

جارية أبي زرع ، فما جارية أبي زرع ؟ لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً (١) ، ولا تَنْقُثُ ميرتنا (٢) تنقيثاً ، ولا تملأُ بيتنا تعشيشاً (٣) .

قالت أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَض (٤) ، فلقي امرأةمعها ولدان لها كالفَهْدين ، يلعبان من تحت خَصْرِها برمانتين ، فطلَّقني ونكحها ، فنكحتُ بعده رجلاً سَرِيّاً (٥) ، رِكِب شَرِيّاً (٦) ، وأخذ خَطِّيّاً (٧) ، وأراحَ عليَّ نعَماً ثرياً (٨) ، وأعطاني من كل رائحة زوجاً (٩) ، وقال : كلي أمَّ زرعٍ ، وميري أهلك ، فلو جمعتُ كلَّ شيءٍ أعطانيه ما بَلَغَ أصغرَ آنيةِ أبي زرعٍ .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقال رسول الله ﷺ : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأُمِّ زرعٍ » .

وجاء في رواية الهيثم بن عدي : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأُمِّ زرعٍ ، في الألفة والوفاء ؛ لا في الفرقة والجلاء » .

وزاد الطبراني في روايته : « إلاَّ أنه طلَّقها ، وإني لا أُطلِّقُكِ » .

وزاد النسائي والطبراني : قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله بل أنتَ خيرٌ من أبي زرعٍ .

---

(١) أي : لا تشيع حديثنا ، بل تكتم سرّنا وحديثنا كله .

(٢) الميرة هي الطعام المجلوب . ومعناه : لا تفسده وتفرقه ، ولا تذهب به فهي أمينة .

(٣) والمعنى : أنها مصلحة للبيت معتنية بتنظيفه .

(٤) الأوطاب : أسقية اللبن . وتمخض : تحرك لاستخراج الزبد من اللبن .

(٥) أي : من سراة الناس وأشرافهم .

(٦) أي : فرساً يستشري في سيره ، ويمضي بلا فتور .

(٧) الخطي : الرمح .

(٨) أي : كثيرة ، من : الثروة في المال ، وهي كثرته .

(٩) أي : من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم ، أعطاها زوجاً : أي اثنين ، أو صنفاً كثيراً .

وفي رواية النسائي : أنه ﷺ هو الذي ابتدأ الحديث ، فقال لعائشة رضي الله عنها : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأُمّ زرعٍ » فقالت رضي الله عنها : بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله ، ومَنْ كانَ أبو زرعٍ ؟ فقال ﷺ : « اجتمع نساء . . » إلى تمام الحديث .

فانظر يا أخي في حسن عِشْرته ﷺ ، وكريمِ خُلُقه مع أهله ، حيث أصغى إلى حديث عائشة رضي الله عنها ، وهي تحدثه عن قصةٍ وقعت في الجاهلية ، من نساءٍ اجتمعْن وتعاقدْن على أن تخبر كلٌ واحدةٍ منهنّ عن مواقف زوجِها معها ، من حيثُ الأخلاقُ والمعاملةُ والمعاشرة ! .

وقد قال العلماء : يؤخذ من هذا الحديث : ندب حسن المعاشرة للأهل ، وحِلُّ السمر في خيرٍ ، كملاطفة زوجته ، وإيناس ضيفه ، وجواز ذكر المجهول عند المتكلم والسامع بما يكره ، فإنه ليس غيبة ، وغاية الأمر أنّ عائشة رضي اللهُ عنها ذكرت نساء مجهولات ، ذكر بعضهنّ عيوبَ أزواجٍ مجهولين ، لا يُعرفون بأعيانهم ، ولا بأسمائهم ، ومثل هذا لا يعدُّ غيبة . كما أوضح ذلك الإمام النووي في شرحِه .

وفي التراتيب الإدارية : أخذ الأئمة من هذا الحديث جواز التحدُّث عن الأمم الماضية ، والأجيال البائدة ، وضرب الأمثال بهم ، لأنّ في سيرهم اعتباراً للمعتبر ، واستبصاراً للمستبصر ، واستخراجَ الفائدة للباحث المستكثر ، فإنّ في هذا الحديث خصوصاً إذا حُدِّث به النساء منفعةٌ في الحضّ على الوفاء للبعولة .

قال القاضي عياض : وفيه — أي في هذا الحديث — من الفقه : التحدُّثُ بملح الأخبار ، وطُرَف الحكايات ، تسليةٌ للنفس [1] ، وجلاءٌ للقلب .

وهكذا ترجم أبو عيسى الترمذي عليه : باب ما جاء في كلام رسول الله ﷺ في السمر . ثمّ قال — عياض — :

---

(١) كما دل عليه هذا الحديث من تسلية نفس السيدة عائشة رضي الله عنها .

ويُروى عن أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه أنه قال : سلّوا هذه النفوس ساعةً بعد ساعة ، فإنها تصدأُ كما يصدأُ الحديد .

وقال أيضاً : القلب إذا أُكره عَمِيَ ، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول : حَمِّضوا — أي إذا مللتم من الفقه فخذوا في الأشعار ، وأخبار العرب.

قال : وهذا كله ما لم يكن دائماً متصلاً ، وأما أن يكون ذلك عادةَ الرجل حتى يُعرَفَ به ، ويتخذه دَيْدَناً ويُضحِكَ به الناس فهذا مذموم غير محمودٍ شرعاً .

قال : وللاهتمام بفوائد هذا الحديث وكثرة ما استُنبِطَ منه ، أفرده بالتصنيف كثير من العلماء المتقدمين ، ثمّ ذكر أسماءهم . ا هـ باختصار .

كريم عشرته ﷺ مع الناس كلهم

جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : خدمتُ النبيَّ ﷺ — وفي رواية أحمد : في السفر والحضر — عَشْرَ سنين — وفي رواية لمسلم : تسع سنين — فما قال لي أفٍّ قط ، ولا قال لشيءٍ صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ تركتُه : لِمَ تركتَه ؟

وفي رواية أبي نعيم : قال أنس : فما سبَّني ﷺ قطُّ ، ولا ضرَبني من ضربة ، ولا انتهرني ، ولا عبسَ في وجهي ، ولا أمَرَ في أمرٍ فتوانيتُ فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني عليه أحدٌ من أهله قال : « دعوه ، لو قُدِّرَ شيءٌ كان » .

أدبه الرفيع مع مَنْ يحدثه ﷺ

كان ﷺ يُصغي كلَّ الإصغاء إلى مَنْ يحدِّثه ، أو يسأله ، ويقبل عليه ويلاطفه.

روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيتُ رجلاً التقم أُذُنَ النبي

ﷺ — يعني يكلّمه سراً — فيُنحّي رأسه عنه ، حتى يكون الرجلُ هو الذي يُنحّي رأسه ، وما رأيتُ رسول الله ﷺ أخذ بيده رجل فترك يده ، حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يَدَعُ يدَه .

وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة في حديث نومهم عن صلاة الفجر ، وقد عطِشوا وتكابُّوا على الماء ، فقال رسول الله ﷺ : « أحْسِنوا المَلأ [1] ، كلُّكم سيرْوى » ففعلوا ، فجعل رسول الله ﷺ يصبُّ ، قال أبو قتادة : وأنا أسقيهم حتى ما بقي غيري وغيرُ رسول الله ﷺ ، فقال لي : « اشربْ » فقلتُ : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول الله ، فقال : « إنَّ ساقيَ القوم آخرهم شرباً » قال : فشربتُ وشرب رسول الله ﷺ .

حسن لقائه ﷺ وكريم اقباله على جلسائه

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ، ولم يكن يُرى ركبتيه — أو ركبته — خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلاَّ أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرُغَ من كلامه [٢] .

وعن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله ﷺ يُقْبل بوجهه وحديثه على شرِّ القوم ، يتألّفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه عليَّ حتى ظننتُ أني خير القوم ، فقلتُ : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟ فقال : « أبو بكر » قلتُ يا رسول الله أنا خير أم عمر ؟ قال : « عمر » قلتُ : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ قال :

(١) يقال : ما أحسن ملأ فلان ، أي : خلقه وعشرته . قال ابن الأثير بعد ضبطه ، الملأ بفتح الميم واللام والهمزة : وأكثر رواة الحديث يقرؤونها : أحسنوا الملء — بكسر الميم وسكون اللام — من : ملأ الإناء ، وليس بشيء .

(٢) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن ، كما في مجمع الزوائد ٩ : ١٥ ورواه ابن سعد في الطبقات ، وابن ماجه ، كما في غذاء الألباب .

« عثمان » فلمّا سألتُ رسول الله ﷺ صَدَّ عني ، فودِدتُ أني لم أكن سألتُه (١) .

وكان ﷺ إذا بعث بعثاً قال : « تألّفوا النّاسَ » الحديث (٢) .

بسامته وطلاقة وجهه مع الناس ﷺ

كان رسول الله ﷺ أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم تبسماً ، وأحسنَهم بِشْراً .

روى البزار بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي ، أو وعظ قلتَ : نذير قومٍ أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيتَه أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرَهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشراً (٣)

وتقدَّم قولُ عائشة رضي الله عنها لما سُئلت : كيفَ كان رسولُ الله ﷺ إذا خلا في بيتِه ؟ فقالت : كان ألينَ الناس ، بسَّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قطُّ ماداً رجليْه بين أصحابه .

ردُّه ﷺ التحيةَ بأحسنَ منها

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وعليك ورحمة الله » ثمَّ أتى آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله . فقال ﷺ : « وعليك ورحمة الله وبركاته » (٤) . الحديث .

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل . ورواه الطبراني وإسناده حسن ، كما في مجمع الزوائد . قال : وفي الصحيح بعضه بغير سياقه اهـ ٩ : ١٥ .

(٢) الإصابة ٣ : ١٥٢ .

(٣) كذا في مجمع الزوائد ٩ : ١٧

(٤) قال في الدر المنثور : رواه أحمد في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند حسن .

ترحيبه ﷺ بالقادم عليه

عن علي كرم الله وجهه قال : استأذن عمار على النبي ﷺ فعرف صوته فقال : « مرحباً بالطيِّبِ المُطيَّب » (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أقبَلَتْ فاطمة تمشي كأنَّ مِشْيَتَها مِشْيَةُ النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « مرحباً بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه أو شماله (٢) .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما لمَّا قدم وفدُ عبد القيس على النبي ﷺ قال لهم : « مرحباً بالوفد ، غيرَ خزايا ولا ندامى . . » الحديث .

وقال لعكرمة بن أبي جهل : « مرحباً بالراكب المهاجر » .

وقالت أم هانيء : ذهبتُ إلى النبي ﷺ وهو يغتسل ، فسلمتُ عليه ، فقال : « مَن هذه ؟ » قلت : أم هانيء ، فقال : « مرحباً بأم هانيء » .

سؤاله ﷺ عن حال أصحابه بقوله : كيف أنت ؟ وكيف أصبحت

أخرج الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يلقى الرجل فيقول : « يا فلان كيف أنت ؟ » فيقول : بخير أحمد الله . فيقول له النبي ﷺ : « جعلك اللهُ بخير » (٣) .

وروى أبو يعلى بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : « كيف أصبحت ؟ » فقال : بخير من قوم لم يعودوا مريضاً ، ولم يشهدوا جنازة ا .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٣) قال في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح غير مؤمل بن إسماعيل ، وهو ثقة ، وفيه ضعف . أ هـ .

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « كيف أصبحت يا فلان ؟ » فقال : أحمد الله إليك يا رسول الله ، فقال له ﷺ : « ذلك الذي أردته منك » .

اكرامه ﷺ كرام القوم

كان رسول الله ﷺ يكرمُ كريم القوم ويقول : « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه » (١) .

روى الطبراني عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال : لمَّا بُعث النبيُّ ﷺ أتيتُه فقال : « ما جاء بك ؟ » قلتُ : جئتُ لأسلم ، فألقى إليَّ كساءه وقال : « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه » .

وفي رواية البزار : أتيتُ النبيَّ ﷺ فبسط إليَّ رداءَه وقال : « اجلسْ على هذا » فقلتُ : أكرمك اللهُ كما أكرمتَني . . وذكر الحديث .

وروى الحاكم بإسناده أن النبيَّ ﷺ دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابُه ، حتى غصَّ المجلس بأهله وامتلأ ، فجاء جرير البجلي فلم يجد مكاناً ، فقعد على الباب ، فنزع رسول الله ﷺ رداءَه وألقاه إليه ، فأخذه جرير فألقاه على وجهه وجعل يقبِّله ويبكي ، ورمى به إلى النبيِّ ﷺ وقال : ما كنتُ لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتَني ، فنظر النبيُّ ﷺ يميناً وشمالاً وقال : « إذا أتاكمْ كريم قومٍ فأكرموه » (٢) .

وعن عدي بن حاتم أنه لمَّا دخل على النبيِّ ﷺ ألقى إليه وسادةً ، فقال عديٌّ :

(١) قال في المقاصد الحسنة : رواه ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عمر مرفوعاً . ورواه أبو داود عن الشعبي مرسلا بسند صحيح ، كما في كشف الخفاء وغيره .

(٢) وبتعدد هذه الطرق يتقوى الحديث ، وإن كان في مفرداتها ضعف ، كما في المقاصد الحسنة .

أشهدُ أنك لا تبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً ، وأسلم عديّ بن حاتم ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إذا أتاكُم كريمُ قومٍ فأكرموه » (١) .

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ قال : قدمتُ على النبيّ ﷺ في مائة رجلٍ من قومي فذكر حديثاً فيه : أنّ النبيّ ﷺ أكرمه وأجلسه وكساه رداءَه ، ودفع إليه عصاه ، وأنه أسلم ، فقال له رجل من جلسائه : إنا نراك يا رسول الله أكرمتَ هذا الرجل ؟ فقال : « إن هذا شريف قومه ، وإذا أتاكم شريفُ قومٍ فأكرموه » (٢) .

ويؤيد هذا ما رواه ابن عمر وأبو هريرة في حديث : « وإذا كانت عندك كريمةُ قومٍ فأكرِمْها » (٣) .

ومِن ذلك : إكرامه ﷺ لأمير وفد عبد القيس وإجلاسُه عن يمينه ﷺ وأمرُه ﷺ بإكرام الوفد .

فعن شهاب بن عباد أنه سمع بعضَ وفد عبد القيس وهم يقولون : قدِمنا على رسول الله ﷺ فاشتدّ فرحُهم — أي الصحابة — فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا ، فقعدنا ، فرحّبَ بنا النبي ﷺ ودعا لنا ، ثم نظر إلينا فقال : « مَنْ سيدُكمْ وزعيمُكم ؟ » فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائذ ، فقال النبي ﷺ : « أهذا الأشجُّ ؟ » قلنا : نعم يا رسول الله فتخلّف بعد القوم فعقل رواحلهم وضمّ متاعَهم ، ثمّ أخرج عيبته — أي ما يوضع فيه المتاع — فألقى عنه ثياب السفر ولبس مِن صالح ثيابه ، ثم أقبل على النبي ﷺ وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ ، فلما دنا منه الأشجُّ أوسع القومُ له وقالوا : ههنا يا أشجّ . فقال النبي ﷺ واستوى قاعداً وقبض

---

(١) رواه العسكري بسند ضعيف ، كما في المقاصد الحسنة وكشف الخفاء .

(٢) عزاه في المقاصد إلى الدولابي .

(٣) انظر كشف الخفاء ، وفي هذه الأحاديث تنبيه للأزواج أن يحتفظوا بكرامة زوجاتهن ، وعلى الأخص بنات الكرام ، وتقدم الحديث الذي رواه ابن عساكر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » .

رجله : « ههنا يا أشجُّ » فقعد عن يمين رسول الله ﷺ ، فرحَّبَ به وألطفه ، وسأله عن بلادهم ، وسمى له ﷺ قريةً قرية : الصفا والمشقر وغير ذلك من قرى هَجَر . فقال الأشج : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء بلادنا منا ! فقال ﷺ : « إني وطئتُ بلادكم وفُسح لي فيها » قال : ثم أقبل ﷺ على الأنصار فقال : « يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهُكم في الإسلام أشبه شيء أشعاراً وأبشاراً ، أسلموا طائعين غير مكرَهين ولا موتورين — أي مصابين بمصيبة — إذْ أبى قومٌ أن يُسلموا حتى قُتِلوا » قال فلمّا أصبحوا قال ﷺ : « كيف رأيتم كرامةَ إخوانكم لكم وضيافتَهم إياكم ؟ » قالوا : خير إخوان : ألانوا فُرُشَنا ، وأطابوا مطعمَنا ، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتابَ ربِّنا تباركَ وتعالى وسنةَ نبيِّنا ﷺ فأعجبَ النبي ﷺ وفرح .

قال الحافظ المنذري : هذا الحديث بطوله رواه أحمد بإسناد صحيح . ا هـ .

وفي هذا ينجلي لك كريم طبعه ﷺ ، وطيبُ نفسه ، وكمال خصلته ، وحسنُ طويَّته ﷺ ، فإنَّ النفوس اللئيمة في طبعها تُحبُّ أن تحتقرَ كرامةَ الكِرام ، وأن تنتقص من جانبها ، ونسأل الله العافية .

مباسطته ﷺ لجلسائه وإنساؤه لهم

كان رسول الله ﷺ يبسُط لجلسائه بساطَ الانطلاق الشرعيِّ المباح : القال والحال ، دون أن يَقبِضهم بحاله ، أو يكبِتهم بقاله ، فإذا تحدَّثوا بأمرٍ شاركهم في حديثهم ما لم يكن إثماً .

فعن خارجة بن زيد أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقالوا : حدِّثنا ببعض حديثِ النبي ﷺ ، فقال : وما أُحدثكم ؟ كنتُ جارَه ﷺ ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعثَ إليَّ فآتيه ، فأكتب الوحي ؛ فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ،

كلُّ هذا أحدثكم عنه ﷺ (١) .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ طويلَ الصمت ، قليلَ الضَّحِك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم — في الجاهلية — فيضحكون ، وربما تبسَّمَ معهم (٢) .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزِّقين — أي متقبِّضين — ولا متماوتين (٣) ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، وإذا أُريد أحد منهم على شيء من أمر الله تعالى دارت حماليق عينيه كأنه مجنون (٤) .

وفي النهاية : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزِّقين — أي متقبِّضين ومجتمعين — ولا متماوتين .

يقال : تماوت الرجل ، إذا أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم اهـ . والمراد : أنهم ما كانوا منكمشين على نفوسهم ومنقبضين ، بل كانوا منبسطين ومنطلقين .

وروى مسلم عن سِماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه : أكنتَ تجالس رسول الله ﷺ ؟ فقال جابر : نعم كثيراً ، كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاَّه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلُع الشمس ، فإذا طلعتْ قام ، وكانوا يتحدَّثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ، ويتبسَّم ﷺ .

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل والبيهقي ، وقال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني بإسناد حسن اهـ .

(٢) وروى الترمذي نحوه .

(٣) أي : بل كانوا في قوة ونشاط وعزيمة .

(٤) أي من شدة الغضبة لدين الله تعالى . وهذا الحديث رواه البخاري في الأدب المفرد ، ورواه ابن أبي شيبة .

مزاحه ﷺ مع جلسائه وإدخال المسرة عليهم

كان ﷺ يمزح مع أصحابه لإدخال السرور عليهم ، ليباسطهم وليهتدوا بهديه ، ويتخلّقوا بأخلاقه ، فلو أنه ﷺ ترك الطلاقة مع أصحابه و المباسطة معهم ، ولزم العبوس والانقباض لألزم الصحابةُ أنفسَهم بذلك ، وكذلك التابعون من بعدهم ؛ فمزح ﷺ ليمزحوا ، ولكنه ﷺ بيّن لهم أنه لا يقول في مزاحه إلاّ حقاً ، فلا يأتي بباطل ولا بعبث أو لعب .

روى البخاري في الأدب المفرد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لست من دَدٍ (١) ولا الدَّدُ مني » أي : لست من أهل اللعب واللهو ، ولا هما مني . وقد رواه الطبراني والبزار عن أنس بزيادة : « ولستُ من الباطل ، ولا الباطل مني » كما في شرح المواهب .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كان النبي ﷺ ليخالطنا — أي ليلاطفنا ويمازحنا — حتى يقول لأخٍ لي : « يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْر » .

ورواه الترمذي وقال : وفِقْه هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يمازح ، وفيه : أنه ﷺ كنّى غلاماً صغيراً فقال له : يا أبا عُمير . وفيه : أنه لا بأس أن يُعطى الصبيُّ الطيرَ ليلعب به — أي بشرط ألاّ يُعَرِّضه لتعذيبٍ أو جوعٍ أو عطشٍ — وإنما قال له النبي ﷺ : « يا أبا عُمير ، ما فعل النغير ؟ » — أي الطير — لأنه كان له نغير يلعب به فمات ، فحزن عليه ، فمازحه النبي ﷺ فقال له : « يا أبا عُمير ما فعل النغير » (٢) .

---

(١) بفتح الدال الأولى ، وكسر الثانية . والمعنى أنه لا يصدر منه صلى الله عليه وسلم إلا الأمر الجد ، والقول الحق .

(٢) قال في الجزء الثاني من التراتيب : قد أكثر الناس من استنباط الأحكام من هذا الحديث ، وزاد أبوالعباس ابن القاص من الشافعية على مائة فائدة ، وأفردها في جزء ، ونقل عن ابن الصباغ أنه أملى في درسه على حديث « يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ » أربعمائة فائدة اهـ .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يُهدي إلى النبي ﷺ هديةً من البادية ، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى البادية ، فقال النبي ﷺ : « إنّ زاهراً باديتُنا ونحن حاضروه » وكان النبي ﷺ يُحبُّه ، وكان زاهرٌ رجلاً دميماً ، فأتاه النبيُّ ﷺ يوماً وهو يبيع متاعَه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يُبصره ، فقال زاهر : مَن هذا ؟ أرسِلْني ، فالتفت زاهر فعرف النبي ﷺ ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهرَه بصدر النبي ﷺ حين عرفه ، فجعل النبي ﷺ يقول : « مَن يشتري هذا العبد ؟ » فقال : يا رسول الله إذاً والله تجدُني كاسداً ، فقال النبي ﷺ : « لكنْ عند الله است بكاسد أو قال : أنت عند الله غال » .

وفي سنن أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيتُ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وهو في قبة من أَدَم — صغيرة — فسلَّمتُ فردَّ وقال : « أدخل » فقلتُ : أكُلّي يا رسول الله ؟ قال : « كُلُّكَ » فدخلتُ .

ومن جملة ما ورد في مزاحه ﷺ : ما ورد عن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يستحمله — أي يطلب منه دابةً — فقال له ﷺ : « إني حاملُك على ولد الناقة » فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة (١) ؟ فقال ﷺ : « وهل يَلِد الإبلَ إلاّ النوق ؟ » .

وجاءت امرأة فقالت : يا رسول الله احملني على بعير ، فقال : « احمِلُوهَا على ابن بعير » فقالت : ما أصنع به ؟ وما يحملني يا رسول الله ! فقال ﷺ : « وهل يجيء بعير إلاّ ابن بعير » (٢) .

وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم أنّ امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية ، جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنّ زوجي يدعوك . فقال : « مَنْ هو ؟ أهو الذي بعينيه بياض ؟ » فقالت : ما بعينيه بياض ، فقال : « بلى بعينيه بياض » فقالت :

---

(١) فتوهم الرجل أنه صلى الله عليه وسلم سيحمله على ولد ناقة صغير .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم . قال العلامة الزرقاني : فتعددت الواقعة بالنسبة للرجل والمرأة.

لا والله ، فقال ﷺ : « ما مِن أحدٍ إلاَّ بعينيه بياض » أي : البياض المحيط بالحدقة.

ومن ذلك ممازحته للمرأة العجوز . روى الترمذي عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : أتت عجوزٌ النبيَّ ﷺ فقالت : يا رسول الله ادعُ اللهَ أن يُدخلَني الجنة ، فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز » قال : فولَّتْ — أي ذهبتْ — وهي تبكي ، فقال ﷺ : « أخبروها أنها لا تدخلُها وهي عجوز . إنَّ الله تعالى يقول : « إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً . فجعلْناهُنَّ أبكاراً . عُرُباً أتْراباً (١) » .

فهذه الأحاديث تدل على ممازحته ﷺ لمؤانسة المخاطب ، وتطييب نفسه ، ولإدخال السرور عليه ، لأنَّ المزاح هو الانبساط مع الغير من غير أذىً .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتمازحون فيما بينهم ، كما جاء في الأدب المفرد عن بكر بن عبد الله قال : كان أصحابُ النبي ﷺ يتبادحون بالبِطِّيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال .

وفي النهاية لابن الأثير : وفي حديث بكر بن عبد الله : كان أصحاب محمد ﷺ يتمازحون ويتبادحون بالبطِّيخ فإذا جاءت الحقائق كانوا همُ الرجال . أي يترامون بالبطيخ ، يقال : بَدَحَ يبدَح إذا رمى ا هـ .

وأما ما ورد في الحديث من النهي عن المزاح كما في سنن الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تُمارِ أخاكَ ولا تُمازحْه ، ولا تَعِدْه موعداً فتخلفَه » : فهذا النهي محمولٌ على الإفراط في المزاح ، لما في ذلك من الشغل عن ذكر الله تعالى ، أو عن التفكر في مهمات الدين ، ولما فيه من قسوة القلب بكثرة الضحك ، بل إن كثرة المزاح تورث العداوة والأذى والحقد ، وجَراءة الصغيرِ على الكبير ، وقد قال عمر رضي الله عنه : مَنْ كثُرَ ضحكه قلَّتْ هيبتُه ،

(١) عرباً : جمع عروب ، وهي المفصحة عن محبة زوجها . والأتراب : جمع ترب . والمراد : أنهن متساويات في سن واحدة .

وقال الحافظ الترمذي : هذه الرواية مرسلة ، وجاء في رواية أخرى موصولة عن أنس رضي الله عنه .

ومن مزح استُخِفَّ به ا هـ أي بأن أكثر المزاح ؛ كما وأنَّ النهي عن المزاح محمول على المزاح الذي فيه أذىً أو حزن الغير .

وفي سنن أبي داود والترمذي عن عبد الله بن السائب عن أبيه عن جدِّه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يأخذنَّ أحدُكم متاعَ أخيه لاعباً ولا جادّاً ، ومَن أخذ عصا أخيه فليردَّها » .

وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثنا أصحابُ محمدٍ ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبلٍ معه فأخذه ، ففزع ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أن يروِّعَ مسلماً » (١) .

وفي يوم الخندق كان زيد بن ثابت ينقل التراب مع المسلمين فنعس ، فجاء عُمارة بن حزم فأخذ سلاحَه وهو لا يشعر ، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك .

ورُوي عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنَّ رجلاً أخذ نعل رجل ، فغيَّبها وهو يمزح ، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : « لا تُروِّعوا المسلم ، فإنَّ روعة المسلم ظلم عظيم » . قال الحافظ المنذري : رواه البزار والطبراني وابن حبان .

فالمزاح مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء بما لا أذى فيه ، ولا ضررَ ولا قذف ولا غيبة ولا شين ، في عرض أو دين ، ولا استخفاف بأحد منهم .

وأما مزاح الرجل مع أهله وملاطفتهم بأنواع الملاطفة : فمطلوب ومحبوب ، وهو من أخلاق النبيين ، ومن شعار المؤمنين ، قال عمر رضي الله عنه : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثلَ الصبيِّ ، فإذا التُمِس ما عنده وُجِدَ رجلاً .

---

(١) قال الزين العراقي بعد ما عزاه لأحمد والطبراني : حديث حسن . ا هـ من فيض القدير .

تبسمه ﷺ حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم

كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتبسَّمُ في وجوه أصحابه حين يلقاهم ، وفي حديثه إليهم ، تلطُّفاً بهم ومؤانسة لهم .

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت [١] ، ولا رآني إلاّ تبسَّم . رواه الترمذي .

وروى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : كان أبو الدرداء إذا حدَّث حديثاً تبسَّم ، فقلت : لا ، يقول الناس : إنك أحمق ! — أي بسبب تبسمك في كلامك — فقال أبو الدرداء : ما رأيتُ أو سمعتُ رسول الله ﷺ يحدِّثُ حديثاً إلاّ تبسَّم ، فكان أبو الدرداء إذا حدَّث حديثاً تبسَّم ، اتباعاً لرسول الله ﷺ في ذلك .

حول ضحكه ﷺ

كان أصحاب النبي ﷺ يبحثون عن أخلاق النبي ﷺ وأحواله وآدابه ليتبعوه ، ومن ذلك : تتبعهم لأوصاف ضحكه ﷺ ، وللأسباب التي كان يضحك من أجلها ، وذلك لتتبين لهم الأسباب التي يجوز للمسلم أن يضحك من أجلها شرعاً ، وما لا يجوز الضحك منه شرعاً ، لأنَّ الضحك منه ما يجوزُ شرعاً ومنه ما لا يجوز في الشرع ، ولا يُعرف ذلك إلاّ بالرجوع إلى الأصول الثابتة عن رسول الله ﷺ .

ولقد كان أكثر ضحكه صلى الله عليه وسلم التبسُّم .

روى الترمذي وغيره عن هند بن أبي هالة في حديثه يصف النبي ﷺ ، قال فيه : جُلُّ ضحكه التبسُّم ، يفترُّ عن مثل حَبِّ الغمام . والمعنى أنه ﷺ يضحك

---

(١) أي ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته ، واستأذنت عليه . كما في الفتح .

ضحكاً حسناً ، كاشفاً عن سنٍّ مثل حَبِّ الغمام — وهو البَرَد — في البياض والصفاء والبريق .

وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : ما كان ضحك رسولِ الله ﷺ إلاّ تبسُّماً . رواه الترمذي .

وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ قطْ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه [1] ، إنما كان يتبسم . . الحديث .

وكان صلى الله عليه وسلم يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذُه .

فعن عامر بن سعد قال : قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه : لقد رأيتُ النبيَّ ﷺ ضحك يوم الخندق حتى بدت نواجذُه . قال عامر : فقلت لسعد : كيف كان ضحكه ؟ فقال سعد : كان رجلٌ معه ترس ، وكان سعد رامياً ، وكان الرجلُ يقول كذا وكذا بالترس — يغطي جبهته ، فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع — الرجل المشرك — رأسَه رماه — سعد — فلم يخطىء هذه منه — يعني جبهته — وانقلب الرجل وشال برجله ، فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدتْ نواجذُه ، قال : قلت : من أي شيء ضحك ؟ قال : مِن فِعْلِه بالرجل . أي : فِعْلِ سعدٍ بالرجل المشرك ، حيث إنه استهدفه حتى أصابه مع توقِّيه بترسه .

وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخرَ أهلِ النّارِ خروجاً منها ، وآخرَ أهلِ الجنة دخولاً الجنَّة : رجلٌ يخرجُ من النّار حَبْواً ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهبْ ، فادخل الجنَّةَ ، فيأتيها فيخيَّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يا ربِّ وجدتُها ملأى ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهبْ فادخل الجنَّة ، قال : فيأتيها فيخيَّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يا ربِّ وجدتُها ملأى ، فيقول الله : اذهب فادخُل الجنة ، فإنَّ لك مثلَ الدنيا وعَشرةَ أمثالها — أو : إن لك عشرةَ أمثال الدنيا — .

(١) جمع لهاة ، وهي اللحمة في أعلى الحلق من أقصى الفم .

قال : فيقول : أتسخرُ بي — أوْ : أتضحكُ بي — وأنتَ الملِكُ ؟ ! »

قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه . قال : فكان يقال : ذاك أدنى أهل الجنة منزلةً .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخرَ أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخرَ أهلِ النّار خروجاً منها ، رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارَها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تُعرَض عليه ، فيقال له : فإنّ لك مكانَ كلّ سيئةٍ حسنةً ، فيقول : ربِّ قد عملتُ أشياءَ لا أراها ها هُنا ! » .

فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدتْ نواجذُه رواه مسلم والترمذي في الشمائل واللفظ له .

وأخرج الإمامُ أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى بُصرى ومعه النُّعيمان وسُويبط بن حَرْملة رضي الله عنهما ، وكلاهما بدريٌّ ، وكان سويبط على الزّاد ؛ فقال له النعيمان : أطعِمْني ، فقال سويبط : حتى يجيءَ أبو بكر ، وكان النعيمان مِضْحاكاً مزّاحاً ، فذهب إلى أناسٍ جلبوا ظهراً — أي إبلاً — فقال لهم النعيمان : أتبتاعون — أي تشترون — مني غلاماً — أي عبداً — عربياً فارهاً ؟ — فَتِيّاً — قالوا : نعم ، فقال : إنه ذو لسان ، ولعله يقول : أنا حرٌّ ، فإن كنتم تاركيه لذلك ، فدعوني لا تفسدوه عليّ . فقالوا : بل نبتاعه ، فابتاعوه بعشر قلائص — أي نوق شابة — فأقبل ليسوقَها وقال لهم : دونكم هو هذا .

فقال سويبط : هو — أي النعيمان — كاذب ، أنا رجل حر . فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته ، فذهبوا به ، فجاء أبو بكر فأُخبر ، فذهب هو وأصحابه إليهم ، فردُّوا القلائص وأخذوه ، ثم أخبروا النبيَّ ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه حولاً [١] .

---

(١) وأخرجه أبو داود الطيالسي وابن ماجه في باب المزاح .

وفي الجزء الثالث من الإصابة نقلاً عن الزبير بن بكار : أنّ النعيمان كان لا يدخل المدينةَ طُرْفةٌ إلا اشترى منها ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : ها أهديتُه لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمانَ بثمنها ، أحضره النعيمان إلى النبيّ ﷺ ، وقال يا رسول الله : أعطِ هذا ثمنَ متاعه، فيقول : « أوَ لم تُهْدِه لي ؟ » فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ؛ ولقد أحببتُ أن تأكلَه ، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه .

ومن ذلك ضحكه ﷺ من الأمر العجيب يبلغه .

روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت سَلمى امرأة أبي رافع مولى النبي ﷺ - أي عتيقه - تستأذن رسولَ الله ﷺ على أبي رافع وقالت : إنه ليضربني ، فقال ﷺ : « مالَكَ ولها ؟ » قال : تؤذيني يا رسول الله ، قال : « بماذا آذيتيه يا سلمى ؟ » قالت : ما آذيته بشيء ، ولكنه أحدثَ وهو يصلي ، فقلت له : يا أبا رافع إنّ رسول الله ﷺ قد أمرَ المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن يتوضأ ، فقام يضربني .

فجعل رسول الله ﷺ يضحك ويقول : « يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير » [1] .

وسئل ابن عمر رضي الله عنهما : هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون ؟ فقال : نعم ، وإن الإيمان في قلوبهم أمثالُ الجبال . وربما قال : وإنّ الإيمانَ في قلوبهم أعظمُ من الجبال .

وأما الضحكُ المنهيُّ عنه شرعاً : فهو ما كان من باب السخرية بالناس ، وانتقاصهم ، أو فيه انتهاك لحرمات الدين أو المسلمين ، أو ما كان كثيراً ، فإنّ كثرةَ الضحك تميتُ القلبَ الروحاني الإيماني ، لِما تفضي إليه من الغفلة المورِّثة لقسوة القلب ، وتميت القلب الجسماني ، لأنّ كثرةَ الضحك تضعف القلب بسبب كثرةِ خفقانه ، فيؤدي ذلك إلى موته .

---

(١) انظر شرح المواهب : ٢ : ٣٠٢ .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : كثرةُ الضحكِ والفرحِ بالدُّنيا سُمٌّ قاتِل يسري إلى العروق ، فيخرج من القلبِ الخوفَ والحزن . اهـ .

روى البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تُكثِروا من الضحك ، فإنَّ كثرةَ الضحك تميتُ القلب » . وهناك أحاديث كثيرة وردت في النهي عن كثرةِ الضحك .

ملاطفته ﷺ للصبيان وملاعبته لهم

روى الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن الحارث قال : كان رسول الله ﷺ يصفُّ عبد الله وعبيد الله وكثير بني العباس ثم يقول : « مَن سَبَقَ إليَّ فله كذا وكذا » قال : فيسبقون إليه ، فيقعون على ظهره وصدره ﷺ ، فيقبِّلهم ويلتزمهم [١] .

وفي زوائد ابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسَهم .

وروى البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمع أذناي هاتان ، وبصر عيناي هاتان ، رسولَ الله ﷺ أخذ بيديه جميعاً بكفَّي الحسن أو الحسين ، وقدميه [٢] على قدم رسول الله ﷺ ، ورسول الله يقول : « ارْقَهْ » قال : فرقيَ الغلامُ حتى وضعَ قدميْه على صدر رسول الله ﷺ ، ثم قال رسولُ الله ﷺ : « افتحْ فاك » ثمَّ قبَّله ، ثمَّ قال : « اللهمَّ أحبَّه فإني أُحبُّه » .

---

(١) كذا في مجمع الزوائد : ٩ : ١٧ .

(٢) منصوب بفعل محذوف تقديره : وجعل قدميه . . . الخ ، أو أبصرت عيناي قدميه . كما نبه على ذلك الشارحون .

وقد جاء ذلك في الإصابة وزاد : « حُزُقَّه حُزُقَّه ، تَرَقَّ ، عينَ بقَّه » (١) .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدِمَ من سفرٍ تُلُقِّي بالصبيان من أهل بيته ، قال : وإنه قدمَ مرَّةً من سفره فسُبِقَ بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة رضي الله عنها ، إما الحسن أو الحسين ، فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينةَ ثلاثة على دابَّة .

وقال عبد الله بن جعفر لابن الزبير : أتذكر إذ لقينا رسولَ الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس ؟ فقال : نعم . قال : فحمَلَنا وتركَكَ .

كمال لطفه ﷺ وشدة اهتمامه بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء

روى الإمام مسلم عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال : انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريبٌ جاء يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينُه ؟ قال : فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبتَه حتى انتهى إليَّ ، فأُتِيَ بكرسي حُسِبْتُ قوائمُه حديداً ، فقعد عليه رسولُ الله ﷺ وجعل يعلمُني مما علَّمَه الله ، ثمَّ أتى خطبتَه ، فأتمَّ آخرَها (٢) .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : بينما نحنُ جلوسٌ مع النبي ﷺ في المسجد ، دخل رجلٌ على جمَلٍ ، فأناخه في المسجد ثم عقَلَه ، ثم قال لهم : أيُّكم محمد ؟ والنبي ﷺ متكئٌ بين ظَهرانَيْهِم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض

---

(١) جاء في النهاية لابن الأثير : وفيه أنه عليه الصلاة والسلام كان يرقص الحسن أو الحسين ويقول : « حزقة حزقة ، ترق عين بقه » فترقى الغلام حتى وضع قدميه على صدره . الحزقة : الضعيف المتقارب الخطو من ضعفه ، وقيل : القصير العظيم البطن ، فذكرها على سبيل المداعبة والتأنيس له ، وترق : بمعنى اصعد ، وعين بقه : كناية عن صغر العين . اهـ .

(٢) فانظر في شدة اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمن يسأله عن أمور الدين ، كيف ترك خطبته وعلم السائل ما سأله من أمر دينه !

المتكىء ، فقال له الرجل : ابنَ – أي يا ابن – عبد المطلب : فقال له النبي ﷺ : « قد أجبتُك » فقال الرجل للنبي ﷺ : إني سائلُك فمشدّدٌ عليك في المسألة ، فلا تجِدْ عليَّ في نفسك – أي لا تغضبْ في تشديدي عليك في السؤال بل تحمَّلْ – وإذا برسول الله ﷺ يحفه بلطافته ، فقال له : « سَلْ عمّا بدا لك » .

فقال : أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك : آللهُ أرسلكَ إلى الناسِ كلهم ؟ فقال ﷺ : « اللهمَّ نعم » .

وفي رواية مسلم : قال الرجل : فمن خلق السماءَ ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » قال : فمن نصبَ هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ؟ – أي من المنافع – قال ﷺ : « الله » .

قال : فبالذي خلقَ السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، وجعل فيها ما جعل : آللهُ أرسلك ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال – كما في رواية البخاري – : أنشدك بالله – أي أسألك بالله – آللهُ أمرك أن تصلي – وفي رواية أن نصلي ، بالنون وفيما بعدها أيضاً – الصلواتِ الخمسَ في اليوم والليلة ؟ قال : « اللهم نعم » قال : أنشدك بالله ، آلله أمركَ أن تصومَ هذا الشهرَ من السنة ؟ قال : « اللهمَّ نعم » قال : أنشدك بالله ، آلله أمركَ أن تأخذَ الصدقةَ من أغنيائنا فتقسمَها على فقرائنا ؟ فقال ﷺ : « اللهمَّ نعم » .

وفي رواية مسلم : وسأله عن الحجِّ أيضاً ، ثم قال الرجل : آمنتُ بما جئتَ به ، وأنا رسولُ مَن ورائي من قومي ، وأنا ضِمامُ بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر .

وفي الاستيعاب لابن عبد البر ، في ترجمة أسماء بنت يزيد بن السَّكَن رضي الله عنها قال : إنها كانت من ذواتِ العقل والدين ، رُوي عنها أنها أتت النبيَّ ﷺ فقالت : إني رسولُ مَنْ ورائي من جماعة نساء المسلمين ، كلُّهنَّ يقلْنَ بقولي ، وعلى مثل رأيي : إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمَنّا بك واتَّبَعناك ، ونحن معشرَ النساء مقصوراتٌ مخدَّرات ، قواعدُ بيوت ، وإن الرجال فُضِّلوا بالجُمُعات

وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟

فالتفت رسولُ الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال : « هل سمعتم مقالةَ امرأةٍ أحسنَ سؤالاً عن دينها من هذه ؟ » فقالوا : بلى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « انصرفي يا أسماء ، وأعلمي مَن وراءكِ من النساء أن حُسن تبعُّل[1] إحداكُنَّ لزوجها ، وطلبَها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال » فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر ، استبشاراً بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . اهـ .

ويشهد لهذا الحديث : ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : أنا وافدةُ النساء إليك : هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإنْ يُصيبوا أُجروا ، وإن قُتِلوا كانوا أحياءً عند ربهم يُرزقون ، ونحن معاشرَ النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك ؟ .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « أبْلِغي مَنْ لقيتِ من النساء : أنَّ طاعةَ الزوج ، واعترافاً بحقه ، يعدل ذلك ، وقليلٌ منكنَّ مَن يفعله » .

قال الحافظ المنذري : رواه البزار هكذا مختصراً ، والطبراني في حديثٍ فقال في آخره : ثم جاءت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت : إني رسولُ النساء إليك ، وما منهنَّ امرأة علمتْ أو لم تعلم إلاَّ وهي تهوى مخرجي إليك ، الله ربُّ الرجال والنساء وإلههنَّ ، وأنتَ رسولُ الله إلى الرجال والنساء ، كتب الله الجهاد على الرجال فإن أصابوا أُجرُوا ، وإن استُشهدوا كانوا أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فما يعدِل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟

فقال ﷺ : « طاعةُ أزواجهن ، والمعرفة بحقوقهن ، وقليلٌ منكنَّ مَنْ يفعله »[1] .

---

(١) أي : طاعة المرأة لبعلها ، أي : زوجها .

(٢) انظر ترغيب المنذري : ٣ : ٥٣ .

مكافأته ﷺ الإكرام بأفضل إكرام

روى البيهقي في الدلائل وابن اسحاق عن أبي قتادة أنه قال : وَفَدَ وفدُ النَّجاشي على النبي ﷺ فقام النبي ﷺ يخدمُهم . فقال له أصحابُه : نحن نكفيك — أي نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم — فقال ﷺ « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين . وأنا أُحبُّ أن أُكافئهم » .

مقابلته ﷺ الإحسان بأجمل إحسان

كان رسول الله ﷺ لا يُضيع الإحسان ، ولا ينكر الجميل والمعروف لإنسان ، مَن عمل معه معروفاً ، أو صنع معه جميلاً ، يذكره له ويقابله بما هو أحسن وأكرم وأجمل ، كما أثبتتْ ذلك الوقائع الواردة ، والشواهد الثابتة .

فمن ذلك : ما ورد عن عَمْرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : استسقى رسول الله ﷺ — أي طلب ماءً ليشرب منه — فأتيتهُ بقدح فيه ماء ، فكانتْ فيه شعرةٌ فأخذتُها — أي أزالها من القدح — فقال ﷺ مقابلاً لصنعه الجميل : « اللهُم جمِّله » قال الراوي : فرأيتُ عمراً وهو ابن تسعين سنة ، وليس في لحيته شعرة بيضاء (١) .

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ، فسقطت على لحيته ريشة ، فابتدر أبو أيوب فأخذها ، فقال له النبي ﷺ : « نزع الله عنك ما تكره » (٢) .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني إلا أنه — الطبراني — قال : ستون سنة ، وإسناده حسن اهـ .

(٢) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه نائل بن نجيح وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه الدارقطني وغيره.

فانظر كيف أنه ﷺ لم يضيِّعْ إحسانَ مَن أزال عنه ريشةً !.

ومن ذلك : ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيتُه بوَضوئه وحاجته — أي بماء وضوئه وسائر ما يحتاجه من سواك ونحوه — فقال لي : « سَلْ » أي : اطلبْ ما تحتاجه في مقابلة خدمتك لي . فقلتُ : أسألك مرافقتَك في الجنة ، فقال ﷺ : « أوْ غير ذلك » أي : تسأل غير ذلك ، فقال ربيعة : قلت : هو ذاك — أي سؤالي مرافقتك ، لا أسألك غير ذلك — قال ﷺ : « فأعِنّي على نفسِك بكثرةِ السجود » . ورواه الطبراني في الكبير ولفظه : قال ربيعة بن كعب : كنتُ أخدمُ النبيَّ ﷺ نهاري ، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله ﷺ فبِتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : « سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي » حتى أملَّ ، أو تغلبني عيني فأنام .

فقال لي ﷺ يوماً : « يا ربيعة سَلْني فأعطيَك » فقلت : أنْظِرْني حتى أنظرَ ، وتذكَّرْتُ أنَّ الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله أسألُكَ أن تدعوَ الله لي أن ينجيني من النار ، ويدخلني الجنَّة ، فسكتَ رسولُ الله ﷺ ثم قال : « مَنْ أمرَك بهذا ؟ » قلتُ : ما أمرني به أحد ، ولكني علمتُ أن الدنيا منقطعةٌ فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه ، فأحببتُ أن تدعوَ الله لي . قال : « فأعِنّي على نفسِك بكثرة السجود » [1] .

تفقده ﷺ أصحابه

روى الترمذي وغيرُه عن هند بن أبي هالة ، في حديثه يصفُ النبيَّ ﷺ ، وفيه : كان ﷺ يتفقَّد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس . الحديث كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى . والمعنى أنه كان يسأل عنهم حال غيبتهم عنه .

وروى أبو يعلى بإسنادٍ فيه ضعف عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فقَدَ الرجل من إخوانه ثلاثةَ أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان

---

(١) انظر ترغيب المنذري في فضل السجود .

شاهداً — أي حاضراً في البلد — زاره . وإن كان مريضاً عاده [١] .

حفظه ﷺ للود واحتفاظه بالعهد

قال الله تعالى : « وَلا تَنْسَوُا الفَضْلَ بينكم ، إنَّ اللهَ بما تعملونَ بصير » .

أورد البخاري في صحيحه : باب حسن العهد [٢] من الإيمان . ثم أسند إلى عائشة رضي الله عنها قالت : ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجة ، ولقد هلكت — أي ماتت — قبل أن يتزوّجني رسولُ الله ﷺ بثلاث سنين : لما كنتُ أسمعُه يذكرها — أي يثني عليها خيراً — ولقد أمره ربُّه أن يبشرّها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَب ، وإنْ كان — أي وإنه كان ﷺ — ليذبح الشاةَ ثمَّ يُهدي في خُلَّتها منها . أي : يُهدي من لحم الشاة إلى صديقات خديجة وخليلاتها من النساء : إكراماً للسيدة خديجة وحفظَ ودٍ : وحسنَ عهدٍ معها .

وروى الحاكم والبيهقي في الشُّعَب عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : جاءتْ عجوزٌ إلى النبي ﷺ فقال : « كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف أنتم بعدنا ؟ » فقالت : بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ فقال : « يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإنَّ حسنَ العهد من الإيمان » .

فكان ﷺ يحسن العهد ويحفظُ الودَّ .

وروى البخاري في الأدب المفرد عن أبي الطُّفَيل قال : رأيتُ النبيَّ ﷺ يقسم لحماً بالجِعْرانة ، وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير ، فأتَتْهُ امرأةٌ فبسط لها ﷺ رداءه . قلت : مَن هذه ؟ قيل : هذه أُمُّه التي أرضعَتْه . أي : هي السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها .

---

(١) انظر الجامع الصغير ومجمع الزوائد .

(٢) المراد بالعهد هنا : رعاية الحرمة ، والاحتفاظ بالشيء ، والملازمة له ، مع تأدية حقوقه دون إهمال ولا ترك .

وروى أبو داود أنّ أبا النبيّ ﷺ من الرضاعة : أتى النبيّ ﷺ فوضع له بعض ثوبه . فقعد عليه ؛ ثم أقبلتْ أمّه – من الرّضاعة – فوضع لها شِقّ ثوبه من جانبه الآخر ؛ فجلستْ عليه ، ثمّ أقبل أخوه من الرضاعة ؛ فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه .

صدقه للوعد ﷺ

كان رسول الله ﷺ صادقَ الوعد ، يَفي بوعده وإن شَقّ ذلك عليه

روى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحَمْساء قال : بايعتُ النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعَث . وبقيتْ له بقيّة ؛ فوعدتُه أن آتيه بها في مكان ، فنسيتُ ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث ؛ فجئتُ فإذا هو ﷺ في مكانه ، فقال : « يا فتى لقد شَقَقْتَ عليّ ! أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك » .

زياراته الكريمة ﷺ لأصحابه

كان رسول الله ﷺ يزورُ أصحابه ليُكرِمَهم بذلك ؛ وليُدخِلَ السرورَ عليهم ؛ ولينفعهم بإرشاداته وتعاليمه .

فعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ كان يُكثِر زيارةَ الأنصار ؛ خاصّةً وعامّةً ، فكان إذا زار خاصةً أتى الرجلَ في منزله ، وإذا زار عامّةً أتى المسجد [(١)] .

وروى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار ، ويسلّم على صبيانهم ؛ ويَمسح رؤوسَهم [(٢)] .

وجاء في الأدب المفرد للبخاري : باب من زار قوماً فَطَعِم عندهم ؛ ثم أسند إلى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ زار أهلَ بيت من الأنصار ؛ فَطَعِمَ عندهم

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد وفيه راوٍ لم يسم ، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ ٨ : ١٧٣

(٢) حديث حسن بل صحيح ، كما نبه عليه في فيض القدير .

طعاماً ، فلما خرج — أي لما أراد أن يخرج — أمر بمكان من البيت فنَضِحَ له على بساط ، فصلَّى عليه ، ودعا لهم .

وإنما فعل ذلك ليتبركوا بصلاته ، وبموضع صلاته ، وليتخذوا المكان الذي صلى فيه مسجد البيت .

وعن جُبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « انطلقوا بنا إلى بني واقفٍ نزور البصير » رجل كان مكفوفَ البصر (١) .

وروى الإمام أحمد في المسند عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » قال : فردَّ سعد خفياً . وعند أبي داود بعد أن ردَّ سعد خفياً قال قيس : قلت : ألا تأذنُ لرسول الله ﷺ ؟ فقال سعد : ذَرْهُ حتى يُكثر علينا من السلام ، فقال ﷺ : « السلامُ عليكم ورحمة الله » أي ثانياً ، فردَّ سعد خفياً ، ثم قال ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » أي ثالثاً ، فرجع رسول الله ﷺ واتَّبعه سعد ، فقال : يا رسول الله قد كنتُ أسمع تسليمك وأردُّ عليك رداً خفياً ، لتُكثرَ علينا من السلام ، قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ — أي ذهب مع سعد إلى منزله — فأمر له سعد بغُسل — أي ماء ليغتسل تبرداً — فوُضع ، فاغتسل رسولُ الله ﷺ ، ثم ناوله سعد — أو قال : ناولوه — مِلْحفةً مصبوغةً بزعفران وورس ، فاشتمل بها رسول الله ﷺ . ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللهمَّ اجعلْ صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » .

قال : ثم أصاب من الطعام ، فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف ، قرَّب إليه سعد حماراً ، قد وطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ ، فقال سعد : يا قيس اصحبْ رسولَ الله ﷺ ، قال قيس : فقال لي رسول الله ﷺ : « اركَبْ » ، فأبيتُ ، فقال : « إمَّا أن تركَبَ ، وإما أن تنصرفَ » أي : ترجعَ لمنزلك — قال قيس : فانصرفت .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار — واللفظ له — والطبراني ، ورجال البزار رجال الصحيح غير ابراهيم بن المستمرّ العروقي وهو ثقة . أهـ ٨ : ١٧٤ .

وفي رواية ابن منده (١) : فأرسل سعد ابنه قيساً مع رسول الله ﷺ ليردّ الحمار ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : « احمله — أي احمل قيساً — بين يدي » أي أمامي على الدابة ، فقال سعد : سبحان الله أتحمله بين يديك يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « نعم ! هو أحقُّ بصدر حماره » فقال سعد : هو لك يا رسول الله ، فقال ﷺ : « احملْه إذاً خلفي » .

فانظر إلى كمال لطفه وحسن معاشرته ، ورعايته الحقوق ، وإعطائه كلَّ ذي حق حقه ﷺ ! .

زياراته ﷺ لضعفاء المسلمين عامة ولأهل الصفة خاصة

كان رسول الله ﷺ يزور ضعفاء المسلمين ، ويلاطفهم ويؤانسهم ، ويجلس معهم ، ويعود مرضاهم ، ويحضر جنائزهم ، وفي هذا تكريم لهم ، وتبريك عليهم ، ومواساة وإحسان إليهم ، ليشعروا بعزتهم وكرامتهم وسعادتهم .

فعن سهل بن حُنَيف رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم (٢) .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جلستُ في عصابة — أي جماعة — من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعضٍ من العُري ، وقارىء يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا ، فلما قام رسول الله ﷺ — أي وقف مشرفاً علينا — سكت القارىء ، فسلّم رسول الله ﷺ ثم قال : « ما كنتم تصنعون ؟ » قلنا : نستمع إلى كتاب الله تعالى ، فقال : « الحمد لله الذي جعل من أمّتي مَنْ أُمرتُ أن أصبر نفسي معهم » قال : فجلس ﷺ وسطَنا ليعدل نفسه فينا ، ثم قال ﷺ بيده هكذا — أي أشار إليهم — فتحلّقوا وبرزتْ وجوههم له ، فقال :

---

(١) كما في شرح المواهب .

(٢) عزاه في الجامع الصغير إلى الطبراني وأبي يعلى والحاكم رامزاً إلى صحته .

« أبشروا يا صعاليك — أي فقراء — المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » .

وكانت صُفَّة المسجد النبوي مدرسةً للقرّاء : يأوي إليها فقراء الصحابة ، ممن لا أهل لهم ؛ فيتدارسون القرآن ويتعلمون أمور الدين وأحكامه ، ثم يذهبون في نواحي البلاد ، ومختلف الآفاق فيعلّمون الناس ذلك .

تفقده ﷺ أصحابه في الليل واستماعه الى قراءتهم

روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرفُ أصواتَ رُفقة الأشعريين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإنْ كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار » .

وروى أبو داود والترمذي عن أبي قتادة : أن النبي ﷺ خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي : يخفض من صوته — أي بالقراءة — ، ومرَّ بعمر ابن الخطاب وهو يصلي رافعاً — بالقراءة — فلما اجتمعا عند النبي ﷺ ، قال ﷺ : « يا أبا بكر مررتُ بك وأنت تصلي تخفض صوتك » — أي بالقراءة — فقال أبو بكر : قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسول الله . فقال : « ارفعْ من صوتك شيئاً » كما في رواية .

وقال لعمر : « مررتُ بك وأنت تصلي رافعاً صوتك » فقال عمر : يا رسول الله أُوقظ الوَسنان ، وأطردُ الشيطان . فقال له ﷺ : « اخفض شيئاً » .

وفي رواية لأبي داود : قال ﷺ : « وقد سمعتُك يا بلال وأنت تقرأ من هذه السورة ، ومن هذه السورة ! » فقال بلال : كلام طيِّب يجمع الله بعضه إلى بعض . فقال النبي ﷺ : « كلُّكم قد أصاب » .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد ، فسمعهم يجهرون بالقراءة . فكشف السِّتر وقال : « ألا إن كلّكم مناجٍ ربَّه ،

فلا يؤذينّ بعضُكُم بعضاً ، ولا يرفعْ بعضُكم على بعضٍ في القراءة — أو قال : في الصلاة » رواه أبو داود والترمذي وغيرهما .

ملاطفته ﷺ لجفاة الأعراب لئلا ينفروا

كان رسول الله ﷺ يتحمَّلُ جفوةَ الأعرابي ويلاطفه ، ويقابل غلظته بلطيف المقال والحال . وذلك لتثبيته ، أو من أجل أن لا يفتتن ، ويسلكُ بهم مسالك الرحمة واللين والتؤدة . لئلا ينفروا أو يشردوا .

ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : مشيتُ مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ — أي ثوب — نجرانيٌّ غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه — أي جذب الثوب — جبذةً شديدة . حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثّرَ فيه — أي في عنقه — حاشية البُرد ، من شدة جبذته . ثم قال — الأعرابي — يا محمد : مُرْ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه النبي ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء ! .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء ، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال له ﷺ : « أحسنتُ إليك ؟ » فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملتَ . فغضب بعض المسلمين وهمّوا أن يقوموا إليه ، فأشار رسولُ الله إليهم أنْ كُفّوا .

فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابيَّ إلى البيت ، فقال : « إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلتَ ما قلتَ » فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال : « أحسنْتُ إليك ؟ » فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك اللهُ من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً .

فقال النبي ﷺ : « إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناكَ ، فقلتَ ما قلتَ ، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديَّ حتى يذهب عن صدورهم » ، قال : نعم .

فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ : « إنَّ صاحبَكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ؛ وإنا قد دعوناه فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضي ؛ كذلك يا أعرابي ؟ » فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبي ﷺ : « إنَّ مثَلي ومثَلَ هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردَتْ عليه ، فاتَّبعها الناس ، فلم يزيدوها إلاَّ نُفوراً ، فقال لهم صاحبُ الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأنا أعلم بها ، فتوجَّه إليها — صاحبها — وأخذ لها من قُمام الأرض — أي من نبات الأرض — ودعاها حتى جاءت واستجابت . وشدَّ عليها رحلها ؛ وإني لو أطعتُكم حيث قال ما قال لدخل النار » [1] .

عظيم تواضعه ﷺ مع أصحابه

قال الله تعالى : « واخفِضْ جناحَكَ للمؤمنين » .

كان رسول الله ﷺ له المثل الأكمل في التواضع مع علوّ مقامه . وشرف جنابه ؛ ويتجلّى تواضعه ﷺ في سائر أحواله الخاصة والعامة ؛ وأموره الخارجية والداخلية البيتيَّة .

فكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم أن يخدِم نفسه بنفسه .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يَخيط ثوبَه ويخصِفُ نعلَه ، ويعملُ ما يعملُ الرجال في بيوتِهم [2] .

---

(١) أورد هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تفسيره آخر سورة التوبة وقال : رواه البزار ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه . قلت : وهو ضعيف بحال ابراهيم بن الحكم بن أبان . والله أعلم . اهـ . وأورده في مجمع الزوائد ونبه على ضعفه . وقال العلامة الخفاجي في شرح الشفاء : ٢ : ١٧ : وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن حبان في صحيحه وابن الجوزي في الوفاء اهـ .

(٢) أي من الاشتغال بمهنة الأهل والنفس .

وفي رواية : ويَرْقَعُ دلوه ، ويَفْلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدِم نفسه ﷺ (١) . رواه أحمد وابن حبان وصححه وابن سعد .

ومن تواضعه ﷺ : أنه كان يركب الحمار ، ولا يخص نفسه بركوبِ الخيل ، كما هو عادة الملوك والأمراء .

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ، ويشهدُ الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ؛ وكان يوم بني قُرَيظة على حمار ، مخطوم بحبل من ليف ، وعليه إكاف من ليف (٢) .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يُردِف وراءه بعض نسائه .

كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر ، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسيرُ وبعضُ نساء رسول الله ﷺ رديفُ رسول الله ﷺ إذ عثَرَت الناقة ، فقلتُ : المرأةَ — أي وقعت المرأة أعينونا — فنزلتُ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها أمُّكم » (٣) فشددت الرحل ، وركب رسول الله ﷺ ، فلما دنا — أو : رأى المدينة — قال : « آيبون تائبون عابدون ، لربِّنا حامدون » .

بل كان يردف خلفه بعض أصحابه ، وصبيانَ أصحابه ، ولا يستنكف من ذلك كما تأنف الكبار والأمراء .

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أتى رسولُ الله ﷺ مكة وقد حمل قُثَمَ — ابن العباس — بين يديه ، والفضلَ — أخاه — خلفه ﷺ ؛ أو : قُثَمَ خلفه ، والفضل بين يديه — شكَّ الراوي — .

---

(١) هذا لا ينافي أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمح لبعض أصحابه أن يخدمه كأنس وغيره ، ليتشرفوا بخدمته ويستفيدوا من بركاته صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك من باب التعاظم والترفع .

(٢) يعني أنه صلى الله عليه وسلم ذهب لحرب بني قريظة فركب حماراً خطامه — أي زمامه — وإكافه — أي بردعته — من ليف . والبردعة للدواب كالسرج للفرس . اهـ حاشية الباجوري .

(٣) يذكرهم بوجوب التعظيم لها ، وكانت المرأة هي صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها .

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنتُ وراء النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلاّ مُؤخِرة (١) الرحل ، فقال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبّيك رسول الله وسعْديْك . ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك رسولَ الله وسعديك . ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال : « هل تدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » قال معاذ : قلت : اللهُ ورسولهُ أعلم . قال : « فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت : لبيك رسول الله وسعديك . قال : « هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : الله ورسولُه أعلم . قال : « أن لا يعذبهم » .

ومن تواضعه ﷺ : مِشْيته مع الأرملة والمسكين والأمَة :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ – وكان في عقلها شيء – فقالت : إنّ لي إليك حاجةً . فقال ﷺ : « اجلسي في أيّ سِكك – أي طُرُق – المدينة شئتِ . أجلسْ إليك حتى أقضيَ حاجتَكِ » .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كانت الأَمَةُ لتأخذُ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت – وفي رواية أحمد : فتنطلق به في حاجتها – أي ليقضيَ لها حاجتها بنفسه الكريمة ﷺ .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُكثر الذكر ، ويُقلُّ اللّغْوَ ، ويُطيل الصلاةَ ، ويقصِّر الخطبة ، ولا يأنفُ أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة .

ومن تواضعه ﷺ وتكريمه لعباد الله المسلمين :

ما روى الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ : أنّ النبي ﷺ أتى السِّقاية فقال : « اسقوني » فقالوا : إنّ هذا

(١) بالتخفيف والتثقيل ، هي آخرة الرحل ، وهو العود الذي خلف الراكب ، والذي أمامه يسمى : قادمة الرحل ، ومقدمة الرحل .

يخوضه الناس ، ولكنا نأتيك به من البيت ، فقال : « لا حاجة لي فيه ، اسقوني ممّا يشرب الناس . . » الحديث .

فانظر في هذا التواضع العظيم . من صاحب الخلق العظيم ! لم يقبل أن يُؤتى بشرابٍ خاص له ﷺ وأبى إلاّ أن يشربَ ممّا يشربُ منه الناس ، ولو خاضتْ فيه أيديهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يبعث إلى المطاهر [١] فيُؤتى بالماء فيشربه ، يرجو بركة أيدي المسلمين . رواه الطبراني [٢] .

ومن تواضعه ﷺ : ما جاء في سنن الترمذي وأبي داود وغيرهما أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استأذن رسولَ الله ﷺ في العمرة ، فأذن له وقال له : « يا أخي يا عمر أشْرِكني بدعائك — وفي رواية : لا تنسَني من دعائك » .

أمره ﷺ بالتواضع

روى الإمام مسلم عن عياض بن حمار في حديث طويل قال فيه رسول الله ﷺ : « وإنّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخَرَ أَحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد » .

تواضعه ﷺ واختياره أن يكون نبياً عبداً لا نبياً ملكاً

إنّ من أعظم ما يدلُّ على تواضعه ﷺ : أنه لمّا خيَّره الله تعالى بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً ملكاً ، اختار العبدية تواضعاً لله تعالى .

---

(١) قال المناوي : المراد بالمطاهر هنا : الحياض والفساقي والبرك المعدة للوضوء . اهـ .

(٢) وأبو نعيم في الحلية ، كما في الجامع الصغير ، وقال الحافظ الهيثمي : رجاله موثقون ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد ثقة نسب إلى الإرجاء . ا

روى الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يومٍ وجبريلُ عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمدٍ سَفَّة من دقيق ، ولا كَفٌّ من سَوِيق » .

فلم يكن كلامُه بأسرع من أن سمع هَدَّة من السماء أفزعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أمرَ الله القيامة أن تقوم ؟ » فقال — جبريل — : لا ، ولكن أمرَ إسرافيلَ فنزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله تعالى سمع ما ذكرتَ ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعْرِض عليك أن أسيِّرَ معك جبال تِهامة زُمُرُّداً وياقوتاً وذهباً وفضّة ! فإن شئتَ نبياً مَلِكاً ، وإن شئتَ نبياً عبداً ؟ فأومأ إليه جبريل أنْ تواضعْ ، فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » ثلاثاً .

كذا في ترغيب المنذري وقال : رواه البيهقي في الزهد وغيره . قال : ورواه ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه قال :

جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا مَلَك ينزل . فقال له جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة . فلما نزل قال : يا محمد أرسلَني إليك ربُّك : أملِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ فقال له جبريل : تواضعْ لربِّكَ يا محمد . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، بل عبداً رسولاً » . كذا في الترغيب .

قلت : وهذا اللفظ أيضاً واردٌ في مسند أحمد عن أبي هريرة أيضاً [1] .

ولا ريب أنّ هناك فرقاً بين مقام الملكية والعبودية . فإنّ مقام الملكية يتطلّب اتخاذ الجنود ، واتخاذَ الحجّاب والخيول ، واتخاذ الخدم والقصور ، ويتطلب الانتقام لمن يتعرّض بالأذى لنفس الملك .

وأمّا مقام العبوديّة : فإنه يقتضي أن يخدمَ نفسه . وأن يكونَ في معونة أهله .

---

(١) وقال الحافظ الهيثمي : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح . اهـ .

تواضعاً منه ﷺ ، ويقتضي العفوَ والصَّفح عمَّن آذاه في نفسه ﷺ ؛ أمَّا إذا انتهكتْ حرماتُ الله تعالى فينتقم لله تعالى .

ولذلك كان يقول : « آكُلُ كما يأكل العبد » (١) أي : في القعود وهيئة التناول ، والرضا بما حضر تواضعاً لله تعالى وأدباً معه ، فلا آكُلُ متكئاً كما يفعل أهلُ الرفاهية والانبساط في الدُّنيا ونعيمها .

وكان يقولُ : « أجلِسُ كما يجلِس العبد » أي : لا كما تجلس الملوكُ الجبابرة ، فإنَّ التخلقَ بأخلاق العبودية أشرفُ الأوصاف البشرية .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسولُ الله ﷺ : « يا عائشةُ لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب ! أتاني ملَكٌ إلى حجرة الكعبة فقال : إنَّ ربَّك يُقرئك السلامَ ويقول لك : إن شئتَ كنتَ نبياً ملِكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً ، فأشار جبريل : أن ضعْ نفسَك — أي تواضع — فقلتُ : نبياً عبداً » فكان بعدُ لا يأكُلُ متكئاً ، ويقول : « آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلِسُ العبد » رواه أبو يعلى وابن حبان وابن سعد .

قال في فيض القدير : ورواه البيهقي عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : « فإنما أنا عبد » . ورواه هنَّاد عن عمرو بن مرة وزاد : « فوالذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافراً كأساً » (٢) .

وفي سنن أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه قال : كان للنبي ﷺ قصعةٌ — أي إناء كبير يوضع فيه الثريد ليأكلَه الجماعة — يقال لها الغرَّاء يحملها أربعة رجال ، فلما أضْحَوا — أي دخلوا في وقت الضُّحى بعد طلوعِ الشمس — وسجدوا — أي صلُّوا — الضُّحى ، أُتي بتلك القصعة يعني وقد أُثْرِدَ فيها — أي وُضع فيها الثريد — فالتفُّوا عليها ، فلما كثُروا جثا رسولُ الله ﷺ — أي

---

(١) قال العلامة المناوي : المراد هنا بالعبد : الإنسان المتذلل المتواضع لربه تعالى . اهـ .

(٢) انظر فيض القدير ١ : ٥٥ وقال : ولتعدد هذه الطرق رمز المصنف — السيوطي — لحسنه . اهـ .

جلس على ركبتيه — فقال أعرابيٌّ : ما هذه الجلسة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله جعلني عبداً كريماً ، ولم يجعلْني جباراً عنيداً » ثم قال رسول الله ﷺ : « كُلوا من جوانبِها ، ودعوا — أي اتركوا — ذِروتَها — أعلاها — يُبارِكْ لكم فيها » .

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو أعظمَ من تحقق بمقامات العبدية والعبودية لله تعالى ؛ وهو أشرف مَن كمُلتْ له مراتبُها العالية : لذلك وصفه الله تعالى في أعلى مقاماته بالعبدية فقال سبحانه : « وأنَّهُ لمَّا قامَ عبدُ اللهِ يدعوهُ كادُوا يكونونَ عليه لِبَداً » .

وقال سبحانه في مقام إنزال الكتاب عليه : « الحمدُ لله الذي أنزل على عبدِهِ الكتابَ . . . » الآية . وقال تعالى في مقام الفرقان والنصر والبرهان : « إنْ كنتمْ آمنتُم باللهِ وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعان . . » الآية .

وقال تعالى في مقام التحدّي : « وإنْ كنتُم في ريبٍ ممَّا نزّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ مِن مثلِه . . » الآية . وقال تعالى في مقام الإسراء : « سبحانَ الَّذي أسرى بعبدِهِ ليلاً . . » الآية .

ولذلك كان هو ﷺ صاحبَ مقام الوسيلة ، الذي هو أعلى منزلة في الجنة ، فقد قال ﷺ : « . . ثم سلوا اللهَ لي الوسيلة ، فإنَّها منزلةٌ — أي خاصَّة — في الجنة لا ينبغي أن تكون إلاَّ لعبد ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل اللهَ لي الوسيلة حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة . . » الحديث كما في صحيح مسلم .

في عظيم حلمه وعفوه ﷺ

قال الله تعالى : « فاعفُ عنهم واصْفَحْ ، إنَّ اللهَ يحبُّ المحسنين » .

وقال سبحانه : « فاعفُ عنهم وشاورْهم في الأمر » .

كان ﷺ عظيمَ الحلْم ، لا يُقابل السيئةَ بالسيئة ، بل يعفو ويغفر ، وما انتقم لنفسه من شيء قط ، إلاَّ أن تُنتهك حرمةُ لله ، فينتقم الله تعالى .

روى الشيخان وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلاّ أخذ أيسرَهما ما لم يكن إثماً ؛ فإن كان إثماً كان أبعدَ الناس منه . وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله ؛ فينتقم لله .

ولقد اتسع حلمه ﷺ لجميع خلق الله تعالى ؛ حتى لأعدائه الذين آذوه .

فلما كانت غزوةُ أحد وكُسرت رَباعيَتُه ﷺ ؛ وجُرح في شفته السفلى ؛ وشُجَّ في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم . فجعل ينشِّفه لئلا ينزل على الأرض ويقول ﷺ : « لو وقع منه شيءٌ على الأرض لنزلَ عليهم العذابُ من السماء » . ولقد شقّ ذلك على الصحابة فقالوا : لو دعوتَ عليهم ؛ فقال : « إنما لم أُبعث لعَّاناً ؛ ولكنْ بُعثتُ داعياً ورحمة . اللهم اغفر لقومي — وفي رواية : اللهمّ اهد قومي — فإنهم لا يعلمون » .

ومن مظاهر حلمه وعظيم عفوه ﷺ : قصةُ زيد بن سَعنة أحدِ أحبار اليهود ؛ الذين أسلموا لرؤية تلك الآيات المحمدية ؛ والعلامات النبوية الجليّة .

فقد ورد عن زيد بن سَعْنة أنه قال : لم يبقَ من علامات النبوة إلاّ وقد عرفته في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ؛ إلاّ اثنتين لم أخبرهما فيه : يسبقُ حلمُه جهلَه . ولا تزيده شدّةُ الجهل عليه إلاّ حلماً .

قال زيد بن سَعنة : فكنتُ أتلطّفُ له — أي لمحمد ﷺ — لأن أُخالطَه ؛ فأعرفَ حلمَه وجهلَه ؛ فابتعتُ — أي اشتريت — منه تمراً إلى أجل فأعطيتُه الثمن — وفي رواية أبي نعيم : فأعطاه زيد قبل إسلامه ثمانين مثقالاً ذهباً من تمر معلوم إلى أجل معلوم .

فلما كان قبل مجيء الأجل بيومين أو ثلاثة : أتيتُ محمداً ﷺ فأخذتُ بمجامع قميصه ؛ وردائه على عنقه ؛ ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثم قلتُ : ألا تقضينَ يا محمّدُ حقي ؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مُطُل[1] .

---

(١) جمع ماطل : أي : تؤخرون عن أداء الحق ، وتسوفون الموعد مرة بعد أخرى .

فقال عمر : أيْ عدوّ الله ! تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع (١) ؟ فوالله لولا ما أُحاذرُ فَوْتَه (٢) لضربتُ بسيفي رأسك ! قال : ورسولُ الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكونٍ وتُؤَدَةٍ وتبسُّم .

ثم قال رسول الله ﷺ : « أنا وهو — أي أنا وزيد — كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمرَه بحسن التِّباعة » أي : المطالبة ، ثم قال ﷺ : « اذهبْ يا عمر فاقْضِه حقَّه وزِدْه عشرين صاعاً مكان ما رُعْتَهُ » أي : مقابل فزعه ، ففعل ذلك عمر .

قال زيد : فقلت : يا عمر كلُّ علاماتِ النبوّة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرتُ إليه ، إلاّ اثنتين لم أختبرهما : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا تزيدُهُ شدّةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُه بهما ، فاشهدْ يا عمر أني قد رضيتُ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً .

وفي رواية : قال زيد : وما حملني على ما رأيتني صنعتُ يا عمر إلاّ أني كنتُ رأيتُ صفاته التي في التوراة كلَّها إلاّ الحلمَ ، فاختبرتُ حلمَه اليوم ، فوجدته على وصفِ التوراة ، وإني أُشهدُك أن هذا التمرَ وشطرَ مالي إلى فقراء المسلمين ، وأسلم زيد وأهل بيته كلهم إلاّ شيخاً كبيراً غلبتْ عليه الشِّقْوة (٣) .

ومن الوقائع التي يتجلّى فيها عفوُه ﷺ وحلمه : تحمُّل أذى المؤذين ، وغلظةُ المغلظين ، ومقابلة ذلك بالسماحة والصفح .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ

(١) وفي رواية أبي نعيم : فنظر إليه عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير .

(٢) أي : من بقاء الصلح بين المسلمين وبين قومه اليهود إذ ذاك .

(٣) قال في شرح المواهب : روى هذا الحديث الطبراني وابن حبان ، والحاكم والبيهقي ، وأبو الشيخ وغيرهم ، برجال ثقات عن عبد الله بن سلام عن زيد بن سعنة . اهـ .

يوماً ثم قال : فقمنا حين قام ، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجذبه — وفي رواية : فجبذه — بردائه جَبْذَةً شديدة ، فحمَّرَ رقبتَه ﷺ — أي صار فيها حمرة من أثر الجذبة — وكان رداءً خَشِناً ، فالتفتَ النبي ﷺ إلى الأعرابي فقال له الأعرابي : احملني على بعيريَّ هذين — أي حمِّلْهما طعاماً — من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك ! فقال له ﷺ : « لا ، وأستغفر الله » أي : لا أحملك من مالي ولا مال أبي .

وفي رواية البيهقي : فسكت النبي ﷺ ثم قال : « المالُ مال الله ، وأنا عبده ، لا ، وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تُقيدَني (١) من جَبْذَتِك التي جبذتني ! » فقال له الأعرابي : والله لا أُقيدُكَها . فقال له النبي ﷺ : « لِمَ ؟ » فقال له الأعرابي : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة ، فضحك النبي ﷺ ، ثم دعا رسول الله ﷺ رجلاً — وهو عمر كما في رواية — فقال له : « احمل له على بعيريه هذين : على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً » (٢) .

فكان ﷺ إذا أُوذي في نفسه عفا وصفَح ، ولكن إذا انتهكت حرمةُ جانبٍ من جوانب دين الله تعالى انتقم لله تعالى ، فلما شج وجهه الشريف يوم أحد عفا وقال : « اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » ولما شغلوه عن الصلاة يوم الخندق لم يَعْفُ بل قال ﷺ : « ملأَ اللهُ بيوتَهم وقبورَهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . . » الحديث كما في الصحيحين .

غضبه ﷺ لله تعالى وشدته لأمر الله تعالى

كان ﷺ يغضب لله تعالى ويرضى لرضاه ، لم يكن تُغْضبه الدنيا ولا ما كان لها ، ولم يكن يغضب لنفسه ، بل كان يغضبُ لربِّه تعالى .

---

(١) أي : تمكنني من القود ، وهو القصاص من نفسك ، فأفعل معك مثل ما فعلت من جذب الرداء بشدة .

(٢) رواه أبو داود والبيهقي وأصله في البخاري .

وقد جاء في حديث هند بن أبي هالة الذي رواه الترمذي وغيره يصف النبيَّ ﷺ : لا تغضبه الدنيا وما كان لها ؛ فإذا تُعُرِّضَ الحق لم يعرفْه أحد ، ولم يَقُمْ لغضبه شيء حتى ينتصرَ له ، لا يغضبُ لنفسه ، ولا ينتصرُ لها . . . الحديث .

ومن استقرأ الأسباب التي كان يغضب من أجلها ﷺ يجدها كلَّها ترجعُ إلى أن ذلك كلَّه كان لله تعالى ، ومِنْ أمر الله تعالى ، وانتصاراً لدين الله تعالى ، وانتصاراً للحقِّ الذي شرعه الله تعالى .

فمن ذلك : غضبه ﷺ حين رأى في البيت قِراماً فيه الصُّور ، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ النبي ﷺ وفي البيت قِرام — أي سِتر — فيه صُوَر ، فتلوَّن وجهه ﷺ — أي من الغضب — ثم تناول السِّتر فهتكه ، قالت : وقال النبي ﷺ : « مِن أشدِّ الناسِ عذاباً يومَ القيامة الذين يُصَوِّرُونَ هذه الصُّوَر » .

ومن ذلك : غضبه ﷺ من العمل الذي ينفِّرُ المؤمن ، كما في الصحيحين وغيرهما عن أبي مسعود رضي اللهُ عنه قال : أتى رجل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان ، مما يطيل بنا — أي يُطيل الصلاة بنا — قال أبو مسعود : فما رأيتُ رسول الله ﷺ قطُّ أشدَّ غضباً في موعظة منه يومئذ ؛ فقال ﷺ : « يا أيها الناس إن منكم منفِّرين ، فأيُّكم ما صلَّى بالنَّاس فليتجوَّزْ — أي فليخفِّف — فإنَّ فيهم المريضَ والكبيرَ وذا الحاجَة » .

ومن ذلك : غضبه ﷺ لما رأى النخامة في قِبلة المسجد ، كما في الصحيحين ، وذلك لأنَّ المساجد ينبغي أن يحرص المسلم على نظافتها وكرامتها ، ولا يجوز إلقاء الوسخ فيها والوخامة ، كما تقدَّم في أمر النبي ﷺ بنظافة المساجد .

ومن ذلك : غضبه ﷺ من شدة الإثقال والإحراج وشدَّة الإلحاح ، ففي صحيح البخاري وغيره عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : احتجر رسول الله ﷺ حجيرة بخَصَفَة أو حصيراً ، فخرج رسول الله ﷺ يصلي إليها — أي يصلي نافلةً — فتتبَّع

إليه رجال ، وجاؤوا يصلّون بصلاته ، ثم جاؤوا ليلةً فحضروا ، وأبطأ رسولُ الله ﷺ عنهم ، فلم يخرجْ إليهم — أي بل صلى تلك النافلة في بيته — فرفعوا أصواتهم ، وحصبوا الباب ، فخرج إليهم مُغضَباً فقال لهم رسولُ الله ﷺ : « ما زال بكم صنيعكم حتى ظننتُ أنه سيكتبُ عليكم ، فعليكم بالصلاة — أي النافلة — في بيوتكم ، فإنَّ خيرَ صلاةِ المرء في بيته إلاّ الصلاة المكتوبة » أي المفروضة .

قال الحافظ في الفتح : والظاهر أن غضبَه ﷺ لكونهم اجتمعوا بغيرِ أمره ، فلم يكتفوا بالإشارة منه ؛ لكونه لم يخرجْ عليهم ، بل بالغوا فحصبوا بابه وتتبّعوه ؛ أو غضبَ لكونه تأخّر إشفاقاً عليهم لئلاّ تُفرض عليهم ، وهم يظنّون غير ذلك . اهـ.

شدة غضبه ﷺ لم تخرجه عن الحق وصواب القول والعمل

إنَّ حالةَ الغضب تضطّربُ فيها النفس ، ويتغيَّر فيها المزاج ، فربما يخرجُ الغضبان في تلك الحالة عن صواب القول والعمل ؛ ولذلك ورد في مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « علّموا ويسّروا ، علّموا ويسّروا ، ثلاث مرات ، قال : وإذا غضبتَ فاسكُتْ » قالها ثلاثاً . وقد جاء ذلك في الأدب المفرد أيضاً .

إلاَّ أن الله تعالى حفظَ نبيّه سيدنا محمداً ﷺ من جميع ما هنالك ، فلم يكن غضبه ﷺ يُخرجه عن الحقّ ، ولا عن كمال الاعتدال في جميع أموره القولية والعملية .

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنتُ أكتبُ كلَّ شيء أسمعُه من رسول الله ﷺ أريد حفظَه ، فنهتني قريشٌ وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه — أي من رسول الله ﷺ — ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلّم في الغضب والرضا ! فأمسكتُ عن الكتابة ، فذكرتُ ذلك للنبيّ ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه — أي فمه — فقال : « اكتبْ ، فوالذي نفسي بيده ما يخرجُ منه إلاّ حقٌّ » وفي رواية الدارمي : فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حقٌّ » .

في عظيم كرمه ﷺ

قال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس . رواه الشيخان .

وهذه الأوصاف الثلاثة هي من أمّهات الكمالات فهو ﷺ أحسنُ الناس صورةً ومعنىً ، وجمالاً وكمالاً ، وهو أشجعُ الناس قلباً ، وهو أجودُ الناس . وأنفعُهم للناس ، وهذا الجود الذي اتّصفَ به ﷺ إنما هو لله تعالى ، وفي الله تعالى ، وابتغاء مرضاة الله تعالى . ولذلك كانت مصارفُ جوده ﷺ منها ما هو من الإنفاق في الجهاد في سبيل الله تعالى ، ومنها من الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين . ومنها ما هو لتألّف قلوب المؤلّفة ، تمكيناً لهم وتثبيتاً .

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً إلاّ أعطاه ، فجاء رجل — وهو صفوان بن أمية — فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإنّ محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر . وفي رواية : مَن لا يخشى الفقر .

وأعطى يوم حنين ﷺ أناساً من الطُّلَقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام ، أعطاهم مائةَ مائةٍ من الإبل ، وكان من جملة من أعطى : مالك بن عوف فامتدحه بقصيدة .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني ، وإنه لأبغضُ الناس إليّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ .

وفي مغازي الواقدي أن صفوان طاف معه ﷺ يتصفّح الغنائم يوم حنين ، إذ مرّ بشِعْب مملوء إبلاً وغنماً ، فأعجبه فجعل ينظر إليه ، فقال ﷺ : « أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟ » قال : نعم . فقال : « هو لك بما فيه » فقال صفوان :

أشهد أنك رسول الله ، ما طابتْ بهذا نفس أحد قطُّ ، إلاَّ نفس نبيّ .

وكان من جوده ﷺ : أنه ما سأله سائل مما عنده إلاَّ أعطاه ، حتى لا يبقى عنده شيء صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذي أن النبي ﷺ حُمل إليه تسعون ألف درهم ووُضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منها .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، حتى إذا نفد ما عنده قال : « ما يكون عندي من خير فلن أدَّخرَه عنكم ، ومَنْ يستعففْ يعفَّه الله ، ومَنْ يستغنِ يُغْنِه الله ، ومَنْ يتصبّرْ يُصَبِّرْه الله ، وما أُعطي أحدٌ عطاءً هو خيرٌ له وأوسع من الصبر » . رواه الستة .

وكان ﷺ كريمَ النفس ، يكرمُ السائلَ بنفسه ، ولا يأنفُ أن يقومَ إلى السائل فيعطيه الصدقة ، بل كان لا يَكِلُ صدقتَه إلى غير نفسه حتى يكونَ هو الذي يضعها في يد السائل .

روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيتُ رسول الله ﷺ يَكِلُ صدقتَه إلى غير نفسه ، حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل .

وروى ابن سعد عن زياد مولى عياش بن أبي ربيعة قال : خصلتان كان لا يَكِلُهما رسول الله ﷺ لأحد : الوضوء من الليل حين يقوم ، والسائل يقوم ﷺ حتى يعطيه [1] .

وكان من كرمه ﷺ : إذا لم يكن عنده ما يفي بحاجة المحتاج : أمره أن يستقرضَ عليه ﷺ .

ففي سنن أبي داود والبيهقي عن عبد الله الهوزني قال : لقيت بلالاً فقلت : يا بلال حدّثني كيف كانت نفقةُ رسول الله ﷺ ؟ قال : ما كان له شيء ،

---

(١) انظر التراتيب : ١ : ٣١

وكنتُ أنا الذي أَلي ذلك منه — أي أنا المتولّي أمر ماله ﷺ — منذ بعثه الله تعالى حتى توفي ، وكان عليه السلام إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً ، يأمرني فأنطلقُ فأستقرضُ فأشتري له البردةَ فأكسوه وأطعمه .

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنَّ رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيَه ، فقال النبي ﷺ « ما عندي شيء ، ولكن ابتَعْ عليَّ ، فإذا جاءني شيءٌ قضيتُه » فقال عمر : يا رسول الله قد أعطيتَه ! فما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفقْ ولا تخفْ من ذي العرش إقلالاً ، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ ، وعُرف في وجهه البِشْر بقول الأنصاري ، ثم قال ﷺ : « بهذا أُمِرتُ » .

بل كان ﷺ من عظيم كرمه ما سُئِل شيئاً قطُّ فقال : لا . كما روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال : ما سُئِل رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ فقال : لا .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان — جبريل — يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسُه القرآن ، فلَرسول الله ﷺ أجودالناس بالخير من الريح المرسلة .

ومن هذا وغير هذا ، يتبين لكل عاقل أنَّ النبيَّ ﷺ كان أكرمَ خلق الله تعالى أجمعين ، لا يجارَى في كرمه ، ولا يساوى ، بل ولا يدانى ، ولقد بلغ من كرمه ﷺ أنه كان يبذل المال مرةً للفقير والمحتاج ، ومرَّةً في سبيل الله والجهاد ، وتارةً يتألَّفُ به فيعطي عطاءً تعجزُ الملوكُ عنه ، حتى لا يبقى عنده قوتُ ليلة ، فيطوي جائعاً هو ﷺ وأزواجُه كلُّهنَّ لا يجدنَ قوتَ ليلةٍ ، وقد اخترنَ ذلك لمَّا خيَّرهُنَّ ، ورضين بذلك .

وربما اشتدَّ عليه الجوع أحياناً ، فيربط على بطنه الحجر ﷺ كما ثبتَ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره ، كما سيأتي ذلك بعد إن شاء الله تعالى . ومن

ثم كان ﷺ أجودَ الناس كلِّهم حقاً ، كما وصفه ابن عباس بقوله : كان رسول الله ﷺ أجود الناس .

في عظيم شجاعته ﷺ

قال سيدُنا علي رضي الله عنه في وصفه النبيَّ ﷺ : كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس صدراً ، وأشجعَهم قلباً ، وأصدقَهم لهجةً ، وألينَهم عريكةً ، وأكرَمَهم عِشْرةً . . الحديث كما تقدَّم .

وكان ﷺ إذا اعترت الصحابةُ المخاوفَ ، أسرعَ بنفسه إلى كشفها وإزالتها .

قال أنس رضي الله عنه : كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة (١) ذاتَ ليلة ، فانطلق ناس قِبَلَ الصَّوت ، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر (٢) على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ (٣) ، والسيف في عنقه ﷺ وهو يقول : « لَن تُراعُوا » (٤) . رواه الشيخان . وفي رواية : أنَّ الفرس كان يَبْطُؤُ (٥) — أي لا يُسرع — فلما ركبه النبي ﷺ صار سريعاً ، وقال : « وجدناه بحراً » أي : سريع الجري .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ (٦) ولا أجودَ ولا أرضى من رسول الله ﷺ . رواه أحمد وغيره .

وكان أصحابُ النبيِّ إذا ألَمَّتْ بهم الملمَّات ، وأحاطتْ بهم المخاوف ، لاذوا بجنابه الرفيع ، واحتموا بحماه المنيع صلى الله عليه وسلم .

---

(١) وذلك من صوت سمعوه .

(٢) أي كشف الخبر وعرفه .

(٣) أي ليس على الفرس سرج ولا أداة .

(٤) قال الحافظ الزرقاني : « لن » هنا بمعنى : لم ، أي : ليس هناك شيء تخافونه ، والعرب قد تضع « لن » و « لم » موضع لا .

(٥) قال الزرقاني : بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الطاء مخففاً وبالهمز .

(٦) أي : ولا أكثر نجدة منه صلى الله عليه وسلم .

قال سيدنا علي رضي الله عنه : كنا — أي معشر الصحابة — إذا حَمِيَ البأس — وفي رواية : إذا اشتدَّ البأس — واحمرَّت الحَدَقُ اتَّقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ؛ ولقد رأيتُني يومَ بدر ونحن نلوذُ بالنبيِّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِّ ، وكان من أشدِّ الناس يومئذٍ بأساً على الأعداء .

وفي صحيح مسلم أنَّ البراء بن عازب كان يقول : الشجاع هو الذي يقربُ من النبي ﷺ إذا دنا العدوُّ — أي من المسلمين عند المقاتلة — لقربه ﷺ من العدو — أي في شدَّة المعارك .

ولقد ثبت ﷺ يوم حنين ، وثبَّتَ قلوبَ الصحابة ، وتقدَّم نحو صفوفِ العدو ، وهو على بغلته ، غير مبالٍ ولا هيَّاب ، ويقولُ بكلِّ جراءة وثبات :

أنا النبي لا كَذِبْ　　أنا ابن عبد المطَّلب (١)

أي أنا لستُ بكاذبٍ فأنهزم ، بل أنا النبي الصادق المؤيَّد بتأييد الله تعالى ونصره ، والواثق كل الثقة بعزَّتِه سبحانه وقدرته ونصرته .

وروى البيهقي في الدلائل عن عروة بن الزبير (٢) أنَّ أُبَيَّ بن خلف المشركَ قال يوم أحد : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ! وقد كان أُبَيٌّ يقول للنبي ﷺ حين افتدى يوم بدر : عندي فرسٌ أعلِفُها كلَّ يومٍ فَرَقاً — أي مِكْيالاً كبيراً — مِن ذُرَةٍ ، أقتلك عليها ، فقال له النبي ﷺ : « أنا أقتلك إن شاء الله » .

فلما رآه — أي رأى أُبَيٌّ النبيَّ ﷺ — يوم أُحد ، شدَّ أُبي بن خلف على فرسه ، على رسول الله ﷺ ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال رسولُ الله ﷺ هكذا — أي تنحَّوا ولا تحولوا بيني وبين أُبَيّ بن خلف — وتناول النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة الصحابي ، فانتفض النبي ﷺ بها انتفاضة — أي قام بالحربة

---

(١) عزاه المنذري في الترغيب إلى الإمام مسلم وأبي داود والترمذي .

(٢) قال العلامة الخفاجي في شرح الشفاء : هذا الحديث صحيح رواه البيهقي عن عروة وسعيد بن المسيب مرسلا وعبد الرزاق في مصنفه ، والواقدي في مغازيه ، وابن سعد في طبقاته . اهـ

قومةً سريعةً — تطايروا — أي أُبي بن خلف ومن معه من الكفار تفرَّقوا فارّين بسرعةٍ كالطيور — تطايرَ الشَّعْراء — أي الذبابة عن ظهر البعير إذا انتفض — ثم استقبل النبي ﷺ أبيّ بنَ خلف بالحربة ، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ — أي سقط — منها عن فرسه مراراً ، وقيل : بل كُسر ضِلَعٌ من أضلاعه ، فرجع أُبي بن خلف إلى قريش وهو يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون : لا بأس بك ، فقال لهم : لو كان ما بي — من الألم والشدة — بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصقَ عليّ محمد لقتلني . ثم مات أُبي بن خلف بسَرِف في قفولهم إلى مكة . أي حين رجع الكفار إلى مكة .

صبره ﷺ على أذى المشركين وتحمل الشدائد في سبيل الله تعالى

قال الله تعالى : « فاصبرْ كما صبرَ أولوا العزْمِ من الرُّسُل ولا تستعجِلْ لهم . . » الآية .

كان صبرُه ﷺ في سبيل الله تعالى يفوقُ صبرَ الصابرين ، وتحمُّله لأنواع أذى المعاندين له يعلو تحمُّل العالمين ، فكم لقي من سفهاء قريشٍ وأشِدَّائهم من الغلظة والسفاهة والجفاء والشدَّة ؟ ! ولا ريب أنَّ الكلامَ البذيء المسيء له كِلام في أصحابِ النفوس الأبيَّة ، والأخلاق الرضيَّة ، ويتأثرون به أضعافَ ما يتأثر به غيرهم ، وإنَّ الأفعال المؤذية لتعملُ في نفوسِهم أضعافَ ما تعملُ في غيرهم ، ممن لا خلاق له ولا خُلُقٍ ؛ فما ظنُّك بنفسية سيدنا رسول الله ﷺ التي هي مجمع الكمال والأفضال ومصدرها ؟ ! وما ظنك بتأثره من الكلام المؤذي ، والفعل المسيء إليه .

روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخاف أحد ، ولقد أُوذيتُ في الله وما يؤذى أحد ،

ولقد أتتْ عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعامٌ يأكلُه ذو كبدٍ إلاَّ شيءٌ يواريه إبط بلال » (١) .

وكان المشركون يتصدَّون له بالعداوة ويقابلونه بأنواع الأذى بجموعهم وجماهيرهم وبأفرادهم ، ونسائهم وصبيانهم .

روى الطبراني عن الحارث بن الحارث قال : قلتُ لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىءٍ لهم ، قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عزَّ وجل والإيمان ، وهم يردُّون عليه ويؤذونه ، حتى انتصف النهار ، وانصدع الناس عنه ، فأقبلت امرأة قد بدا — أي ظهر — نحرها — أي صدرها — وهي تحمل قَدَحاً ومنديلاً ، فتناوله ﷺ منها فشرب وتوضأ ، ثم رفع رأسه فقال : « يا بنيَّة خمِّري عليك — أي غطِّي — نحرَك ولا تخافي على أبيك » قلنا : مَن هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته رضي الله عنها (٢) .

وعن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو قال : قلت له : ما أكثرَ ما رأيتَ قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تُظهرُ من عداوته ؟ قال : حضرتُهم وقد اجتمعَ أشرافُهم في الحِجْر ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطُّ ، سفَّه أحلامَنا ، وشتمَ آباءَنا ، وعابَ دينَنا ، وفرَّق جماعتَنا ، وسبَّ آلهتَنا ! لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم !

فبينما هم في ذلك إذْ طلعَ عليهم رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استقبل الركنَ ، ثمَّ مرَّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرَّ بينهم غمزوه ببعض ما يقول ، قال : فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلمَّا مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلما مرَّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها ، فقال ﷺ : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسُ محمد بيده لقد جئتكم بالذَّبح » أي القتل .

---

(١) قال في الترغيب : رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الترمذي : حسنٌ صحيح . ا هـ .

(٢) قال الحافظ الهيثمي : رجاله ثقات . ا هـ .

فأخذتِ القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجل إلاّ على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة — أي توصية بإيذائه — قبل ذلك ليرفؤه (١) بأحسن ما يجدُ من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فوالله ما كنتَ جَهُولاً ! . فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعضٍ : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم — أي جاهركم محمد ﷺ — بما تكرهون تركتموه ؟ !

فبينما هم في ذلك إذْ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد ، فأطافوا به يقولون : أنتَ الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم قال : فيقول رسول الله ﷺ : « نعم ، أنا الذي أقول ذلك » قال : فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجْمع ردائه ﷺ ، وقام أبو بكر دونه يقول : أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال : فإن ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغتْ منه قطُّ (٢) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ يصلّي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نُحرت جزور — أي بعير — بالأمس ، فقال أبو جهل : أيُّكم يقومُ إلى سَلا — أي كرش — جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم — عقبة بن أبي مُعَيط — فأخذه ، فلما سجدَ النبيُّ ﷺ وضعه — أي وضع كرْش البعير بين كتفيه — ﷺ — فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، قال ابن مسعود : وأنا قائم أنظر لو كانت لي مَنَعَة أي قوة أو جماعة — طرحتُه عن ظهره ﷺ ، والنبي ﷺ ساجدٌ ما يرفع ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت وهي جُويرية فطرحتْه عنه ﷺ ثمّ أقبلت عليهم تشتمهم . فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ،

---

(١) أي : صار يسكّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرفق به ، ويتودد له خوفاً مما قاله لهم .

(٢) قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : قلت : في الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ، وبقية رجاله رجال الصحيح . ا هـ من الجزء السادس .

وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، وإذا سأل سأل ثلاثاً . ثم قال ﷺ : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه ، فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحقّ لقد رأيتُ الذين سمّى صَرْعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب — أي البئر — قليب بدر . رواه الشيخان .

ولما مات عمه ﷺ أبو طالب اشتدّ إيذاءُ المشركين للنبي ﷺ ، وقابلوه بأنواع العداوة والشدائد ، فتوجه ﷺ إلى الطائف لعل ثقيفاً يكونون له رِدْءاً وعوناً وأنصاراً على قومه في مكة ، فإذا بهم يقابلونه أسوأ مقابلة ويردُّون عليه أقبح ردٍّ ، وإنما قَصَدَهم — كما قال المقريزي — لأنهم كانوا أخوالَه ، ولم يكن بينه وبينهم عداوة .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله : هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أُحُد ؟ قال : « لقد لقيتُ من قومِك ما لقيتُ ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفِقْ إلاّ وأنا بقَرْن الثعالب (١) ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إنّ الله تعالى قد سمعَ قولَ قومِك لك ، وما ردُّوه عليك ، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم ، فناداني ملَكُ الجبال وسلّم عليّ ثم قال : يا محمد إنّ اللهَ تعالى قد سمعَ قولَ قومِك لك ، وأنا مَلَكُ الجبال ، قد بعثني إليك لتأمرَني بأمرك . زاد الطبراني : فما شئتَ ؟ إنْ شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبَين (٢) ! فقال ﷺ : « بل أرجو أن يَخرجَ من أصلابهم مَنْ يعبدُ اللهَ ولا يُشرك به شيئاً » .

---

(١) وهو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، وبينه وبين مكة يوم وليلة .

(٢) جبلي مكة : أبا قبيس ومقابله قعيقعان .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدّة ، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادةَ ثقيف ، وهم إخوة : عبد ياليل ابن عمرو ، وخُبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه ﷺ وشكا إليهم البلاء ، وما انتهك قومه منه .

فقال أحدهم : أنا أسرِق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ ، وقال الآخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمةً واحدةً أبداً ، لئن كنتَ رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك [١] ، وقال الآخر : أيعجز الله أن يرسل غيرك ؟ وأفشوا ذلك في ثقيف — الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ ، وقعدوا له على صفّين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة ، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة ، وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون ! .

فلما خلص من صفّيْهم وقدماه تسيلان الدماء ، عمد ﷺ إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل حبلة من الكرم ، فجلس في أصلها مكروباً مُوجَعاً تسيل قدماه الدّماء .

وذكر ابن اسحاق — وروى الطبراني أيضاً — عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فأتى ظلّ شجرة — أي من عنب — فصلّى ركعتين ثم قال :

« اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلّةَ حيلتي ، وهواني [٢] على الناس ، يا أرحمَ الراحمين ، أنت أرحمُ الراحمين ، وأنت ربُّ المستضعَفين ، إلى مَنْ تَكِلني ؟ إلى عدوٍّ بعيد يتجهّمُني [٣] ، أم إلى قريبٍ ملّكته أمري؟ إن لم تكن غضباناً — وفي رواية : إن لم تكن ساخطاً . وفي رواية : إن لم يكن بك سخط .

---

(١) وزاد ابن إسحاق قوله : ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن كلمك .

(٢) أي : احتقارهم لي واستهانتهم بي .

(٣) أي : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .

وفي رواية : إن لم يكن بك غضب — عليَّ فلا أبالي ، غيرَ أنَّ عافيتَك أوسعُ لي ، أعوذُ بنور وجهك الكريم الذي أضاءتْ له السموات والأرض ، وأشرقتْ له الظُّلمات ، وصَلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، أن ينزِلَ بي غضبُك ، أو يحلَّ بي سخطُك — وفي رواية : أن يحلَّ عليَّ غضبُك ، أو ينزِلَ عليَّ سخطُك — ولك العُتبى [١] حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بك » [٢] .

عَدْلُهُ ﷺ

كان رسولُ الله ﷺ أعدلَ خلقِ الله تعالى في حقوق الله تعالى ، وفي حقوق عباد الله تعالى ، قوَّاماً بالقسط ، منتصراً للحق حيث كان الحق ، مع القويِّ أو الضعيف ، مع الغنيِّ أو الفقير ، مع الكبيرِ أو الصغير ، مع الرجل أو المرأة ، مع الحرِّ أو العبد .

روى الشيخان — واللفظ للبخاري — عن عروة ، أنَّ امرأةً سرقتْ في عهدِ رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزِع قومُها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما يستشفعونه ، قال عروة : فلما كلَّمه أسامة فيها تلوَّن وجه رسول الله ﷺ — أي من شدة الغضب — وقال — لأسامة — : « أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله تعالى ؟! » فقال أسامة : إستغفِرْ لي يا رسول الله .

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد ! فإنما هلك الناس — أي قبلكم في الأمم الماضية — أنهم إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ ! والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها » ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعت يدُها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوَّجت . قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [٣] .

---

(١) قال في شرح المواهب : العتبي — بضم العين وألف مقصورة — أي أطلب رضاك .

(٢) انظر ذلك كله في شرح المواهب للزرقاني .

(٣) وأورده الحافظ المنذري في الترغيب مختصراً ، وعزاه للبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة ٣ : ٢٤٧

فانظر أيها العاقل في عدله العظيم ، وحكمه القويم ! بل كان عدلُه ﷺ يتسع لأعدائه ، ويوصل إليهم حقوقَهم المشروعة لهم دون هوادة في ذلك .

فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي ، أنه كان ليهوديٍ عليه أربع دراهم ، فاستعدى عليه رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ﷺ له : « ادفعْ إليه حقَّه » فقال — ابن أبي حدرد — : لا أجد . فأعادها — عليه ﷺ — ثلاثاً — أي يقول له ادفع إليه حقَّه — قال : وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجَع ، فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق ، فنزع عمامته فاتَّزر بها ، ودفع إليه البُرْد الذي كان متَّزراً به ، فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه — أي إلى اليهودي — فمرَّتْ عجوزٌ فسألته — أي سألت ابن أبي حدرد — عن حاله ، فأخبرها — بحاجته — فدفعتْ له بُرداً كان عليها (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان لرجلٍ على رسول الله ﷺ سنٌ — أي دابة ذات سنٍ — من الإبل فجاءه يتقاضاه — أي يطلب قضاء حقه — وإنه أغلظ له في القول ، حتى همَّ به بعض القوم — أي همَّ بعض الصحابة بضربه لما أغلظ في القول على النبي ﷺ ، وكان أعرابياً : كما في رواية ابن ماجه .

فقال ﷺ : « دَعُوه — اتركوه — فإنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً » ثمَّ قال : « أعطوه » فطلبوا سِنه فلم يجدوا إلاَّ سِناً فوقها — أي أحسن من السِّنِّ التي له — فقال ﷺ : « أعطوه » فقال — الرجل — : أوفيتني أوفاك الله تعالى ، فقال ﷺ : « إنَّ خيرَكم أحسنُكم قضاءً » أخرجه الخمسة إلاَّ أبا داود كما في جامع الأصول .

ولقد كان ﷺ يُتحاكَم إليه قبل البعثة أيضاً ؛ لما عرفوه من عدله ﷺ وأمانته. قال ابن مسعود رضي الله عنه : كان يُتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام . وروى ابن أبي شيبة عن أبي رافع عن النبي ﷺ أنه قال : « والله إني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض » (٢) .

---

(١) انظر الجزء الثاني من الإصابة ترجمة عبد الله بن أبي حدرد .

(٢) كذا في الشفاء وشروحه .

رحمته ﷺ للعالم

قال الله تعالى : « وما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين » .

فهو ﷺ رسول الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمةً لجميع العالمين : رحمة للمؤمنين ؛ ورحمة للكافرين ، ورحمة للمنافقين ، ورحمة لجميع بني الإنسان : الرجال والنساء والصبيان ، ورحمة الطير والحيوان ؛ فهو رحمةٌ عامة لجميع خلق الله تعالى .

أما رحمته للمؤمنين : فبهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وباهتمامه بما يُصلح لهم أمرَ دينهم ودنياهم ، وتحذيره إياهم مما يفسد عليهم أمر الدنيا والآخرة رأفةً ورحمةً بهم ، كما قال الله تعالى : « بالمُؤمنينَ رؤُوفٌ رحيم » . والرأفة تقتضي إبعاد كل شر وفساد وضرر ، والرحمة تقتضي جلب كل خير وصلاح ونفع .

ولقد أقامه الله تعالى في رأفته ورحمته للمؤمنين : أنه أولى بهم من أنفسهم ، قال تعالى : « النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . » الآية . يعني أنه ﷺ أرأفُ بهم وأعطفُ عليهم وأنفع لهم من أنفسهم ، ولذلك كان أحقَّ بهم من كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمُه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم ؛ فعليهم أن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه ﷺ .

ولذا كان ﷺ يُعلن هذه الأولوية في خُطَبه ومجتمعاته كما تقدَّم في بحث كلامه وخطبه ﷺ ؛ وكما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « ما من مؤمنٍ إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : « النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » فأيُّما مؤمنٍ تركَ مالاً فلترثه عصبتُه ما كانوا ، وإن تركَ دَيْناً أو ضَياعاً أو عيالاً فليأتني ؛ فأنا مولاه » .

وفي رواية أحمد عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا أولى بكل

مؤمن من نفسه . فأيُّما رجل مات وترك دَيناً فإليَّ ، ومَن ترك مالاً فهو لورثته » .

وأما رحمته المنافقين : فبالأمان من القتل والسَّبي ، نظراً لظاهر إسلامهم في الدُّنيا .

وأما رحمتُه الكفار : فبرفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا ، وذلك أن الأمم السابقة : كانت إذا أرسل الله تعالى فيهم رسولاً فكذَّبوه وكفروا به جاءهم العذاب فعمَّهم ، كما قصَّ الله تعالى من أخبار قوم نوحٍ وعادٍ وثمود ، وقوم لوط وغيرهم ، كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وأما كفار هذه الأمة المحمدية : فقد رفع الله عنهم العذاب العام الذي يستأصلهم ، كما استأصل وعمَّ الكفارَ من الأمم السابقة ، وذلك تكرمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين » قال : مَنْ آمَن تمَّتْ له الرحمة في الدُّنيا والآخرة ، ومَنْ لم يؤمن عوفي مما كان يصيبُ الأمم من عاجل الدنيا من العذاب — أي العـامَّ — من المسخ والخسف والقذف . ا هـ (١) .

وأما أخذُ بعض كفار هذه الأمة بالعذاب : فهو واقع لا محالة .

وهذا المعنى — وهو أنَّ الله تعالى لا يعذِّبُ كفار هذه الأمة المحمدية عذاباً عاماً مستأصلاً كالكفَّار قبلهم — هذا المعنى هو الذي جرى عليه وفهمه محققو العلماء من قوله تعالى : « وما كان الله ليعذِّبهم وأنتَ فيهم ، وما كان اللهُ معذبَهم وهم يستغفرون » أي : وما كان اللهُ ليعذِّبَهم وأنتَ مرسَلٌ فيهم ، وهذا العذاب المنفيُّ هو العذابُ العامُّ الطامّ .

أما العذابُ الخاصّ ببعضٍ منهم ، أو المرسَل على أطرافٍ منهم ، فهو واقع كما دلَّ على ذلك قولُه تعـالى في الآية التالية لتلك الآية : « وما لهم أن لا يعذبَهم

(١) رواه الطبراني والبيهقي في الدلائل ، وابن مردويه وغيرهم ، كما في تفسير ابن كثير وغيره .

اللهُ وهم يصدُّون عن المسجدِ الحرام . . » الآية . وهذا طريقُ الجمع بين الآيتين . كما نبَّه عليه المحققون .

فهو ﷺ رسول الرحمة ، وهو نبي الرحمة ؛ كما في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماءً فقال : « أنا محمد وأحمدُ ، والمقفِّي — أي آخر الأنبياء وخاتمهم — والحاشر . ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله : أدع على المشركين فقال : « إني لمْ أُبعَثْ لعّاناً ، وإنما بُعِثْتُ رحمة » .

بل هو ﷺ الرحمةُ المهداة التي أهداها اللهُ تعالى العالَم ؛ كما روى الطبراني والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنما أنا رحمةٌ مُهداة » وعند الطبراني : « بُعثتُ رحمةً مُهداة » [١] .

رحمته ﷺ بالأهل والعيال

روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن سعيد عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ ؛ قال : كان إبراهيمُ مسترضِعاً له في عوالي المدينة ، فكان ينطلقُ ونحن معه ، فيدخل البيتَ وإنه ليُدَّخَنُ — أي يعلو منه الدخان — وكان ظِئْره قَيْناً ، فيأخُذُه — أي فيأخذ النبيُّ ﷺ ابنَه إبراهيم المسترضع — فيقبِّلُه ثم يرجع .

قال عمرو : فلمّا توفي إبراهيم قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ إبراهيمَ ابني ، وإنه مات في الثَّدْي ، — أي في سنِّ رضاع الثَّدْي — وإنَّ له لَظئرين — أي مرضعتين — تُكمِّلان رضاعَه في الجنَّة » أي يتمَّان له رضاعَ سنتين ، فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . اهـ من شرح النووي : وفسَّر القَيْن في النهاية بأنه الحدَّاد والصائغ .

---

(١) انظر شرح المواهب للزرقاني .

ومن رحمته بأهله ﷺ : أنه كان يعاونهم في الأمور البيتية ، كما تقدَّم أن الأسود قال سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي ﷺ يصنع في أهلِه ؟ فقالتْ : كان في مهنة أهلِه ، فإذا حضرتِ الصَّلاةُ قام إلى الصلاة .

فما كان ﷺ من جبابرة الرجال ، بل كثيراً ما كان يخدم نفسَه بنفسه ﷺ . ففي مسند أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : كان النبيُّ ﷺ يَخيطُ ثوبَه ، ويخصِف نعلَه ، ويعمل ما يعمل الرجالُ في بيوتهم .

رحمته ﷺ بالصبيان

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إني لأدخلُ في الصلاة أريد إطالتَها ، فأسمع بكاءَ الصبيِّ فأتجوَّز في صلاتي ، مما أعلم من شدة وجْد أمه » .

ومن رحمته ﷺ بالصبيان : أنه كان يمسح رؤوسَهم ويُقبلهم ، كما جاء في الصحيحين عن عائشةَ رضي الله عنها قالت : قبَّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابني عليٍّ ، وعنده الأقرع بن حابس التميميُّ ، فقال الأقرع : إنَّ لي عشرةً ما قبَّلتُ منهم أحداً قط ! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « مَنْ لا يَرْحم لا يُرحَم » .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال : إنكم تقبِّلون الصبيان وما نقبِّلهم ! فقال رسول الله ﷺ : « أوَ أملكُ لك أن نزع الله الرحمةَ من قلبك ؟ ! » يعني أن من كان في قلبه رحمةٌ للصبيان حملته على أن يقبِّلهم ، ومن نُزعت الرحمةُ من قلبه أمسك عن تقبيلهم .

وروى الشيخان والترمذي عن البراء رضي الله عنه قال : رأيتُ رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه يقول ﷺ : « اللهمَّ إني أحبُّه فأحبَّه » .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سئل النبي ﷺ : أيُّ أهلِ

بيتك أحبّ إليك ؟ قال : « الحسن والحسين » . وكان يقول لفاطمة عليها السلام : « ادعي لي ابنيّ » ويضمّهما إليه رضي الله عنهما .

ومن رحمته بالصبيان وحبّه لإدخال السرور عليهم : أنه ﷺ كان إذا أُتي بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان . كما روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا أُتي بباكورة الثمرة — أي أولها — وضعها على عينيه ثم على شفتيه وقال : « اللهمّ كما أريتَنا أوله فأَرِنا آخرَه » ثم يعطيه مَن يكون عنده من الصبيان . رواه ابن السني عن أبي هريرة ، وقال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والصغير ،ورجال الصغير رجال الصحيح.اهـ.

ومن رحمته : دمعُ عينيه ﷺ لفراق ولده إبراهيم رضي الله عنه . فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه ، وهو يجود بنفسه — أي في حالة الاحتضار — فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان — تدمعان — فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ! فقال : « يا ابن عوف إنها رحمةٌ » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلاّ ما يُرضي ربّنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » رواه البخاري ، وروى بعضه مسلم .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، أنّ رسولَ الله ﷺ رُفِعَ إليه ابن ابنته وهو في الموت ، ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ! قال : « هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، وإنما يرحمُ اللهُ من عباده الرحماءَ » متفق عليه .

ومن رحمته ﷺ : بكاؤه لثقل مرض بعض أصحابه ، كما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسولَ الله ﷺ عاد سعد بن عُبادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القومُ بكاءَ رسول الله ﷺ بكَوْا ، فقال :

« ألا تسمعون ؟ إنَّ اللهَ لا يعذِّب بدمعِ العين ، ولا بحزنِ القلب ، ولكن يعذِّبُ بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانه .

ومن رحمته ﷺ : **بكاؤه لموت صاحب من أصحابه** ، ومن ذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت ، وهو ﷺ يبكي ، وفي رواية ابن سعد في الطبقات عن عائشة رضي الله عنها : قبَّل عثمانَ بن مظعون وهو ميت ، قالت : فرأيتُ دموع النبي ﷺ تسيل على خدِّ عثمان .

وعند ابن الجوزي في كتاب الوفاء ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا مات عثمان بن مظعون كَفَّ النبيُّ ﷺ الثوبَ عن وجهه ، وقبَّل بين عينيه ، ثمَّ بكى طويلاً ، فلمّا رُفع على السرير قال : « طوبى لك يا عثمان ، لم تلبَسْكَ الدُّنيا ولم تلبَسْها » . كذا في جمع الوسائل .

وأما رحمته ﷺ **بالمساكين والضعفاء** : فقد تقدَّم ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كانت الأَمة — أي المملوكة — لتأخُذُ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت . وفي رواية أحمد : فتنطلق به في حاجتها . أي ليقضي لها حاجتها من شراء طعام أو متاع ونحو ذلك .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا يأنف — أي لا يتكبَّر — أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة .

وعن سهل بن حُنيف رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعودُ مرضاهم ، ويشهدُ جنائزَهم . رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم .

رحمته ﷺ باليتيم

قال الله تعالى : « فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ » .

كان ﷺ يُحسنُ إلى اليتامى ، ويبرُّهم ، ويوصي بكفالتهم والإحسانِ إليهم . وبيّن الفضائل المرتّبةَ على ذلك .

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنّةِ هكذا » وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما .

وروى ابنُ ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « خيرُ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه ، وشرُّ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه » .

وذكر ﷺ فضلَ المرأة التي ماتَ زوجُها ، فحبستْ نفسَها على تربيةِ أولادها ولم تتزوّج . ففي سنن أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أنا وامرأةٌ سفْعاء الخدّين [١] كهاتين يوم القيامة — الوسطى والسبّابة — امرأةٌ آمتْ من زوجِها ذاتُ منصب وجمال ، حبستْ نفسَها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » .

وعن أبي هريرة رضي اللهُ عنه أن رجلاً شكا إلى رسولِ الله ﷺ قسوةَ قلبه ، فقال له ﷺ : « امسحْ رأسَ اليتيم ، وأطْعم المسكين » رواه أحمد . قال الحافظ المنذري : ورجالُه رجال الصحيح .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الساعي على الأرملة والمسكين — أي الذي يسعى فيما ينفع الأرملة والمسكين — كالمجاهد في سبيل الله ، وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتُر ، وكالصائم لا يُفطر » رواه الشيخان ، وابن ماجه بلفظ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهـار » .

---

(١) وهي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة ، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج حتى تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج . اهـ كما في ترغيب المنذري .

رحمته ﷺ بالحيوان

كان ﷺ يوصي بالرحمة بالحيوان ، وينهى صاحبَه أن يُجيعَه أو يُدْئبه ويتعبَه ، بإدامةِ الحمل عليه ، أو إثقاله ، أو يحسَّه بما فيه نوع من التعذيب له .

روى أبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال : مَرَّ رسولُ الله ﷺ ببعيرٍ قد لحِقَ ظهرُه ببطنه – أي ضَمُر من شدَّة الجوع – فقال ﷺ : « اتقوا اللهَ في هذه البهائم ، فاركبوها صالحةً ، وكلوها صالحَةً » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : أردفَني رسول الله ﷺ خلفَه ذات يومٍ ، فدخل حائطاً – أي بستاناً – لرجلٍ من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ – الجمل – وذرَفَتْ عيناه ، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذِفْراه – موضع الأذنين من مؤخر الرأس – فسكت – الجمل – .

فقال ﷺ : « مَنْ رَبُّ – أي صاحب – هذا الجمل ؟ لمَن هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار فقال له ﷺ : « أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي ملَّكك اللهُ إياها ؟ ! فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعُه وتدئبُه » أي : تُتعبه من كثْرة العمل عليه واستعماله فوق طاقته .

فكان ﷺ ينهى عن إجاعة الحيوان وإتعابه ، إمّا بكثْرة العمل عليه ، أو تحميله فوق طاقته .

كما كان ﷺ ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورةٍ إلى ذلك . ففي مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ

دخل على قوم وهم وقوفٌ على دوابّ لهم ورواحل ، فقال لهم : « اركبوها سالمة [١] ودَعُوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فربَّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبها ، وأكثرُ ذكراً لله منه » وعزاه في الجامع الصغير إلى المسند وأبي يعلى والطبراني ومستدرك الحاكم رامزاً لصحته .

فنهى رسولُ الله ﷺ عن الجلوس فوق ظهور الدوابّ وهي واقفةٌ للتحدُّث عليها ، قال العلامة المناوي : والمنهيُّ عنه الوقوفُ الطويل لغير حاجة ، فيجوزُ حال القتال ، والوقوف بعرفة ونحو ذلك ، قال : وفيه إشعار بطلب الذكر للراكب ، وقد ذكر أهل الحقيقة أنه يخففُ الثقل عن الدابة . اهـ .

عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إن اللهَ يوصيكم بهذه البهائم العُجْم — مرتين أو ثلاثاً — فإذا سرتمْ عليها فأنزلوها منازلَها » الحديث .

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل الضِّفدع وقال : « نَقيقُها تسبيح » [٢] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأةٌ النارَ في هرّةٍ ربطتْها ، فلم تُطعِمْها ولم تدعْها تأكلُ من خشاش الأرض » رواه البخاري وغيره [٣] .

كما وأنه ﷺ نهى عن تسليط الحيوانات بعضها على بعض بالأذى ، وتهييجها بالإفساد ، ففي سنن أبي داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم .

---

(١) قال العلامة المناوي في معنى سالمة : أي خالصة عن الكد والاتعاب . قال : وقال الهيثمي : أحد أسانيد أحمد ، رجاله رجال الصحيح غير سهل بن معاذ وثقه ابن حبان وفيه ضعف . اهـ . قال : وقال الذهبي : فيه سهل وفيه لين اهـ ، قلت : ولكنه جاء من طرق متعددة فيقوى ما هنالك .

(٢) وكذلك أورده الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده . . » الآية .

(٣) كذا في ترغيب المنذري قال : وخشاش الأرض : مثلثة الخاء المعجمة وبشينين معجمتين ، هو : حشرات الأرض والعصافير ونحوها

رحمته ﷺ بالطيور

كان رسولُ الله ﷺ يحذِّر من أن يَفجعَ الإنسانُ الطيورَ بأولادها ، وذلك من باب الرحمة . ففي سنن أبي داود عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمَّرة [١] معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تُعرِش [٢] ، فجاء النبي ﷺ فقال : « مَنْ فجع هذه بولدها ؟ رُدُّوا ولدها إليها » ورأى قرية نحل — أي مجتمع نحل — قد حرقناها ، فقال : « مَن حرق هذه ؟ » قلنا : نحن ، قال : « إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار » .

كما وأنه ﷺ حذَّر من قتل الطير عبثاً ، لا لمنفعة أكل ونحوه .

روى النسائي وابن حبان في صحيحه عن الشَّريد رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ قتل عُصفوراً عجَّ [٣] إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا ربِّ إنَّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلْني منفعةً » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما مِن إنسانٍ يقتلُ عصفوراً فما فوقها بغيرِ حقِّها إلا يسأله اللهُ عنها يومَ القيامة » قيل : يا رسولَ الله وما حقُّها ؟ قال : « حقُّها أن تذبحَها فتأكلَها ولا تقطعَ رأسَها فترميَ به » [٤] .

كما وأنه ﷺ أوصى بالرِّفق في ذبحِ الحيوان والإحسان إليه في ذلك .

روى الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رجلاً أضجع شاةً وهو يحدُّ شفرته ، فقال له النبيُّ ﷺ : « أتريدُ أن تُميتَها موتتين ؟ هلاَّ حددتَ

---

(١) طائر صغير كالعصفور .

(٢) قال في النهاية مفسراً لهذه الجملة : التعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها . اهـ .

(٣) أي شكا إلى الله تعالى بصوت عال .

(٤) قال في الترغيب : رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

شفرتَك قبلَ أن تضجعَها ! » [1] .

كما وأنه ﷺ حذّر من اتخاذ الحيوان وكل ذي روح غرَضاً ، أي هدَفاً للرمي .

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرّ بفتيانٍ من قريش ، قد نصبوا طيراً أو دجاجة يترامَونها ، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله ﷺ لعن من اتّخذ شيئاً فيه الروح غرَضاً .

التدبُّر والتأمل في قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

إنَ من تدبر قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وتفكر في معاني هذه الآيةِ الكريمة يتّضح له جليّاً أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية وجميعَ ما اشتملت عليه ، من أوامرَ ومناهيَ ، وعبادات ومعاملات ، وآداب وأخلاق ، وحقوق وواجبات ، كل ذلك مبنيّ على أساس الرحمة للعباد .

بل وما جاءت به الرسالة المحمدية من العقوبات الشرعية وهي القصاص والحدود والتعزير ! .

كل ذلك إنما هو رحمة للعالمين ، ورحمة للبلاد والعباد ، لأن في ذلك ايقافاً للمفسد عن التوغل في الفساد ، ومنعاً لفساده من أن يستشري لغيره ، فان عضو جسم الانسان إذا فسد فمن الرحمة أن يُبترَ لئلا يستشري الفساد ويتعداه لغيره ، وكذلك فان المجتمع كلّه يعتبر من هذه الناحية كالجسم الواحد في نظر الشرع ، وتفصيل ذلك ليس موضعَه هنا .

ذلك لأن الرسالة المحمدية جاءت بالرحمة والرحمة ، ولذلك وردت الآية على طريق الحصر ، ليَعلمَ العاقل أن جميع مضامين هذه الرسالة ومشتملاتها ، كل أولئك إنما هو رحمة للعباد في الدنيا والآخرة ، وفيها سعادتهم وصلاحهم ، وفلاحهم

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، والحاكم — واللفظ له — وقال : صحيح على شرط البخاري .

ونجاحهم في الدنيا والآخرة ، وأنه لم تأتِ الرسالة المحمدية لسعادة الآخرة وصلاح الآخرة ونجاح الآخرة فحسب ، بل جاءت لسعادة وصلاح وفلاح الدنيا والآخرة معاً .

ولذلك نبه النبي ﷺ العقلاء والفُطناء والحكماء إلى بيان موقفه من ناحية الاسعاد والاصلاح مع العالم ، فذكر مثالاً حسياً ليتضح الموقف ويبرز في صورة محسوسة .

ففي مسند الامام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان ، فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضربْ مَثَل هذا ومثل أمّته فقال : إن مَثَل هذا ومثل أمته كمثل قوم سَفْر [١] انتهوا إلى رأس مفازة [٢] فلم يكن معهم من الزّاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به ، فبيناهم كذلك إذْ أتاهم رجلٌ في حُلّة حِبَرة [٣] ، فقال : أرأيتم إنْ وردتُ بكم رياضاً مُعْشِبة [٤] ، وحياضاً رُواءً أتتبعوني ؟ قالوا : نعم فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم أُلْفِكم [٥] على تلك الحال ، فجعلتم لي أنْ أُورِدَكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فان بين أيديكم رياضاً هي أعشبُ من هذه ، فاتبعوني ، قال : فقامت طائفة قالت : صدق والله ، لنتّبعنّه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا ، نُقيم عليه» [٦] .

فلقد جاء رسول الله ﷺ برسالة عامة ، كافلة وكافية ووافية بجميع مصالح البشر ، وبما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فالمؤمنون الصادقون أخذوا بجميع مبادىء الرسالة المحمدية المنوطة بأمور الدنيا وبأمور الآخرة ، فنالوا من الله سعادة الدنيا والآخرة ، وغيرُهم أخذوا بمبادىء الرسالة المحمدية التي فيها مصالح الدنيا فحسب ،

---

(١) سفر : جمع سافر ، كركب جمع راكب ، وهم القوم المسافرون .

(٢) وصلوا وسط الصحراء الدوية وسميت مفازة تفاؤلا بالفوز والنجاة لمن اجتازها .

(٣) نوع حسن من الثياب ، والمعنى : أن الرجل الذي خرج عليهم هو من أهل الفضل والكمال ، تلوح عليه آيات الصدق والنصح .

(٤) حدائق وبساتين .

(٥) أي : ألم أجدكم .

(٦) كذا في مجمع الزوائد ٨ : ٢٦ وقال : رواه أحمد والطبراني والبزار وإسناده حسن . وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره آخر سورة التوبة .

فنالوا حظهم من سعادة الدنيا ورفاهتها ، وانتظام أمورها ، ولكنهم لم يأخذوا بما فيه صلاح آخرتهم وسعادتهم في الآخرة فما لهم في الآخرة من خلاق .

هذا ، وإن قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » يشمل عالم الانس وعالم الجن وعالم الملائكة وما يتبع ذلك من العوالم .

أما رحمته ﷺ للانس : فهو ما تقدم من شمول رحمته ﷺ لجميع طبقات الانس .

وأما رحمته للجن : فكذلك الأمر ، هو في الجن كما في الانس، باعتبار أنه ﷺ رسول إلى الجن أيضاً رسالة تكليف ، وقد بلّغهم وأمرهم ونهاهم ، وبيّن لهم — في عدة مناسبات ، كما أنهم توافدوا عليه واستمعوا اليه ﷺ . وتفصيل ذلك مبيّن في كتابنا «الايمان بالملائكة » والبحث حول عالم الجن ، فارجع اليه تجد الأدلة على ذلك .

وأما شمول رحمته ﷺ لعالم الملائكة : فهو ماذهب اليه جماهير العلماء والعرفاء، وذلك : إما باعتبار أنه ﷺ مرسل اليهم برسالة فيها تكليف لهم بأوامر ونواهي ، كما رجحه كثير من محققي المحدثين والفقهاء [١] .

وإما باعتبار أنه ﷺ مرسَل اليهم رسالة تشريف ، فقد شملهم عموم رحمته ، ونالوا بواسطته علوماً جمة كثيرة ، وأسراراً عظيمة كثيرة ، مما أودع الله تعالى في كتابه الذي أنزل عليه ﷺ والايحاءات النبوية التي أوحاها اليه ، وقد قال الله تعالى : « كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صُحُفٍ مكرّمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفَرة . كِرامٍ بررة » .

والمراد هنا بالسفرة : الملائكةُ عليهم السلام ، فهم يتلون ما أذن الله تعالى لهم به من تلاوة هذا القرآن الكريم ، المكتوب في صحفهم ، ويزدادون بذلك علماً ومعرفة بجلال الله تعالى وعظمته وحكمته .

وفي الصحيحين عن عائشة رضيَ الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ، وتفسير الآلوسي حول الآية وغيرها .

«الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به ، مع السفرة الكرام البرَرَة ، والذي يقرأ القرآن ، وهو عليه شاقٌّ له أجران » .

هذا ، وقد أجملنا الكلام على هذه الآية الكريمة في هذا الموطن ، لأننا سوف نتكلم عليها إن شاء الله بعدُ في الحلقة الثانية من هذا الكتاب ، وهي الحلقة التي يُبحث فيها عن مواقف سيدنا محمد ﷺ مع العالم ، ومن جملة تلك المواقف أنه ﷺ جاء رحمة للعالمين ، فهناك التفصيل إن شاء الله تعالى .

في عظيم حيائه ﷺ

كان رسول الله ﷺ أعظمَ الناس حياء ، لأنه أعظمُهم إيماناً ، وقد قال ﷺ: « الحياء من الايمان »[1] . وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها . وفي رواية البخاري : وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه ﷺ . ومن المعلوم أن المرأة العذراء ، وهي البكر المستترة في خدرها — أي في ناحية بيتها أو خيمتها — تكون شديدة الحياء ، فلقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء منها .

والحياء خُلُق يبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذى الحق ، ولذلك قال ﷺ : «استحيوا من الله حقَّ الحياء » فقالوا : إنا لنستحيي من الله والحمد لله ، قال : «ليس ذلك ، ولكن الحياء من الله هو : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى» . إلى تمام الحديث ، كما تقدم في جملة الأربعين . وفيه بيان أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الكمال ، ويمنعه من النقصان .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الحياء لا يأتي إلا بخير » . كما في البخارى .

وقد بلغ من حيائه ﷺ أنه لم يواجه أحداً بما يكرهه ، بل يعرّض بذلك ، أو يأمر بعض الصحابة من يصارح بذلك الرجلَ المقصِّر .

---

(١) تمامه : والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار . رواه أحمد برجال الصحيح والترمذي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح اهـ ترغيب المنذري .

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه ، فدخل عليه يوماً رجل وعليه أثر صُفرة ، فلما قام قال لأصحابه : « لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة » .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ، ولكن يقول : ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكـذا .

ومن ذلك حياؤه ﷺ من القوم الذين أطالوا الجلوس عنده بعد الأكل ، فاستحيا أن يقول لهم انصرفوا ، حتى نزلت الآية في ذلك ، كما في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ عروساً بزينب ، فقالت لي أم سُليم : لو أهدينا إلى رسول الله ﷺ هدية .

قال أنس : فقلت لها : افعلي ، فعمَدتُ إلى تمر وسمن وأقِط ، فاتخذتْ حَيْسة في بُرْمة فأرسلت بها معي ، فانطلقتُ بها اليه ، فقال : « ضَعْها » ثم أمرني فقال لي : «ادعُ رجالاً — سماهم — وادعُ لي مَن لقيتَ » ففعلت الذي أمرني ، فرجعت فاذا البيت غاصٌّ بأهله ، ورأيت رسول الله ﷺ وضع يده في تلك الحَيْسة ، وتكلم بما شاء الله ، ثم جعل يدعو عَشَرةً عشرةً يأكلون منه ، ويقول لهم : « اذكروا اسم الله ، وليأكلْ كلٌّ رجل مما يليه » حتى تصدَّعوا كلهم .

وفي رواية مسلم : قيل لأنس : عَدَدَ كَمْ كانوا ؟ قال : زُهاء ثلاثمائة ، فخرج من خرج ، وبقي نفر يتحدثون . وفي رواية مسلم : وكان النبي ﷺ شديدَ الحياء — أي استحيا أن يقول لهم انصرفوا — ثم خرج النبي ﷺ نحو الحُجُرات ، وخرجتُ أثَره ، فقلت : إنهم قد ذهبوا ، فرجع النبي ﷺ فدخل البيت وأرخى السِّتر وإني لفي الحجرة ، وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا : لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكنْ إذا دُعيتم فادخلوا ، فاذا طَعِمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يُؤذي النبي ، فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق . . » الآية .

والمراد أنه ﷺ يستحي حياءَ كرم أن يقول لهم انصرفوا ، وهم جلوس عنده ، والله لا يستحي من بيان الحق الواجب اتباعُه ؛ وهذا لا ينافي أنه سبحانه متصف بحياء الكرم اللائق بمقام ربوبيته تعالى ، كما قال ﷺ : « إن ربكم حيٌّ كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صُفْراً » أي : خاليتين . رواه الترمذي وغيره .

فباعتبار أن إطالة الجلوس كانت عنده ﷺ في بيته استحيا منهم أن يُصارحهم في الأمر ، كرماً منه ، ولكن الموقف يتطلب بيان الحق في ذلك لا محالة ، فجاء القرآن بالبيان ؛ من الملك الديَّان ، جل وعلا .

وقد ذكر العلماء للحياء أنواعاً لتنوّع أسبابه :

فمن ذلك : حياء الكرم ، وسببه كرم النفس ، كاستحيائه ﷺ من القوم لما أطالوا الجلوس عنده ؛ كما تقدم .

ومن ذلك : حياء الاجلال ، وهو حياءٌ سببه المعرفة بعظمة المستحيا منه ، وعلى قدر معرفة العبد بربّه يكون حياؤه سببه منه سبحانه . ولا ريب أنه ﷺ أعلم خلق الله تعالى ، بالله تعالى وبعظمة ربوبيته ، كما تقدم في حديث الصحيحين ان النبي ﷺ قال : « أما والله إني لأعلمكم بالله ، وأتقاكم له » .

ومن ذلك : حياء المحبة ، وهو حياء المحبِّ من محبوبه ، حتى إنه لتمرُّ على قلب المحب ذكريات المحبوب فتزيده حياءً ووَجَلاً من محبوبه .

ومن ذلك : حياء العبودية ، وهو حياء يمتزج بين محبةٍ وخوفٍ ، ومشاهدةِ أن قدر معبوده سبحانه ، هو أجلُّ وأعلى من العبادة والعبودية التي يتقرب بها اليه .

ومن ذلك : حياء المرء من نفسه ، وهو حياء صاحب النفس الشريفة الكريمة ، من النقص وفعل القبيح ، والقناعة بالدون ، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه ، حتى كأن له نفسين يستحيي باحداهما من الأخرى .

ومن ذلك : حياء الحشمة ، وهو حياءٌ سببه الاحتشام ؛ وتوقي إبداء ما يُطلب فيــه الاخفــاء .

روى ابن ماجه عن بلال بن الحارث رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان إذا أراد الحاجة أبعَدَ . أي : قصد مكاناً بعيداً منعزلاً [١] .

وروى الترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه . أن النبي ﷺ كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنوَ من الأرض [٢] .

وروى ابن سعد عن سعد بن صالح مرسلاً ، أن النبي ﷺ كان إذا دخل المرفق[٣] لبس حذاءه ، وغطى رأسه . ﷺ .

وروى الامام الترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : مانظرتُ إلى فرج رسول الله ﷺ أو قالت : ما رأيت فرج رسول الله ﷺ . وذلك لشدة حيائه وكمال وقاره ﷺ وتستُّره كلَّ التستُّر .

وفي شرح الشمائل للشيخ القاري والشيخ محمد بن قاسم جسوس : روى أبو صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا مُقنّعاً ، يُرخي الثوب على رأسه ، وما رأيت من رسول الله ﷺ ولا رأى مني . أورده ابن الجوزي في كتاب الوفاء نقلاً عن الخطيب ا هـ .

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات ، وما رأى أحد عورته قطُّ . وإسناده حسن [٤] .

وبهذا الذي ذكرناه فيما تقدم ، يعلم العاقل يقيناً أن سيدنا محمداً ﷺ قد نال أكمل مراتب الحياء وأعلاها .

---

(١) ورواه الإمام أحمد والنسائي ، كما في الجامع الصغير . رامزاً لصحته لكثرة طرقه .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ، كما في الجامع الصغير .

(٣) قال المناوي : المرفق بكسر الميم وفتح الفاء : الكنيف ا هـ . والحذاء : النعل — وهذا الحديث فيه ضعف .

(٤) كذا في جمع الوسائل للشيخ علي القاري .

مهابته العظيمة ﷺ وفخامته الكريمة

كان رسول الله ﷺ عظيمَ المهابة ، قد توَّجَه الله تعالى تاج العزَّة والكرامة ، وكساه حلَّة الفخامة .

روى الترمذي وغيره من حديث هند بن أبي هالة ، يصف النبي ﷺ فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخَّماً يتلألأ وجهه ﷺ تلألؤ القمر ليلة البدر .

وقال سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبي ﷺ : من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبَّه .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إمعان النظر فيه ، لقوة مهابته ومزيد وقاره ، ومن ثمَّ لم يَصِفْه إلا صغارهم ، أومن كان في تربيته قبل النبوة ، كهند بن أبي هالة ، وسيدنا علي رضي الله عنه .

ويدلُّك على ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : صحبت رسول الله ﷺ صحبة طويلة ، وسمعت منه أحاديث كثيرة ، وحفظت عنه ألف مَثَلٍ ، ومع ذلك ما ملأتُ عينيَّ منه قطُّ ، حياءً منه وتعظيماً له ، ولو قيل لي صفهُ : لما قدرتُ .

ومن عظيم مهابته وكمال وقاره : كان مَن جلس اليه ﷺ هابه ، وربما أخذتْه رِعدة شديدة ، من قوة الهيبة المحمدية ، ولذلك كان ﷺ يُباسطهم ويلاطفهم ليسكن رَوْعهم .

روى ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : جاء رجل فقام بين يدي النبي ﷺ ، فأخذته رِعدة شديدة ومهابة ، فقال له النبي ﷺ : «هوِّن عليك ، فأنا لستُ بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل

القديد بمكة» (١) فنطق الرجل بحاجته (٢) فقام النبي ﷺ فقال : « يا أيها الناس إني أوحي إليَّ أنْ تواضَعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد ، وكونوا — عبادَ الله — إخواناً » .

وعن قَيْلة بنت مَخْرَمة أنها قالت : لما رأيت رسول الله ﷺ متخشّعاً في الجِلْسة وهو قاعدٌ القُرفُصاء ، أُرعِدْتُ من الفَرَق — أي الخوف — فقال رجل : يارسول الله أُرْعِدَتِ المسكينة ! قالت قَيْلة : فقال رسول الله ﷺ — ولم ينظر إليَّ وأنا عند ظهره — : « يا مسكينة عليكِ السكينة » فلما قالها أذهب الله ما كان دخل قلبي من الرعب .

وفي هذه الوقائع مع بعض الصحابة دليل ظاهر على قوة مهابته ﷺ .

ومن ذلك ما جاء عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : إني لأضربُ غلاماً لي — أي يضرب عبداً مملوكاً له بسبب أنه أذنب معه — إذْ سمعتُ صوتاً من خلفي ، « اعلمْ أبا مسعود » قال : فجعلتُ لا ألتفت اليه من الغضب حتى غشيني ، فاذا هو رسول الله ﷺ ، قال أبو مسعود : فلما رأيته ﷺ وقع السوط من يدي ، من هيبته ﷺ ! فقال لي : « واللهِ اللهُ أقدرُ عليك منك على هذا » فقلت : واللهِ يا رسول الله لا أضرب غلاماً لي بعدها أبداً .

وفي رواية : فقلت يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله تعالى فقال : « أما لو لم تفعل للفَحَتْكَ النار . أو : لمسَّتكَ النار » . رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنها وعنه قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصدَّقْنَ يامعشر النساء ولو من حُليكُنَّ » قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له : إنك رجل خفيفُ ذاتِ اليد — أي قليل المال — وإن

(١) القديد هو اللحم يقطع ويجعل في الشمس حتى يجف ، وكانت عادة العرب أكله فكنى صلى الله عليه وسلم بذلك ، عن عدم تكبره وتجبره .

(٢) أي نطق بحاجته حين رأى تواضع النبي صلى الله عليه وسلم ، وسكن روعه .

رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فأتِه فاسأله ، فانْ كان ذلك يجزىء عني - أي دفعتُها لكم - وإلاّ صرفتُها إلى غيركم ، فقال ابن مسعود : بل ائتيه أنتِ .

قالت : فانطلقتُ فاذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتُها ، وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيتْ عليه المهابة ، فخرج علينا بلال فقلنا له : ائتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك : أتجزىء الصدقةُ عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام في حُجورهما ؟ - أي في تربيتهما - ولا تخبره مَنْ نحن ، فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَن هما ؟» فقال : امرأة من الأنصار وزينب : فقال ﷺ : «أيُّ الزيانب هي ؟» قال : امرأة عبد الله : فقال رسول الله ﷺ : « لهما أجران : أجرُ القرابة ، وأجر الصدقة » متفق عليـــه .

خشيته ﷺ من الله تعالى وخوفه منه

كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس خشيةً من الله تعالى ، وذلك لأنه أعلمهم بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى تكون على حسب العلم به تعالى ، قال الله تعالى : « إنما يخشى اللهَ مِن عباده العلماءُ .. » الآية .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخّص فيه ، وتنزّه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال : « ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعه ؟! فوالله إني لأعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خشية » .

وفي هذا الحديث : الحثُّ الشديد على الاقتداء بالنبي ﷺ ، والنهي عن التعمّق ، وفيه ذمُّ التنزّه عن المباح شكاً في إباحته ، وأن العلم بالله تعالى يوجب اشتدادَ الخشية منه سبحانه ، دون أن يكون هناك إفراط أو تشدُّد في الأعمال . كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

وفي هذا الحديث : بيان منه ﷺ وإعلانُ أفضليته على جميع العباد ، بالعلم

بالله تعالى ، والخشية من الله تعالى ، وأن الله تعالى قد أعطاه أفضل وأكمل مقام في المعرفة والخشية . وقد قال العارفون رضي الله عنهم : إن مقام المعرفة بالله تعالى والخشية من الله تعالى إذا أُكْمِلا لصاحبهما ، وانتهى إلى درجة المعرفة حقّ المعرفة ،والخشية حقّ الخشية : ظهرت عليه آثارهما ، وصحت له أحكامهما ، كما رُوي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « لو خِفتم اللهَ تعالى حقّ خِيفته . لعلمتم العلم الذي لا جهل معه ، ولو عرفتم الله تعالى حقّ معرفته لزالتْ لدعائكم الجبال » (١) .

فما ظنك بسيدنا محمد ﷺ الذي نال أعلى مقام في المعرفة بالله تعالى ، وأرفع مقام في الخشية من الله تعالى ؟! ومهما تصوّرتَ وقدّرتَ من آثارهما وأحكامهما فالأمر أعظم من ذلك ، ولا غروَ في ذلك وقد قال الله تعالى : « وكان فضلُ الله عليك عظيماً » .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبةً ماسمعتُ مثلَها قطُّ ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » فغطّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين . وفي رواية : بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ ، فخطب فقال : « عُرضت عليّ الجنة والنار ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرّ ، ولو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه ، غطّوا رؤوسَهم ولهم خنين (٢) .

وفي هذا الحديث دليل على عظيم خوفه من الله تعالى ، وكثرة بكائه من خشية الله تعالى .

---

(١) عزاه في الجامع الصغير إلى الحكيم الترمذي رامزاً لضعفه .

(٢) قال الحافظ المنذري بعد ما أورد تلك الأحاديث : الخنين بفتح الخاء المعجمة بعدها نون هو البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف . ا هـ .

ومما جاء في عظيم خوفه من الله تعالى : ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ في بيتي ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة [١] – له أو لها – حتى استبان الغضب في وجهه [٢] وخرجت أم سلمة إلى الحُجُرات فوجدت الوصيفة تلعب ببَهْمة [٣] ، فقالت أم سلمة : ألا أراكِ تلعبين بهذه البَهْمة ورسولُ الله ﷺ يدعوكِ ؟ فقالت : والذي بعثكَ بالحق ما سمعتكَ ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا خشيةُ القَوَد – أي القصاص يوم القيامة – لأوجعتُكِ بهذا السواك » [٤] .

خشوعه ﷺ لله تعالى وبكاؤه من خشية الله تعالى

كان رسول الله ﷺ دائمَ الخشوع والانكسار والتواضع لربه تعالى ؛ في سائر مواقفه الكريمة ومشاهده العظيمة ، في صلواته وسائر عباداته ، وسائر شؤوناته وقضاياه ، من الخطب والمواعظ والفتوحات ، وسائر أحواله ، ﷺ .

وقد بلغ من خشوعه ﷺ في صلاته أنه سُمع لجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل ، كما روى النسائي عن مطرِّف عن أبيه رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل [٥] .

وفي رواية ابن خزيمة : قال : ولصدره ﷺ أزيز الرحى .

وفي رواية أبي داود عن مطرِّف عن أبيه قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : ماكان فينا

---

(١) امرأة مملوكة .

(٢) لاشتغالها في اللعب ، ولم تجب دعوته صلى الله عليه وسلم .

(٣) ولد الضأن الصغير .

(٤) قال في الترغيب : رواه أحمد بأسانيد أحدها جيد – واللفظ له – ورواه الطبراني بنحوه .

(٥) المرجل هو القِدْر ، والأزيز هو الصوت . قال الحافظ المنذري : يعني أن لجوفه خنيناً كصوت غليان القدر إذا اشتد . اهـ .

فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي ، حتى أصبح ﷺ .

ولما دخل مكة يوم الفتح دخلها خاشعاً لربه تعالى ، وكان على مشهد عظيم من الملأ الحاضر .

روى أبو يعلى والحاكم بسند جيد قوي عن أنس رضي الله عنه قال : لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح استشرفه الناس ، فوضع رأسه على رَحْله متخشّعاً .
وفي رواية البيهقي عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذَقَنُه على راحلته متخشعاً .

وفي رواية الواقدي عن أبي هريرة رضي الله عنه : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح حتى وقف بذي طوى وتوسّط الناس ، وإن عُثْنونه — العثنون : اللحية — ليمَسُّ وسط رحله أو يقرب منها ، تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين ، ثم قال : « اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة » .

ومن ذلك : خشوعه ﷺ وبكاؤه في توجّهه إلى الله تعالى ، ملحّاً بالدعاء ، مستغرقاً في الرجاء .

روى الامام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : تلا رسول الله ﷺ : « ربِّ إنّهن أضللْنَ كثيراً من الناس ، فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم » وقوله تعالى « إنْ تعذبْهم فانهم عبادك ، وإن تغفرْ لهم فانك أنت العزيز الحكيم » فرفع ﷺ يديه وقال : « اللهم أُمتي أمّتي » وبكى .

فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهبْ إلى محمد — وربُّك أعلم — فاسْأله : ما يُبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره بما قال — وهو أعلم — فقال الله تعالى : ياجبريل اذهبْ إلى محمد فقل له : إنا سنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك .

جوامع من أوصافه الكريمة ﷺ
المشتملة على محاسن خَلقه، وكمال خُلقه، وآدابه الخاصة والعامة

إن مِن أجمع الأحاديث الواردة في بيان أوصاف النبي ﷺ الخَلْقية والخُلُقية، وما يتعلق بآدابه الخاصة والعامة، ومن أوضح تلك الأحاديث المعربة عن شمائله ﷺ حديثَ هند بن أبي هالة.

روى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال: سألت خالي هندَ ابن أبي هالة، وكان وصّافاً، عن حِلْية رسول الله ﷺ، وأنا اشتهي أن يصفَ لي منها شيئاً أتعلّق به [١] فقال:

كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخّماً [٢] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر، أطولَ من المربوع، وأقصرَ من المُشَذَّب [٣]، عظيمَ الهامة [٤]، رجِلَ الشَّعر [٥]،

---

(١) أي: أحفظه وأتمسك به، قال العلماء: وإنما قال الحسن ذلك، لأن النبي ﷺ توفي وهو صغير السن، فأراد أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الأوصاف المحمدية، ويجعلها محفوظة في خزانة قلبه، ولوح خياله.

(٢) أي: عظيماً في نفسه، معظّماً في الصدور والعيون عند كل من رآه ﷺ.

(٣) الرَّبْعة والمربوع: هو الوسط، بين القصير والطويل على حد سواء، والمشذَّب: هو الطويل البائن الطول، والمراد: أنه ﷺ أطول من المربوع عند إمعان النظر، وأما في بادىء النظر يُرى ربعة، كما تقدم في حديث علي كرم الله وجهه. كما وضح ذلك في جمع الوسائل وغيره.

(٤) الهامَة: بتخفيف الميم هي الرأس، وعِظَم الرأس المتناسب مع الجسم: دليل قوة العقل والمدارك.

(٥) أي: في شعره ﷺ شيء من الجعودة.

إذا انفرقتْ عقيقتُه فرَقَها ، وإلا فلا (١) ، يُجاوز شعره شحمةَ أُذُنَيه إذا هو وفّره (٢) ، أزهرَ اللون (٣) ، واسعَ الجبين (٤) ، أزَجَّ الحواجب (٥) ، سوابغَ في غير قرَن (٦) ، بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضب (٧) ، أقْنى العِرْنين (٨) ، له نورٌ يعلوه ، يحسَبه من لم يتأمله أشَمّ (٩) .

---

(١) المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف ﷺ إن قبِل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن اليمين ، ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا ، أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

(٢) أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق . ﷺ .

(٣) أي : هو ﷺ أبيض اللون بياضاً نيّراً مُشْرَباً بحمرة .

(٤) أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .

(٥) الزَّجَج : تقوُّس في الحاجب مع طولٍ من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .

(٦) القرَن — بالتحريك — هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البلَج ، والمعنى : أن حاجبيه ﷺ لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج . وأما ما ورد في حديث أم معبد المتقدم « كان أزجّ أقرن » فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمّل ، فيرى أنه ﷺ أبلج في الواقع .

(٧) أي : بين حاجبيه ﷺ عِرْق إذا غضب تحرك وظهر جليّاً .

(٨) قال العلامة المناوي في شرح الشمائل : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحْديدابُ الوسط . ا هـ .

(٩) أي : للعِرنين — وهو ما صلب من عظم الأنف — نورٌ يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ : من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .

كَثَّ اللحية (١) ، **سهلَ الخدَّين** (٢) ، **ضليعَ الفم** (٣) ، **مفلَّج الأسنان** (٤) ، **دقيقَ المَسْرُبة** (٥) ، **كأنَّ عنقَه جِيدُ دُميةٍ في صفاء الفضة** (٦) .

معتدلَ الخَلْق (٧) ، **بادنُ** ، **متماسك** (٨) ، **سواءُ البطنِ والصَّدْر** (٩) ، **عريضُ الصدر** ، **بعيدُ ما بين المنكبين** ، **ضخم الكراديس** (١٠) .

---

(١) أي : عظيم اللحية ﷺ .

(٢) وفي رواية البيهقي : أسهل الخدين ، أي غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .

(٣) أي : عظيم الفم ، وليس بضيِّق الفم ، فان سعة الفم تُعطي فصاحة في الكلام ، وبياناً لمخارج الألفاظ ، ولا شك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه الشريف كلّها ﷺ .

(٤) يعني : أن أسنانه الشريفة ﷺ منتظمة ومنفرجة ، وليست متراصّة ومتضايقة فوق بعضها .

(٥) المسرُبة : هي الشعر بين الصدر والسُّرة ، والمعنى : أن تلك المسربة هي دقيقة .

(٦) الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه ﷺ في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

(٧) يعني : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة ﷺ خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

(٨) والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الجسم ، ليس بالنحيل ولا الهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

(٩) والمعنى : أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهما عن الآخر .

(١٠) الكراديس جمع كُردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ، والمعنى : أنه ﷺ كان عظيمَ رؤوس العظام ومجامعها وقويَّها ، ويدل ذلك على كمال قواه ﷺ .

أنور المتجرّد [١] ، موصول ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعر يجري كالخطّ [٢] ، عاري الثَّديَيْن والبطن ممّا سوى ذلك[٣] ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصّدر [٤] .

طويل الزّندين ، رحب الراحة [٥] ، شَثْن الكفين والقدمين [٦] ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف [٧] .

خُمْصان الأخْمَصَيْنِ [٨] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [٩] ، إذا زالَ زالَ قِلَعاً [١٠] .

---

(١) يعني : أنه ﷺ أنور العضو المتجرِّد عن الثوب وشديد بياضه .

(٢) اللبَّة : هي النُّقرة فوق الصدر ، والسُّرَّة ما بقي بعد القطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السُّرُّ .

(٣) أي : خالي الثديين والبطن من الشعر .

(٤) أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

(٥) أي : واسع الكفِّ .

(٦) أي : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الكفين والقدمين وليس بالضعيف النحيل .

(٧) الشك من الراوي ، والمعنى : أنه ﷺ كان مرتفع الاطراف بلا احْديداب ولا انْقباض .

(٨) تثنية أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ؛ ومعنى خُمْصان الأخمصين : أنه ﷺ شديد تجافي الأخمصين عن الأرض ، لكن على وجهٍ لا يُخْرجه عن حدِّ الاعتدال والجمال .

(٩) أي : أملس القدمين ومستويهما بلا تكسُّر ، ولذلك ينبو عنهما الماء ، أي يتباعد عنهما الماء : يعني أنه ﷺ إذا صَبَّ عليهما الماء مرَّ سريعاً ، لأنهما مستويتان .

(١٠) يعني : أنه ﷺ إذا مشى رفع رجليه بقوة ، كأنه يقلع شيئاً ، ولا يجرُّهما على الأرض ، ولا يمشي مِشْية المختال الذي يقارب خُطاه تبختراً .

يخطو تكفّياً (١) ويمشي هَوْناً (٢) ، ذَرِيع المِشْيَة (٣) ، إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب (٤) ، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً (٥) .

خافضَ الطَّرْف (٦) ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء (٧) ، جُلُّ نظره الملاحظة (٨) .

---

(١) يمشي مائلاً إلى سَنَن المشي ، وهو ما بين يديه .

(٢) الهَون : الرفق واللين ، والمعنى : أنه ﷺ كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دلَّ عليه قول ابن أبي هالة : إذا زال زال قلِعاً . وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفقَ وتُؤدة ، وهذا معنى : يمشي هوناً ، فهو يشير إلى كيفية وضع رجليه على الأرض ، وأنه ﷺ يمشي بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله الأرض ، أو أن يخفق بنعله . وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه المشية ، ويسلكون هذه الخطّة ، فقال : « وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

(٣) أي : واسع الخطوة خلقةً بلا تكلُّف .

(٤) أي : كأنما ينزل في موضع منحدر .

(٥) أي : لا يُسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

(٦) المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه ﷺ إذا لم ينظر إلى شيء ، يخفض بصره ، وهذا شأن المتأمِّل المفكّر .

(٧) والمعنى : أن نظره ﷺ إلى الأرض حالَ السكوت وعدم التحدث ، أطولُ من نظره إلى السماء ، وأما في حال التحدُّث فانه يكثر النظر إلى السماء ، وكما ورد في سنن أبي داود أنه ﷺ كان إذا جلس يتحدَّث ، يُكثر أن يرفع طرفه الى السماء .

(٨) قال العلامة المناوي في شرحه : والمراد أن أكثر نظره ﷺ في غير أوانِ الخطابِ الملاحظةُ ا هـ . والملاحظة : هي النظر بلَحاظ العين ، وهو شِق العينَ مما يلي الصَدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالمُوق والماق .

يسوق أصحابَه (١) ، ويبدرُ من لقي بالسلام (٢) .

صفات آدابه ﷺ في منطقه وسكوته

قال الحسن رضي الله عنه : فقلتُ : صِفْ لي منطق (٣) رسول الله ﷺ ، فقال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان (٤) ، دائمَ الفِكرة ، ليست له

---

(١) والمعنى : أنه ﷺ يقدم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويختبر حالهم ، ويعين ضعفاءهم ، وليترك ظهره للملائكة خلفه ، كما روى الدرامي باسناد صحيح أنه ﷺ قال : « خلُّوا ظهري للملائكة » وأخرج الامام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كان أصحاب النبي ﷺ يمشون أمامه ويدَعون ظهره للملائكة . كذا في جمع الوسائل .

قال الامام النووي : وإنما تقدَّمهم — أي تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق — لأنه ﷺ دعاهم اليه ، فجاءوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفةً يمشي أمامهم .

(٢) وفي رواية : ويبدأ ، والمعنى : أنه ﷺ يبادر ويسبق من لقيه من أمته بتسليم التحيَّة .

(٣) أي : اذكرْ لي آدابه في منطقه ، وآدابه في سكوته ﷺ ، كما دلَّ عليه الجواب الآتي .

(٤) لم يكن حزنه ﷺ من أجل أمور الدنيا ؛ وإنما كان تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته ﷺ وتخفيف شدة الأسى عنه .

فمن ذلك : حزنه على الذين لم يؤمنوا بما جاء به من الهدى — وقد تبيَّن لهم الحق — معاندين ومعارضين ، فكان ذلك مما يشقّ عليه ويُحزنه ؛ حتى أنزل الله تعالى في ذلك قوله : « لعلك باخعٌ نفسَك أن لا يكونوا مؤمنين . إنْ نشأ ننزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقهم لها خاضعين » . وقوله تعالى : « ومن كفر فلا يَحزُنْك =

راحة [١] ، طويلَ السَّكْت ، لايتكلّم في غير حاجة [٢] ، يفتتحُ الكلامَ ويختمه باسم الله تعالى [٣] ، ويتكلم بجوامع الكلم [٤] ، كلامه فَصْلٌ لافضولَ ولا تقصير [٥] ، ليس

= كفرُه ، إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا .. » الآية . وقوله تعالى: « فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٌ ، إن الله عليم بما يصنعون » . وقوله تعالى : « ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضَيق مما يمكرون » .

ومن ذلك حزنه ﷺ بسبب خداع المنافقين وإظهارهم الاسلام ، وإبطانهم الكفر ، ومسارعتهم في الكفر ، كما قال الله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزُنْك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم .. » الآية .

ومن ذلك حزنه ﷺ لما يقول فيه أعداؤه من الأقوال الباطلة المتناقضة ، والأكاذيب المختلفة : من أنه ﷺ ساحرٌ أو شاعر أو مجنون ! وفي ذلك نزل قوله تعالى : « قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون » الآية ؛ وقوله تعالى : « فلا يحزُنْك قولُهم ، إنا نعلم ما يُسِرون وما يعلنون » . وقوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم ، إن العزّة لله جميعاً » الآية .

(١) والمعنى : أنه ﷺ كان دائم التفكر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثَمّ ليست له راحة .

(٢) يعني : أنه ﷺ كان طويلَ الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيتحرز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » .

وقد قال ﷺ : « من حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » رواه الترمذي .

(٣) والمعنى : أن كلامه ﷺ كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدْءاً وانتهاءً .

(٤) أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعانٍ كثيرة .

(٥) يعني : أن كلامه ﷺ فاصل بين الحق والباطل ، ومفصّل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيملَّ ، ولا يقصّر فيخلَّ .

بالجافي ولاالمهين [١] ، يُعَظِّمُ النعمةَ وإنْ دقَّتْ ، لا يذمُّ منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذمُّ ذواقاً ولا يمدحه [٢] ، ولا تُغْضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعدِّي الحقُّ [٣] ،لم يُقَمْ لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

إذا أشارَ أشارَ بكفِّه كلِّها ، وإذا تعجَّب قَلَبها [٤] ، وإذا تحدَّثَ اتَّصلَ بها وضربَ براحته اليمنى بطنَ إبهامه اليسرى [٥] .

---

(١) أي : ليس هو ﷺ بالجافي الغليظ الطبع : السيء الخُلُق ، ولا بالمُهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمَهين أي : المبتذَل الذليل ، بل هو الفخم المفخَّم الموقَّر المعظَّم ﷺ .

(٢) فهو ﷺ يعظِّم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه ﷺ لا يذم ذواقاً — أي مَذوقاً — من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفرانَ النعمة ، وهو شأن المترفين المتكبرين ، كما وأنه ﷺ لا يمدح ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوي الشَّرَه والنهمة المذمومة .

(٣) أي : فاذا تعدَّى أحد الحقَّ وجاوزه إلى الباطل ، غضب ﷺ غضباً لا يقاومه شيء ، ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق بالحق .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ كان إذا أشار إلى شيء : إنسان أو غيره ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الاشارة ببعض الاصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمحتقرين لغيرهم ، وإذا تعجب ﷺ من أمر ، قلب كفَّه ، كما هو شأن كل متعجب .

(٥) يعني أنه ﷺ إذا تحدَّث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادة إيضاحه باشارات الكف ، وضربَ براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

وإذا غضِبَ أَعرض وأَشاح ، وإذا فرح غضَّ طرفه [١] ، جُل ضحكِه التبسُّم ، يفترُّ عن مثل حَبِّ الغَمام [٢] .

قال الحسن رضي الله عنه : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثتُه فوجدتُه قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأله عن مدخله ﷺ ومخرجه ، ومجلسه وشكله ، فلم يَدَعْ منه شيئاً [٣] .

---

(١) أي إذا غضب من أحد أعرض عنه : فلا يقابله بما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى « وأعرض عن الجاهلين » . وأشاح : أي بالغ في الاعراض وعدل عنه بوجهه ﷺ : وإذا فرح ﷺ من شيء . غضّ طرفه ؛ ولا ينظر اليه نظر شره وحرص .

(٢) أي : معظم ضحكه ﷺ إنما هو التبسُّم ، ويفترُّ : أي يضحك ضحكا حسناً كاشفاً عن سنٍّ مثل حب الغمام في البياض والصفاء . وحبُّ الغمام هو البَرَد — بفتحتين — الذي يشبه اللؤلؤ . فكان ﷺ إذا تبسَّم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

(٣) قال العلامة البيجوري : فقد روى الحسن عن أخيه الحسين ما رواه الحسين عن أبيه علي : فصار الحسن راوياً ما تقدم عن خاله هند بلا واسطة ؛ وما سيأتي عن أبيه عليّ بواسطة أخيه الحسين . ا هـ .

آدابه ﷺ إذا دخل منزله

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت — علياً رضي الله عنه — عن دخول رسول الله ﷺ ؟ فقال : كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله [١] وجزءاً لأهله [٢] وجزءاً لنفسه ، ثمّ جزّأ جزأه بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك بالخاصّة على العامّة [٣] ولا يدّخر عنهم شيئاً [٤] .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثارُ أهل الفضل بإذنه وقسمُه على قَدْرِ فضلهم في الدّين :

---

(١) أي : لعبادة الله تعالى بأنواع العبادات ، من صلوات وتلاوات ودعوات ، وتذكُّر وتفكُّر ، وغير ذلك .

(٢) لمؤانستهم وحسن معاشرتهم ، والقيام بمهمّاتهم وحاجاتهم .

(٣) يعني أن جزأه ﷺ الذي هو لنفسه ، يجعله بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك الجزء الذي جعله للناس ، بالخاصة على العامة ، وخاصة الرجل : هم قرابته الذين يختصون به ، والمقرّبون من أصحابه وذويه . والعامة : من ليسوا بذلك .

وفي معنى ردّ ذلك الجزء بالخاصة على العامة أقوال :

الاول : أن الخاصة تدخل عليه في ذلك الوقت دون العامة ، فتستفيد منه ﷺ ثم تخبر العامة بما سمعت من العلوم والمعارف والفوائد .

الثاني : أن الباء بمعنى « من » أي : يردّ على العامة من جزء الخاصة .

الثالث : أن يجعل العامة مكان الخاصة ، فيرد ذلك على العامة بدلا من الخاصة .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ لا يُخفي ولا يمنع عن الناس : عامتهم وخاصتهم ، شيئاً مما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، بل يقدّم جميع ذلك لهم ، في جميع أحواله ﷺ .

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج [1] ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمةَ من مسألتهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ،

---

(١) يعني أن سيرته ﷺ في الجزء الذي جعله للأمة ، إيثارُ أهل الفضل ، وهم أهل العلم والصلاح والشرف ، فيقدِّمهم في الدخول عليه ﷺ ، والتوجهِ والاقبال ، والافادةِ وما هنالك .

كما وأن من سيرته ﷺ في الوقت الذي جزّأه للأمة أنه قسمه بين الامة على قدر فضلهم في الدين من جهة الصلاح والتقوى وعلى قدر درجاتهم في الدين ، فمِن أهل الفضل ومِن بقية الناس : مَن هو ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، أي : يكون مشغولاً باجابة طلباتهم وأسئلتهم ، وقضاء حاجاتهم .

كما وأنه ﷺ يُشغلهم : بضم أوله من الاشغال ، وبفتحه من : شغَله ، كما نبه عليه العلماء الشرّاح ، والمعنى : أنه ﷺ يشغلهم فيما يُصلحهم وينفعهم ، ويصلح الامة وينفعها ، إما : بأن يفتح لهم باب الاسئلة ، ليفيض عليهم الاجوبة ، أو يبتدئهم بالاخبار عما ينفعهم ، وبيان الذي ينبغي لهم أن يعلموه من الاحكام والمواعظ ، والنصيحة والوصية بما يُصلح شأنهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم .

فما كان ﷺ يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الامة ويصلح أمرها ، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل ، بل كان ﷺ يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها .

وذلك لأن الله تعالى قال له : « فإذا فرغتَ فانصبْ . وإلى ربك فارغب » . أي : فاذا فرغتَ من عمل فانصب لغيره ، وليكن القصد والرغباء في جميع ذلك اليه سبحانه . ومن هنا يُعلم أن دين الاسلام دين جِدّ وعمل ، لا هزل فيه ولا كسل .

فإنه من أبلغ سلطاناً حاجةَ مَن لا يستطيع إبلاغها : ثبَّت الله قدميه يوم القيامة » لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يَقبل من أحد غيرَه .

يدخلون روّاداً ، ولا يفترقون إلا عن ذَواق [1] ، ويخرجون أدلّة — يعني على الخير — .

* * *

(١) الرُّواد : بضم الراء وتشديدها ، جمع رائد ، وهو الطالب ، وهو في الأصل من يتقدّم أمام القوم ، لينظر لهم الكلأ ومساقط الغيث .

والمراد أن الناس يدخلون عليه ﷺ طالبين نفعهم في دينهم ودنياهم ، وصلاح نفوسهم ، وتعلمهم ما فيه سعادتهم ، فلا يخرجون من عنده ﷺ إلا وهم مكرَمون ظفِرون ، أكرمهم رسول الله ﷺ بمَذوق من الطعام ، ضيافة لهم ؛ وأفاض عليهم بما ينفعهم من العلوم والمعارف ، وبيان ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة ، فيخرجون من عنده ﷺ أدلّة وهداة للناس إلى ما فيه الخير والسعادة .

سيرته وآدابه ﷺ إذا خرج من منزله وبرز للناس

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي – علياً رضي الله عنه – عن مَخْرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال : كان رسول الله ﷺ يَخْزُنُ لسانَه إلاّ فيما يعنيه [١] ، ويؤلِّفهم ولا ينفِّرهم [٢] ، ويُكرِم كريم كلِّ قوم ويولِّيه عليهم [٣] ويحذرُ الناسَ ويحترِسُ

---

(١) فلا يتكلم ﷺ إلا فيما يعنيه ، أي : يهمه وينفع في الدنيا أو الدين ، وقد قال ﷺ : « من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » فمن حَسُنَ إسلامه اشتغل بما يعنيه ، وترك مالا يعنيه .

قال العلامة ابن رجب في شرح حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه »: ومعنى يعنيه : أنه تتعلَّق عنايته به ، ويكون من مقصده ومطلوبه ، والعنايةُ : شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه : إذا اهتم به وطلبه ، وليس المرادُ : أنه يترك مالاعناية له به ، بحكم الهوى وطلب النفس ، بل بحكم الشرع والاسلام »ا هـ .

وهذه غفلة كبيرة وقع فيها كثير من الناس وهو اشتغالهم بما لا يعنيهم ، وفي حديث الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : توفي رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل : أبشرْ بالجنة . فقال ﷺ : « أوَلا تدري ؟ فلعلَّه تكلَّم فيما لا يَعنيه ، أو بخل بما لا يُنْقِصُه » قال الترمذي : حسن غريب ، وقال المنذري رواته ثقات . ا هـ . وقد روي معنى هذا الحديث من وجوه متعددة كما في الترغيب .

(٢) فكان ﷺ يؤلِّف الناس بكريم معاشرته ، وحسن مقابلته ، ولا ينفرهم عنه بغلظة أو فظاظة ، أو كلمات مؤذية ، كما وأنه ﷺ يؤلف الناس على بعضهم ، ويحببهم في بعضهم ، ولا ينفرهم من بعضهم .

(٣) وهذا من كريم خلقه ﷺ ، وذلك أنه يكرم كريم القوم بما يناسبه من التكريم والحفاوة ، ويجعله والياً عليهم ، وأميراً مدبراً لأمورهم . وهذا من تمام حسن نظره ﷺ وحكمة تدبيره وتنظيمه وإعطائه المراتب حقها .

منهم من غير أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه وخُلُقه [١] ، ويتفقّدُ أصحابَه [٢] ، ويسأل الناس عمّا في الناس [٣] . ويحسِّنُ الحسن ويقوِّيه ، ويقبِّحُ القبيحَ ويوهيه [٤] .

---

(١) وهذا مما يدل على عظيم عقله وسعة فكره ، وذلك أنه ﷺ كان يحذّر الناس الذين هم حديثو عهدٍ بالاسلام ، ولم يَخبُرهم ولم يجرِّبهم في مهامِّ الأمور ، ويحترس منهم ، ولكنه لايطوي عنهم بِشْره وحسن مقابلته وطلاقة وجهه ﷺ .

(٢) يطلبهم ويسأل عنهم حال غيبتهم .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ كان يتفقّد أصحابه خاصّة ، كما وأنه يبحث عن أحوال الأمة عامّة ، فيسأل الناسَ الذين عندهم معرفة بأحوال الناس ، عمّا في الناس من الأحوال السارة أو المكروهة ، وعمّا في الناس من سعة وضيق ، وشدة ورخاء ، وفرح وترح ، فيفرح لفرحهم ، ويُسَرّ لما يَسُرُّهم ، ويَحزن لما يُحزنهم ، ويسعى في رفع المكاره والمساوىء عنهم .

كما وأنه يسأل عما في الناس من سيرهم في أمورهم ومعاملاتهم ، أهمْ على صلاح واستقامة ؟ أم هم على فساد واعوجاج ؟ وليس هذا من باب التجسس المنهي عنه ، ولكنه من باب التعرّف إلى الفاضل من المفضول ، والكامل من الناقص ، والاستطلاع على أمور الناس ، ليُصلح الاعوجاج ، ولتنبيه الغافل ، وتذكير الناسي ، ونصح الأمة ومعالجة أمراضها النفسية ، فيضعَ الدواء حيث الداء .

(٤) فاذا أتى إنسان بفعل حسن ، أو برأيٍ حسن : حسّنه ﷺ ومدحه وقوّاه ، وقوّى همة فاعله ونهض بعزيمته ، وإن صدر من إنسان فعل قبيح : ذكر ﷺ قُبح ذلك الفعل ومحاذيره ، وسوء عواقبه ، ليُباعد الناسَ من الوقوع فيه .

معتدلَ الأمرِ غيرَ مختلِف (١) ، لا يغفلُ مخافةَ أن يغفلوا أو يميلوا (٢) ، لكلّ حال عنده عتاد (٣) ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه (٤) ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة (٥) .

آدابه ﷺ في مجالسه

قال الحسين : فسألته — أي علياً رضي الله عنه — عن مجلسه ﷺ كيف كان ؟ فقال :

---

(١) يعني : أن جميع أفعاله ﷺ وأقواله على غاية من الاعتدال ، محفوظ من أن يَصْدُر عنه أمور متخالفة ، أو يعارض بعضها بعضاً ، وهذا دليل على كمال عقله وإحكام أمره ﷺ .

(٢) أي : لا يغفل ﷺ عمّا فيه مصالح أتباعه من تذكيرهم وإرشادهم ، ونصيحتهم وتعليمهم ، مخافة أن يغفلوا فيزلّوا ، أو يميلوا الى الراحة والكسل ، ويبطئوا عن العمل ، فهو ﷺ يشدّ عزمهم ويتعهدهم بالتذكير والنصح .

(٣) لكل حال من الأحوال عنده عدة أعدّها لتلك الحالة ، وهيّأ لكل أمرٍ من الأمور ما يحتاجه وما تتطلبه المصلحة .

(٤) فهو ﷺ على الحق المستقيم : لا افراط ولا تفريط ، ولا تقصير عن الحق ، ولا مجاوزة للحق ، وذلك في جميع أموره وقضاياه .

(٥) المقربون عنده ﷺ من الناس خيارُ الناس ، وأفضلهم عنده أعمّهم نصيحة ، وأكثرهم خيراً ونفعاً للأمة في دينها ودنياها ، وأعظمُهم عنده منزلة أحسنُهم مواساة للناس بالنفس والمال ، ومؤازرة — أي معاونة — لهم في مهمات أمورهم ، وتخفيف الأثقال عنهم ، وتنفيس كُرُباتهم ، وقضاء حوائجهم .

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى [١] ، ولا يوطّن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم : جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك [٢] .

يُعطي كلَّ جلسائه نصيبه ، لا يحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه

---

(١) وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه . أي : في قيامه وقعوده وعلى جنبه ، كما قال تعالى : « فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم .. » الآية .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قعد مقعَداً لم يذكر اللهَ فيه : كان عليه من الله ِترَة ٌ — أي تَبِعة وحق ٌ يطالبه الله تعالى به يوم القيامة — ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه : كانت عليه من الله ترة ، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه إلاّ كان عليه من الله ترة » . وفي هذا كله دليل ٌ على أنه ينبغي للمسلم أن يكون على ذكر الله تعالى في جميع أحواله .

(٢) والمعنى كما قال العلامة المناوي : أنه ﷺ كان يجلس في أي مكان يلقاه — في المجلس — خالياً ، ولا يترفَّع على أصحابه لمزيد تواضعه ، ومكارم أخلاقه . اهـ . على أن شرف المكان إنما هو بالمكين ، فالمكان الذي يجلس فيه ﷺ هو أشرف الأمكنة .

كما وأنه ﷺ كان يأمر الناس بالجلوس حيث ينتهي بهم المجلس ، إبعاداً للنفس عن الكبْر والترفُّع على بقية أهل المجلس ، قال في جمع الوسائل وغيره : وقد روى الطبراني والبيهقي عن شيبة بن عثمان مرفوعاً : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس: فان وُسِّع له فليجلس ، وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يراه ، فليجلِسْ فيه » .

منه(١) مَنْ جالسَه أو فاوضه في حاجة : صابَرَه حتى يكونَ هو المنصرفَ (٢) ، ومَن سأله حاجةً لم يردَّه إلا بها ، أو بميسورٍ من القول (٣) .

قد وسِعَ الناسَ منه بسطُهُ وخُلُقُه ، فصارلهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء (٤) . مجلسُه مجلسُ : علم (٥) ، وحياء ، وصبرٍ ،

---

(١) فكان ﷺ يُعطي كل واحد من جلسائه حظَّه اللائق به من البِشر وطلاقة الوجه ، والحفاوة والتكريم ، حتى إن جليسَه ليظنُّ أنه لا أحدَ أكرم على رسول الله ﷺ منه ، وذلك لما يجد من اللطف ولين الجانب .

(٢) والمعنى : أن مَن جالسَ النبي ﷺ أو فاوضه في حاجة : صبر عليه ﷺ ، بل صابره ، أي : غالَبَ جليسَه ومفاوِضَه في الصبر على المجالسة ، مهما طالت المكالمة ، ولا يعاجله ﷺ بالقيام عن المجلس أو بقطع كلامه ، ولا يُظهر له الملالَ والسآمة ، بل يستمر معه مقبلاً عليه ، حتى يكون الذي جالسه هو المنصرفَ عنه . وفي هذا دليلُ سعةِ خُلُقه وحسن معاشرته وشدّة تحمله ﷺ .

(٣) فمن سأله ﷺ حاجةً لم يرده إلا بتلك الحاجة ، أو بميسور من القول ، ولطيف من الكلام ، وذلك كوعده له بنيل تلك الحاجة ، ونحو ذلك .

(٤) قد عم الناسَ كلَّهم بِشْرُه وطلاقة وجهه ﷺ وحسن خلقه ، فصار لهم أباً ، من الشفقة عليهم ، والرحمة لهم والحرص على نفعهم ، بل هو أعظم من الأب شفقةً ورحمة ، وحناناً وعطفاً ، وفضلاً ولطفاً ، لأنه صاحب مقام : « النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . » الآية ، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(٥) يعني أن مجالسَه ﷺ ومجتمعاته عامرةٌ بنور العلم الذي يُفيضه عليهم رسول الله ﷺ ، ويبثُّه فيهم ، فكان ﷺ يعلِّمهم الكتاب — أي القرآن — ويبين لهم معانيه ، ويوضح لهم أحكامه ويبرز لهم حِكمه ، ويأتي لهم بأنواع من الحكمة المشتملة على الوعظ والآداب الفاضلة ، والأخلاق الكاملة ، ويأتيهم بأنواع من قصص الأمم السابقة ، لما في ذلك من العبرة . والبحث في مجالس رسول الله ﷺ سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

وأمانة (١) ، لا ترفع فيه الأصوات (٢) ، ولا تُؤْبَن فيه الحُرَم (٣) .

---

(١) وهكذا مجلسه ﷺ مظلَّل بالحياء والوقار ، فكان جلساؤه معه ﷺ على غايةٍ من الحياء والأدب والسكينة . كما وأن مجلسه ﷺ مجلس صبر على جفوة البادي ، وإلحاح السائل وإلحافه ، وإكثار السائل عما يهمه من الأمور ، كما تقدم في حديث ضِمام لما قال للنبي ﷺ : إني سائلُكَ فمشدِّد عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسك ، فقال له ﷺ : سَلْ عما بدا لك .. » الحديث .

وكان مجلسه ﷺ مجلسَ أمانة على أسرارٍ أسرَّها الجلساء إلى بعْضِهم ، أو كان مقتضى الحال كتمانها أو خفاءها إلى حينٍ آخر .

(٢) وذلك للوعيد الشديد الذي هدد الله تعالى به المؤمنين ، حيث قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ولما نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة من الوقوع في هذا النهي ، فالتزموا في مجلسه ﷺ خفض الصوت ، وكثرة الصمت ، وكانوا يتواصَوْن بذلك ، ويعلّمون الجاهل ، ويذكّرون الغافل .

ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما عن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله ﷺ ، فجعل يناديه بصوت له جهوري : يامحمد يامحمد . فقلنا : ويْحَكَ ! اخفض من صوتك ، فانك قد نُهيتَ عن هذا . قال : لا والله حتى أُسْمِعَه . فقال له النبي ﷺ : « هاؤم » فقال الرجل : أرأيت رجلاً يحبُّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ — أي يحبهم ولكن لا يستطيع أن يعمل مثلهم فهل تنفعه محبته — فقال له النبي ﷺ : « المرءُ مع مَنْ أحبَّ »

(٣) الأبْن : بفتح الهمزة هو : العيب ، والحُرَم : جمع حرمة ، وهي : مايحترم ولا يَحلُّ انتهاكه ، وما يحميه الرجل من الأهل ، وما يصونه ويحفظه ، والمعنى : أن مجلسه ﷺ لا تعاب فيه حرم الناس ، ولا تنتهك بقذف أو غيبة ونحوهما ، بل مجلسه ﷺ مَصونٌ عن كل قول قبيح ، وعن كل فعلٍ سيِّءٍ .

ولا تُنْثَى فَلَتَاتُه [١] . متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى [٢] ، متواضعين ، يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويُؤْثِرُون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب [٣] .

---

(١) الفلتات : جمع فلتة ، وهي : ما يبدُر من الرجل من سقطة أو هفوة ، أو زلّة ، ومعنى : لا تُنْثَى أي : لا تُشاع ولا تذاع ، من قولهم : نثا الحديث : إذا حدّث به وأشاعه ، والمعنى كما قال العلماء في شرح هذه الجملة : أنه لا فلتاتَ في مجلسه ﷺ أصلا ، فلا يصدُر من جلسائه ﷺ زلاّت في مجلسه حتى تذاعَ ، بل المجلس حصينٌ بالأدب والكمال ، وعلى هذا فالنفي منصبٌ على الفلتات ، أو المعنى : إنْ صدرت هفوةٌ من أحد الجلساء ، فلا تذاع ولا تنقل عن المجلس ، بل ينبّه اليها صاحبُها ، وتستّر عليه فلا تعاد أصلاً .

(٢) أي : متساوين بينهم ومتوافقين مع بعضهم ، فلا يتكبّر بعضهم على بعض ، ولا يفخر أحد من الجلساء على أحد بحسَب أو نسَب ، بل كانوا يتفاضلون في مجلسه ﷺ بالتقوى ، فأيُّهم أتقى فهو الأفضل عندهم ، وفي رواية : يتعاطفون، بدلاً من : يتفاضلون ، والمعنى كما قال العلامة الخفاجي : يعطِف بعضهم على بعض، ويُشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله ، لا رياءً ولا سُمعة ، ولا خوفاً واتقاءَ شر .

(٣) يؤثرون ذا الحاجة فيقدّمونه على أنفسهم في تقريبه من النبي ﷺ ، ليقضيَ له حاجته ، أو يجيبه عن مسألته ، كما أنهم يؤثرونه بقضائها له ، وإعانته عليها ، ولو كانوا في الحاجة مثله ، ويحفظون حق الغريب وكرامته .

سيرته ﷺ مع جلسائه وآدابه معهم

قال الحسين رضي الله عنه : وسألت أبي — علياً رضي الله عنه — عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه ؟ فقال :

كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشْر (١) ، سهْلَ الخُلُق (٢) ، ليِّنَ الجانب (٣) ، ليس بفظٍّ (٤) ، ولا غليظ (٥) ، ولا صَخّاب (٦) ، ولا فَحّاش (٧) ، ولا عيّاب (٨) ، ولا مُشاحٍّ — وفي نسخة صحيحة : ولا مدّاح ، ولا مزّاح (٩) — يتغافلُ عمّا لا يشتهي (١٠) .

---

(١) أي : طلاقة الوجه والبشاشة .

(٢) سجيّتُه ﷺ السهولةُ وعدم الشدة في أقواله وأفعاله ، فهو ﷺ ليس بالصَّعب .

(٣) كثير اللطف ، سريع العطف .

(٤) أي : ليس هو ﷺ بسيء الخُلُق .

(٥) ليس بالجافي الطبع ، الشديد القاسي .

(٦) أي : ولا يرفع صوته بالصياح .

(٧) لا يتكلم بكلام قبيح .

(٨) أي : لا يعيب إنساناً ولا حيواناً ولا طعاماً ، كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ ما عاب ذواقاً قطُّ ، ولا عاب طعاماً قط ، إن اشتهى أكلَه ، وإلاّ تركه .

(٩) ليس بمشاح ، والمشاحة : هي المضايقة في الأشياء ، وعدم التساهل فيها ، شحّاً بها وبخلاً ، ولا مدّاح : أي : ليس مبالغاً في مدح شيء من مباحات الدنيا ، لأن ذلك يدل على شَرَه النفس ، وشدة تعلقها به ، ولا كثير المزاح .

(١٠) يُظهر الغفلة والاعراض عما لا يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء ، تلطُّفاً ورفقاً بالجلساء .

ولا يُؤيسُ منه راجيه (١) ، ولا يخيب فيه (٢) ، قد ترَك نفسَه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه (٣) .

وتركَ النـاسَ من ثلاث : كان لا يَذُمُّ أحداً ولا يَعيبه ، ولا يطلب عورته (٤) ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه (٥) .

---

(١) أي : مَن رجاه في أمرٍ لم يقطع رجاءه ، ولم يجعله آيساً .

(٢) إما ثلاثي مشتق من الخيبة ، وهو الحرمان ، بمعنى : أن راجيَه لا يَخيب فيما رجاه ، وإما بتشديد الياء المكسورة ، بمعنى : أنه ﷺ لا يجعل مَن رجاه محروماً فلا يخيبه .

وفي نسخة : ولا يجيب فيه : بالجيم ، من الاجابة ، والضمير في «فيه» راجع إلى مالا يشتهي ، والمعنى : أنه ﷺ لا يجيب أحداً فيما لا يتشتهي ، بل يسكت عنه عفواً وتكرماً . كما فصّل ذلك في جمع الوسائل .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ قد باعد نفسه ، فبعدت عن ثلاث : المراء والجدال كله ، إلا ما كان فيه نصرة لدين الله تعالى ، وإقامة حجة على المعاندين أو المعارضين ، فإن ذلك من الجهاد الكبير . قال تعالى : « وجادِلْهم بالتي هي أحسن .. » الآية . وقال تعالى : «فلا تُطعِ الكافرين وجاهِدْهم به — أي بالقرآن الكريم — جهاداً كبيراً» .

وترك الاكثار من الكلام ، وفي نسخة مصححة : الاكْبار . بكسر فسكون فموحدة ، أي : ترك استعظام نفسه في الجلوس والمشي ، وأمثال ذلك في معاشرته مع الناس ، كما في جمع الوسائل .

(٤) العورة هو : ما يُستحيا منه أن يظهر ، والمعنى : أنه ﷺ كان لا يطلبُ الاطلاعَ على عورة أحد ، أي زلاّته وهناته ، ولايظهر ما يريد الانسان ستره ، ولا يتتبع عورات الناس وذنوبهم .

(٥) فهو ﷺ طويلُ الصمت ، لا يتكلم إلا فيما يتوقع ثوابه عند الله تعالى ، لكونه مطلوباً شرعاً ، أما الكلام الذي لا ثواب فيه فهو ﷺ بمعزل عنه .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير [١] ، فإذا سكت تكلموا [٢] لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرُغ [٣] ، حديثُهم عنده حديثُ أوّلهم [٤] ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه [٥] .

ويصبر للغريب على الجَفْوة في منطقه ومسألته ، حتى إنْ كان أصحابُه ليستجلبونهم [٦] ، ويقول : « إذا رأيتم طالبَ حاجة فأرْفِدوه » [٧] .

---

(١) أي : مالوا رؤوسهم وأقبلوا بأبصارهم إلى صدورهم ، وسكتوا وسكنوا ، إجلالاً له ﷺ وأدباً معه ، فكانت صفتهم في ذلك صفة من على رأسه طائر يريد أن يَصيده ، فهو يخاف أن يتحرك فيذهب الطائر .

(٢) وهذا من كمال الأدب معه ﷺ ، وذلك أنهم لا يبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون مع كلامه ﷺ .

(٣) وفي هذا أيضاً دليل على كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم ، واهتمامهم بآداب المجلس ، وذلك أنهم لا يختصمون عنده ﷺ في الحديث ، ولا ينازع أحدهم الآخر في تناول الحديث ، فلا يتكلم اثنان معاً ، ولا يقطع بعضهم على بعضٍ كلامَه ، بل من تكلم منهم أنصتوا له حتى يفرغ من كلامه .

(٤) يعني : أن الذي يتقدم في الكلام أولاً من أهل المجلس ، هو أوّلهم مجيئاً، ثم وثم على الترتيب . وقال بعضهم : معناه أن حديثهم كلّهم أولهم وآخرهم عند النبي ﷺ ، هو كحديث أولهم في عدم الملال منه ، وفي الاصغاء التام اليه ، وقيل : معناه : حديثهم عنده ﷺ حديث أولهم ، أي : أفضلهم ديناً ، وأعظمهم تقوى .

(٥) ويفعل ذلك ﷺ تأنيساً لهم ، وجبراً لقلوبهم ، وحسنَ معاشرةٍ لهم .

(٦) أي : إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ، ويرغبون في حضورهم مجلسَ النبي ﷺ ، ليستفيدوا بسبب أسئلتهم .

(٧) أي : فأعينوا صاحب الحاجة على حاجته حتى يصل اليها .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء (١) **، ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتى يجوز فيقطعه بنهيٍ أو قيام** (٢) **.**

سيرته ﷺ في سكوته

وفي رواية الطبراني وغيره : قال الحسين رضي الله عنه : **فسألت أبي علياً رضي الله عنه : كيف كان سكوته ﷺ ؟ فقال : كان سكوته على أربع : الحِلْم ،**

---

(١) قيل : المراد لا يقبل المدح إلا من مكافىء ، أي : مقارب في مدحه ، غير مفْرط ولا مفرِّط ، أي : لا مجاوز ولا مقصِّر ، والمجاوزة للحدِّ هي ماورد في قوله ﷺ : « لا تُطْروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم : جعلوه ابن الله، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » .

وقيل : المعنى : لا يقبل الثناء عليه ﷺ إلاّ من رجل يعرفُ حقيقة إسلامه من المخلصين الذين طابق لسانُهم جنانَهم ، ليس من المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيمدحون بالظاهر ، ويقدحون بالباطن .

وقيل : المعنى : أنه ﷺ لا يقبل المدح من أحد إلا من مكافىء على إنعامٍ ناله المادحُ من رسول الله ﷺ ، فيكون مدحُه من باب المكافأة وإلا لم يقبله منه ، بل يُعرض رسول الله ﷺ عنه ، لأن الله تعالى ذمَّ من يُحبُّ أن يُحمد بما لم يفعل، في قوله تعالى : « لاتحسبنَّ الذين يفرحون بما أتَوْا ، ويُحبُّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا .. » الآية .

وقد أورد هذه الوجوه من المعاني العلامة الشيخ علي القاري والعلامة المناوي في شرحهما على الشمائل ، وكذلك العلامة الخفاجي وغيره في شرح الشفا .

(٢) من تواضعه ﷺ وإكرامه جليسه : أنه لا يقطع على أحد كلامَه ، بل يستمع له حتى يفرغ من كلامه ، إلا أن يتجاوز حدَّ الحق الذي شرعه الله تعالى ، فيقطع عليه كلامه بنهيه عن استمراره في الكلام ، أو بقيام من المجلس .

والحذَر ، والتقدير ، والتفكر . وفي رواية : الحكم ، والحذر ، والتدبُّر ، والتفكر.

فأما تقديره ﷺ : ففي تسوية النظر ، والاستماع بين الناس . وأما تذكُّره — أو قال تفكره — : ففيما يبقى ويفنى .

وجُمع له ﷺ الحلم والصبر [1] ، فكان لا يُغْضِبهُ شيء ولا يستفزّه .

وجُمع له الحذَر في أربع : أَخْذُه بالحسن ، والقيام لهم فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة . ﷺ .

وفي رواية للطبراني — كما في مجمع الزوائد — : وجُمع له الحذر ﷺ في أربع : أخذُه بالحسن ليُقتدى به ، وتركُه القبيح ليُتناهى عنه ، واجتهاده الرأيَ فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة [2] .

وإن كل عاقل إذا تدبَّر هذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاقَ الفاضلة ، والخصالَ الحميدة ، والمزايا الرشيدة ، التي تأصَّلتْ في سيدِنا محمد ﷺ ، واجتمعتْ كلها فيه على أكمل وجوهِها ، وأعلى مستوياتها — إذا تدبَّرَ ذلك : علم يقيناً أنَّ سيدَنا محمداً الذي اتَّصفَ بتلك الصفات ، ليس هو إنساناً كغيره من بني الإنسان ، وإنما هو إنسان مخصَّص من رب العالمين ، بخصائص أكرمَه الله بها ، ومميَّز على غيره

---

(١) وفي نسخة : جُمع له الحلم في الصبر . قال الخفاجي : أي مع الصبر على أمور الناس والأمة ، ، فكان ﷺ مع حلمه صابراً لا يضجر ولا يقلق . اهـ .

(٢) يعني أنه ﷺ كان يبذُل جهده فيما يُصلح الأمة ، ويجمع لهم خير الدنيا والآخرة وسعادتَهما . وهذا الحديث — كما قال العلامة الزَّبيدي في شرح الاحياء — : أخرجه الترمذي في الشمائل ، والبغوي ، والطبراني ، والبيهقي في الدلائل من طرق . قال : وأخرجه ابن منده . اهـ .

وقد أورده الحافظ الذهبي في تاريخ الاسلام بروايات ، والحافظ ابن كثير في البداية أيضاً معزواً للطبراني وغيره .

بمزايا منحه الله إياها ، وأنّ قضيّته إنما هو نبي الله ورسوله ، ليس ذلك من باب أدب الأدباء ، ولا من باب حكمة الحكماء ، ولا نجابة النجباء ، ولكن من باب أنه : رسول الله وخاتم الأنبياء ، صلوات الله عليه وعليهم وسلامه .

من آدابه العامة ﷺ

ووقاره العظيم ﷺ

كان رسول الله ﷺ أشدّ الناس وقاراً ، وأعظمهم أدباً ، وأرفعهم فخامةً وكرامةً .

روى أبو داود في مراسيله عن خارجه بن زيد الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أوقرَ الناس في مجلسه ، لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه .

قال كثير من العلماء : يعني أنه ﷺ لا يُظهر شيئاً من أطراف جسمه الشريف ، وقاراً منه .

وقال العلامة القاري في معنى : لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه : أي من بُزاقِ فمه ، أو مخاط أنفه ، أو قطع ظفره . اهـ .

وروى ابن ماجه عن إسماعيل قال : دخلنا على الحسن — أي البصري — نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال : دخلنا على أبي هريرة نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال — أبو هريرة — : دخلنا على رسول الله ﷺ حتى ملأنا البيت وهو ﷺ مضطجع لجنبه ، فلما رآنا قبض رجليه ثم قال : «إنه سيأتيكم أقوام من بعدي يطلبون العلم ، فرحّبوا بهم وحيّوهم وعلّموهم » [١] .

---

(١) انظر مقدمة سنن ابن ماجه في فضل العلم وقال في الزوائد : إسناده ضعيف .

تقديمه ﷺ كبير القوم في الكلام

كان رسول الله ﷺ يقدّم كبير القوم في الكلام والسؤال ، وذلك من باب التكريم وحفظ المراتب وتنزيله الناسَ منازلهم .

روى البخاري عن سهل بن أبي حَثْمة أن نفراً انطلقوا إلى النبي ﷺ — وفي رواية : جاء عبد الرحمن بن سهل وحُوَيِّصة ومحيِّصة ابنا مسعود الى النبي ﷺ — فقالوا : يارسول الله انطلقنا إلى خيبر ، فوجدنا أحدنا قتيلاً — وفي رواية : فبدأ عبد الرحمن يتكلم ، وكان أصغرَ القوم ، فقال ﷺ : « كبِّر الكبرَ » وفي رواية : « يبدأ الأكبر » وفي رواية : « الكبرَ الكبرَ » [١] وفي رواية : « كبِّرْ كبِّرْ » [٢] يريد السنَّ ... الحديث في باب القَسامة . والمعنى قدِّم الكلام من هو أكبر منك سنّاً ليعرض القضية .

وفي مسند أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « ليس منا من لم يوقِّر الكبير ، ويرحمِ الصغير ، ويأمرْ بالمعروف وينهَ عن المنكر » .

تكريمه ﷺ أهل الفضل

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم [٣] » وفي رواية البزار : « الخير مع أكابركم » .

والمعنى : أن البركة مع أكابركم في الدين والعلم ، كما دل عليه حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من أمتي من لم يُجِلَّ

(١) بالنصب على الإغراء ، كما في الفتح ، أي قدموا الأكبر .

(٢) بتكرار الأمر .

(٣) عزاه في الجامع الصغير إلى ابن حبان قال : وصححه ابن حبان ، والحلية والبيهقي والحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم كما في الترغيب من كتاب الأدب ورواه البزار والطبراني وفي إسناد البزار حماد ، وثقه جماعة ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . ا هـ .

كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقَّه » (١) .

فمن ذالك : إكرامُه ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه ومباهاتُه به ، وإعلانه ﷺ ذالك أمام الصحابة ، ليقتدوا به في تكريم عمه العباس رضي الله عنه .

روى الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن أمه أم الفضل ، أن العباس أتى النبي ﷺ ، فلما رآه قام إليه وقبَّل ما بين عينيه ، ثم أقعده عن يمينه ﷺ ، ثم قال : « هذا عمي ، فمن شاء فليُباهِ بعمه » فقال العباس : نِعم القولُ يارسول الله . . الحديث .

وروى الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استسقى عمر عام الرَّمادة — أي عام القحط — بالعباس فقال : اللهم هذا عمُّ نبيك ، نتوجَّه إليك به ، فاسْقِنا ! فما بَرِحوا حتى سُقوا . فخطب عمر فقال : ياأيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده : يعظِّمه ، ويفخِّمه ، ويبرُّ قَسَمه ، فاقتدوا برسول الله ﷺ في عمه العباس واتَّخذوه وسيلةً إلى الله فيما نزل بكم .

وبعض هذا الحديث في صحيح البخاري .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعظمون العباس ويكرمونه ، اتّباعاً النبي ﷺ ، فقد روى الحافظ ابن عبد البر عن ابن شهاب أنه قال : كان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، فيقدِّمونه ويشاورونه ، ويأخذون برأيه .

وروى أيضاً عن أبي الزِّناد أنه قال : لم يمرَّ العباس بعمر وعثمان وهما راكبان ، إلا نزلا عن دابَّتهما ، حتى يجوزَ العباس ، إجلالاً له ويقولان : عم رسول الله ﷺ ! .

ومن لطائف أدب العباس مع النبي ﷺ : ما رواه ابن أبي عاصم عن أبي رَزين ، والبغوي في معجمه ، عن ابن عمر ، أنه قيل للعباس : أنت أكبرُ أو النبي ﷺ ؟ فقال : هو أكبرُ مني ، وأنا وُلدتُ قبله . انظر الاصابة وشرح الزرقاني على المواهب .

وفي الاصابة نقلاً عن الشعبي أنه قال : ذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه ليركب ،

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن .

فأمسك ابن عباس رضي الله عنهما بالركاب ، فقال : تنحَّ يا ابنَ عمِّ رسول الله . قال : لا ، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء [1] .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح في نفرٍ من أصحابه ، إذ أُتي بقدَح فيه شراب ، فناوله رسول الله ﷺ أبا عبيدة ، فقال أبو عبيدة : أنت أولى به يانبي الله . قال : « خُذْ » فأخذ أبو عبيدة القدح ، وقال قبل ان يشرب : خذ يانبيَّ الله ، فقال ﷺ : « اشرب فانَّ البركة مع أكابرنا ، فمن لم يرحم صغيرنا ، ويجلَّ كبيرنا : فليس منَّا » [2] .

فأراد ﷺ أن يكرم أبا عبيدة فناوله القدح ، وأثنى عليه بقوله : «البركة مع أكابرنا » .

وروى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المُقْسِطِ » .

تحسينه الحسن وتنشيطه ﷺ على اتقان العمل وحسنه

كان رسول الله ﷺ يُحسِّن الأمر الحسن ويمدح على ذلك ، تكريماً لمن أحسن فيه ، وتنشيطاً لهمته ، ويُقبِّح الأمر القبيح ويردُّه .

روى الامام أحمد عن يحيى بن الجزار قال : دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فقالوا : يا أم المؤمنين حدِّثينا عن سرِّ رسول الله ﷺ . قالت : كان سرُّه وعلانيته سواءً ، ثم ندمتْ قالتْ : أفشيتُ سرَّ رسول الله ﷺ ! قالت : فلما دخل رسول الله ﷺ أخبرتُه ، فقال : « أحسنتِ » .

---

(١) قال في مجمع الزوائد ٩ : ٣٤٥ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني وهوثقة .اهـ.

(٢) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف . ا هـ من كتاب الأدب .

قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني وقال : يحيى عن ام سلمة ، ورجالهما رجال الصحيح ا هـ .

وروى ابن حبان في صحيحه عن طَلْق بن علي الحنفي — نسبة لبني حنيفة — قال : بنيتُ المسجدَ مع رسول الله ﷺ فأخذتُ المِسْحاة بمِخْلَطة الطين ، فكأنه أعجبه فقال : « دعوا الحنفيَّ والطينَ ، فانه أضبطُكم للطين » .

وفي طبقات ابن سعد عن طلق قال : قدمتُ على النبي ﷺ وهو يبني مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاجٍ وخلطِ طينٍ ، فأخذتُ المِسْحاة أخلط الطين ، ورسول الله ﷺ ينظر إلي ، ويقول : « إنّ هذا الحنفيّ لصاحبُ طين » [1] .

وكان ﷺ يحثُّ على إتقان العمل وإحسانه .

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتْقِنه » [2] .

وروى البيهقي عن كُليب بن شهاب أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يُحبّ من العامل إذا عمل أن يُحسن » [3] .

مشاورته ﷺ لأصحابه

قال الله تعالى : « وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمتَ فتوكلْ على الله ، إن الله يحب المتوكلين » .

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة في الأمر الذي يحتاج بعدُ إلى المشاورة ، فاذا عزم قلبه على الفعل وعلى امضائه بعد المشاورة — كما تدل عليه الفاء الدالة على الترتيب والتفريع — فليمضِ وليتوكل على الله تعالى .

(١) كذا في التراتيب .
(٢) ذكره في الجامع الصغير معزواً للبيهقي ، وقال العلامة المناوي : ورواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما .
(٣) كذا في الجامع الصغير رامزاً لضعفه .

وإنما أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه أهلَ الرأي والتدبير في الأمور التي تتطلّب ذلك ، مع أن عقلهم بالنسبة إلى عقله الشريف ﷺ كالسُّها بالنسبة إلى شمس الضحى ، ورأيه فوق الآراء كلها — لحِكم :

أولاً — تطييب نفوسهم ، حتى إذا دخلوا في ذلك الأمر ومضوا فيه — كالحرب وأمثالها — يكون ذلك عن طيب نفوسهم واختيارهم ، وذلك كما قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه ، وهو يأتيه وحي السماء ، لانه أطيب لأنفس القوم .

ثانياً — الاستظهار برأيهم ، بمعنى ان رأيهم الموافق لرأيه ﷺ يزداد به ﷺ قوة ، كما روى الامام أحمد عن عبد الرحمن بن غَنْم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » .

ثالثاً — أن يكون ذلك سنةً بعده ﷺ لأمته ، فقد أخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية : قد علم الله تعالى ما برسول الله ﷺ حاجة إليهم ، ولكن أراد أن يستنَّ به مَن بعده .

وروى ابن عدي والبيهقي في الشُّعَب بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت « وشاورهم في الأمر » قال رسول الله ﷺ : « أما إن الله ورسوله لغنيّان عنها ، ولكنْ جعلها الله تعالى رحمةً لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيّاً » [1] .

رابعاً — أن في المشاورة تقديراً للمستشار واعتباراً لمنزلته واعطاءه حرية الرأي والنظر ، وبها يشعر المستشار أن له اعتباراً وشأناً ، وأن عليه مسئولية ينبغي أن يؤديها حقها ، ناصحاً صادقاً ، بخلاف الاستبداد في الرأي في مواضع الاستشارة ، فانه يجعل الموجودين من عقلاء الرجال كالمفقودين ، ويجعل المختارين كالمكرَهين .

ولذلك كان ﷺ يُكثر أن يشاور أصحابه ، فقد روى الشافعي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من النبي ﷺ .

---

(١) انظر جميع ذلك في تفسير الآلوسي .

خامساً — أن في المشاورة استعراضَ الأراء ، وشحذَ العقول والافكار ، وبها يعرف مقادير الرجال ، وخبرتهم في الامور ، ومدى تجاربهم فيها .

حثه ﷺ على الاستشارة

كان ﷺ يحث على الاستشارة ويرّغب فيها .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « المستشير مُعان ، والمستشار مؤتمن ، فاذا استُشير أحدُكم فلْيُشِرْ بما هو صانع لنفسه » (١) .

والمشورة — كما قال العلماء — أن تستخلص حلاوة الرأي وخالصه من خبايا الصدور : كما يشور العسلَ جانيه .

وفي بعض الآثار : « نقّحوا عقولكم بالمذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمشاورة » .

وقد بيّن العلماء ان المستشار يجب أن يكون : أميناً محترماً ، ناصحاً ثابت الجأش ، غيرَ معجَب بنفسه ، ولا متلوّن في رأيه ، ولا كاذب في مقاله . وزاد بعضهم : ولا محباً — أي : متغالياً في محبة الامر المستشار فيه — لغلبة هوى محبوبه عليه ، ولا متجرّداً عن الدنيا ، فانه لا يُستشار في أمر الدنيا ، لعدم معرفته ، ولا منهمكاً في حبها ، لاستيلائها عليه ، وذلك مما يُفسد رأيه ، ولا بخيلاً (٢) .

وعن أبي مسعود أن النبي ﷺ قال : « المستشار مؤتَمَن ، وهو بالخيار (٣) ، إن شاء تكلم ، وإن شاء سكت ، فان تكلم فليجتهد رأيه » (٤) .

---

(١) رواه العسكري وأصله في السنن .

(٢) انظر جميع ذلك في شرح المواهب من الجزء الرابع . قال : ويستحب تقديم الاستشارة على الاستخارة . كما في المدخل اهـ .

(٣) ما لم يتعين عليه ، بأن كان يلحق المستشير ضرر إذا لم يشر عليه .

(٤) رواه الإمام أحمد ، وأصله في السنن الأربعة .

وروى الطبراني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » (١) .

تصويبه ﷺ الرأي الحسن وعمله بمقتضاه

كان رسول الله ﷺ يُصوِّب رأي من تقدَّم برأي حسن صائب ، ويعلن ذلك تكريماً لصاحب الرأي الحسن ، وتنشيطاً لهمته ، وتقديراً لموقعه في مواضع الخبرة . وفي ذلك دليل على أنه ﷺ كان أوعى لحكمة الآراء ومراميها ، ومدى أثرها وعواقب أمرها ، فلذا كان يصوِّب حسنها ، ويردّ سيئها .

ففي طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ استشار يوم قريظة والنضير ، فقام الحُباب بن المنذر فقال : أرى أن ننزل بين القصور ، فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء ، وخبر هؤلاء عن هؤلاء . فأخذ النبي ﷺ بقوله (٢) .

وروى الطبراني عن نُبيشة الخير أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده أسارى ، فقال : يارسول الله إما أن تمنَّ عليهم ، وإما أن تُفاديهم . فقال ﷺ : « أمرتَ بخير ، أنت نبيشة الخير » (٣) .

وروى الطبراني وسعيد بن منصور عن طلحة مرفوعاً : « ياعمْرو إنك لذو رأي رشيد في الاسلام » .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف جداً ، لكن له شواهد كثيرة ، كما في مجمع الزوائد ، والجامع الصغير ، وشرح المواهب .

(٢) انظر الطبقات المجلد الثالث ص ٥٦٧ .

(٣) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وإسناده حسن . اهـ .

حبه ﷺ حسن الأسماء وكراهة قبيحها

كان ﷺ يحبُّ المسلم صالح الأسماء وحَسَنها ، ويكره له سيِّء الأسماء وقبيحها : وفي ذلك تكريم المسلم أن يُعرف باسم قبيح ، أو يُنادَى باسم قبيح أو يُوضَع عليه عَلَم قبيح : اسماً أو لقباً أو كنية .

روى الطبراني وأبو يعلى عن حنظلة بن حِزْيَم رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يعجبه أن يُدعَى الرجل بأحب أسمائه إليه ، وأحب كُناه (١) .

وذلك لما فيه من التكريم والتحابُب والتواصل ، وإدخال السرور عليه .

وقد أمر النبي ﷺ بتحسين الأسماء ، فروى أبو داود وابن حبان في صحيحه ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسِّنوا أسماءكم » (٢) .

قال العلامة المناوي : ولا يعارض هذا الحديثَ خبرُ الطبراني : أنهم يُدعَون بأسماء أمهاتهم ، ستراً منه سبحانه على عباده ، لإمكان الجمع بأن مَن صح نسبه يُدعَى بالأب ، وغيره يُدعى بالأم . كذا جمع البعض . وأقول : هو غير جيد : إذ دعاءُ الأول — أي الذي صح نسبه — بالأب ، والثاني — أي الذي لم يصح نسبه — بالأم ، يُعرَف به ولد الزنا من غيره ، فيفوت المقصود ، وهو الستر ، ويحصل الافتضاح . فالأولى أن يقال : خبر دعائهم بالأمهات ضعيف ، فلا يُعارَض به الصحيح . ا هـ .

وعن أبي وهب الجُشَمي — وكانت له صحبة — رضي الله عنه قال : قال

---

(١) انظر الجامع الصغير رامزاً لحسنه ، وقال : رواه الطبراني وأبو يعلى وابن قانع في معجم الصحابة ، والباوَرْدي . وقال المناوي : قال الهيثمي : ورجال الطبراني ثقات ا هـ .

(٢) ورواه الإمام أحمد أيضاً ، وقال النووي في الأذكار : إسناده جيد ، قال المناوي : وتبعه الزين العراقي.

رسول الله ﷺ : « تَسَمَّوْا بأسماء الانبياء ، وأحبُّ الاسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقُها : حارث وهمَّام ، وأقبحها : حربٌ ومُرَّة » .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو داود — واللفظ له — والنسائي . وإنما كان حارث وهمام أصدقَ الاسماء ، لأن الحارث هو الكاسبُ : والهمام هو الذي يهم مرة بعد أخرى ، وكل إنسان لا ينفك عن هذين . ا هـ .

يعني : أن هذين الاسمين مطابقان لمعناهما ، إذ كل إنسان يهمُّ أولاً — والهمُّ مبدأ الارادة — ثم يتحرك للعمل ، وهو الكسب المعبَّر عنه بالحارث ؛ فهو حارث همام .

والاسم الكريم يُشعر بكرامة المسمَّى ، ولذلك كان ﷺ يغيِّر الاسم القبيح إلى اسم حسن .

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُغيِّر الاسم القبيح .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن ابنةً لعمر كان يقال لها عاصية ، فسماها رسول الله ﷺ جميلة . رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه مسلم باختصار .

حبه ﷺ الفأل الصالح وكراهة التطير

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لا عدوى ولاطِيَرة ، ويُعجبني الفأل الصالح : الكلمة الحسنة » .

قال في النهاية : الطِّيرَة : بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تُسكَّن : هي التشاؤم بالشيء ؛ وهو مصدر تطيَّر ، يقال : تطير طيرة ؛ وتخيَّر خيرة . قال : وأصله فيما يقال : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما [1] ، وكان

(١) قال الأزهري : إن العرب كانت تزجر الطير ، فتتشاءم بالبارح ، وتتيمن بالسانح . قال أبو عبيدة : سأل يونس رؤبة — وأنا شاهد — عن السانح والبارح ؟ فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مياسره . وقيل : البارح ما يأتي من جهة الشمال ، والسانح ما يأتي من جهة اليمين . ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً ، والتشاؤم تطيراً ، وقد يطلقون الطائر على الحظ والنصيب : خيراً أو شراً . كذا في تفسير الآلوسي : سورة الأعراف .

ذلك يقيِّدهم — أي يمنعهم في عهد الجاهلية — عن مقاصدهم ، فنفاه الشرع وأبطله ، ونهى عنه ، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضُرٍّ .

وقال أيضاً : الفأل — مهموز — فيما يسرّ ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسرّ .

وقال أيضاً : وقد جاءت الطيرة بمعنى الجنس ، والفأل بمعنى النوع .

وأشار بذلك إلى ماروواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طيرة ، وخيرها الفأل » قالوا : وما الفأل يا رسول الله ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » . ولذا قال في المرقاة يشرح قوله ﷺ : « وخيرها الفأل » : أي خير أنواع الطيرة بالمعنى اللغوي الأعم من المأخذ الأصلي ا هـ .

والخلاصة : أنه ﷺ كان يعجبه الفأل الصالح ، أي : الكلمة الحسنة المبشرة بخير ، كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يُعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع : ياراشد يانجيح .

فالتفاؤل والاستبشار بالخير محمود شرعاً ، كأنْ يسمع طالبُ ضالة : ياواجد ، وأن يسمع التاجر : يارازق ، والمسافر : يا سالم ، وقاصد الحاجة : يا نجيح ، والغازي : يامنصور ، والحاجُّ : يامبرور ، والزائر يا مقبول ، وأمثال ذلك ، كما في المرقاة وغيرها .

وأما التطيُّر بمعنى التشاؤم : فهو منهي عنه شرعاً . وروى الامام أحمد في مسنده بسند حسن ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير ، وكان يحبُّ الاسم الحسن .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامةَ ، ولا صفَر ، وفِرَّ من المجذوم فِرارَك من الأسد » .

فنفى رسول الله ﷺ تأثير العدوى من ذاتها ، وأنها لا محالة مؤثرة ، كما

كانوا يعتقدونه في الجاهلية ! وإنما هي سبب من الأسباب ، والفعّال المؤثر بالأسباب هو الله تعالى وحده .

روى البخاري أن النبي ﷺ قال : « لا عدوى ، ولا هامةَ ، ولا صفرَ » فقال أعرابي : يا رسول الله فما بالُ الابل تكون في الرمل لكأنها الظّباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيُجْرِبها ؟! فقال ﷺ : « فمن أعدى الأول ! » .

فالعدوى سبب ، ولكنها لا تؤثر من ذاتها ، وإنما تؤثر باذن الله تعالى ومشيئته وقدرته وإرادته ، ولذا قال ﷺ : « وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » أي : حذراً من أن تؤثر فيك العدوى باذن الله تعالى وقدرته .

وقد قال العارفون : الأسباب حُجّاب بين يدي رب الأرباب ، يتصرّف فيها بقدرته ومشيئته وحكمته ، وهو المؤثر الفعّال .

وقوله ﷺ : « ولا طيرة » أي : لا اعتبار للتطير في الشؤم ، وقال بعضهم : هو نفي ، معناه النهي ، أي : لا تتطيروا ولا تتشاءموا .

« ولا هامة » قال في المرقاة : هي اسم طير يتشاءم به الناس ، وهي الصّدَى ، وهو طير كبير يضعف بصره في النهار ، ويطير في الليل ، ويصوّت ، ويسكن الخراب ، ويقال له : بوم ، وهذا أحد قولين حكاهما الامام النووي . وثانيهما : كانت العرب تزعم أن عظام الميت — وقيل روحه — تنقلب هامة تطير . قال : وهذا تفسير أكثر العلماء ، وهو المشهور ، ويجوز أن يكون المراد النوعين معاً ، فانهما باطلان . ا هـ .

« ولا صفر » قال أبو داود : سئل مالك عن قوله « ولا صفر » ؟ فقال : إن أهل الجاهلية كانوا يُحِلُّون صفر : يُحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، فقال النبي ﷺ : « لا صفر » .

وقد أرشد النبي ﷺ الرجلَ الذي يرى ما يكرهه ، وربما دخل عليه التشاؤم منه ، أن يقول : « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » كما في سنن أبي داود .

وروى الأمام أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « من ردّته الطيرة — أي منعته — من حاجته ، فقد أشرك » قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « يقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرك ، ولا طيرَ إلا طيرك ، ولا إله غيرك » [1] .

حبه ﷺ التيمن في شأنه كله

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يُعجبه التيمّنُ في تنعّله وترجّله ، وفي طُهوره وفي شأنه كله . وفي رواية لمسلم : كان رسول الله ﷺ يحبُّ التيمّن ما استطاع ، في طهوره وتنعّله وترجّله ، وفي شأنه كلّه .

والتيمّن : هو الابتداء في الافعال باليد اليمنى ، إن كان الفعل منوطاً باليد ، وبالرجل اليمنى إن كان منوطاً بالرجل ، وبالجانب الايمن إن كان الفعل متعلقاً بالجوانب .

والحكمة في ذلك كما أوضحه العلماء والعرفاء : هو أنه من باب تكريم اليمين ، والتفاؤل الحسن ، فان أصحاب اليمين هم أهل الجنة ، ويؤتَوْن كتبهم بأيمانهم ، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم . وفي هذا يتجلى تمام تنظيمه ﷺ وهديه في مباشرة الاعمال ، وذلك أنه لا بد من تقديم أحدِ طرفي اليمين أو الشمال ، في مباشرة الاعمال ، فرفع رسول الله ﷺ الفوضى في ذلك ، وسنّ البدء باليمين ، ورجّحها على الشمال ، لما تقدّم .

فكان ﷺ يبدأ باليمين في طهوره : أي تطهره ، وهذا شامل للوضوء والغسل والتيمم . وفي ترجّله : أي تمشيط شعر رأسه الشريف ولحيته ﷺ [2] . وفي

---

(١) قال في مجمع الزوائد : أخرجه أحمد والطبراني ، وفيه ابن لهيعة . وحديثه حسن وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات . اهـ .

وروى البزار نحوه من حديث أبي هريرة وبريدة رضي الله عنهما ، كما في مجمع الزوائد أيضاً .

(٢) كذا في جمع الوسائل .

تنعُّله : أي لبس نعله . وزاد أبو داود في روايته : وفي سواكه ﷺ ، وفي شأنه كله .

وجاء في رواية النسائي : كان رسول الله ﷺ يحبُّ التيمُّن : يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه ، ويحبُّ التيمُّن في جميع أمره .

وهذا العموم الوارد في تيامنه ﷺ في جميع أمره هو — كما قال الامام النووي وغيره — محمول على ما كان من باب التكريم والتزيين : كالأخذ والعطاء ، ودخول المسجد والبيت ، وحلق الرأس وقص الشارب ، وتقليم الاظفار ونتف الابط ، والاكتحال والاضطجاع ، والاكل والشرب [1] .

وأما مالا تكريم فيه ولا تزيين ، بل هو من باب الازالة ، فانه يؤخذ باليسار ، إكراماً لليمين أيضاً ، كما دلَّ عليه ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت يد رسول الله ﷺ اليمي لطُهوره وطعامه ، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذىً .

وروَى أيضاً في كتاب الطهارة ، عن حفصة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ، ويجعل شماله لما سوى ذلك .

وروَى أيضاً عن أبي قتاده أن النبي ﷺ قال : « إذا بال أحدكم فلا يمسَّ ذكرَه بيمينه ، وإذا أتى الخلاءَ فلا يتمسَّح بيمينه ، وإذا شرب فلا يشربْ نَفَساً واحداً » .

وكان ﷺ يأمر باستعمال اليمين في الطعام والشراب ، والأخذ والعطاء ، وينهى عن استعمال الشمال في ذلك .

روى ابن ماجه باسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليأكلْ أحدكم بيمينه ويشرب بيمينه ، وليأخذْ بيمينه ، ولْيعطِ بيمينه فان الشيطان يأكلُ بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطي بشماله ويأخذ بشماله » .

---

(١) كما في جمع الوسائل وغيره .

وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يأكلنّ أحدكم بشماله ولا يشربنّ بشماله ، فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها ».

وكان ﷺ يقدّم الايمن فالايمن ، ويقول : « الأيمنَ فالأيمن » .

روى الشيخان واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ شرب لبناً وأتى داره (١) فحلبتُ شاةً فشِبْتُ لرسول الله ﷺ من البئر ، فتناول القدَح فشرب ، وعن يساره أبو بكر ، وعن يمينه أعرابيٌّ ، فأعطى رسول الله ﷺ الاعرابيَّ فضلَه ، ثم قال : «الايمنَ فالأيمنَ » (٢) .

وفي رواية : « الأيمنون فالأيمنون » وفي رواية : « ألا فيمّنوا » .

قال الحافظ في الفتح : أي : يقدّم من على يمين الشارب في الشرب ، ثم الذي عن يمين الثاني ، وهلمّ جرا ، وهذا مستحب عند الجميع ، وقال ابن حزم : يجب . ا هـ (٣) .

فيُبدأ بكبير القوم أو مقدّمهم في الفضل ، أو رئيسهم ، ثم بمن على يمينه .

كراهته ﷺ اطلاق بعض الكلمات مخافة إبهامها

جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقولنّ أحدكم : خَبُثَتْ نفسي ، ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي » .

وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « لا يقولنّ أحدكم : جاشَتْ نفسي ، ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي » .

قال الامام النووي : قال العلماء : معنى لَقِستْ وجاشتْ : غثت (٤) . قالوا : وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث والخبيث . وقال الامام أبو سليمان الخطابي :

---

(١) أي : والحال قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أنس .

(٢) أي : قدموا الأيمن فالأيمن .

(٣) فتح الباري : ١٢ : ١٨٨ .

(٤) يقال : غثت النفس ، تغثي ، غثياً ، وغثياناً : إذا اضطربت ، حتى كادت تتقيأ .

لقِسْتْ وخبثت : معناهما واحد ، وإنما كره خبثت ، للفظ الخبث وبشاعة الاسم منه ، وعلَّمهم الأدب في استعمال الحسن منه ، وهجران القبيح . ا هـ .

يعني : أنه ﷺ كره أن يضيف المسلم لنفسه كلمةً فيها خبث وبشاعة ، فان المسلم أكرم من ذلك .

ومن ذلك : نهيه ﷺ أن يقول العبد لسيِّده : ربي ، بل يقول : سيدي ومولاي. ونهيه أن يقول السيد: عبدي وأمتي ،ولكن ليقل: غلامي، وجاريتي وفتاي وفتاتي .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم — أي لغيره من المخلوقات — : ربي ، وليقل : سيدي ومولاي » .

وفي رواية له أيضاً : « لا يقولنَّ أحدكم : عبدي وأمتي ، كلكم عبيد الله ، وكلُّ نسائكم إماءُ الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي » .

والحكمة في هذا النهي إغلاقُ باب الموهمات سدّاً للذريعة ؛ وإيقافُ نفوس أصحاب الغلمان والجواري عن التطاول والغطرسة والترفع والكبر . وفي ذلك أيضاً : تكريم للغلمان والجواري ، وإحسان إليهم ؛ وجبر لقلوبهم .

ومن ذلك : تحذيره ﷺ الرجلَ من أن يقول : هلَكَ الناس ، وهو يريد بذلك انتقاصَهم واحتقارهم ، وتنزيه نفسه وتفضيلها عليهم .

روى الامام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قال الرجل : هلَكَ الناسُ فهو أهلكهم » .

قال الامام النووي : قلتُ : رُوي أهلكُهم برفع الكاف وفتحها : والمشهور الرفع ، واستُدِلَّ على ذلك برواية في الحلية : « فهو من أهلكهم » . ثم قال :

قال الحميدي : والأشهر الرفع ، أي أشدُّهم هلاكاً ، وذلك إذا قال ذلك على سبيل الإزراء عليهم ، والاحتقار لهم ، وتفضيل نفسه عليهم ؛ لأنه لا يدري سرَّ الله تعالى في خلقه . ا هـ .

يعني أن المحتقِر لغيره ربما ساء عمله ؛ وختم له بسوء العاقبة ، وأن المحتقَر ربما صلح أمره ؛ وختم له بحسن العاقبة . اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ،

وأجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

وقال الامام النووي : قال الخطابي : معناه : لا يزال الرجل يَعيب الناسَ ، ويذكر مساوئهم ، ويقول : فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك ، فاذا فعل ذلك فهو أهلكهم ، أي أسوأ حالاً فيما يلحقه من الاثم في عيبهم ، والوقيعة فيهم ، وربما أدّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم ، وأنه خير منهم فيهلك . اهـ .

ثم أورد الامام النووي سند هذا الحديث عند أبي داود وأنه قال : قال مالك : إذا قال ذلك تحزّناً لما يرى في الناس — قال يعني من أمر دينهم — فلا أرى به بأساً ، وإذا قال ذلك عجباً بنفسه ، وتصاغراً للناس ، فهو المكروه الذي يُنهى عنه .

قال النووي : قلت : فهذا تفسير باسنادٍ في نهايةٍ من الصحة ، وأحسنُ ما قيل في معناه — أي معنى هذا الحديث — وأوجز ، ولاً سيما إذا كان عن الامام مالك رضي الله عنه . اهـ كما في الأذكار .

فليحذر المسلم أن يزكي نفسه ، ويحتقر غيره ، أو أن يكرم نفسه ، ويُزري بغيره من المسلمين المخلّطين ، ولكن ليأسفْ عليهم وليْحزنْ عليهم ، وليدعُ الله تعالى لهم .

وجاء في بلاغات الامام مالك التي أوردها في الموطأ ، أن عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان يقول : لا تُكثِروا الكلامَ بغير ذكر الله ، فتقسوَ قلوبكم ، فان القلبَ القاسي بعيدٌ من الله ، ولكن لا تعلمون ! ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد (١) فانما الناسُ : مبتلىً ومُعافىً ، فارحموا أهل البلاء ، واحمَدوا الله على العافية (٢) .

---

(١) فلا ينظر المسلم إلى ذنوب الناس كأنه رب منزه عن الذنوب والعيوب ، وأن الناس عبيد محتقرون ، مهينون بذنوبهم وعيوبهم ، ولكن ينبغي أن ينظر المسلم إلى عيوب نفسه وذنوبها كأنه عبد يخشى أن يطلع عليه سيده ، فإن الإنسان لا يخلو عن ذنوب وعيوب ، ظاهرة أو باطنة ، كبيرة أو صغيرة .

(٢) ارحموا أهل البلاء — أي : المذنبين — بالموعظة الحسنة ، والرفق في أمرهم ، وعدم احتقارهم ، وبالستر عليهم ، واحمدوا الله على العافية من الذنوب ، ليديم ذلك عليكم . كذا في شرح الزرقاني على الموطأ .

طول عبـــاداته ﷺ

إن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ قد نال أشرف مقامات العبادة وأقربها إلى الله تعالى زلفى ، فهو ﷺ سيد العباد ، وإمام العُبَّاد .

قال الله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسَبِّح بحمد ربك ، وكنْ من الساجدين . واعبدْ ربَّك حتى يأتيَك اليقين » .

فأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بأربعة أشياء : التسبيح ، والتحميد ، والسجود ، والعبادة حتى الموت .

أما التسبيح : فهو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وأما التحميد : فهو اثبات المحامد له والكمالات اللائقة به .

ثم قال : « وكن من الساجدين » أي المصلين ، فأطلق الجزءَ — وهو السجود — وأراد الكلَّ — وهو الصلاة — وفي هذا الامر وهو قوله تعالى « وكن من الساجدين » : فيه التنبيه إلى أفضلية السجود ، كما صح أن النبي ﷺ قال : « أقربُ ما يكون العبدُ من ربه عزّ وجَلّ وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » رواه مسلم .

وجاءت هذه الاوامر بعد ما ذكر سبحانه ما يعتري رسوله الكريم ﷺ من ضيق صدره الشريف ، والغم الذي يجده بسبب ما يقوله الكفار من كلمات الكفر والاستهزاء والسخرية بما جاءهم به من عند الله تعالى .

فجاء قوله تعالى « فسبحْ بحمد ربك وكن من الساجدين » بعد ذلك إرشاداً إلى ما يكشف الله تعالى من الغمّ ، ويزيل به ذلك الهمّ ، ويشرح به الصدر ، ويذهب ذلك الضيق ، ولذلك كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة .

ثم قال سبحانه : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » أي الموت ، وسمي بذلك لانه متيقن اللحوق بكل حيٍّ مخلوق . والمعنى : دُم على العبادات ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظةً .

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت : قوله تعالى « إلا أصحابَ اليمين . في جناتٍ يتساءلون . عن المجرمين : ما سلككم في سقر ؟ . قالوا : لم نكُ من المصلّين . ولم نكُ نُطعمُ المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذّب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين » أي الموت .

وجاء في الحديث الذي رواه البخاري وأحمد أن النبي ﷺ لما دخل على عثمان ابن مظعون — وقد توفي — فقال ﷺ : « أمّا هو — أي عثمان — فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير » فأراد ﷺ باليقين الموت .

وقوله تعالى « واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين » معناه : واعبد ربك مدة حياتك كلّها ، دائماً دائباً . وهذه الآية نظير قوله سبحانه إخباراً عن رسوله عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : « وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً » .

وفي شرح السنة للحافظ البغوي ، عن جبير بن نُفير مرسلاً : أن النبي ﷺ قال : « ما أُوحيَ إليّ أنْ أجمعَ المال وأكونَ من التاجرين ! ولكن أوحيَ إليّ أنْ « سبّح بحمد ربك وكنْ من الساجدين . واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين » .

فالعابد مهما ارتفع مقامه في العبادات ، لا يستغني عن عبادة ربه تعالى ، ولا يسقط عنه الأمر التكليفيّ بالعبادة ما دام حياً عاقلا .

قال الله تعالى : « ربُّ السموات والأرض وما بينهما ، فاعبُدْه واصطبِرْ لعبادته ، هل تعلم له سمياً ؟ ! » أي : مثيلا مسامياً له ومشابهاً ؟ لا : بل هو سبحانه كما قال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » والمعنى أنه سبحانه لا

مِثل له أصلا ، وجيء بـ « مثل » هنا تأكيداً لنفي المثلية من كل الوجوه والاعتبارات. وهذا له شواهد كثيرة في القرآن الكريم ، وفي لغة العرب ، وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين ، قال تعالى : « ولم يكن له كُفُواً أحد » أي ليس له شبيه ولا عديل .

والمقصود : أن الله تعالى أمر عباده بعبادته ؛ وأمرهم بالاصطبار لها ، وذلك بالمحافظة عليها في أوقاتها ، والمواظبة الدائمة عليها في الايام والليالي ، وذلك باعطاء كل وقتٍ حقّه وحظّه من العبادة ليلَ نهار .

ولذلك كانت عبادات النبي ﷺ دائمةً مستمرةً متواصلة في الليل والنهار . روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها : أنها سُئلتْ : كيف كان عمل رسول الله ﷺ ؟ هل كان يخصُّ شيئاً من الأيام — أي ويترك العمل في أيام — فقالت : لا . كان عمله دِيمةً ، وأيُّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع ؟ !

ولم يَدَعْ رسول الله ﷺ نوافله وتطوعاته طيلة عمره ؛ كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : مامات رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته — أي التطوع — وهو جالس ، وكان أحبُّ العمل اليه ما داوم عليه العبد ، وإنْ كان شيئاً يسيراً . رواه ابن حبان في صحيحه (١) .

---

(١) كما في الترغيب للحافظ المنذري .

حقيقة العبادة

العبادة هي : التقرب إلى الله تعالى بأقصى غايات الخضوع والتذلّل له سبحانه ، فيما شرعه لعباده من الأقوال والأعمال القلبية والبدنية والحالية .

وللعبادة لذة وحلاوة ، ونعيم وطلاوة ، فمَن طعِم حلاوتها ، وذاق لذّتها ، تعلّق بها وعشقها ، فهو لا ينفك عنها أبداً ، لأنها تصير راحته وريحانه .

وإن أعظم ذائقٍ ذاق حلاوتها ، وأكبر من تَنعّم بها ، وشهد أسرارها وأنوارها ، هو سيدنا محمد ﷺ إمام العُبَّاد وسيد الصالحين ، وأتقى الأولين والآخرين بنص قوله سبحانه « إن وليِّيَ الله الذي نزّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » .

فلقد أخبر سبحانه أن توليته لعباده على نسبة صلاحهم ، وأن له سبحانه وتعالى توليةً خاصة لحبيبه ﷺ لم ينلها غيره ، أشار اليها بقوله « إن وليِّيَ الله » أي : إن وليِّي المتولّي لأمري كله على وجه الخصوص ، هو الله تعالى ، والتولية الالهية : تكون على نسبة الصلاح ، كما دلّ عليه آخر الآية ، فينتج من ذلك أن له في الصلاح مقاماً خاصاً به ، لم ينله غيره ﷺ .

ولذلك كان له ﷺ أكملُ ذوقٍ لحلاوة العبادات ، وألذُّ راحة ونعيم بها ، كما جاء في المسند وغيره أن النبي ﷺ قال : « قُمْ يا بلال أرِحْنا بالصلاة » . وكما في المسند وغيره أن النبي ﷺ قال : « وجُعِلتْ قرّةُ عيني في الصلاة » .

والمتّبعون المحمديُّون نالوا نصيبهم من لذّة العبادات ، ونعيم الطاعات ، على حسب مراتبهم ، كما ورد عن الشيخ العارف الكبير إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال : لو يعلم الملوك ما نحن عليه من اللذّة لجالدونا عليه بالسيوف . وقال العارف الكبير الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أهل الليل في ليلهم : ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاء في الدنيا . وكما قال

بعضهم رضي الله عنهم : إذا كان أهل الجنة على ما نحن عليه : فهم في عيشٍ طيِّبٍ ! .

ولذلك كَلِفَ أهل الجنة عبادة ربهم سبحانه في الجنة كَلَفاً بغير تكلُّف ، فهم يعبدون الله تعالى في الجنة ، أكثر من عباداتهم له في الدنيا ، كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، أن الله تعالى يقول للملائكة الذين يطوفون في الطُّرُق يلتمسون أهل الذكر : « ما يقول عبادي ؟ يقولون : يسبِّحونك ويكبرونك ، ويحمدونك ويمجِّدونك ، فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً ، وأشدَّ لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً .. » الحديث .

فأهل الجنة أكثر عبادةً منهم في الدنيا ، لأنهم يرون ربهم سبحانه ، ولكن عبادتهم كَلَف بلا مشقة ، وإنما هي راحتهم ونعيمهم ، كما دل عليه ما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال في أهل الجنة : « يُلهَمون التسبيح والتحميد والتقديس ، كما تُلهمون النَفَس » .

وللعبادات آثار في نفس العابد ، تهذِّبها من الرعونات والحماقات ، والدعاوي والأنانيَّات ، حتى تصفوَ نفس العابد ، وتدخل في دائرة العبودية ، لسلطان مقام الربوبية ، وقد قال ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي لما قال له : أسألك مرافقتَك في الجنة ، قال له ﷺ : « فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود » .

وللعبادة صبغة نورانية ، ينصبغ بها قلب العابد وعقله ، وجميع حواسّه ، بالنور الالهيّ ، حتى إنه ليشرق في وجه العابد إشراقاً ، قال الله تعالى : « صبغةَ الله ، ومن أحسنُ من الله صبغةً ! ونحن له عابدون » .

والمعنى : الزموا صبغة الله ، فانها صبغةُ نورٍ ثابت ، ولا أحسن منها صبغة ، وذلك بعبادتكم لربكم سبحانه كما شرع لكم ، قال ﷺ : « والصلاة نور ، والصبر ضياء » .

وبالعبادة صفاء القلب وجِلاؤه ، ونقاؤه وضياؤه ، حتى إنه لتتجلَّى فيه أنوار

الحق : قال الله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثَلُ نوره كمِشْكاة ... » الآية ، أي : مثل نوره سبحانه في قلب عبده المؤمن ، كمشكاةٍ أي : كُوَّة فيها مصباح يتوقَّد بالنور . والمشكاة تشير إلى الصدر ، والمصباح هو قلب المؤمن المشرق بنور الايمان بالله تعالى .

وقد أُنشِد لبعض العارفين في ذلك :

إذا سكن الغديرُ على صفاءٍ ... وجنِّب أن يحرِّكه النسيمُ

بدتْ فيه السماءُ بلا امتراءٍ ... كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ

كذاكَ قلوبُ أرباب التجلّي ... يُرى في صفوها اللهُ العظيمُ

وذلك كله من باب التجلّي في المجالي ، وظهور النور في مرايا القلوب ، وليس ذلك من باب التجزُّؤ أو الحلول ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! .

وبالعبادة يكون التقرُّب والاقتراب ، إلى رب الأرباب ، قال الله تعالى : « واسجُدْ واقترِبْ » . وقال ﷺ في الحديث القدسي : « وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه . . » الحديث ، انظره في كتابنا « الصلاة في الاسلام » .

وليس هذا موضعَ تفصيل البحث ، حول آثار العبادة وأسرارها ، وإنما ألمحنا لمحات يَعتبر بها المعتبر ، فيعلمَ أن للعبادة أثراً في العابد كبيراً ، وسراً عظيماً ، وإشراقاً وضياءً ، ورفعةً ومقاماً ، وقرباً وحباً ، فماذا تتصور أيها العاقل من عظمة آثار عبادة سيِّد العُبَّاد والمقربين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ؟ وماذا تقدِّر من قوة إشراقات عباداته ﷺ وضيائها ، وأنوارها وأسرارها ، ومدى مكانتها وقربها ؟ نعم إنه لا يحيط علماً بذلك إلا الله تعالى الذي اصطفاه على جميع المصطفين الأخيار .

المنهاج الذي رسمه النبي ﷺ للعابدين

إن منهاجه ﷺ الذي انتهجه في العبادة ، والذي رسمه للعُباد ، هو أقوم المناهج وأقواها ، وأفضلها عند الله تعالى وأهداها ، وأعدلها في أداء الحقوق وأكملها ، وهو أبين طرق التقرب إلى الله تعالى وأقربها ، ومهما جاء العابد بمشاقّ التعبدات ، وأتى بعظائمَ من الطاعات ، لا يُقرّبه ذلك إلى الله تعالى زلفى ، كما تقرّبه السنة المحمدية التي سنّها رسول الله ﷺ في الطاعات والعبادات .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثةُ رهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها [١] .

قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر [٢]؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلّي الليلَ ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوّج أبداً .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكن أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقُد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني » [٣] .

وكان منهاجه ﷺ في العبادة : أنه إذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه .

---

(١) أي : رأوها قليلة بالنسبة لما ينبغي لهم .

(٢) أي : بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم بون بعيد ، ومسافة طويلة . فإننا معرضون للذنوب وسوء العاقبة ، ولم تضمن لنا المغفرة ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فهو المعصوم والمضمون له الغفران . ا هـ كما في شرح ابن علان على رياض الصالحين وغيره .

(٣) نقل العلامة محمد بن علان في شرح رياض الصالحين ، عن المطرزي في شرح المصابيح ، أنه قال عند قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » : يعني من ترك ما أمرت به من أحكام الدين : فرضاً أو سنة ، على سبيل الاستخفاف بي ، وعدم الالتفات إلي ، فليس مني ، لأنه كافر ، أما من تركه لا عن استخفاف بل عن الكسل ، لم يكن كافراً وحينئذ فقوله « ليس مني » أي من المقتدين بي والعاملين بسنّتي . ا هـ .

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « اكلَفوا من العمل ما تطيقون ، فان الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا ، وإن أحبَّ العمل إلى الله أدوَمُه وإنْ قلَّ » ، وكان ﷺ إذا عمل عملاً أثبته .

ومن إرشاداته ﷺ للعِباد العُبَّاد : أن يقوموا بأداء جميع الحقوق التي عليهم ، دون أن يشغلهم حق عن أداء حقّ ، ولا يحملهم أداء واجب على إهمال واجب آخر.

ففي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : بَعثَ رسول الله ﷺ إلى عثمان بن مظعون : « أرغبةً عن سنّتي ؟ » فقال عثمان : لا والله يا رسول الله ولكن سنَّتَك أطلب . فقال ﷺ : « فاني أنام وأصلّي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتقِ الله ياعثمان ، فان لأهلك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، فقم وأفطر ، وصلّ ونمْ » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أُخبرَ النبي ﷺ أني أقول : والله لأصومنَّ النهار ، ولأقومنَّ الليل ماعشتُ — أي مدة حياتي كلها — فقال رسول الله ﷺ : « أنتَ الذي تقول ذلك ؟ »

فقلت له : قد قلتُه بأبي وأمي يا رسول الله .

قال : « فانك لا تستطيع ذلك ، فقُمْ وأفطرْ ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فان الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر » أي : لأن صيام اليوم مقابَل بعشرٍ ، فصيام ثلاثة أيام من الشهر يعطي ثلاثين حسنة .

قال عبد الله بن عمرو : قلت : فاني أُطيقُ أفضلَ من ذلك . وفي رواية لمسلم : إني أطيق أكثر من ذلك . قال ﷺ : « فصم يوماً وأفطر يومين » .

قلت : فاني أطيق أفضل من ذلك ، قال : « فصم يوماً وأفطر يوماً ، فذلك صيام داود ﷺ ، وهو أعدلُ الصيام . وفي رواية : هو أفضل الصيام » . أي : أفضل أنواع صيام التطوع .

قال عبد الله بن عمرو : قلت : فاني أطيق أفضل من ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « لا أفضل من ذلك » .

قال ابن عمرو : ولأن أكون قبلتُ الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي .

وفي رواية : « ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ ! » قلت : بلى يارسول الله ! قال : « فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فان لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزَوْرِك عليك حقاً ، وإن بحسْبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، فان لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فاذاً ذلك صيام الدهر » .

قال ابن عمرو : فشدَّدتُ — أي شددت على نفسي ولم أقبل رخصة النبي ﷺ — فشُدِّد عليَّ ، قلت : يا رسول الله إني أجدُ قوة ! قال : « صم صيام نبي الله داود ، ولا تزد عليه » . قلت : وما كان صيام داود ؟ قال : « نصف الدهر » .

فكان عبد الله بن عمرو يقول بعدما كبر — أي في السن وثقل عليه ذلك العمل — : ياليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ! .

وفي رواية : « ألم أُخبَر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ ! » فقلت : بلى يا رسول الله ، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير . قال ﷺ : « فصم صوم نبي الله داود ، فانه كان أعبدَ الناس ، واقرأ القرآن في كل شهر » .

قلت : يانبي الله إني أطيق أفضل من ذلك . قال : « فاقرأه في كل عشر » .

قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك . قال : « فاقرأه في كل سبع ، ولا تزد على ذلك » .

قال ابن عمرو : فشدَّدتُ فشُدِّد علي ، وقال لي النبي ﷺ : « إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُر ! » .

قال ابن عمرو : فصِرتُ إلى الذي قال لي النبي ﷺ ، فلما كبرتُ وددت أني كنتُ قبلت رخصة النبي ﷺ .

وفي رواية : « وإن لولدك عليك حقاً » . وفي رواية : « لا صام من صام الأبد » .

وفي رواية : « أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، وأحب الصلاة — أي قيام الليل — صلاة داود : كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرُّ — أي في الحرب — إذا لاقى » أي : لقي العدو . وزاد النسائي : « وإذا وعد لم يخلف » .

وفي رواية : قال ابن عمرو : أنكحني — أي زوجني — أبي امرأة ذات حسب ، وكان يتعاهد كنَّته — أي امرأة ولده — فيسألها عن بعلها — أي عن حال زوجها معها — فتقول : نِعم الرجلُ من رجل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتِّش لنا كنَفاً . أي : لم يكشف لنا ستراً ، وكنَّتْ بذلك عن عدم إتيانه لها .

فلما طال ذلك عليه — أي على أبيه — ذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « إلْقَني به » . قال ابن عمرو : فلقيتُه ﷺ فقال : « كيف تصوم ؟ » قلت : كل يوم . قال : « وكيف تختم ؟ » قلت : كل ليلة ، وذكر نحو ما سبق .

قال الامام النووي رضي الله عنه : وجميع هذه الروايات صحيحة ، معظمها في الصحيحين ، وقليل منها في أحدهما . ا هـ .

والمقصود : أنه ﷺ كان يرغِّب في المداومة على الأعمال التطوّعات وإن قلّت ، ويحذِّر من الاكثار المؤدي إلى الانقطاع أو نفرة النفس وكراهتها لذلك .

كما وأنه ﷺ كان يحرِّض على تأدية جميع الحقوق المرتبة على المكلَّف ، والقيام بها كاملة ، دون أن يشتغل ببعض الحقوق ، فان ذلك يكون إفراطاً فيما اشتغل به ، وتفريطاً فيما أهمله وشُغِل عنه .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يأمر بالعمل الدائم وإن قلّ ، ويحذِّر من العمل الكثير المنقطع .

جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجزه بالليل فيصلي عليه ، ويبسطه في النهار ويجلس عليه ، فجعل

الناس يثوبون (١) إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال : « يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فان الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ . وفي رواية : وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه » وفي رواية : إن رسول الله ﷺ قال : « سدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » . كما في الصحيحين .

وكان ﷺ يحذِّر من المشادَّة في الدين .

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدين يُسر ولن يُشادَّ (٢) الدينَ أحد إلاَّ غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا (٣) وأبشروا واستعينوا بالغَدوة والرَّوحة وشيء من الدُّلجة ، والقصدَ القصدَ تبلغوا » والمعنى : الزموا القصد أي التوسط في الأمر تبلغوا المقصود وهو فضل الله تعالى ورضوانه

قال الامام النووي : الغَدوة : سير أول النهار ، والروحة : سير آخر النهار ، والدلجة : سير آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم ، تستلذُّون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصودَ بغير تعب . والله أعلم . ا هـ .

وروى الامام أحمد بسند حسن عن بُريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم هدياً قاصداً ، فان من يشاد هذا الدين يغلبه » .

قال العلامة ابن المنيِّر : في هذا الحديث علَم من أعلام النبوة ، فقد رأينا ورأى

---

(١) أي يرجعون إليه ويجتمعون عنده .

(٢) قال في الفتح : والمشادة المغالبة . والمعنى : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز أو انقطع فينقلب . ا هـ

(٣) قال الإمام النووي : السداد : الاستقامة والإصابة ، والمقاربة : القصد — أي التوسط — الذي لا غلو فيه — أي تجاوز المأمور به والزيادة فيه — ولا تقصير — أي إخلال بشيء منه — . ا هـ

الناس قبلنا أن كل متنطّع — أي مفرط ومتشدد — في الدين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الكمال في العبادة فانه من الأمور المحمودة ، بل المراد منع الافراط المؤدّي إلى الملال أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة أو إلى أن خرج وقت الصلاة المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة . وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد : « لن تنالوا هذا الأمر بالمبالغة وخير دينكم أيسره . . » الحديث .

وقد يستفاد من هذا الاشارةُ إلى الأخذ بالرخصة الشرعية ، فان الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطّع ، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء — لضرر يصيبه — فيفضي استعماله الماء إلى حصول الضرر . اه كلام ابن المنير .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يكره للانسان أن يتكلف من العبادات نوافل فوق طاقته ، خوف القطيعة ، وتحذيراً من الترك .

روى الامام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن هذا الدين متين ، فأَوْغِلوا فيه برفق » (١) وجاء في رواية البيهقي وغيره أن النبي ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغلْ فيه برفق ، ولا تبغِّضْ إلى نفسك عبادة الله ، فان المُنْبَتَّ (٢) لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » (٣) .

قال الامام الغزالي رضي الله عنه : أراد بهذا الحديث أن يكلِّف نفسَه أعمالَ الدين بتلطُّف وتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى أقصاها ، إذ الطبعُ نَفورٌ لا يمكن

---

(١) أي : ادخلوا فيه برفق .

(٢) فالمنبت : هو المنقطع ، وهو الراكب الذي حمل دابته على الإسراع فوق طاقتها ، رجاء الوصول لمقصوده ، فإذا بدابته أعيت وانقطعت عن متابعة السير ، فلا هو قطع مسافة الأرض ، ولا هو أبقى ظهر دابته ينتفع به ، فكذلك من تكلف من العبادة ما لا يطيق فإنه ينتهي أمره إلى القطيعة والترك .

(٣) وقد روى هذا الحديث بتمامه البيهقي في سننه ، والبزار والحاكم في علومه ، وأبو نعيم والقضاعي والعسكري والخطابي في العزلة . كذا في المواهب وشرحها للحافظ الزرقاني .

نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاًفشيئاً ، فمن لم يُراع التدريج ،وتوغّل دفعة واحدة ، ترقّ إلى حالة تشقّ عليه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوباً عنده ، ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده — يصير — مشرباً هنياً لا ينفر عنه ، وهذا لا يُعرف إلا بالتجربة والذوق .

ونظيره في العادات : الصبي يُحمل على التعلّم ابتداءً قهراً ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع المعلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته ، وأنِس بالعلم ، انقلب الامر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم . اهـ .

ومن إرشاداته ﷺ : أنه كان يحذّر من الدخول في العبادات على كراهية أو كسل ، بل يدخلها على جد ونشاط في العمل .

جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ دخل المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : « ما هذا الحبلُ ؟ » قالوا هذا حبل لزينب ، فإذا فتَرت — وفي رواية مسلم : فاذا كسلت أو فتَرت — تعلّقت به ! فقال النبي ﷺ « حُلُّوه ، ليصلّ أحدُكم نشاطه ، فاذا فتر فليرقُدْ » .

فمن اعتراه الفتور في حال تطوعاته أو قيامه في الليل ، بسبب تعب شديد أو نوم ثقيل ، فعليه أن يقف عن ذلك ، ريثما يذهب عنه ذلك الفتور والكسل ، ثم يتابع سيره في العبادة .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نعَس أحدكم وهو يصلي فليرقُد ، حتى يذهب عنه النوم ، فان أحدكم إذا صلى وهو ناعس — أي نعاساً ثقيلاً كما يدل عليه قوله : — لا يدري لعله يذهبُ يستغفرُ فيسبَّ نفسَه ! » أي يدعو على نفسه ، وهو لا يشعر ، لثقل نعاسه .

ومن إرشاداته ﷺ : تحذيرُه من الاكثار والنشاط للعبادات والنوافل ، ثم التقاعس عنها ، والفتور على وجه يقصر عن حد السنة التي سنّها ﷺ في ذلك العمل .

كما أنه ﷺ ما كان يرضى أن يُمدح الرجلُ بعباداته حال هجمته الأولى وشِرّته

ونشاطه في بادىء الأمر ، حتى تمضي عليه مدة ويستقرّ أمره ، فان انتهى إلى حد السنة مُدح ، وإن قصّر عنها فلا يُمدح .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكلّ شيء شِرَّةً ، ولكل شِرة فترة ، فانْ صاحبُها سدَّدَ وقاربَ فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدُّوه » (١) .

وقد رواه ابن حبان في صحيحه أيضاً من حديث أبي هريرة ولكن بلفظ : « لكل عملٍ شرَّة .. » الحديث . كما في الترغيب المنذري ، قال : والشِرَّة : بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء ، وبعدها تاء تأنيث ، هي : النشاط والهمَّة .

وأخرجه الحافظ المنذري أيضاً من رواية ابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل عملٍ شرَّةٌ ، ولكل شرَّة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنَّتي فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » .

وقد أورد الحافظ ابن حجر في المطالب العالية عن ابن فاختة أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن ابن أخي قد اجتهد في العبادة ، وأجهد نفسه ! فقال رسول الله ﷺ : « تلك شرَّة الاسلام ، لكل شيء شرَّة ، ولكل شرَّة فترة ، فارقُبه عند فترته ، فانْ قارب فلعلَّه ، وإن هلك فتبّاً له » (٢) .

وفي هذه الأحاديث النبوية تنبيهات وإرشادات للمسلمين ، إلى الاستمرار على التقوى والعبادات ، والتزام الطاعات والقربات ، على وجه دائم ، دون أن يُقبل أحدهم على العبادة بهمة ونشاط ، ويحمّل نفسه من النوافل فوق طاقته ، ثم إنه بعد ذلك يفتر ويملْ ، ويترك أو يقصّر عن حدّ السنة .

(١) قال في التيسير : رواه الترمذي وصححه .

(٢) انظر الجزء الثالث ص ١٧٦ .

حول تهجده ﷺ

قال الله تعالى : « ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لك ، عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً » .

قال علماء اللغة : الهجود هو النوم ، والتهجُّد ترك النوم بسبب الاشتغال بالصلاة ، والمعنى : ومن الليل فتهجد بالصلاة المشتملة على القرآن الكريم . وعلى هذا تكون صيغة التهجد من صيغ السلب ، كالتأثُّم بمعنى ترك الاثم ، والتحرُّج وهو البعد عن الحرج ، وهكذا . . .

ومعنى « نافلة لك » أي : عبادة زائدة لك على بقية فرائض الصلوات : إما : على طريق الفريضة ، بناءً على أن التهجد كان فرضاً عليه ﷺ دون أمته . قال الحافظ الزرقاني : وهو قول الاكثر وقول الامام مالك .

وإما : على طريق التطوع ، ويكون تخصيصه ﷺ بكون التهجد نافلةً له ، باعتبار أن تطوعاته ﷺ هي خالصةٌ له في رفعة درجاته ، وكثرة حسناته ، وعلو مقامه ، لكونه لا ذنبَ عليه ؛ فالتهجد في حقه هو نافلةٌ له خالصة ، بخلاف الامة فان لهم ذنوباً ، وهي تحتاج إلى كفارات ، ولهم تقصيرات ، وهي تحتاج إلى مكملات ، فتطوعاتهم الزائدة على فرائضهم يحتاجونها لتكفير ذنوبهم ، أو لتكميل ما انتقصوا من فرائضهم ، كما جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال : « .. وإن انتقص — أي العبد — من فريضته شيئاً قال الله تعالى للملائكة : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة .. » الحديث كما في السنن .

فصاحب مقام النفل الاكمل والفضل الأول ، هو سيدنا محمد ﷺ الذي أعطاه الله تعالى أعلى رتبة في النافلة ، ورتب على ذلك المقام المحمود الذي تحمده عليه الخلائق كلهم : الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العامة العظمى : كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال : رسول الله ﷺ « إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كلُّ أمة تتبع نبيَّها ، يقولون : يا فلان اشفع لنا ،

حتى تنتهي الشفاعة إليّ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » .

وروى مسلم عن سعد بن هشام أنه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألستَ تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ! قالت : فان خلُق نبيّ الله ﷺ كان القرآن(١) . قال : فهممْتُ أن أقومَ ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت ، ثم بدا لي فقلت : أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ألسْتَ تقرأ « يا أيّها المزّمل » ؟ قلت : بلى ؟ قالت : فان الله عز وجل افترض قيام الليل من أول هذه السورة ، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها — أي آخر سورة المزمل — اثني عشر شهراً في السماء ، حتى انزل الله فى آخر هذه السورة بالتخفيف — أي في قوله تعالى « فاقرؤوا ماتيسّرمنه » — فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة . الحديث .

وقد نقل الحافظ الزرقاني الاجماع على نسخ وجوب قيام الليل في حق الأمة . قال : وشذّ بعض التابعين فأوجبه ولو قدْرَ حلب شاة ، واختلف في نسخ وجوبه في حقه ﷺ على قولين للعلماء في ذلك .

وقت قيامه ﷺ متهجداً

روى الشيخان عن مسروق قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : أيُّ العمل كان أحبَّ إلى النبي ﷺ ؟ قالت : الدائم . قلت : متى كان يقوم ؟ — وعند مسلم : أيُّ حينٍ كان يصلي ؟ — قالت : إذا سمع الصارخ .

قال الحافظ في الفتح : الصارخ : الديك ، وقد جاء في مسند الطيالسي في هذا الحديث : الصارخ : الديك . والصرخة الصيحة الشديدة ، وجرت العادة بأن الديك يصيح عند نصف الليل غالباً . قاله محمد بن نصر . قال ابن التين : وهو موافق لقول ابن عباس : نصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل . اهـ .

---

(١) أي : كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن في العمل بأحكامه ، والتأدب بآدابه ، والاعتبار بأمثاله وقصصه ، وحسن تلاوته ، والتحقق بجميع مطالبه .

وقد روى الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه باسناد جيد ، عن زيد بن خالد الجهني مرفوعاً : « لاتسبُّوا الديك ، فانه يوقظ للصلاة » وفي رواية « فانه يدعو إلى الصلاة » كذا في شرح المواهب .

وهذا القيام على هذا الوجه ، حكم له النبي ﷺ أنه أحب القيام ، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له : « أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، و يصوم يوماً ويفطر يوماً » وقد تقـدم .

وذلك ليستريح من نَصَب القيام ، فانه بعد القيام يريح البدن ، ويذهب ضرر السهر ، وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح . وفيه من الحكمة أيضاً : استقبالُ صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط واقبال ، وهذا بالنسبة للصلاة أيضاً أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون ، سليم الصدر ، فهذا أقرب إلى إخفاء عمله في الليل ، كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح .

وبذلك يكون المتهجد قد نال فضائل تجليات الرب عزّ وجل في الثلث الثاني والثلث الاخير ، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : مَن يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يسألني فأُعطيَه ، من يستغفرني فأغفرَ له ! حتى ينفجر الفجر » ، كما في رواية مسلم .

قال في الفتح : زاد سعيد عن أبي هريرة : « هل من تائب فأتوبَ عليه ؟ » وزاد أبو جعفر عنه : « من ذا الذي يسترزقني فأرزقَه ؟ من ذا الذي يستكشف الضرَّ فأكشف عنه ؟ » وزاد عطاء عنه « ألا سقيمٌ يستشفي فيشفى ؟ » وزاد سعيد ابن مرجانة عنه : « من يُقرض غيرَ عديم ولا ظلوم ؟ » .

وقال في الفتح أيضاً : وفي هذا الحديث من الفوائد : تفضيل صلاة آخر الليل

على أوله ، وتفضيل تأخير الوتر ، لكن في حق من طمع أن ينتبه ، وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ، يشهد له قوله تعالى : « والمستغفرين بالأسحار » وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب . ا هـ .

فكان أغلب قيامه ﷺ لصلاة الليل في أول النصف الثاني في الليل ، كما روى الشيخان وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان ينام أول الليل ، ويحيي آخره . والمراد بأول الليل ههنا : الأولية النسبية ، وهي ما بعد صلاة العشاء ، وما يتصل بها من أوراد وقراءات مطلوبة ، بعد الصلاة وقبل النوم [1] . فانه قد صح عن النبي ﷺ أنه كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها .

وكانت له أوراد وقراءات قبل أن ينام ، كما روى الامام أحمد والترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل — أي سورة الاسراء — والزمر .

وأخرج الترمذي والنسائي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : آلم تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك .

وعن العِرْباض بن سارية رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ المسبِّحات قبل أن يرقُد ، وقال : « فيهن آيةٌ أفضل من ألف آية » رواه أحمد وأصحاب السنن ، ورواه ابن الضُّرَيس عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : قال يحيى : فنراها الآية التي في آخر الحشر . أي : الآيات الثلاثة في آخر سورة الحشر .

وقال الحافظ ابن كثير : الآية هي قوله تعالى : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » .

والمسبِّحات ستٌّ : الحديد والحشر ، والصف والجمعة ، والتغابن وسبح اسم ربك الأعلى .

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٥ : ٦٧ .

أذكاره ﷺ حين يستيقظ لصلاة الليل

كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من منامه لصلاة الليل ، يمسح النوم عن وجهه بيده ، ويرفع رأسه إلى السماء ، ثم يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويقول : « سبحان الله وبحمده » عشراً ، ويقول : « سبحان الملك القدُّوس » عشراً . وفي رواية ابن مردويه : ثلاثاً ، ويستغفر الله عشراً ، ويُهلِّل عشراً ، ويقرأ خواتيم سورة آل عمران ، ويقول : « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة » عشراً ، ويدعو بقوله : « لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علما ، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني ، وهَبْ لي من لدنك رحمةً ، إنك أنت الوهاب » .

ونحن نذكر الأحاديث الواردة في ذلك .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته ، لينظر كيف صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، قال ابن عباس : فاضطجعت في عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها ، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل [(١)] استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر آياتِ الخواتيمَ من سورة آل عمران .

وفي رواية ابن مردويه : ثم استوى على فراشه قاعداً ، ورفع رأسه إلى السماء ، فقال : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات ، ثم قرأ الآيات من آخر سورة آل عمران ، ثم قام إلى شنٍّ معلقةٍ ، فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي . وعند مسلم : فتسوَّك وتوضأ .

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : فتردد ابن عباس في ذلك لخفائه عليه ، لأنه كان ابن عشر سنين ، فتحرى القول في الرواية وترك المسامحة فيها ، وإلا فقيامه صلى الله عليه وسلم إنما كان في النصف الآخر . أ هـ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى فَفَتَلها ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع ، حتى جاء المؤذن ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا هبّ من الليل واستيقظ كبّر عشراً ، وحمد الله عشراً — أي من المرات — وقال : « سبحان الله وبحمده » عشراً وقال : « سبحان الملك القدوس » عشراً واستغفر عشراً (١) وهلّل — أي قال لا إله إلا الله — عشراً ، ثم قال : « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة » عشراً ، ثم يفتتح الصلاة (٢) أي صلاته في الليل .

إطالته ﷺ في صلاة الليل

كان رسول الله ﷺ يُطيل القراءة في صلاة الليل ، ويُطيل الركوع فيها والسجود ، ويكثر من الدعاء في سجوده .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قام رسول الله ﷺ حتى تورّمت قدماه . وفي رواية عنها : أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطّرت قدماه — أي تشققت من كثرة القيام — . وفي رواية النسائي عن أبي هريرة : حتى تَزْلَع قدماه ، بزاي وعين مهملة — أي تشقّق — قال الحافظ في الفتح : ولا اختلاف بين هذه الروايات إذ حصل الانتفاخ والورم ، وحصل الزلع والتشقق .

وجاء في رواية الصحيحين قالت عائشة : فقلت له : لمَ تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك ، وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ! » .

---

(١) قال في شرح المواهب : أي قال : « اللهم اغفر لي واهدني وارزقني » كما في رواية . اهـ .

(٢) انظر سنن أبي داود ، والمواهب للقسطلاني ، ونزل الأبرار .

والمعنى : أأترك تهجدي لما غُفر لي ، فلا أكون عبداً شكوراً ؟ ! بل : إن المغفرة هي سبب لكون التهجد شكراً ، فكيف أتركه ؟ وقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على جواز أخذ الانسان نفسَه بالجهد في العبادة ، ومشقة البدن فيها .

قال الحافظ في الفتح : وحُمل ذلك ما لم يُفضِ إلى الملال ، لأن حال النبي كانت أكملَ الأحوال ، فكان لا يمل في عبادة ربه ، وإن أضرَّ ذلك ببدنه الشريف ﷺ . بل صح أنه ﷺ قال : « وجُعلتْ قرة عيني في الصلاة » فأما غيرُه ﷺ فاذا خشي الملل ينبغي له أن لا يُكدَّ نفسه ، وعليه يُحمَل قوله ﷺ : « خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فان الله لا يملُّ حتى تملُّوا » . ا هـ .

قال الحافظ القسطلاني : لكن ربما دسَّت النفسُ أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذُكر ، خصوصاً إذا كبِر ، فتقول له : قد ضعفْتَ وكبِرت ، فأبْقِ على نفسك ، لئلا ينقطع عملك بالكلية . قال : وهذا وإنْ كان ظاهره جميلاً ، لكنْ فيه دسائس ، فانه إنْ أطاعه فقد يكون استدراجاً ، يؤول به إلى ترك العمل شيئاً فشيئاً ، إلى أن ينقطع العمل بالكلية ، وما ترك سيدُ المرسلين المغفورُ له شيئاً من عمله بعد كبره . ا هـ .

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : صليتُ مع النبي ﷺ ذاتَ ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت — أي ظننت — يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلّي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء ، فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مترسِّلاً ، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ . وفي رواية للنسائي : لا يمرّ بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره ، ثم ركع ، فجعل يقول : « سبحان ربي العظيم » فكان ركوعه نحواً من قيامه — أي قريباً في الطول من قيامه — ثم قال : « سمع الله لمن حمده » ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : « سبحان ربي الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه .

استفتاحه ﷺ صلاة الليل

كان رسول الله ﷺ يُطيل في استفتاحه الصلاةَ في الليل ، بأنواع من صيغ الاستفتاح .

فمن ذلك : ما رواه أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل ، فكان يقول : « الله أكبر — ثلاثاً — ذو الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة » ثم استفتح ، فقرأ البقرة ثم ركع ، فكان ركوعه نحواً من قيامه.. الحديث .

وروى الامام مسلم وغيره عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها : بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق باذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبَّر ، ثم يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ثم يقول : « لا إله إلا الله » ثلاثاً ثم يقول : « الله أكبر كبيراً — ثلاثاً — أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه » ثم يقرأ .

وروى الشيخان وغيرهما — واللفظ لمسلم — عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل — وفي رواية لأبي داود : كان ﷺ في التهجد يقول بعدما يقول « الله أكبر » — :

« اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنَّ ، أنت الحق

ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حقٌ ، والجنة حقٌ والساعة حقٌ ، اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلنتُ ، أنت إلٰهي لا إله إلا أنت » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ومعنى سؤاله ﷺ المغفرةَ — مع أنه مغفور له — أنه يسأل ذلك — أي يطلب المغفرة — تواضعاً وخضوعاً ، وإشفاقاً وإجلالاً ، وليُقتدى به في أصل الدعاء والخضوع ، وحسن التضرُّع في هذا الدعاء المعيَّن . وفي هذا الحديث وغيره مواظبتُه ﷺ في الليل على الذكر والدعاء ، والاعتراف لله تعالى بحقوقه ، والاقرار بصدقه ، ووعده ووعيده ، والبعث والجنة والنار ، وغير ذلك . ا هـ .

ومن أدعيته ﷺ في سجود الليل : ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده : « اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه ، دِقَّه وجِلَّه ، أوّلَه وآخره ، سرَّه وعلانيته » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلةً من الفراش ، فالتمستُه في البيت وجعلت أطلبه ، فوقعتْ يدي على بطن قدميه ، وهو في السجود ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت [1] اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » رواه مسلم وأصحاب السنن .

ومن ذلك : دعاؤه ﷺ بزيادة النور ، كما في رواية مسلم ، عن ابن عباس لمَّا بات عند خالته ميمونةَ زوجِ النبي ﷺ ليرى كيف صلاة رسول الله ﷺ في الليل . قال : فتكاملَت صلاة رسول الله ﷺ ثلاثَ عشرةَ ركعة ، ثم نام حتى نفخ ، وكنا نعرفه إذا نام بنفخه ، ثم خرج إلى الصلاة ، فصلى فجعل يقول في صلاته — أو في سجوده — : « اللهم اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري

---

(١) جاء هذا في رواية أبي يعلى .

نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً : وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعلْ لي نوراً ، أو قال : واجعلني نوراً » .

وفي رواية لمسلم أيضاً : ودعا رسول الله ﷺ ليلتئذ تسعَ عشرةَ كلمةً ، قال سلمة : حدثنيها كريب – أي عن ابن عباس – فحفظتُ منها اثني عشرة ، ونسيتُ ما بقي ، فذكرها ، وقال في آخره : « واجعلْ في نفسي نوراً ، وأعظِم لي نوراً » .

وفي رواية لمسلم أيضاً عن ابن عباس : فأذّن المؤذّن ، فخرج ﷺ إلى الصلاة وهو يقول : « اللهم اجعل في قلبي نوراً . . » الى آخر الدعاء كما تقدم .

قال الحافظ الزرقاني : ولا خُلْفَ – أي ولا اختلاف بين رواية دعائه بذلك في صلاته أو سجوده ، وفي حال خروجه الى الصلاة – فقال ذلك في الصلاة الليلية وفي حال خروجه الى صلاة الصبح . ا هـ . يعني أنه ﷺ فعل جميع ذلك .

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ ليلةً حين فرغ من صلاته يقول : « اللهم إني أسألك رحمةً من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلمُّ بها شعَثي ، وتردُّ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتردُّ بها أُلفتي ، وتعصمني بها من كلّ سوء .

« اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونُزُلَ الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء .

« اللهمَّ إني أُنزل بك حاجتي وإنْ قصر رأيي وضَعُفَ عملي ، وافتقرتُ إلى رحمتك ، فأسألك ياقاضي الأمور وياشافي الصدور ، كما تُجير بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثُّبور ، ومن فتنة القبور .

« اللهم ما قصُر عنه رأيي ، ولم تبلغْه مسألتي ، ولم تبلغه نيّتي من خير وعدتَه أحداً من خلقك ، أو خيرٍ أنتَ معطيه أحداً من عبادك ، فاني راغبٌ اليك فيه ، وأسألك برحمتك ياربَّ العالمين .

« اللهم ياذا الحبلِ الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنةَ يوم الخلود ، مع المقرّبين الشهود ، الركّعِ السجود ، الموفين بالعهود إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد .

« اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالّين ولا مُضلّين ، سِلْماً لأوليائك ، حَرْباً لأعدائك ، نحبُّ بحبك مَنْ أحبّك ، ونعادي بعداوتك مَنْ خالَفك .

« اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة ، وهذا الجُهد وعليك التُّكلان .

« اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً من بين يديَّ ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بَشَري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في مخّي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أعظمْ لي نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعل لي نوراً » (١) .

وفي رواية عند أبي عاصم قال في آخره : « وهب لي نوراً على نور » .

قال الحافظ الزرقاني : سأل النبي ﷺ النورَ في أعضائه وجهاته ، ليزداد في أفعاله وتصرُّفاته وتقلُّباته نوراً على نور ، فهو دعاء بدوام ذلك ، فانه كان حاصلاً له ﷺ لا محالة ، أو هو تعليم لأمته .

قال : وقال الشيخ أكمل الدين : أما النور الذي عن يمينه فهو المؤيِّد له ، والمعين على ما يطلبه من النور الذي بين يديه ، والنور الذي عن يساره فنور الوقاية ، والنور الذي خلفه هو النور الذي يسعى بين يدي من يقتدي به ويتبعه ، فهو لهم من بين أيديهم ، وهو له ﷺ من خلفه ، فيتبعونه على بصيرةٍ ، كما أنه المتّبَع على بصيرة ؛ قال الله تعالى : « قل : هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني » . وأما النور الذي فوقه فهو تنزُّلُ نورٍ إلهيّ قدسي بعلمٍ غريب لم يتقدّمه خبر ولا يعطيه نظر . ا هـ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : رواه الترمذي وقال غريب . قال : ورواه الطبراني أيضاً . وقال العلامة الزبيدي في شرح الإحياء : رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة ، والبيهقي في كتاب الدعوات . ا هـ .

ورواية الترمذي عن ابن عباس قد فصّلتْ قول ابن عباس في رواية مسلم : ودعا رسول الله ﷺ ليلتئذ تسع عشرة كلمةً . كما تقدم .

هيئات صلاته ﷺ النافلة في الليل

كانت هيئة صلاته النافلة ﷺ في الليل على أنواع ثلاثة ، كما في المواهب للقسطلاني وشرحها .

أحدها : أنه ﷺ كان أكثر صلاته قائماً ، دلّ على ذلك الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه ، عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ صلّى في سُبحته (١) قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام ، فكان يصلي في سبحته قاعداً ، ويقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطولَ مِن أطولَ منها . أي حتى تكون السورة القصيرة بسبب ترتيلها أطول من سورةٍ أطول منها خلت عن الترتيل .

الثاني : أنه ﷺ كان يصلي قاعداً ، ويركع قاعداً ، كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلي ليلاً طويلاً قائماً ، وليلاً طويلاً قاعداً ، وكان إذا قرأ قائماً ، ركع قائماً ، وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد .

الثالث : أنه ﷺ كان يقرأ قاعداً ، فاذا بقي يسير من قراءته ، قام فركع قائماً ، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي — أي النافلة — جالساً (٢) ويقرأ وهو جالس ، فاذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية ، أو أربعين آية ، قام وقرأها وهو قائم .. الحديث .

---

(١) قال في شرح المواهب : السبحة بضم السين فسكون الباء ، هي النافلة ، وسميت بذلك لاشتمالها على التسبيح ، من تسمية الكل باسم البعض ، وخصت به دون الفريضة . قال ابن الأثير : لأن التسبيح في الفرائض نفل وفي النوافل نوافل مثلها .

(٢) وذلك قبل وفاته بعام ، كما تقدم في حديث حفصة رضي الله عنها .

قال الحافظ الزرقاني : فجمعَ رسول الله ﷺ بين ما يطيقه من القيام والجلوس ، إبقاءً على نفسه ، ليستديم الصلاة [1] .

وكان ﷺ يُرشد من نام عن حزبه من الليل أن يأتي به ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، فيكتب له كأنما أتى به في الليل .

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نام عن حزبه — وفي رواية ابن ماجه : عن جزئه [2] — من الليل ، أوعن شيء منه ، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كتب له كأنما قرأه من الليل » .

قال الامام النووي : في هذا الخبر دلالة على المحافظة على الاوراد . ا هـ . يعني أنه ينبغي للمسلم أن يواظب على أوراد عبادته ونوافله ، في الليل والنهار ، وإن نام عن شيء من ذلك في الليل فليأتِ به حتى الظهر من النهار ، ليستمرَّ الخير والنور والأجر بلا انقطاع .

قال العلامة القرطبي : وهذه الفضيلة إنما تحصل لمن غلبه نوم أو عذرٌ منعه من القيام به ، مع أن نيَّته القيام به ، وظاهره أن له أجره مكملاً مضاعفاً ، وذلك لحسن نيته ، وصدق تلهُّفه وتأسُّفه ، وهو قول بعض شيوخنا . وقال بعضهم : يحتمل أن يكون غير مضاعف ، إذ التي يصليها ليلاً أكمل وأفضل ، والظاهر الأول . اهـ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجعٍ أو غيره ، صلَّى من النهار ثنتيْ عشرة ركعةً .

صلاته ﷺ في الضحى

روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله .

---

(١) انظر ذلك ٧ : ٤١ .

(٢) الحزب والجزء والورد كلها تؤول إلى معنى واحد ، وهو ما يجعله المسلم على نفسه ويعينه ، من صلاة وقراءة قرآن ، وذكر لله تعالى ، وغير ذلك .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى ستّ ركعات .

وروى مسلم عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثماني ركعات . قالت : ما رأيته صلى صلاةً قطُّ أخفّ منها ، غير أنه كان يتمّ الركوع والسجود .

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد . أي قبل أن أنام .

وروى الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى اثنتي عشرة ركعة (١) .

قال العلماء : ولا تنافي بين هـذه الروايات ، فقـد صلى رسول الله ﷺ الضحى تارةً ركعتين وهو أقلها ، وتارةً أربعاً وهو الأغلب ، وتـارةً ستاً ، وتارة ثمانية ، وتارة اثنتي عشرة ، وذلك أفضلها وأكثرها (٢) .

وقد أخبر النبي ﷺ عن عظيم أجر المسلم الذي يصلي صلاة الصبح في جماعة ، ثم يقعد في مصلاّه ، يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس وترتفع ، فيقوم يصلي صلاة الضحى .

فعن سهل بن معـاذ عن أبيـه رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : « من قعد في مصـلاّه حين ينصرف من صـلاة الصبح ، حتى يسبّح — أي يصلي — ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً : غُفر له خطـاياه وإن كـانت أكـثر من زَبَد البحر » .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى ، وأظنه قال : « من

---

(١) انظر المواهب للقسطلاني وشرحه للزرقاني .

(٢) انظر حاشية العلامة الباجوري على الشمائل .

صلى صلاة الفجر ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس : وجبت له الجنة » [1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى صلاة الغداة في جماعة ، ثم جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم قام فصلى ركعتين : انقلب بأجرِ حجَّةٍ وعُمْرةٍ » قال المنذري : رواه الطبراني وإسناده جيِّد .

كان ﷺ إذا صلى الصبح ذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر تربَّع — أي جلس متربعاً — في مجلسه حتى تطلع الشمس حَسَنَاً . أي : طلوعاً بارزاً ينتشر ضياؤها .

قال في الترغيب : رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، والطبراني ولفظه : كان ﷺ إذا صلى الصبح جلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس . قال : ورواه ابن خزيمة في صحيحه ولفظه : قال : عن سِماكٍ أنه سأل جابر بن سمرة : كيف كان رسول الله ﷺ يصنع إذا صلى الصبح ؟ فقال : كان يقعد في مصلاَّه إذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس .

نوافله ﷺ بين المغرب والعشاء

عن محمد بن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه قال : رأيت عمار بن ياسر يصلي بعد المغرب ستَّ ركعاتٍ ، وقال : رأيت حبيبي رسول الله ﷺ يصلي بعد المغرب ستَّ ركعات ، وقال : « مَنْ صلى بعد المغرب ستَّ ركعات غُفِرتْ له ذنوبه ، وإن كانتْ مثلَ زَبَد البحر » .

---

(١) ثم قال المنذري : رواه الثلاثة من طريق زبان بن فائد عن سهل ، وقد حسنت — أي طريقه — وصححها بعضهم . ا هـ .

قال الحافظ المنذري : حديث غريب ، رواه الطبراني في الثلاثة ، وقال : تفرّد به صالح بن قطن البخاري . قال : ولا يحضرني الآن فيه جرح ولا تعديل . ا هـ .

ومن شواهد فضل هذه الركعات بعد المغرب : ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى بعد المغرب ستّ ركعات لم يتكلم فيما بينهنّ بسوءٍ عدلن بعبادة ثنتي عشرة سنة » .

قال المنذري : رواه ابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه ، والترمذي : كلهم من حديث عمر بن أبي خثعم ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عنه ، وقال الترمذي : حديث غريب .

وله شاهد آخر من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما هو عند ابن ماجه ، في فضل من صلى بعد المغرب عشرين ركعةً .

بل كان ﷺ في بعض الأحيان يتابع صلاة النفل بعد المغرب حتى العشاء ، كما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ فصلّيتُ معه المغرب فصلى إلى العشاء .

قال الحافظ المنذري : رواه النسائي باسناد جيّد . ا هـ .

وأمّا ما يتعلق بالسنن الواردة قبل الفروض الخمسة ، والجمعة ، وبعدها : فالكلام عليها مفصّل في كتابنا « الصلاة في الاسلام » .

وأما ما يتعلق بالصيام والصدقات والحج : فهو مفصل في كتب السنن ، ولولا مخافة ملل القارىء لأتينا بجملة واسعة من ذلك .

وقد أتينا بجملٍ واسعةٍ في كتاب « تلاوة القرآن المجيد » حول قراءة النبي ﷺ للقرآن وحب استماعه من غيره ، إلى ما هنالك ، فارجع إليه .

في دعائه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يُكثر من الدعاء ، ويرغّب فيه ، ويحثُّ عليه ، في مناسبات متعددة ، وذلك لأن الدعاء نوع من العبادة . كما جاء في الحديث الذي رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ « وقال ربكم : ادعوني استجبْ لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي — أي التي من جملتها الدعاء — سيدخلون جهنم داخرين » أي ذليلين صاغرين .

وروى الترمذي عن أنس مرفوعاً : « الدعاء مخُّ العبادة » أي : خالصها ، وذلك باعتبار أن الداعي يدعو الله تعالى عند انقطاع أمله عما سواه ، وفي ذلك حقيقة التوحيد والاخلاص .

كما أن في الدعاء إظهارَ الافتقار ، لسلطان العزيز الجبار .

وفيه التبرُّؤ من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية ، واستشعارُ التذلل لعزة الربوبية .

كما أن الدعاء يتضمن الثناءَ على الله تعالى ، والاعترافَ له بأنواع الفضل والكرم.

كما أن الدعاء مفتاح الرحمة الالهية . فقد روى الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « من فُتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سُئل اللهُ تعالى شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية .. » الحديث .

كما أن الدعاء فيه استمداد القوة ، وهو سلاح قاصم . فقد روى أبو يعلى والديلمي ، والحاكم وصححه ، عن علي كرم الله وجهه مرفوعاً : « ألا أدلّكم على ما يُنجيكم من عدوكم ، ويُدرّ لكم أرزاقكم ؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم ، فان الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » .

كما أن الدعاء فيه إرضاءُ الله تعالى . روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، وصححه ابن حبان والحاكم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ لم يسأل اللهَ يغضب عليه » . قال العلامة الطيبي : معناه أن مَن لم يَسأل اللهَ يُبغضه ، والمبغوض مغضوب عليه ، والله يحبُ أن يسأل . ا هـ .

وقد بيَّن النبي ﷺ وجوه إجابة الدعاء ، ففي مسند أحمد وغيره ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يُعجِّل له دعوته ، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

آدابه ﷺ في الدعاء

كان ﷺ يرفع يديه في الدعاء حَذْو منكبيه ، وقد جاء ذلك في كثير من أدعيته ، دعا بها في مناسبات متعددة . قال الامام القسطلاني في إرشاد السارى : وقد جمع النووي في شرح المهذب نحواً من ثلاثين حديثاً في ذلك — أي في رفع يديه ﷺ في الدعاء — من الصحيحين وغيرهما ، وللمنذري فيه جزء . ا هـ .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حييٌ كريم ، يستحيي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يَردَّهما صِفراً خائبتين » (١) .

وكان ﷺ يدعو مشيراً بباطن كفيه نحو السماء تارةً إن كان الدعاء بنحو تحصيل شيء ، وبظاهرهما إلى السماء تارةً إن دعا بنحو دفع بلاء ، كما ورد في سنن أبي داود عن أنس (٢) .

ولذا قال الإمام النووي : قال العلماء : السنة في كل دعاء لدفع بلاء أن يرفع

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، كما في جامع العلوم ، ونزل الأبرار ، وغيرهما .

(٢) انظر شرح المواهب وغيره .

يديه ، جاعلاً ظهور كفيه إلى السماء ، وإذا دعا بسؤال شيء وتحصيله أن يجعل كفيه إلى السماء . ا هـ .

وفي صحيح البخاري : قال أبو موسى الأشعري : دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه (١) .

وكان ﷺ يبالغ في رفع يديه في الاستسقاء ، وفي مواقف الاستغاثة بالله عز وجلّ ، والاستنصار على الأعداء ، كما جاء في الصحيحين : أنه ﷺ رفع يديه يوم بدر يستنصر على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه ﷺ .

وكان ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسحَ بهما وجهه (٢) . وروى أبو داود عن بُريدة أن النبي ﷺ كان إذا دعا فرفع يديه : مسح وجهه بيديه (٣) .

قال العلامة المناوي : وذلك عند فراغه من الدعاء ، تفاؤلاً وتيمّناً أن كفيه مُلئتا خيراً ، فأفاض منه على وجهه ، فيتأكد ذلك للداعي . ذكره الحَليمي . ا هـ .

وكان يستقبل القبلة في دعائه ، كما ورد في مسند أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ لما أنزلت عليه عشر آيات من أول سورة « قد أفلح المؤمنون » قال عمر : فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ﷺ وقال : « اللهم زدنا ولا تَنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنّا ، وأعطنا ولا تحرِمنا ، وآثِرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارضَ عنا .. » الحديث (٤) .

وقد استقبل رسول الله ﷺ القبلة يوم بدر ، ودعا الله تعالى .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى أن يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى ، ثم بالصلاة على النبي ﷺ .

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : وذلك لعدم الشعر أصلا ، أو لدوام تعهده بالإزالة .

(٢) رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر ، وقال الترمذي : صحيح غريب ، كما في فيض القدير .

(٣) وقد زمز السيوطي إلى حسنه .

(٤) ورواه الترمذي في التفسير والنسائي في الصلاة .

قال النووي في الاذكار : روينا في كتابي الترمذي وابن ماجه ، عن عبد الله ابن أبي أوفي رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ، فقعد فقال « من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بني آدم ، فليتوضأ ، وليُحْسن الوضوء ، ثم ليصلِّ ركعتين ، ثم ليُثْن على الله عزّ وجلّ ، وليصلّ على النبي ﷺ ، ثم ليقل:

لا إله إلا الله الحليمُ الكريمُ ، سبحان الله ربّ العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، أسألك موجباتِ رحمتك ، وعزائمَ مغفرتك ، والغنيمة من كل برٍّ ، والسلامة من كل إثم ، لا تدعْ لي ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرّجته ، ولا حاجةً هي الك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين » قال الترمذي : وفي اسناده مقال اه [1].

ويدل على استفتاح الدعاء بالثناء : ماروى الامام احمد والحاكم ، عن سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يستفتح دعاءه بـ « سبحان ربي العليّ الأعلى الوهاب » .

ولذا قال الامام حجة الاسلام الغزالي رضي الله عنه : فيندب أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ، وبما هو اللائق من ذكر المواهب والمكارم أولى . اهـ .

ومن آداب الدعاء التي أرشد اليها النبي ﷺ : الصلاة عليه أول الدعاء ، وأوسطه ، وآخره ، كما جاء في مسند أحمد من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله قال : « لا تجعلوني كقَدَح [2] الراكب » قيل : وما قدحه يا رسول الله ؟ قال : « فان الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه على راحلته ، فانْ احتاج إلى شراب شربه ، أو الوضوء توضأ ، وإلاّ هَراقه ، اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره» [3].

والمراد : أن يصلّى عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره ﷺ .

وعن علي رضي الله عنه قال : كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يصلّى على محمد ﷺ [4].

---

(١) وقد رواه الحاكم في المستدرك ، وله شواهد متعددة ، كما في نزل الأبرار ، وشرح الأذكار ، وتحفة الذاكرين .

(٢) القدح بفتحتين : إناء صغير للشرب .

(٣) انظر المواهب للقسطلاني وشرحه .

(٤) قال في الترغيب : رواه الطبراني في الأوسط موقوفاً ، ورواته ثقات ، ورفعه بعضهم ، والموقوف أصح . اهـ .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً قال : إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ﷺ .

ومن آداب الدعاء الالحاحُ فيه . روى أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعجبه أن يدعو ثلاثاً ، ويستغفر ثلاثاً .

ورُوي عنه ﷺ أنه قال : « إن الله يحب الملحّين في الدعاء » [1] .

ومن مطالب الدعاء التي أرشد اليها النبي ﷺ لتحصل الاجابة : تطييب المأكل والمشرب والملبَس ، وذلك بأن يكون حلالاً .

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « يآأيها الرسُل كلوا من الطيبات — أي الحلال — واعملوا صالحاً .. » الآية . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إنْ كنتم إياه تعبدون » ثم ذكر — رسول الله ﷺ — الرجلَ يُطيل السفر أشعثَ أغبرَ ، يمدُّ يديه إلى السماء : ياربّ ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغُذي بالحرام ، فأنّى يُستجابُ لذلك ؟ ! » .

ومن ذلك إرشاده ﷺ الداعي إلى عدم الاستعجال ، بأن يقول : قد دعوتُ ربي فلم يُستجَب لي ، فان ذلك يُبعد الاجابة ، لما ورد في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعجل ، يقول : دعوتُ فلم يُستجب لي » وفي رواية : « دعوتُ ربي فلم يستجب لي » .

وروى أحمد وأبو يعلى برجال الصحيح من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لا يزال العبدُ بخير مالم يستعجل » قالوا : يانبي الله وكيف يستعجل ؟

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ، والبيهقي في الشعب ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، كما في نزل الأبرار وغيره .

قال : « يقول قد دعوتُ فلم يُستجب لي » (١) .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى العزم والجزم بوقوع مطلوبه . ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئتَ ، اللهم ارحمني إن شئتَ — وفي رواية البخاري : اللهم ارزقني إن شئتَ — ولكن ليعزم المسألة ، فان الله تعالى لا مُكرِه له » .

وإنما نهى عن ذلك لأن التعليق بالمشيئة إنما يُحتاج اليه ، إذا تأتّى إكراه المطلوب منه ، وأمكن أن يُكره على تحقيق المطلوب ، وإن الله هو منزّه عن أن يُكره على أمر ، أو أن يفعل كُرهاً ، وإنما يفعل جميع ما يفعل بمشيئته وإرادته سبحانه ، ولا مُكره له سبحانه .

ونقل في شرح المواهب عن النووي أن هذا النهي محمول على الكراهة ، قال : وهو أولى . قال : وظاهر كلام ابن عبد البرّ أنه نهي تحريم . وهو الظاهر . قاله الحافظ — أي في الفتح — اﻫ .

قال القسطلاني : وقيل : معنى العزم أن يُحسن الظن بالله في الاجابة ، فانه يدعو كريماً ، وقد قال ابن عيينة : لا يمنعنّ أحدَكم الدعاءَ ما يعلم من نفسه — يعني : من التقصير — فان الله تعالى قد أجاب دعاء شرّ خلقه ، وهو إبليس ، حين قال : أنظرْني إلى يوم يُبعثون . اﻫ .

وكان ﷺ يُرشد الداعي إلى ختم دعائه بالتأمين ، لتحصل الاجابة . روى أبو داود عن أبي زهير النميريّ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة نمشي ، فأتينا على رجلٍ قد ألحّ في المسألة (٢) فوقف النبي ﷺ يستمع منه ، فقال النبي

---

(١) فبين النبي صلى الله عليه وسلم الاستعجال المذموم ، وهو أن يقول الداعي : دعوت فلم يستجب لي ، وهذا لا يمنع أن يسأل العبد ربه تعجيل الإجابة ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعاء الاستسقاء : « عاجلا غير رائث » .

(٢) أي : أكثر من الرجاء والدعاء .

ﷺ : « أوجَبَ [1] إن ختمه » فقال رجل من القوم : بأيّ شيءٍ يختمه ؟ فقال « بآمين ، فانه إن ختمه بآمين فقد أوجَبَ » فانصرف الرجل الذى سأل النبيّ ﷺ فأتى الرجلَ — الذي ألحّ في المسألة — فقال — له — : اختمْ يافلان بآمين وأبشر .

وروى الحاكم عن حبيب بن سلمة الفهريّ — وكان مجاب الدعاء — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع ملأ — أي جماعة — فيدعو بعضهم ، ويؤمّن بعضهم ، إلاّ أجابهم الله تعالى » [2] .

وكان ﷺ يرشد الداعي إلى أن يوقن بالاجابة ، وأن يدعو عن قلبٍ شاهد ، لا عن قلب غافل . ففي مسند الامام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فاذا سألتم الله عزّ وجلّ ياأيُّها الناس ، فاسْألوه وأنتم موقنون بالاجابة ، فان الله لا يستجيب لعبدٍ دعاءَه عن ظهر قلبٍ غافلٍ » [3] .

ومن آداب الدعاء الواردة عنه ﷺ : أنه كان يستحب الجوامع من الدعاء .

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان يستحبُّ الجوامع من الدعاء ، ويَدَع — أي يترك — ماسوى ذالك [4] . ورواه الحاكم بلفظ : كان يُعجبه ﷺ الجوامع .

والمراد بجوامع الدعاء : ما جمع مع وَجازته خيري الدنيا والآخرة . نحو : ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار . وهذا أوجهُ ما قيل في معنى جوامع الدعاء . وبناءً عليه يكون قول عائشة رضي الله عنها — ويدع

---

(١) قال الزرقاني : قال الحافظ في أماليه : أي عمل عملا وجبت له الجنة ، وقال السيوطي : الظاهر أن معناه فعل ما تجب له به الإجابة . ا هـ .

(٢) انظر ترغيب المنذري .

(٣) قال الحافظ المنذري : إسناده حسن ، ثم أورد هذا الحديث من رواية الترمذي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنــه .

(٤) قال الإمام النووي في الأذكار والرياض : إسناده جيد . ا هـ .

ما سوى ذلك — محمولاً على أغلب الأحوال لا كلها . فقد قال الحافظ المنذري : كان ﷺ يجمع في الدعاء تارةً ويفصّل أخرى . ا هـ (١) .

وقيل : جوامع الدعاء هي الكلمات التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الحسنة . وقيل : هي التي تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة .

من جوامع أدعيته العامة ﷺ

جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : كان أكثرُ دعاء النبي ﷺ : « اللهمَّ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار » .

والحسنة في الدنيا : هي — كما ورد عن علي كرم الله تعالى وجهه — المرأة الصالحة . وقال قتادة : هي العافية والكفاف ، وقال الحسن البصري : هي العلم والعبادة . وقال السُّدي : المال الصالح . وقال ابن عمر : الأولاد الأبرار أو ثناء الخلق . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : هي صحبة الصالحين .

قال العلامة الآلوسي : والظاهر أن الحسنة ، وإنْ كانت نكرةً في الاثبات وهي لا تعمُّ إلا أنها مطلقة فتنصرف إلى الكامل ، والحسنة الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها ، وهو توفيق الخير ، وبيانها — أي تفسير الحسنة — بشيء مخصوص ، ليس من باب تعيين المراد ، إذ لا دلالة للمطلق على المقيَّد أصلاً ، وإنما هو من باب التمثيل . قال : وكذا الكلام في « وفي الآخرة حسنة » فقد قيل : هي الجنة ، وقيل : السلامة من هول الموقف وسوء الحساب ، وقيل : الحور العين ، وقيل : لذة الرؤية — أي رؤية الباري جلَّ وعزَّ — وقيل وقيل ! والظاهر الاطلاق وإرادة الكامل ، وهو الرحمة والاحسان . ا هـ . أي بجميع تلك الاصناف وغيرها .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دعا رجلاً من

---

(١) انظر ذلك في شرح الزرقاني على المواهب ، وفيض القدير للمناوي .

المسلمين قد صار مثلَ الفرخ المنتوف ، فقال له ﷺ : « هل كنتَ تدعو اللهَ بشيءٍ ؟ » قال : نعم ، كنتُ أقول : اللهم ما كنتَ معاقبي به في الآخرة ، فعجِّله لي في الدنيا ! فقال ﷺ : « سبحان الله ! إذاً لا تطيق ذلك ولا تستطيعه ، فهلاَّ قلتَ : ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار » ودعا له فشفاه الله تعالى .

ومن أدعيته الجامعة ﷺ : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادةً لي من كلِّ خير ، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شرٍّ »

ومن ذلك : « ربِّ أعنّي ولا تُعِنْ عليَّ ، وانصُرني ولا تنصُر عليَّ ، وامكُر لي ولا تمكر عليَّ [١] ، واهدني [٢] ويسِّرْ لي الهُدى ، وانصرني على من بغى عليَّ ، ربِّ اجعلني لك ذكّاراً ، لك شكّاراً ، لكَ رهّاباً ، مِطْواعاً لك ، مُخْبِتاً إليكَ ، أوّاهاً منيباً ، ربِّ تقبَّل توبتي ، واغسل حَوْبتي [٣] ، وأجبْ دعوتي ، وثبِّت حُجَّتي ، وسدِّدْ لساني ، واهدِ قلبي ، واسلُلْ سخيمة [٤] صدري . وفي رواية : قلبي » [٥] .

ومن ذلك : « اللهم إني أسألك الهُدى والتُّقى ، والعفاف [٦] والغنى [٧] » . رواه مسلم من حديث ابن مسعود .

---

(١) قال في النهاية : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه ، وقيل : هو استدراج العبد بالطاعات ، فيتوهم — العبد — أنها مقبولة ، وهي مردودة ، والمعنى : ألحق مكرك بأعدائي لا بي . ا هـ . قال العلامة الزرقاني : ولا يسند — المكر — إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج . والمقابلة هنا مقدرة ، لأن قوله : « امكر لي » معناه جازِ مَن مكر علي . ا هـ .

(٢) أي : اهدني لصالح الأعمال والأخلاق .

(٣) أي : خطيئتي .

(٤) بفتح السين وكسر الخاء هي : الحقد .

(٥) رواه أصحاب السنن وصححه الحاكم ، كلهم عن ابن عباس .

(٦) أي : الصيانة عن مطامع الدنيا وعن المنهيات .

(٧) غنى النفس ، والغنى عن الناس .

ومن أدعيته ﷺ : « اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنت ، وعليك توكّلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ . اللهم إني أعوذ بعزّتك لا إلٓه إلا أنتَ : أن تُضلّني ، أنت الحيُّ الذي لا يموت . وفي رواية : أنتَ الحيُّ القيُّوم الذي لا يموت والجن والانس يموتون » . رواه الشيخان عن ابن عباس .

ومن أدعيته ﷺ : « اللهم عافني في جسدي ، وعافني في سمعي وبصري ، واجعلهما الوارثَ مني [1] لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين » . رواه الترمذي والحاكم والبيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها .

ومن أدعيته ﷺ الجامعة لأنواع من التعاويذ : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجُبْن والهرَم ، والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » . رواه الشيخان من حديث أنس وفي رواية للبخاري : « اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزَن ، والعجز والبخل ، والجبن وضَلَع الدَّين [2] وغلبة الرجال » [3] .

ومن ذلك : اللهم إني أعوذ بك من الجُذام [4] والبرَص والجنون وسيِّىء الأسقام » . رواه أبو داود والنسائي من حديث أنس بإسنادٍ صحيح .

ومن ذلك : ما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر . اللهمَّ آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير مَنْ زكّاها ، أنت وليُّها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يُستجاب لها » [5] .

---

(١) أي : أبقهما علي صحيحين سليمين إلى أن أموت ، بأن يلازماني لزوم الوارث لموروثه .

(٢) أي : ثقل الديون .

(٣) أي : تسلط الرجال وشدتهم بغير حق شرعي .

(٤) الجذام كـ « غراب » : علة تحدث في البدن ، فتفسد مزاج الأعضاء ، وربما تؤدي إلى تآكلها وسقوطها .

(٥) رواه مسلم ، وكذا الإمام أحمد وأصحاب السنن ، كما في شرح المواهب .

قال العلامة الطيبي : في كلٍّ من هذه القرائن (١) إشعارٌ بأن وجود الشيء مبني على غايته ، والغرض — أي المقصود — الغاية ، فان تعلم العلم إنما هو للنفع به ، فاذا لم ينفعه لم يخلُص كَفافاً . بل يكون وبالاً — على صاحبه — ، وإن القلب إنما خُلق ليخشع لربه تعالى ، فاذا لم يخشع فهو قاسٍ يُستعاذ منه ، « فويلٌ للقاسية قلوبُهم » وإنما يعتدُّ بالنفس إذا تجافتْ — أي تباعدت — عن دار الغرور ، وأنابت إلى دار الخلود ، فاذا كانت — النفس — نهمةً لا تشبع ، كانت أعدى عدوٍّ للمرء ، فهي أهمُّ ما يُستعاذ منه . وعدم استجابة الدعاء : دليلٌ على أن الداعي لم ينتفع بعلمه ، ولم يخشع قلبه ، ولم تشبع نفسه . ا هـ .

وكان ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الشِّقاق والنفاق ، وسوء الأخلاق » (٢) . رواه أبو داود من حديث أبي هريرة .

وكان ﷺ يُعوِّذ الحسن والحسين يقول : « أعوذ — هذا لفظ البخاري ووقع في الأذكار : أُعيذكما — بكلمات الله (٣) التامَّة (٤) ، من كلِّ شيطان وهامَّة (٥) ، ومن كلِّ عينٍ لامَّة (٦) . ويقول : إن أباكما — أي جدكما الأعلى ابراهيم عليه الصلاة والسلام — كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق » رواه البخاري وغيره .

وكان ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفُجاءة (٧) نقمتك ، وجميع سَخَطك » . رواه مسلم وأبو داود .

---

(١) أي : القرائن الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

(٢) أما الشقاق : فالمراد به التعادي والخلاف ، والمراد بالنفاق : نفاق العمل ، وأن سوء الأخلاق من المهلكات والمخازي .

(٣) أي : كلامه على الإطلاق ، أو القرآن الكريم خاصة .

(٤) قال الزرقاني : أي الكاملة ، أو النافعة ، أو الشافية ، أو المباركة ، أو القاضية التي تمضي وتستمر ولا يردها شيء ولا يدخلها نقص ولا عيب . ا هـ . وعلى كل فهي صفات مؤكدة وكاشفة .

(٥) بتشديد الميم : ذات السموم .

(٦) التي تصيب ما نظرت إليه بسوء .

(٧) بضم الفاء والمد ، وبفتحها والقصر ، أي بغتة العقوبة وأخذة الغضب . كما في شرح المواهب .

وكان ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال ، والأهواء والأدواء » . رواه الترمذي وغيره .

وكان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء ومن ليلة السوء ومن ساعة السوء ، ومن صاحب السوء ، ومن جار السوء في دار المُقامة » . رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر .

أدعيته ﷺ في مناسبات متعددة

دعاؤه ﷺ إذا أراد أن ينام: كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجعه : « اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامَّة ، من شرِّ ما أنت آخذٌ بناصيته ، اللهم أنتَ تكشفُ المَغْرَم والمأثم ، اللهم لا يُهزم جندُك ، ولا يُخلَف وعدك ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ ، سبحانك وبحمدك » [١] .

وكان إذا أراد أن يرقُد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : « اللهم قِني عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات [٢] .

وكان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممَّن لا كافي له ولا مُؤوي » [٣] .

دعاؤه ﷺ إذا استيقظ من نومه : كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : « باسمك أموت وأحيا » وإذا قام قال : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » [٤] .

دعاؤه ﷺ إذا دخل الخلاء وإذا خرج منه : عن أنس رضي الله عنه قال :

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما من حديث علي كرم الله وجهه .

(٢) أخرجه أبو داود من حديث حفصة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم وأصحاب السنن .

(٤) رواه الشيخان وغيرهما من حديث حذيفة .

كان النبي ﷺ يقول إذا دخل الخلاء : « بسم الله ، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » وفي رواية الطبراني : « اللهم إني أعوذ بك من الرِّجس النَّجس ، الخبيث المُخْبِث ، الشيطان الرجيم » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول إذا خرج من الخلاء : « غفرانك » [1] .

والطبراني عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء يقول : « الحمد لله الذي أذاقني لذّته ، وأبقى فيّ قوّته ، وأذهب عني أذاه » .

دعاؤه ﷺ إذا خرج من بيته : عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ إذا خرج من بيته قال : « بسم الله ، توكّلتُ على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ ، أو أَظلِم أو أُظلَم ، أو أَجهل أو يُجهل عليَّ » [2] .

ومن دعائه إذا توجّه إلى المسجد ، وإذا دخله ، وإذا خرج منه : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ خرج إلى الصلاة وهو يقول : « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وخلفي نوراً ، وفي عصبي نوراً ، وفي لحمي نوراً ، وفي دمي نوراً ، وفي شعري نوراً ، وفي بَشَري نوراً » [3] .

وعن السيدة فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد يقول : « بسم الله ، والصلاةُ والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج قال : « بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك » [4] .

---

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه أصحاب السنن .

(٣) رواه الشيخان ، وتقدم رواية لمسلم حين خرج صلى الله عليه وسلم لصلاة الصبح .

(٤) رواه الترمذي وغيره .

وكان ﷺ يقول إذا دخل المسجد : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » (١) .

ومن أدعيته ﷺ إذا أصبح وإذا أمسى : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال « اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور » وإذا أمسى قال : « اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك النشور » (٢) .

وكان ﷺ إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إلٰه إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلِّ شيء قدير ، ربِّ أسألكَ خيرَ ما في هذه الليلة ، وخيرَ ما بعدها ، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة ، وشرِّ مابعدها ، رب أعوذ بك من الكسل والهرم ، وسوء الكِبَر ، أعوذ بك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر » .

وإذا أصبح قال : « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله .. » (٣) إلى آخر ماسبق .

وكان ﷺ إذا أصبح قال : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ، والخَلْق والأمر ، والليل والنهار ، وما يسكن فيهما ، لله تعالى ، اللهم اجعل أوّلَ هذا النهار صلاحاً ، وأوسطَه فلاحاً ، وآخره نجاحاً ، ياأرحم الراحمين» (٤) .

وكان ﷺ يقول : « إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم أسألك خيرَ هذا اليوم : فتحَه ونصرَه ، ونورَه وبركته وهُداه، وأعوذ بك من شرِّ مافيه ، وشرِّ ما بعده . ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك » (٥) .

---

(١) رواه أبو داود وقال النووي : إسناده جيد .

(٢) رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، والطبراني وابن السني من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه ، كما في تحفة الذاكرين وغيره .

(٥) قال في الأذكار : رويناه في سنن أبي داود بإسناد لم يضعفه ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

وكان ﷺ يدعو حين يمسي وحين يصبح بهذه الدعوات : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي . اللهم استُر عَوراتي وآمِنْ رَوْعاتي . اللهم احفظني من بين يديَّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومِن فوقي ، وأعوذ بعظمتكَ أن أُغتالَ من تحتي » [١] .

وكان ﷺ يدعو إذا أصبح وإذا أمسى : « اللهم عافني في بدني . اللهم عافني في سمعي . اللهم عافني في بصري . لا إلٓه إلا أنت — ثلاثاً — اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر . اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنتَ — ثلاثاً — » [٢] .

وقال ﷺ لابنته الكريمة السيدة فاطمة رضي الله عنها : « ما يمنعكِ أن تسمعي ما أوصيك ِبه؟ تقولين إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ : ياحيُّ يا قيُّوم برحمتكَ أستغيثُ ! أصلِحْ لي شأني كلَّه ، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين » [٣] .

وكان ﷺ إذا أهمَّه الأمر رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « سبحان الله العظيم » وإذا اجتهد في الدعاء قال : «ياحيُّ ياقيُّوم » [٤] .

وكان ﷺ إذا أراد أمراً قال : « اللهم خِرْ لي واختَر لي » [٥] .

وكان ﷺ إذا استجدَّ ثوباً سمَّاه باسمه : قميصاً ، أو عمامةً ، أو رداءً ، ثم يقول : « اللهم لك الحمد أنتَ كسوتنيه ، أسألك من خيره ، وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شرِّه ، وشرِّ ما صُنِع له » [٦] .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وأغتال : مبني لما لم يسم فاعله ، ومعناه : أؤخذ غيلة ، وقد فسر هنا بالخسف .

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي .

(٣) رواه النسائي والحاكم في المستدرك من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي عن الصديق رضي الله عنه ، قال النووي : سنده ضعيف .

(٦) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

وكان ﷺ إذا رأى المطر قال : « اللهم صيِّباً نافعاً » [١] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال : « اللهم أهِلَّه علينا باليُمن والايمان ، والسلامة والاسلام ، ربي وربُّك الله » [٢] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال : « اللهم أهِلَّه علينا بالأمن والايمان ، والسلامة والاسلام ، والتوفيق لما تحبُّ وترضى ، ربُّنا وربُّك الله » [٣] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال : « الله اكبر الله أكبر ، الحمد لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إني أسألك من خير هذا الشهر ، وأعوذ بك من سوء القدر ، ومن شر يوم المحشر » [٤] .

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال : « هلال خيرٍ ورشد ، آمنت بالذي خلقك » — ثلاثاً — ثم يقول : « الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا » [٥] .

وكان ﷺ إذا دخل رجب قال : « اللهم بارك لنا في رجب وشعبان ، وبلِّغنا رمضان » وكان إذا كانت ليلة الجمعة قال : « هذه ليلة غرّاء ويوم أزهر » [٦] .

وكان ﷺ إذا عصفت الريح — أي اشتدَّت وهاجتْ — قال : « اللهم إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ماأُرسلتْ به ، وأعوذ بك من شرّها ، وشرّ ما فيها ، وشر ما أُرسلتْ به » [٧] .

وكان ﷺ إذا تضوّر [٨] من الليل قال : « لا إله إلا الله الواحد القهّار ، ربُّ

(١) رواه أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) رواه أحمد والترمذي
(٣) عزاه في الجامع الصغير للطبراني رامزاً لحسنه .
(٤) رواه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٥) رواه أبو داود عن قتادة بلاغاً ، وابن السني عن أبي سعيد ، كما في الجامع الصغير .
(٦) عزاه في الجامع الصغير للبيهقي وابن عساكر ، وقال النووي في الأذكار : إسناده ضعيف .
(٧) رواه مسلم والترمذي .
(٨) أي : تقلب أثناء النوم .

السماوات والأرض وما بينهما ، العزيز الغفّار » [١] .

وكان ﷺ إذا دخل السوق قال : « بسم الله ، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق ، وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أُصيب فيها يميناً فاجرة — أي كاذبة — أو صَفقةً خاسرةً » [٢] .

وكان ﷺ إذا أُتي بباكورة الثمرة [٣] وضعها على عينيه ، ثم على شفتيه ، وقال : « اللهمّ كما أريتَنا أوّله فأرنا آخره » ثم يعطيه مَنْ يكون عنده من الصبيان [٤] .

وكان ﷺ إذا قُرِّب إليه طعامه — وفي رواية احمد : طعام — قال ﷺ : « بسم الله » فاذا فرغ قال : « اللهم إنك أطعمتَ وسقيتَ ، وأغنيتَ وأقنيتَ [٥] ، وهديتَ واجتبيتَ ، اللهم فلك الحمد على ما أعطيتَ » [٦] .

وكان ﷺ إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وجعلنا من المسلمين » [٧] .

وكان ﷺ يقول أيضاً إذا فرغ من طعامه : « اللهم لك الحمد أطعمتَ وسقيتَ ، وأشبعتَ وأرويت ، فلك الحمد غيرَ مكفور ولا مودَّع ، ولا مُستغنىً عنك » [٨] .

---

(١) رواه النسائي والحاكم وابن حبان ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الحافظ العراقي في أماليه : حديث صحيح ، كما في فيض القدير .

(٢) رواه الطبراني عن بريدة ، قال الحافظ الهيثمي : فيه — أي في إسناده — محمد بن أبان الجعفي ، وهو ضعيف . ا هـ . ورواه الحاكم أيضاً .

(٣) الباكورة : هي أول ما يدرك من الفاكهة .

(٤) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس في الكبير والصغير ، ورجال الصغير رجال الصحيح ا هـ . ورواه الحاكم عن أنس .

(٥) أي : أعطيت ما يقتنى فوق الحاجة .

(٦) رواه النسائي وأحمد ، قال الحافظ في الفتح : وسنده صحيح . ا هـ قال المناوي : لكن قال النووي في الأذكار : إسناده حسن . ا هـ .

(٧) رواه أحمد والضياء في المختارة عن أبي سعيد ، وقد رمز في الجامع الصغير لحسنه .

(٨) عزاه في الجامع الصغير إلى الإمام أحمد رامزاً لحسنه .

وكان ﷺ إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله الذي أطعم وسقى ، وسوَّغه ، وجعل له مخرجاً » رواه أبو داود وغيره .

وكان ﷺ إذا أفطر — أي من صومه — قال : « اللهم لك صُمتُ ، وعلى رزقك أفطرتُ ، فتقبَّل مني ، إنك أنت السميع العليم » (١) .

وكان ﷺ يقول أيضاً إذا أفطر : « ذهب الظمأ وابتلَّت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى » (٢) .

وكان ﷺ إذا أفطر عند قوم قال — في دعائه لهم — : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وتنزَّلت عليكم الملائكة » أي : بالرحمة والخير الآلهي . وفي رواية « وصلَّت عليكم الملائكة » بدلاً من « وتنزَّلت » (٣) .

وكان ﷺ إذا أكل عند قوم دعا لهم فقال : « أكل طعامَكم الأبرارُ ، وصلَّتْ عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » . رواه أحمد والبزار .

وكان ﷺ إذا رفَّأ الانسان إذا تزوَّج قال له : « بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير » (٤) .

وقد كانوا في الجاهلية يقولون للرجل إذا تزوَّج : بالرفاء والبنين ، فنهاهم ﷺ عن ذلك ، لأنه ليس فيه حمد ولا ثناء ، ولا ذكر لله تعالى ، ولما فيه من الاشارة إلى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكر ، وغير ذلك

وعلَّمهم أن يقولوا لمن تزوَّج « بارك الله لك » أي : في هذا الزواج « وبارك

---

(١) رواه أبو داود إلى قوله : « أفطرت » والطبراني وابن السني بالزيادة كما في الجامع الصغير .

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر .

(٣) عزاه في الجامع الصغير للإمام أحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه رامزاً لحسنه ، قال في فيض القدير : رواه أيضاً عنه أبو داود .

(٤) رواه أصحاب السنن وابن حبان ، وقال الترمذي فيه : حسن صحيح . انظر فيض القدير وتحفة الذاكرين وغيرهما .

عليك » بالأولاد والنسل المبارك « وجمع بينكما في خير » وذلك بحسن المعاشرة ، وتمام الموافقة والمودَّة بين الزوجين .

وكان ﷺ يعلِّم الرجل إذا تزوَّج امرأة أن يقول : « اللهم إني أسألك خيرها ، وخيرَ ما جبَلْتَها عليه ، وأعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ ماجبَلْتَها عليه » [١] وفي رواية : وأن يأخذ بناصيتها ، ويدعو بالبركة في المرأة .

وكان ﷺ يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ، وربَّ العرش الكريم » [٢]. وفي رواية للبخاري : « لا إله إلا الله الحليم الكريم » . وفي رواية لمسلم : كان ﷺ إذا حزَبه أمر قال ذلك .

وكان يقول إذا كرَبه أمر : « يا حيُّ ياقيومُ ، برحمتك أستغيث » رواه الترمذي

وكان ﷺ إذا خاف قوماً — أي خاف من شرِّهم — قال : « اللهم إنا نجعلكَ في نحورهم ، ونعوذ بكَ من شرورهم » [٣] .

وقال أنس : كنا مع النبي ﷺ في غزوةٍ فلقي العدوَّ ، فسمعتُه يقول : «يامالكَ يوم الدِّين ، إيَّاك أعبدُ وإياك أستعين » فلقد رأيت الرجال — الاعداء — تُقرَع — تضربها الملائكة — من بين أيديها ومن خلفها [٤] .

وكان ﷺ إذا عاد مريضاً يمسح بيده اليمنى ويقول : « اللهم ربَّ الناس ، أذهبِ البأس ، اشْفِ أنت الشافي ، لا شفاءَ إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر — أي لا يترك — سقماً » [٥] .

---

(١) رواه أبو داود وأبو يعلى ، كما في الحصن وشرحه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن السني ، قال النووي : ويستحب أن يقول ما قدمناه في الباب السابق من حديث أبي موسى اهـ .

(٥) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال أنس رضي الله عنه لثابت البناني رحمه الله تعالى : ألا أرقيكَ رُقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : « اللهم ربَّ الناس مُذهبَ البأس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شافيَ إلاَّ أنتَ ، شفاءً لا يغادر سقماً » (١) .

وكان ﷺ إذا عاد مريضاً جلس عند رأسه ثم قال سبعَ مرات : « أسألُ الله العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يشفيَك » رواه ابن حبان وصححه ، والنسائي بهذا اللفظ . ورواه أبو داود والترمذي وحسنه ، عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ عادَ مريضاً لم يحضُر أجلُه ، فقال عنده سبع مرات : « أسأل اللهَ العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، أن يشفيك ، إلاَّ عافاه الله تعالى من ذلك المرض » (٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مَنْ يعوده قال : « لا بأسَ طَهُورٌ إن شاء الله » رواه البخاري .

وكان ﷺ يعلّم الذي يفزع بالليل ، أو يعتريه الأرَق أن يقول : « أعوذ بكلمات الله التامَّات ، من غضبه وعقابه ، وشرّ عباده ، ومن هَمَزات الشياطين ، وأن يحضُرونِ » . وكان ابن عمرو يُلقّنها من عَقَل من ولده ، ومن لم يَعقِل كتبها له في صكٍ ، ثم علّقها في عنقه (٣) .

وعلّم رسول الله ﷺ خالدَ بن الوليد حين اعتراه الأرَق أن يقول : « اللهم ربَّ السموات السبع وما أظلّت ، وربَّ الأرضينَ وما أقلّت ، وربَّ الشياطينَ وما أضلّت ، كنْ لي جاراً من شرّ خلقك كلهم جميعاً ، أن يفرط عليَّ أحد منهم ، أو أن يطغى ، عزَّ جارُك ، وجلَّ ثناؤك » وفي رواية : « وتبارك اسمك ، ولا إله إلا أنت » رواه الترمذي والطبراني كما في الترغيب .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) انظر شرح رياض الصالحين ونزل الأبرار .

(٣) رواه أبوداود ، والترمذي واللفظ له . وقال : حسن غريب . ورواه النسائي والحاكم وليس عنده تخصيصها بالنوم ، كما في الترغيب للمنذري ، فهي تستعمل لكل من يعتريه الوحشة والفزع والخوف . ويقول ذلك ثلاث مرات كما جاء في رواية .

وكان ﷺ إذا أراد أن يقوم من المجلس يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب اليك » فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنتَ تقوله فيما مضى ؟ فقال : « ذلك كفّارةٌ لما يكون في المجلس» [1] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات : « اللهم اقسمْ لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنّتك ، ومن اليقين ما تهوّن علينا مصائب الدنيا . اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقوّتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارثَ منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبرَ همّنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا » [2] ؛

ومن آداب المجلس الواردة عن النبي ﷺ : ما رواه الترمذي وحسنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً ، لم يذكروا الله تعالى فيه ، ولم يصلّوا على نبيّهم فيه : إلا كان عليهم تِرَة [3] فان شاء عذّبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

قال الامام النووي : وروينا في حلية الأولياء ، عن عليٍّ كرّم الله وجهه أنه قال : من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى ، فليقل في آخر مجلسه أو حين يقوم : « سبحان ربّك ربّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربّ العالمين » .

وكان ﷺ إذا ودّع رجلاً قال له : « أستودعُ اللهَ دينَك وأمانتك ، وخواتيم

---

(١) رواه أبو داود والنسائي في عمل اليوم والليلة ، عن أبي برزة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٣) قال الإمام النووي : الترة بكسر التاء المثناة من فوق ، وهي النقص ، وقيل : التبعة وهي ما نطلب من ظلامة ونحوها .

عملك (١) وأقرأ عليك السلام » .

وقال أنس رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله إني أريد سفراً فزوِّدني ، فقال ﷺ : « زوَّدك الله التقوى » قال : زدني ، قال : « وغفر ذنبَك » قال : زدني بأبي أنت وأمي ، قال : « ويسَّر لك الخيرَ حيثما كنت » (٢) .

وكان ﷺ إذا استوى على بعيره ، خارجاً إلى السفر ، كبَّر ثلاثاً ، ثم قال : « سبحان الذي سخَّر لنا هذا ، وما كنا له مُقْرِنين (٣) ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون . اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا ، واطوِ عنا بُعْده . اللهم أنتَ الصاحب في السفر . اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء (٤) السفر ، وكآبة المنظر (٥) ، وسوء المنقلَب (٦) في المال والأهل»

وإذا رجع — من سفره — قالهنَّ وزاد فيهنَّ : « آيبونَ تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » (٧) .

وكان ﷺ إذا خرج إلى المقبرة قال : « السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » (٨) .

---

(١) رواه أبو داود إلى هنا عن ابن عمر ، والزيادة عند النسائي ، ورواه الترمذي أيضاً ، والأمانة هنا ، كما قال الخطابي : الأهل ومن يخلفه ، وماله الذي عند أمينه . قال : وذكر الدين هنا لأن السفر مظنة المشقة ، فربما كان سبباً لإهمال بعض أمور الدين .

(٢) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه النسائي والحاكم .

(٣) أي ما كنا مطيقين له ، ولا قادرين عليه .

(٤) الوعثاء : الشدة والمشقة .

(٥) الكآبة : تغير النفس بسبب حزن ونحوه .

(٦) المنقلب : المرجع .

(٧) رواه مسلم آخر كتاب الحج ، وانظر رياض الصالحين .

(٨) رواه مسلم . والمعنى : وإنا إن شاء الله بكم لاحقون في الوفاة على الإيمان كما في فيض القدير . قالوا : والتقييد بالمشيئة هنا لقصد التبرك ، وامتثال أمر الله تعالى ، وكثيراً ما يستعمل التقييد بالمشيئة لقصد تأكيد ما تقدمه ، وأنه واقع على كل حال ، ولكن بمشيئته تعالى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مرّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفُنا ونحن بالأثر » (١) .

وقال بُريدة رضي الله عنه : كان النبي ﷺ يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : « السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية(٢) ، أنتم لنا فَرَط ، ونحن لكم تَبَع» .

ومن دعائه ﷺ الحاجّ ، ما رواه البيهقي في سننه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفِرْ الحاجّ ، ولمن يستغفر له الحاج » (٣).

وروى ابن السني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال : إني أريد الحج ، فمشى معه رسول الله ﷺ ، فقال : « يا غلام ، زوّدك الله التقوى ، ووجّهك في الخير ، وكفاك الهمّ » فلما رجع الغلام سلّم على النبي ﷺ فقال له : « يا غلام ، قَبِل الله حجّتك ، وغفر ذنبك ، وأخلَفَ عليك نفقتك » .

حول تسبيحه وتحميده ﷺ

قال الله تعالى : « فسبّح بحمد ربك ، وكنْ من الساجدين » .

كان ﷺ يُكثر من التسبيح والحمد لله تعالى ، على وجه المحبة والشّغف الشديد بذلك ، وقد قال ﷺ : « لأنْ أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : أحبُّ إليّ ممّا طلعتْ عليه الشمس » (٤) .

(١) رواه الترمذي وحسنه . وفي هذا الحديث دليل على أن السلام على الأموات مطلوب من زائرهم ، ومن المار بهم .

(٢) رواه مسلم والنسائي ، والزيادة بعده من رواية ابن ماجه .

(٣) قال الحاكم : وهو صحيح على شرط مسلم .

(٤) رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة .

فليفكّر المفكّر ، وليتدبّر المتدبّر ، في شغف هذا الرسول الكريم ﷺ وحبه التسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير لله تعالى ، وأنّ مرة واحدة من هذه الصيغة الجامعة التسبيح والحمد والتهليل والتكبير يقولها ، هي أحبُّ إليه من جميع ما طلعت عليه الشمس من كائنات علويّة وسفليّة ، وبريّة وبحريّة .

وقد قال ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه : « ألا أخبرك بأحبّ الكلام إلى الله تعالى ؟ » قال : قلت : يارسول الله ، أخبرني بأحبّ الكلام إلى الله تعالى ، فقال : « إن أحبّ الكلام إلى الله تعالى : سبحان الله وبحمده » (١) رواه مسلم .

وفي رواية له : إن رسول الله ﷺ سُئل : أيُّ الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته — أو لعباده — : سبحان الله وبحمده » .

وكان ﷺ يُكثر من التسبيح في الليل والنهار ، روى الطبراني عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنتَ أخدم النبيّ ﷺ نهاري ، فاذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله ﷺ فبتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : « سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي » حتى تغلبني عيني فأنام .

فقال ﷺ يوماً : « ياربيعة ، سلني فأعطيك ؟ » فقلت : أنظِرني يارسول الله حتى أنظُرَ ، وتذكّرتُ أن الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يارسول الله أسألك أن تدعوَ الله أن يُنجيني من النار ، ويدخلني الجنة . وفي رواية مسلم قال : أسألكَ مرافقتك في الجنة ، فقال : « أوْ غيرَ ذلك » قال : هو ذاك ، قال ﷺ : « فأعنّي على نفسكَ بكثرة السجود » .

وكان ﷺ يستحبُّ الجوامع من التسبيح والحمد . ومن ذلك ما ورد في تسبيحه وحمده في الضحى .

روى الامام مسلم وأصحاب السنن عن جُويرية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى النهار — وعند

---

(١) يعني : أن ذلك أحب الكلام إلى الله تعالى بعد القرآن ، فإنه كلامه تعالى .

الترمذي : رجع قريباً من نصف النهار – وهي جالسة تُسبِّح ، فقال ﷺ : « مازلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ » قالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : « لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وُزِنَتْ بما قلتِ من اليوم – أي من أول النهار – لوزَنَتْهنّ : سبحان الله وبحمده عددَ خلقه ، ورضاءَ نفسه ، وزنةَ عرشه ، ومداد كلماته » .

وفي رواية لمسلم أيضاً : « سبحان الله عددَ خلقه ، سبحان الله رضاء نفسه ، سبحان الله زِنةَ عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » وزاد النسائي : « والحمد لله كذلك » .

وفي رواية : « سبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، عددَ خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ومداد كلماته » (١) .

وروى الترمذي والحاكم عن صفيّة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ دخل عليها ، وبين يديها أربعةُ آلاف نواةٍ تسبِّح بهنّ – أي بعددهنّ – فقال ﷺ : « ألا أعلّمكِ بأكثرَ مما سبَّحتِ به ؟ » فقالت بلى علّمني ، فقال : « قولي : سبحان الله عدد خلقه » وفي رواية الحاكم : « قولي : سبحان الله عددَ ما خلق من شيءٍ » (٢).

وكان ﷺ يعلّم الصحابة جوامع من التسبيح والحمد ، ويحثّهم على ذلك .

جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أنه قال : رآني رسول الله ﷺ وأنا أحرّك شفتيّ ، فقال : « بأيّ شيءٍ تحرّك شفتيك يا أبا أمامة ؟ » فقلت : أذكر الله يا رسول الله ، فقال : « ألا أخبركَ بأكثرَ وأفضلَ من ذكرك بالليل والنهار؟ » (٣) قلت : بلى يارسول الله ، قال : « تقول : سبحان الله عددَ ما خلق ، سبحان الله مِلءَ ماخلق ، سبحان الله عدد مافي الأرض والسماء ، سبحان الله مِلء مافي الأرض والسماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله مِلء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كلّ شيء ، سبحان الله ملء كلّ شيء ، الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء

(١) كما في الترغيب للمنذري .

(٢) انظر ترغيب المنذري .

(٣) أي : بما هو أكثر وأفضل من ذكرك المستمرّ بالليل والنهار .

ما خلق ، والحمد لله عدد مافي الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كلّ شيء ، والحمد لله ملء كلّ شيء » [1] .

حول استغفاره ﷺ

قال الله تعالى : « واستغفرِ اللهَ ، إن الله كان غفوراً رحيماً » . وقال تعالى : « فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً » .

الاستغفار : هو طلب المغفرة من الله تعالى . فكان ﷺ يُكثر من الاستغفار في الليل والنهار ، في الصلوات ووراء الصلوات ، وفي سائر مجالسه وأحواله .

وكان مكحول يُكثر من الاستغفار ، ويقول : كان أبو هريرة يكثر من الاستغفار ، ويقول : مارأيت أحداً أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان ﷺ يقول في سجوده : « اللهم اغفر لي ذنبي كلّه ، دِقّه وجِلّه ، أوّله وآخره ، سرّه وعلانيته » رواه مسلم .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً ، وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والاكرام » رواه مسلم .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب اليه ، في اليوم أكثر من سبعين مرّة » .

قال العلماء : وقوله ﷺ « أكثر من سبعين مرة » يحتمل الكثرة ، فان العرب تضع السبع والسبعين والسبعمائة موضع الكثرة ؛ وقد قال الأعرابي لمن أعطاهُ شيئاً : سبّع الله لك الأجر : أي كثّره .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وابن أبي الدنيا ، واللفظ له ، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما باختصار ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما . اهـ .

ويحتمل أن يراد به العدد بعينه ، ويكون لفظ « أكثر » مبهماً ، فسّرته الرواية الأخرى : « إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

روى مسلم عن الأغرّ المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليُغانُ على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

وأصل الغين في اللغة : الغيم الرقيق الذي يكون في السماء ، والمراد بالغين هنا : غين أنوارٍ لاغين أغيار .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهمّ لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ﷺ يُكثر من الاستغفار في مجالسه مع أصحابه ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : إنْ كنا — أي إنا كنا — لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد : « ربّ اغفر لي ، وتبْ عليّ ، إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة . رواه أبو داود وابن حبان وصححه ، ورواه الترمذي — وقال : حسن صحيح غريب — بلفظ « إنك أنت التواب الغفور » .

وأخرج النسائي بسند جيد من طريق مجاهد ، عن ابن عمر ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب اليه » في المجلس قبل أن يقوم ، مائة مرة [١] .

فان قيل : لمَ كان رسول الله ﷺ يُكثر من الاستغفار ، مع أنه ﷺ غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، بنصّ قوله تعالى : « ليغفرَ لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر .. » الآية ؟ .

---

(١) انظر المواهب وشرحه .

فالجواب عن ذلك من عدة وجوه ، كما أوضحها العلماء العرفاء [١] .

أولاً : إن في استغفاره ﷺ عبادة لله تعالى ، وتحققاً بالعبودية ، وافتقاراً لكرم الربوبية .

ثانياً : إن في ذلك تعليماً لأمته أن يُكثروا من الاستغفار ، لشدة حاجتهم .

ثالثاً : إن في ذلك تواضعاً لرب العالمين ، وهضماً للنفس .

وثمة أجوبة أخرى نأتي عليها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكان ﷺ يبين للصحابة صيغاً من الاستغفار جامعة ، ويرغّبهم فيها ، لعظيم فضلها .

روى البخاري وغيره عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سيِّد الاستغفار [٢] أن يقول العبد : اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني ، وأنا عبدُك ، وأنا على عهدك ووعدك [٣] ما أستطعتُ ، أعوذ بك من شرِّ ماصنعتُ ، أبوءُ [٤] لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في النهار موقناً بها ، فمات قبل أن يُمسي : فهو من أهل الجنة ، ومن قالها في الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح : فهو من أهل الجنة » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيوم وأتوب إليه ، غُفِرت ذنوبه ، وإن كان قد فرَّ من الزحف » [٥]

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب وغيره .

(٢) قال العلامة الطيبي : لما كان هذا الدعاء جامعاً لمعاني التوبة كلها ، استعير له اسم السيد . وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ، ويرجع له في الأمور . اهـ .

(٣) أي : أنا على عهدي الذي عاهدتك عليه . منذ أخذت العهد على العباد وأخرجتهم أمثال الذر ، وأشهدتهم على أنفسهم ، وقلت لهم : «ألست بربكم ؟ » فأقروا وقالوا : بلى . وأنا على وعدك في الإيمان بك وبرسلك والعمل بطاعتك .

(٤) أي : أقر وأعترف .

(٥) قال الإمام النووي في الرياض : رواه أبو داود والترمذي والحاكم . وقال : حديث صحيح على شرطهما .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول قبل موته ﷺ : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » رواه الشيخان .

وكان ﷺ يرغّب في الاكثار من الاستغفار ، لشدة حاجة العبد إليه في الآخرة ؛ فعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « طوبى لمن وُجد في صحيفته استغفار كثير » [1] .

كما بيَّن ﷺ أن في الاستغفار جِلاء للقلوب من الصدأ ، كما روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس ، وجِلاؤها الاستغفار » .

كما بيَّن ﷺ أن كثرة الاستغفار تفرِّج الهموم ، وتخرج من المضايق ، وتسهل الرزق ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كلِّ هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيثُ لا يحتسب » رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

* * *

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي ، كما في الترغيب .

نسبه الشريف وأصله المنيف ﷺ

قال الله تعالى : « اللهُ أعلمُ حيثُ يجعل رسالته .. » الآية .

وقال تعالى : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم ، عزيزٌ عليه ما عنتّم ، حريصٌ عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وقد ذكر الامام البخاري في صحيحه عمود نسبه الرفيع ﷺ فقال :

هو محمد ﷺ (١) بنُ عبد الله ، بنِ عبد المطّلب (٢) بنِ هاشم (٣) بنِ عبد مَناف (٤)

---

(١) فهو صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد ، وهذا الاسم الكريم – كما قال في الفتح – منقول من صفة الحمد ، وفيه المبالغة – أي الكثرة – والمحمد : الذي حمد مرة بعد مرة ، والذي تكاملت فيه الخصال المحمودة ا هـ . وذلك أن من كثرت فيه الصفات المحمودة ، وكملت له : كثر حمد الناس له ، وثناؤهم عليه ، وإن أعظم خلق الله تعالى كمالا ، وأكرمهم خصالا ، وأجملهم فعالا ، وأعمهم نوالاً ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وفي الفتح ، نقلا عن البيهقي في الدلائل ، بإسناد مرسل أن عبد المطلب لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عمل له مأدبة ، فلما أكلوا سألوا : ما سميته ؟ قال : محمداً ، قالوا : فما رغبت بهعن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله في السماء ، وخلقه في الأرض .

وقال بعض العلماء : بل سمته أمه قبل ذلك « محمداً » لما رأته ، وقيل لها في شأنه صلى الله عليه وسلم ، كما روى أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس أنه قال : كانت آمنة تحدث وتقول : أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر ، في المنام ، وقال لي : يا آمنة إنك قد حملت بخير العالمين ، فإذا ولدته فسميه محمداً صلى الله عليه وسلم . ولا منافاة بين ذلك ، كما قال الحافظ الزرقاني ، فإن آمنة لما نقلت ما رأته لعبد المطلب ، سماه محمداً صلى الله عليه وسلم فوقعت التسمية منه بسببها ، وإذا كان بسببها صح أن يقال إنها سمته محمداً صلى الله عليه وسلم . انظر شرح المواهب ١ : ١١١ و ٣ : ١١٤ ، والفتح ١ : ١٢٤ .

(٢) واسمه : شيبة الحمد ، سمي بذلك لحمد الناس له ، لأنه كان مفزع قريش في النوائب ، وملجأهم في الأمور ، وشريفهم كمالا وفعالا .

(٣) واسمه عمرو ، وإنما قيل له : هاشم ، لأنه أول من هشم الثريد بمكة لأهل الموسم ، ولقومه أولا في سنة المجاعة .

(٤) واسمه : المغيرة . وهو منقول من الوصف ، والهاء للمبالغة ، سمي بذلك تفاؤلا أنه يغير على الأعداء ، وكان مطاعاً في قريش ، ويدعى « القمر » لجماله الفائق .

ابن قُصيّ (١) بن كِلاب (٢) بن مُرّة (٣) بن كعب (٤) بن لؤيّ (٥) بن غالب (٦) بن فِهْر (٧) بن مالك (٨) بن النَّضْر (٩) بن كِنانة (١٠) بن خُزَيمة (١١) ابن مُدْرِكة (١٢)

---

(١) واسمه : مجمع ، وذلك كما قال ثعلب في أماليه : أنه كان يجمع قومه يوم العروبة — الجمعة — فيذكرهم ، ويأمرهم بتعظيم الحرم ، ويخبرهم أنه سيبعث فيهم نبي . اهـ من شرح المواهب .

(٢) هذا لقب منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة ، يقال : كالبت العدو ، مكالبة ، وكلاباً ، بمعنى : ضايقته وخانقته ، أما اسمه فهو : حكيم ، وقيل : عروة .

(٣) بمعنى القوة ، والهاء للمبالغة .

(٤) منقول من كعب القناة ، كما قال ابن دريد وغيره ، سمي بذلك لارتفاعه على قومه ، وشرفه فيهم ، فلذلك كانوا يخضعون له ، حتى أرخوا بموته ، كما في الفتح ، وكان خطيباً فصيحاً ، وكان يأمر قومه بتعظيم الحرم ، ويجمعهم ويخبرهم أنه سيبعث فيهم نبي ، ويأمر من أدركه باتباعه ، كما كان قصي يفعل ذلك ، كما في شرح المواهب والفتح .

(٥) قال الأصمعي : تصغير لواء ، زيدت فيه الهمزة .

(٦) اسم فاعل من الغلب .

(٧) منقول من الفهر ، وهو الحجر الصغير ملء الكف ، وقيل : الحجر الطويل ، وأما اسمه : فهو قريش ، وإليه تنسب بطون قريش ، فما فوقه كناني لا قرشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا هو الذي صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما ، والحجة لهم حديث مسلم والترمذي مرفوعاً : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة . . . » الحديث .

قال : وذهب آخرون إلى أن أصل قريش : النضر ، وبه قال الشافعي ، وعزاه العراقي للأكثرين ، وقال النووي : هو الصحيح المشهور ، وأيضاً صححه الحافظ الصلاح العلائي . وعزاه للمحققين ، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كندة ، فقلت : ألستم منا يا رسول الله ؟ قال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة » رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم في الرياضة . اهـ .

(٨) اسم فاعل من ملك ، ويكنى أبا الحارث .

(٩) بفتح النون وإسكان الضاد المعجمة ، فراء ، واسمه قيس ، ولقب بالنضر لنضارة وجهه ، وإشراقه وجماله ، كما في شرح المواهب .

(١٠) قال في الفتح : هو بلفظ وعاء السهام إذا كانت من جلود ، ونقل عن أبي عامر العدواني أنه قال : رأيت كنانة بن خزيمة شيخاً مسناً عظيم القدر ، تحج إليه العرب لعلمه وفضله بينهم . اهـ .

(١١) تصغير خزمة ، وهي المرة الواحدة من الخزم ، وهو شدة الشيء وصلاحه ، كما في الفتح وغيره .

(١٢) منقول من اسم فاعل من الإدراك ، والهاء للمبالغة ، ولقب بذلك لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه ، وكان فيه نور المصطفى ظاهراً . واسمه عمرو عند الجمهور ، وهو الصحيح ، وقال ابن اسحاق : عامر ، وضعف ، كما في شرح المواهب .

ابن إلياس [١] بن مُضَر [٢] بن نزار [٣] بن مَعَدّ [٤] بن عدنان [٥] .

قال الحافظ ابن كثير وغيره : وهذا النسب بهذه الصفة ، لا خلاف فيه بين العلماء ، وجميع عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « قلْ : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّةَ في القُربى .. » الآية . قال : لم يكن بطنٌ من بطون قريش إلا ولرسولِ الله ﷺ نسب يتصل بهم .

كما وأن جميع قبائل العرب العدنانية ، تنتهي إلى هذا النسب بالآباء ، وكثير منهم بالأمهات أيضاً ، ولذلك طالب رسول الله ﷺ جميعَ قبائل العرب أن يرعَوْا تلك القرابة ، وينا صروه ، ويكفوا عنه الأذى .

كما أنه لاخلاف بين العلماء أن عدنان هو من سُلالة إسماعيل بن سيدنا إبراهيم ، على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، وإنما اختلف العلماء فيمن بين عدنان وإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، على أقوالٍ متعددةٍ ، وفيمن بين إبراهيم وآدم عليهما الصلاة والسلام ، وهذه الأقوال مفصّلة في السيرة النبوية للعلامة محمد بن يوسف الشامي ، وفي فتح الباري أيضاً .

قال الحافظ في الفتح : وأخرج ابن سعد من حديث ابن عباس ، أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه مَعَدّ بنَ عدنان .

ومن هنا يعلم العاقل أصالة هذا النسب وشرافته ، وعزّته وكرامته .

(١) والمعروف أن هذا اسمه : وقيل : هذا لقبه ، واسمه حبيب ، قال الزرقاني : وفي المنتقى : كان يسمع من ظهر إلياس أحياناً دوي تلبية النبي صلى الله عليه وسلم بالحج ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة ، كلقمان وأشباهه ، وكان يدعى : كبير قومه ، وسيد عشيرته ، ولا يقطع أمر دونه ، ولا يقضي بينهم دونه . اهـ .

(٢) سمي بذلك لأنه كان يمضر القلوب — أي يؤثر فيها — لحسنه وجماله .

(٣) بكسر النون من النزر ، وهو النادر القليل ، سمي بذلك لأنه كان فريد عصره ، وأجملهم ، وأكبرهم عقلا .

(٤) مفعل ، من العد .

(٥) فعلان ، من العدن — أي الإقامة — قال الزرقاني : وفي الخميس : سمي بذلك — أي عدنان — لأن أعين الجن والإنس كانت إليه ، وأرادوا قتله ، وقالوا : لئن تركنا هذا الغلام حتى يدرك مدرك الرجل ، ليخرجن من ظهره من يسود الناس ، فوكل الله به من يحفظه . اهـ . فهو من عدن الأمان والحفظ .

فضل نسبه الشريف ﷺ

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعثتُ من خير قرون بني آدم ، قرناً فقرناً ، حتى بعثتُ من القرن الذي كنت فيه » وزاد ابن سعد من مرسل أبي جعفر الباقر رضي الله عنهما : « ثم اختار بني هاشم من قريش ، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم » .

فهو ﷺ خيرة الله تعالى ، وصفوته من جميع القرون ، أي : الأجيال كلها .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من بني قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم والترمذي واللفظ له .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن هرقل ملكَ الروم سأل أبا سفيان عن نسب النبي ﷺ ، فقال : كيف نسبُه فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب — يعني أن محمداً ﷺ هو ذو نسبٍ شريفٍ ، عالٍ مُنيفٍ ، على كل الأنساب — فقال هرقل : كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها .

وعن العباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ بلغه بعض ما يقول الناس ، فصعد ﷺ المنبر فقال : « من أنا ؟ » قالوا : أنت رسول الله ، فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرة خلقة ، وجعلهم فرقتين ، فجعلني من خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني من خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلني من خيرهم بيتاً ، فأنا خيرُكم بيتاً ، وخيركم نفساً » رواه الامام أحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : قلّبتُ الأرض من مشارقها ومغاربها ، فلم أجد رجلاً أفضلَ من محمد ﷺ ،

وقلّبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب ٍ أفضلَ من بني هاشم » [1] .

وإنما ذكر ﷺ مكارم أصوله ، وشرافتهم ، ونقاوة أنسابهم ، تحدُّثاً بنعمة الله تعالى ، وشكراً له وتعريفاً بمنازلهم ومراتبهم ، وبياناً لكفايتهم ، وليس ذلك من باب الاستطالة والكبر .

قال العلامة الحَليمي : أراد ﷺ تعريف منازل المذكورين ومراتبهم . قال : وقد يكون أراد به الاشارة بنعمة الله عليه في نفسه وآبائه ، على وجه الشكر ، وليس ذلك من الاستطالة والفخر — أي المصحوب بالكبر — في شيء . ا هـ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : والنهي عن التفاخر بالآباء موضعه مفاخرة تُفْضي — أي تؤدي — إلى تكبرٍ واحتقارِ مسلم . ا هـ .

طهارة نسبه الشريف ﷺ

روى عبد الرزاق باسناده إلى الامام جعفر الصادق ، عن محمد الباقر رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » قال : لم يُصبْه شيءٌ من ولادة الجاهلية . قال محمد — الباقر — : وقال رسول الله ﷺ : « إني خرجتُ من نكاحٍ ولم أخرج من سِفاحٍ » [2] .

وروى البيهقي باسناده إلى أبي جعفر الباقر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال « إن الله أخرجني من النكاح ، ولم يخرجني من السفاح » .

وروى البيهقي باسناده أن النبي ﷺ خطب فقال : « أنا محمد بنُ عبد الله ، ابنِ عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قُصَيّ ، بن كِلاب ، بن مُرّة ، ابن كعب ، بن لؤيّ ، بن غالب ، بن فِهْر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كِنانة ،

---

(١) رواه البيهقي والحاكم والطبراني وابن عساكر ، وقال الشامي ١ : ٢٧٦ من سيرته : قال الحافظ في أماليه : لوامع الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن . ا هـ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل جيد .

ابن خُزيمة ، بن مُدرِكة ، بن إلياس ، بن مُضَر ، بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها فرقة ، فأُخرجت من بين أبويَّ ، فلم يُصبني شيء من عُهْر الجاهلية ، وخرجت من نكاحٍ ، ولم أخرج من سِفاحٍ ، من لَدُنْ آدم حتى انتهيتُ إلى أبي وأمي ، فأنا خيرُكم نفْساً ، وخيرُكم أباً » (١) .

وروى الطبراني وابن السَّكَن وغيرهما ، أن النبي ﷺ لما دخل المدينة مرجعه من غزوة تبوك ، قال العباس بن عبد المطلب : يارسول الله أتأذنُ لي أن أمتدحك ؟ فقال له ﷺ : « قل ، لا يَفضضِ الله فاك » (٢) فقال العباس :

من قبلها طِبْتَ في الظلال ، وفي ... مستودَعٍ حيث يُخصَف الورق (٣)
ثم هبطتَ البلاد (٤) لا بشرٌ أنـ ... ـت ولا مضغةٌ ولا علَق
بل نطفةٌ تركب السَّفين (٥) وقد ... ألجم نَسْراً وأهلَه الغرق (٦)
تنقَّلُ من صالب (٧) إلى رحِمٍ ... إذا مضى عالَم بدا طَبَق (٨)
وردتَ نارَ الخليل مكتتما (٩) ... في صلبه أنت كيف يحترق ؟ !

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : تفرد به القدامى ، وهو ضعيف ، ولكن له شواهد . أي تقوِّيه .

(٢) هذا دعاء للعباس بصيانة فمه عن كل خلل وفساد ، حساً ومعنى .

(٣) أي : من قبل الهبوط إلى الأرض طبت في ظلال الجنة ، حيث كنت في صلب آدم ، وفي مستودع ، أي : الموضع الذي كان آدم وحواء به في الجنة ، وهو حيث طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .

(٤) أي : نزلت إلى الأرض لما هبط إليها آدم ، وأنت في صلبـه .

(٥) اسم جنس ، والمراد به سفينة نوح عليه السلام . أي : كنت مستقراً في صلب سام بن نوح لما ركب السفينة .

(٦) أي : وقد ألجم الغرق بسبب الطوفان نسراً ، وهو أحد أصنام قوم نوح ، كما ألجم وأغرق أهل الصنم الذين عبدوه .

(٧) أي : من صلب .

(٨) أي : كلما مضى عالم أنت فيه بواسطة من كنت في صلبه ، ظهر طبق – أي عالم – آخر تكون فيه بانتقالك من أصل لفرع ، فالطبق هو العالم ، والمراد به : القرن .

(٩) أي : مخفياً .

حتى احتوى بيتك المهيمن مــن ... خِنْدِفَ علياء تحتها النُّطُقُ (١)
وأنت لمــا وُلدت أشرقتِ الْـ ... أرض ، وضاءتْ بنورك الأفُقُ
فنحن في ذلك الضياء وفي النْـ ... نُور وسبْــل الرشــاد نخترق (٢)

حول مولده الشريف ﷺ

كان مولده ﷺ محفوفاً بالاكرام الآلهي ، ومعنياً بالعنايات الربانية ، وقد أظهر الله تعالى عند ولادته ﷺ خوارقَ وغرائبَ ، إرهاصاً لنبوته ، وتمهيداً لرسالته ، وإعلاناً بعظيم مرتبته ، وأنّ له ﷺ شأناً كبيراً .

فمن ذلك : انتشار النور ، وامتداده عند ولادته صلى الله عليه وسلم .

روى الامام أحمد عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إني عند الله لخاتَمُ النبيين ، وإنّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ (٣) في طينته ، وسأخبركم عن ذلك : إني دعوةُ إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأتْ ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ ، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام » (٤) .

---

(١) المراد بالبيت : الشرف ، والمهيمن : الشاهد المحفوظ من الشين . والمعنى احتوى شرفك يا رسول الله الشاهد على فضلك ، أعلى مكان من نسب خندف — بكسر الخاء والدال — وهو في الأصل : المشي بهرولة ، ثم جعل علماً على امرأة إلياس بن مضر ، لما خرجت تهرول بين بنيها الثلاثة ، ثم ضرب مثلاً للنسب العالي . والنطق : جمع نطاق ، وهي النواحي الواسعة ، والأوساط الشاسعة ، والمراد رفعة شرفه صلى الله عليه وسلم فوق كل شرف ، كرفعة قة الجبل فوق النواحي والأوساط . ا هـ ملخصاً من شرح المواهب .

(٢) انظر هذه الأبيات في تاريخ ابن كثير ، والمواهب وشرحها ، ومجمع الزوائد ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، وغيرها .

(٣) قال القسطلاني : يعني طريحاً ملقى في الأرض ، قبل نفخ الروح فيه .

(٤) ورواه البزار والطبراني ، وقال الحافظ ابن حجر : وصححه ابن حبان والحاكم ، وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه ، قال : وأخرج ابن اسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقالت : أضاءت له بصرى من أرض الشام . ا هـ

فهو ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام التي دعاها في قوله : « ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك .. » الآية . وهو بشارة عيسى عليه السلام في قوله تعالى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .. » الآية .

وهذا النور الذي ظهر عند ولادته ﷺ رأته رؤيةَ عين بصرية ، كما دلت على ذلك بقية الروايات .

وأخرج أبو نعيم عن أم سلمة رضي الله عنها ، عن آمنةَ والدةِ رسول الله ﷺ قالت : لقد رأيت ليلةَ وضْعه نوراً أضاءتْ له قصور الشام حتى رأيتُها .

وروى محمد بن سعد من حديث جماعة ، منهم : عطاء وابن عباس ، أن آمنة بنت وهب قالت : لما فَصَلَ — أي وُلد — مني — تعني النبي ﷺ — خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض جاثياً على ركبتيه ﷺ .. الحديث .

وعن عثمان بن أبي العاص ، عن أمِّه أم عثمان الثقفية الصحابية ، واسمها فاطمة بنت عبد الله [١] ، أنها قالت : لما حضرتُ ولادة رسول الله ﷺ رأيتُ البيت حين وقع — أي نزل من بطن أمه — قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع عليَّ ، فلما وضعته آمنة خرج منها نور أضاء له البيت والدار ، حتى جعلتُ لا أرى إلا نوراً [٢] .

ونقل في السيرة الشامية عن الشيخ أبي شامة رحمه الله تعالى أنه قال : وقد كان هذا النور الذي ظهر وقت ولادته ﷺ قد اشتهر في قريش وكثر ذكره فيهم .

وإلى ذلك أشار العباس رضي الله عنه في شعره حيث قال :

وأنتَ لما ولدت أشرقت الـ أرض وضاءت بنورك الأُفُق

---

(١) قال الزرقاني : ذكرها أبو عمر وغيره في الصحابة .

(٢) قال الزرقاني : رواه البيهقي والطبري وابن عبد البر ، وعزاه في الفتح إلى الطبراني ، وقال : شاهده حديث العرباض بن سارية — أي المتقدم — . اهـ ١ : ١٢٦ .

وظهور هذا النور عند ولادته ﷺ إشارةٌ إلى ما يجيء به من ذلك النور ، الذي يَهدي به العالَم ، ويُزيل به ظلماتِ الكفر ، قال الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يَهدي به اللهُ مَن اتبعَ رضوانه سُبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه .. » الآية .

وبذلك النور الذى جاء به من عند الله تعالى ، نوَّر البصائر ، وأحيا القلوب الميتة ، وفتح الأعين العمياء ، والآذان الصماء .

ومن العجائب التي ظهرت عند ولادته ﷺ إرهاصاً لنبوّته : ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم ، عن حسان بن ثابت شاعر المصطفى ﷺ قال : إني لغلامٌ ابن سبع سنين أو ثمانٍ (١) أعقِل ما رأيت وسمعت ، إذا يهوديٌّ يصرخ ذات غداة : يا معشرَ قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا : لا نعلم ، قال : انظروا ، فانه ولد في هذه الليلة نبيُّ هذه الأمّة .. الحديث . رواه الحاكم ، ورواه يعقوب بن سفيان باسنادٍ حسن كما قاله صاحب الفتح .

ومن عجائب ولادته ﷺ الدالة على نبوّته : اهتزاز إيوان كسرى وانصداعه، وسقوط أربع عشرة من شُرُفاته ، وبقاؤه على تلك الحالة إلى يومنا هذا ، كما قال الحافظ الزرقاني : وانشق الايوان لا لخللٍ في بنائه ، فقد كان بناؤه بالمدائن من العراق محكماً ، مبنياً بالآجُر الكبار والجصِّ ، سمكه مائة ذراع في طول مثلها ، وقد أراد الخليفة الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مالاً عظيماً فعجز عن هدمه ، وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آية باقية على وجه الدهر لنبيِّه ﷺ . ا هـ .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في البداية ، فصلاً خاصاً فيما وقع من الآيات ، ليلة مولده ﷺ ، وذكر فيها : ظهور النور معه ﷺ ، ونزوله على الأرض جاثياً، رافعاً رأسه إلى السماء ، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ، ودنوّ النجوم منهم ، وانصداع إيوان كسرى ، وسقوط الشرفات ، وخمود النيران ، ورؤيا

---

(١) قال الزرقاني : فقد ذكروا أنه عاش مائة وعشرين سنة كأبيه وجده وأبي جده ، ومات سنة أربع وخمسين . ا هـ

الموبذان . قال : وغير ذلك من الدلالات . ثم أورد الأخبار الواردة في ذلك من طرق متعددة .

كما أن الحافظ ابن حجر ذكر في الفتح ، جملاً من علامات النبوة قبل المبعث ، ثم قال : ومما ظهر من علامات نبوته ﷺ عند مولده ﷺ ، وذكر الأحاديث الواردة في ظهور النور . ثم قال : وفي حديث مخزوم بن هانيء المخزومي عن أبيه — قال : وكان قد أتت عليه خمسون ومائة سنة — قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ انكسر إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ما وقع — أي من انصداع الايوان وغيره — فسأل علماء أهل مملكته عن ذلك ؟ فأرسلوا إلى سطيح .. القصة .

وذكر ذلك أيضاً الحافظ القسطلاني ، وعزاه إلى البيهقي وأبي نعيم ، والخرائطي وابن عساكر وابن جرير . وإنما ذكرنا ذلك عن هؤلاء الحفاظ المحدثين ليكون حجة على أهل القلوب المريضة أو الزائغة ، وليزداد الموقنون يقيناً وقوة .

ومن الارهاصات والمقدّمات لنبوته ﷺ التي وقعت قبل ولادته : قصةُ أصحاب الفيل ، وكيف أرسل الله تعالى تلك الطير الأبابيل المتواصلة في إغاراتها ، الصائبة في رميها ، وإحكامها أهدافها ، حتى إنها لم تخطىء واحداً منهم ، وكيف دمّرهم الله تعالى وكبّتهم ، وما ذاك إلا ليحفظ هذا البيت الذي هو قبلة رسول الله ﷺ وأتباعه ، ومصلاهم ومحجّهم ، وقياماً لهم إلى يوم القيامة .

ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى تلك القصة في القرآن الكريم ، النازل على رسول الله ﷺ مذكّراً له بتلك النعمة الكبرى ، ممتنّاً عليه بذلك الفضل ، أنه سبحانه تولّى بنفسه الدفاعَ عن هذا البيت ، الذي سيكون مصلّى رسول الله ومحجّه ومعتمَره ، فقال سبحانه : « ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ! .. » السورة .

تاريخ مولده ﷺ : وكان مولده ﷺ في عام الفيل بعد الواقعة بخمسين يوماً

ثاني عشَر شهرِ ربيعٍ الأول ، عند جمهور العلماء ، عند طلوع الفجر من يوم الاثنين ، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي قتادة في حديث طويل وفيه : وسئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بُعثت فيه ، أو أنزل عليَّ فيه .. » الحديث .

وفي مسند أحمد عن ابن عباس قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين ،واستنبئ يوم الاثنين ، وخرج مهاجِراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ورفع ﷺ الحجر ـ الأسود ووضعه في موضعه — يوم الاثنين . ا هـ . وذلك حين بَنَتْ قريش الكعبة ، واختصموا فيمن يرفع الحجر الأسود ، كما تقدم .

الابتهاج والاحتفال بيوم مولده ﷺ

إن حقاً على العاقل أن يفرح بيوم ميلاده ﷺ ، وأن يُسَرَّ ويبتهج بذلك اليوم الذي تدفّق فيه النور ، والهدى والعلم إلى هذا العالم أجمع ، لأنه ولد فيه رسول الرحمة للعالمين ، ونبيُّ الهدى والنور للخلق أجمعين ، وإمامُ الأنبياء والمرسلين ، فأعظِمْ بذلك اليوم وأكرِم ، وأسعِد به وأنعِم .

وإن الاجتماع على قراءة قصة مولده ﷺ هو اجتماع على مجموعة رحَمات وبركات ، وخيرات ومبرّات ، وذلك لأن قصة المولد الشريف مشتملة على : تلاوة آيات من القرآن الكريم ، ثم ذكرِ إكرامِ الله تعالى وعنايته برسوله ﷺ ، وكيف تولاه الله وحفظه . كما أنها تشتمل على ذكر محاسن سيدنا محمد ﷺ الخلْقية والخلُقية ؛ كما أنها تشتمل على الصلوات والتسليمات على النبي ﷺ ، كما وأنها تشمل على القصائد والمدائح النبوية المحببة إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، كما وأنها تشتمل على الدعوات والابتهالات إلى الله تعالى ...

وإن كل واحدة من هذه المشتمَلات ، هي مشروعة مطلوبة ، وقُربة محبوبة ، حثَّ الشارع عليها ورغَّب في أجرِها وفضلها ، وعلى هذا جرى العلماء العاملون ،

والأتقياء الصالحون ، كما قال الحافظ السخاوي : ولا زال اهل الاسلام في سائر الأقطار ، والمدن الكبار ، يحتفلون في شهر مولده ﷺ بعمل الولائم البديعة المشتملة على الأمور البهجة الرفيعة ، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويُظهرون السرور ، ويزيدون في المبرات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كلُّ فضل عميم . اهـ من السيرة النبوية للامام محمد بن يوسف الشامي [١] .

وقال أيضاً [٢] : وقال الامام الحافظ أبو الخير بن الجزري شيخ القراء رحمه الله تعالى : من خواصه [٣] أنه أمان في ذلك العام ، وبُشرى عاجلة بنيل البغية والمرام .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه : كان الملك المظفَّر أبو سعيد يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً ، بطلاً عاقلاً عادلاً رحمه الله تعالى .

وقد صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى كتاباً له في المولد سمّاه : التنوير في مولد البشير النذير ، فأجازه بألف دينار [٤] .

وحكى سبط ابن الجوزي رحمه الله تعالى في مرآة الزمان ، عن بعض من حضر سماط المظفَّر في بعض الموالد ، بعدما عدّد أصنافاً من اللحوم وأنواع الحلوى على شكل واسع جداً قال بعد ذلك : وكان يصرف على المولد ثلاثمائة ألف دينار . اهـ .

ونقل الإمام محمد بن يوسف الشامي في سيرته ، عن الشيخ أبي عبد الله ابن أبي محمد النعمان يقول : سمعت الشيخ أبا موسى الزَّرْهوني يقول : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فذكرت له ما يقال في عمل الولائم في المولد ، فقال له ﷺ : من فرح بنا فرحنا به . اهـ .

---

(١) ١ : ٤٣٩ وقد توفي سنة ٩٤٢ هـ .
(٢) أي الشامي صاحب السيرة .
(٣) أي من خواص العناية بقراءة مولده الكريم صلى الله عليه وسلم ، والاحتفال والابتهاج بشهر مولده صلى الله عليه وسلم .
(٤) انظر السيرة للشامي ، وانظر المواهب وشرحها .

وقال شيخ القراء الحافظ أبو الخير بن الجزري رحمه الله تعالى : قد رُئي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له : ماحالُك ؟ فقال : في النار إلا أنه يخفَّف عني كل ليلة اثنين ، وأمصُّ من بين إصبعيَّ هاتين ، ماءً بقدر هذا — وأشار لرأسي أصبعيه — وإن ذلك بإعتاقي لثُوَيْبَة ، عندما بشرتني بولادة محمد ﷺ ، وبإرضاعها له .

فاذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه ، جُوزي في النار [١] لفرحه ليلة مولد محمد ﷺ به — أي بالمولد — فما حالُ المسلم الموحّد من أمة محمد ﷺ ببشره بمولده ، وبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ؟ لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم ، أن يدخله بفضله جنة النعيم . اهـ [٢] .

وقصة أبي لهب وإعتاقه ثويبة وما يترتب على ذلك : رواها البخاري والاسماعيلي وعبد الرزاق . ففي صحيح البخاري : قال عروة : وثُوَيْبَة مولاة أبي لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبيَّ ﷺ ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله [٣] بشرِّ حِيبة [٤] ، قال له : ماذا لقيت ؟ قال أبو لهب : لم ألقَ بعدكم — وفي رواية الاسماعيلي : لم ألق بعدكم رخاءً ، وعند عبد الرزاق عن معمر ، عن الزهري : لم ألقَ بعدكم راحة — غير أني سُقيت في هذه — وأشار إلى النُقرة التي تحت إبهامه ، كما هو عند عبد الرزاق — وأشار إلى النقرة التي بين الابهام والتي تليها من الاصابع في رواية الاسماعيلي — بعتاقتي ثويبة [٥] — أي سقيت ذلك بسبب إعتاقي ثويبة — .

وقال الحافظ في الفتح : وذكر السهيلي أن العباس رضي الله عنه قال : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول ، في شرِّ حالٍ ، فقال أبو لهب : مالقيتُ بعدكم

---

(١) أي : جازاه الله تعالى فخفف عنه العذاب ، وهو في النار ، لفرحه بمولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر السيرة للإمام محمد يوسف الشامي ١ : ٤٤٤ . وانظر شرح الزرقاني : ١٣٩ .

(٣) وهو العباس رضي الله عنه ، كما دلت عليه بقية الروايات .

(٤) قال الزرقاني : حيبة : بحاء مهملة مكسورة ، وتحتية ساكنة ، وموحدة مفتوحة . أي : سوء الحال ، وأصلها : حوبة . قال : وذكر البغوي أنها بفتح الحاء ، وللمستملي بخاء معجمة مفتوحة ، أي في حالة خائبة ، وقال ابن الجوزي : إنه تصحيف ، وروي بالجيم ، قال السيوطي : وهو تصحيف باتفاق . اهـ

(٥) انظر جميع ذلك في صحيح البخاري وشرحه لابن حجر ٩ : ١٢٤ .

راحة ؛ إلاّ أنّ العذاب يخفف عني كل يوم اثنين . قال ـ أي العباس ـ وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم اثنين ، وكانت ثويبة بشَّرت أبا لهب بمولده ﷺ فأعتقها . اهـ .

عناية الله تعالى بالنبي ﷺ منذ صغره

إن عناية الله تعالى قد حفّتْ رسول الله ﷺ في جميع أطواره الخلْقية ، وجميع تقلباته وأحواله منذ صغره .

فقد توفي والده عبد الله بعدما تمّ له من حمله الشريف شهران ، على أشهر الأقوال ، وقيل : بعدما تمّ له سبعة أشهر من الحمل ، وقيل : توفي والده وهو في المهد ؛ فقيل : ابن شهرين ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن تسعة أشهر ، والراجح المشهور هو القول الأول . يعني : أنه ﷺ توفي والده وهو حمل .

والحجة له ما جاء في المستدرك عن قيس بن مَخْرَمة ، قال : توفي أبو النبي ﷺ وأمّه حبلى به . وقال الحاكم : على شرط مسلم . وقد أقره الذهبي [1] .

فكان ﷺ مع أمه آمنة ، وهيّأ الله له تعالى جده عبد المطلب يكفله ويقوم بحاجته وشأنه ، مع الحفاوة والتكريم ، فنشأ ﷺ في إيواء الله تعالى وكلاءته وحفظه ورعايته ، ينبته الله تعالى نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، ورفعة مكانته ﷺ بالنبوة والرسالة

ولما بلغ ﷺ ست [2] سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، وقيل : بشعب أبي ذئب بالحجون ـ جبل بمعلاة مكة [3] ـ .

روى ابن سعد عن ابن عباس ، وعن الزهري ، وعن عاصم بن عمرو بن قتادة ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض ، قالوا [4] : لما بلغ رسول الله ﷺ ست

---

(١) نقل ذلك الحافظ ابن كثير ، والإمام العسقلاني ، والحافظ الزرقاني ، وغيرهم .

(٢) على أرجح الأقوال ، وقيل : أربع سنين ، وقيل أكثر .

(٣) انظر شرح المواهب .

(٤) قال الزرقاني : أرسله الثلاثة إلا أن مرسل ابن عباس في حكم الموصول ، لأنه مرسل صحابي . اهـ .

سنين خرجتْ به أمه إلى أخواله بني عديّ بن النجار بالمدينة تزورهم ، ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار التابعة ، فأقامت به عندهم شهراً ، فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مُقامه ذلك .

ونظر ﷺ إلى الدار وهو بالمدينة بعد الهجرة ، فقال : « ها هنا نزلت بي أمي ، وأحسنتُ العَوْم — أي السباحة — في بئر بني عديّ بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليّ ؛ قالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبيُّ هذه الأمة ، وهذه — المدينة — دار هجرته ، فوعَيْتُ ذلك كلّه من كلامهم » ثم رجعتْ به أمه إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت . ا هـ .

وفي رواية أبي نعيم ، قال ﷺ : « فنظر إليّ رجل من اليهود ، فقال : ياغلام ما اسمكَ ؟ قلت : « أحمد » ونظر إلى ظهري فأسمعهُ يقول : هذا نبيُّ هذه الأمّة ، ثم راح إلى إخوانه من اليهود فأخبرهم ، فأخبروا أمي ، فخافتْ عليّ ، فخرجنا من المدينة .. » [1] الحديث .

فكانت أم أيمن — واسمها بركة الحبشية — هي حاضنةٌ للنبي ﷺ بعد وفاة أمه ، وهي التي أعتقها أبو المصطفى ، وقيل : بل هو ﷺ أعتقها ، وقد أسلمت ، وهاجرت الهجرتين ، ومناقبها كثيرة رضي الله عنها .

قال ابن أم حنتمة : وكان ﷺ يقول : « أمُّ أيمن : أمي بعد أمي » . وقال الحافظ في الاصابة : قال ابن سعد : أخبرنا أبو أمامة ، عن جرير بن حازم ، قال سمعت عثمان بن القاسم يحدّث ، قال : لما هاجرتْ أم أيمن — إلى المدينة — أمست بالمنصَرَف دون الرَّوْحاء — أي أقبل عليها المساء وهي في موضع بين الحرمين — فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة ، فأجهدها العطش ، فدُلّي عليها من السماء دلو من ماء برِشاء أبيض ، فأخذتْه فشربته حتى رويت ، فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرّضتُ للصوم في الهواجر ، فما عطشت بعد تلك الشربة .

وفي رواية ابن السكن : خرجت أم أيمن مهاجرةً في مكة الى المدينة ، وهي

---

(١) انظر البداية ٢ : ٢٧٩ ، والمواهب وشرحها .

ماشية ليس معها زاد ، قالت : فلما غابت الشمس ، إذا إناء معلّق عند رأسي ، قالت : ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحار ، ثم أطوف في الشمس كي أعطش، فما عطشت بعد . ا هـ .

قال ابن اسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب — بعد وفاة أمه— فكان يوضَع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، فو الله إن له لشأناً ، ثم يُجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويَسرُّه ما يراه يصنع ﷺ . [1] ا هـ .

فلما حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، وتوفي عبد المطلب وقد بلغ ﷺ ثمان سنين .

فكان أبو طالب يحوط رسول الله ﷺ ويكرمه ، وقد أسند الواقدي وغيره عن ابن عباس قال : كان أبو طالب يُحبّ رسول الله ﷺ حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصَبّ به أبو طالب صبابة لم يصبّ مثلها بشيء قط ، قال : وكان أبو طالب يخصُّه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان — أبو طالب — إذا أراد أن يغذّيهم قال — أبو طالب — : كما أنتم — أي لا تأكلوا — حتى يأتي ولدي محمد ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم ، فكانوا يُفضِلون من طعامهم ، وإذا كان لبناً شرب أولهم ثم يشربون فيروون كلُّهم من قعب — إناء — واحد ، فيقول أبو طالب : إنك — يا محمد — لمبارك .

وروى أبو نعيم وابن إسحاق وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بنو أبي طالب يُصبحون رُمْصاً شُعْثاً ، ويصبح محمد ﷺ صَقيلاً ، دَهيناً ، كحيلاً ، وكان أبو طالب يحبه حباً شديداً . ا هـ [2] .

---

(١) انظر البداية ٢ : ٢٨١ .

(٢) انظر جميع ذلك في البداية ٢ : ٢٨٢ وشرح المواهب ١ : ١٨٩ .

وهكذا نشأ ﷺ في بيت عزٍ وشرفٍ ، عزيزاً مكرماً ، معظَّماً ، محفوفاً بعناية الله تعالى ، ومطيَّباً ، بعنايته سبحانه .

وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ نعمته عليه ، وإيواءه ، وعنايته به منذ صغره في جملة صنوف الافضال والاكرام ، الذي امتنّ الله تعالى به عليه .

فقال سبحانه : « والضحى . والليل إذا سَجَى . ماودَّعكَ ربك وما قَلَى . وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى . ولَسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدْكَ يتيماً فآوى ؟ وَوجدك ضالاً فهدى؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيمَ فلا تقهر . وأما السائلَ فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدِّث » .

فانه سبحانه ذكر في هذه السورة وجوهاً من عنايته برسوله ﷺ وتولّيه إياه في جميع أموره ، وتعهّده إياه ، وحسن تربيته ، ومواصلة برّه ﷺ وإكرامه ، أبدَ الآباد بلا انقطاع ولا نفاد .

فأقسم سبحانه بالضحى الذى يسطع فيه نور الشمس ، وينتشر فيه ضياؤها وبهاؤها ، وبالليل إذا سجى ، أي : إذا أظلم وامتدَّ سواده ، وفي ذلك تنبيه لكل ذي بصر إلى الفرق الكبير بينهما ، أي بين رونق الضحى وضيائه ، وبين ظلام الليل وسواده ، فهذا هو القَسَم ، والمقسَمُ عليه : هو عناية الله تعالى برسوله ﷺ وإكرامه إياه ، وإفضاله عليه ، وذلك كله يتضمّن تصديقه سبحانه وتأييده ، وشهادته أن سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً .

ووجه المناسبة بين القسَم والمقسَم عليه : هو تنبيه العقلاء إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء ، والضلالة الظلماء ، وبين النور الساطع والضياء اللامع ، الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ ، وأن ذلك لايخفى على كل ذي عقل وروية ، كما لا يخفى على ذوي الأبصار الحسيّة الفرقُ بين الضحى وبين الليل إذا سجى .

وكما أن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، فكذلك اقتضت رحمته وحكمته أن

لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتيه الغيّ والضلال ، بل يهديهم بأنوار النبوة والرسالة المحمدية ، إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، وإلى ما فيه سعادتهم في الأولى والآخرة ، قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله مَن اتبع رضوانه سُبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

ثم قال سبحانه : « ماودّعك ربك وما قلى » فنفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه وحبيبه ، أي : تركه ، ونفى أن يكون قلاه ، أي : أبغضه ، فانه سبحانه كيف يتركه وقد عناه بعنايته الخاصة منذ بدء الأمر ، وكيف يقليه — أي كيف يُبغضه — وقد اتخذه حبيبه فهو ﷺ غيرُ متروك ولا مَقليّ ، بل هو في عناية الله تعالى ، كما قال « فانك بأعيُننا » وهو ﷺ حبيب الله الأكرم ، كما قال ﷺ فيما رواه الدارمي وأحمد والترمذي : « ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخرَ » .

ثم قال سبحانه : « وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى » وفي هذا تعميم لجميع أحواله ﷺ ، وأنه في الترقي الدائم ، وأن كل حالة يرقى لها ، هي خير له من الحال التي قبلها أبداً واستمراراً ، كما أن الدار الآخرة خير له ﷺ مما قبلها .

ثم قال سبحانه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . وفي هذا وعد محتَّم من الله تعالى ، بما تقرُّ به عينه ﷺ ، وتفرح به نفسه ، أن يُعطيَه حتى يرضى ، وفي ذلك من الفضل الكبير ، والخير الكثير ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ويدخل في جملة ذلك العطاء الالهي : كثرةُ أتباعه فوق أتباع كل نبي ، ودخول الناس في دينه أفواجاً ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، والنصر على أعدائه بإلقاء الرعب في قلوبهم ، وإظهار دينه على الأديان ، وظهور سلطانه ، وسطوع برهانه ، وإعطاؤه الحوض والكوثر والمقام المحمود ، وما في ذلك من الشفاعة العظمى والشفاعات الخاصة ، ومقام الوسيلة والفضيلة ، إلى ما هنالك مما أعدّ الله تعالى له في الدار الآخرة من المقامات العالية ، والمرتبة الزلفى ، مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر سبحانه عنايته بحبيبه ﷺ منذ صغر سنّه ، وتعهّده إياه ، ورعايته له تنبيهاً إلى أن الله تعالى الذي تولاّه بعنايته منذ صغره ، وأتحفه بنعمه سبحانه ، سوف

يواصل إليه برّه وإكرامه ، ويُديم عليه فضله وإنعامه ، ويُحقّق له ما وعده به ؛ ويحيطه بعنايته ويكلأه برعايته أبد الأبد .

فقال سبحانه : « ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ » وذلك أن أباه عبد الله توفي وهو ﷺ حمل في بطن أمه ، وقيل بعد ولادته ﷺ ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ستُّ سنين ، ثم جعله سبحانه في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل ﷺ يتربّى وينشأ في عناية من الله تعالى ، مُحاطاً محفوفاً محفوظاً موقّراً ، إلى أن أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة . صلى الله عليه وسلم .

« ووجدك ضالاً فهدى » اعلم أن الضلال قد يُراد منه ضلال المعصية ، وهو الضلال عن الحق والخير والصلاح ، وقد يطلق على غير ذلك من المعاني المختلفة ، حسب المناسبة التي جاء فيها ، كما سيتضح معنا قريباً إن شاء الله تعالى .

فأما الضلال عن الحق والصلاح فهو غير مراد في هذه الآية قطعاً ، لأن الله تعالى نفاه عن النبي ﷺ في قوله « والنجم إذا هوى . ماضلّ صاحبكم وما غوى » فنفى سبحانه عن رسول الله ﷺ الضلالة التي هي ضدُّ الهدى ، والغواية التي هي ضد الرشاد ، ونزّهه عن ذلك بعد التأكيد بالقسم ، وذلك يتضمن شهادة الله تعالى لنبيه ﷺ بالهدى والرشاد في علمه وعمله ، وقاله وحاله ﷺ ؛ فهو ﷺ ليس بضالٍّ ، بل هو على هدى وعلمٍ بالحق ، وليس بغاوٍ بل هو راشد في علمه وقصده ، لم يلتفت لشيء سوى الهدى والحق ، فانّ الضالّ هو الجاهل الذي يمشي على غير علم ، فلا يهتدي السبيل ، والغاوي هو الذي علم الحق فكتمه وقصد غيره ، بالهدى والرشاد هما أصل الكمال في الانسان .

ولقد امتن الله تعالى على خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه آتاه رُشْده من قبل النبوة ؛ قال تعالى : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين » فاذا كان الخليل كذلك ، فالحبيب الأكرم أولى وأجدر بذلك ، فان الله تعالى آتاه رشده من قبل النبوة ، ولذا نبه الله تعالى قومه الذين عاندوه فقال لهم : « ما ضلّ صاحبكم »

أي محمد الذي تربى بينكم ، ونشأ فيكم ، فأنتم أعرف به من غيركم ، لم تعثروا له على ضلالة ولا غواية بل أموره كلها سداد ورشاد .

فليس الضلال الوارد في قوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » ليس هو الضلال عن الحق ، والميل إلى الفساد والشر ، فانه منفيٌّ عنه ﷺ نصاً في قوله تعالى « ما ضل صاحبكم وما غوى » . ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن له ضلالةمعصية.

إذاً : فقد يقول القائل : فما المراد بقوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » ؟

قلنا في الجواب : قد ذكر علماء السلف وجوهاً من المعاني لقوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » .

الوجه الأول : إن معنى قوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » أي وجدك غير عالم بالنبوة وعلومها ، والكتاب المبين وما حواه ، فهداك لذلك ، وعلّمك جميع ما هنالك ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى « آلر تلك آيات الكتاب المبين . نحن نقصُّ عليك أحسن القَصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإنْ كنتَ من قبله لمن الغافلين » فليست هذه الغفلة غفلةً مطلقة ، ولا غفلةَ ضلالة أو غواية ، وإنما هي عدم دراية بتفاصيل الكتاب وعلومه ، قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولا الايمان . . » الآية . أي : ماكنت تدري بتفاصيل الايمان العملي وواجباته ، حتى علمناك يارسول الله ﷺ ، قال تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » .

الوجه الثاني : ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما [١] من أنه ﷺ لما كان صغيراً عند جده عبد المطلب ، ضلَّ في شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه ، فردَّه إلى جده عبد المطلب ، وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى أن يردَّ إليه محمداً ﷺ [٢] .

---

(١) رواه عنه البيهقي وابن عساكر وابن إسحاق ، كما في شرح الزرقاني وغيره .

(٢) انظر هذا القول في تفسير الرازي ، وتفسير ابن كثير ، والمواهب للقسطلاني ، وغيرها .

ولذا قال بعضهم : إن إرجاعه ﷺ إلى جدّه على يد أبي جهل فرعون هذه الامة ، يُشبه إرجاع موسى إلى أمه على يد فرعون .

وقيل : ضلّ مرة أخرى في شعاب مكة ، فطلبوه فلم يجدوه ، فطاف عبد المطلب سبعاً ، وتضرّع إلى الله تعالى ، فسمعوا منادياً : يا معشر الناس لاتضجّوا ، فان لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمداً بوادي تهامة ، عند شجرة السَّمُر ، فسار عبدُ المطلب إليه فوجده قائماً تحت الشجرة .

فيكون هذا من باب قولهم : ضلّ فلان في طريقه ،إذا سلك غير طريقه المقصودة ، ومنه قوله ﷺ في بيان حقوق الطريق « وأن تغيثوا الملهوف ، وأن تهدوا الضالّ .. » الحديث .

وهذا القول حول الآية يتناسب مع سياق الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى » حيث إنه سبحانه يعدّد نعمته على رسوله ﷺ ، وعنايته به منذ حداثة سنه إلى ما وراء ذلك .

الوجه الثالث : أن قوله تعالى : « ووجدك ضالاً فهدى » يشير إلى الحالة التي مرت عليه ﷺ قبل البعثة ، وهي همّه بالسَّمَر ، كما يسمُر الشباب ، فحفظه الله تعالى من ذلك وألقى عليه النوم [1] .

فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلُّ ذلك يحول الله بيني وبين ذلك ، ثم ماهممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته » .

قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار ، ورجاله ثقات . اهـ وسيأتي هذا الحديث قريباً مفصلاً في بحث : حفظه ﷺ قبل النبوة من الباطل .

الوجه الرابع : أن معنى قوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » أي : وجدك هائماً

---

(١) وهذا القول عزاه القسطلاني إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وذكره القاضي عياض في الشفا وانظره في شرح القاري والخفاجي .

في محبته تعالى ، فهداك إلى نبوّته ورسالته ، فهو ضلال الهيام والاستغراق في المحبة الإلّهيـة .

وقد أخبر الله تعالى عن أولاد يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، حين قالوا لأبيهم : « قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم » فانهم أرادوا بضلاله : هُيامَه في يوسف ، وشغفه به ، ولم يريدوا بذلك ضلال الاثم والمعصية قطعاً ، لأن السياق ينفي ذلك ، ولأنهم لو أرادوا بذلك ضلال المعصية أو الاثم لكفروا لأنه طعن في يعقوب ، الذي هو نبيٌّ الله ورسوله ، بالفسق والمعصية وذلك يوجب الكفر .

وهناك أجوبة أخرى عن معنى آية « ووجدك ضالاً فهدى » مذكورة في التفاسير ، وشرح المواهب وشرح الشفا .

وأما قوله تعالى : « ووجدك عائلاً فأغنى » فالمعنى : وجدك ذا عَيْلَة — أي إقلال — أو ذا عِيالٍ ، فأغناك ربك عمن سواه ، وفتح عليك أبواب الرزق والخير الكثير .

قال الامام القسطلاني في المواهب : قال الحليمي في شُعَب الايمان : من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصفَ بما هو عند الناس من أوصاف الضَّعَة — أي النقص — فلا يقال : كان فقيراً . ا هـ . لأنه يوهم النقص ، وأنه فقير قهراً لا اختياراً .

قال القسطلاني : وقد ذكر القاضي عياض في الشفا ، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتاب السيف المسلول ، أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقه الطليطلي وصَلبه ، لاستخفافه بحقّ النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم ، وزعمه أن زهده ﷺ لم يكن قصداً ، ولو قدر على الطيبات أكلها . ا هـ .

قال الشارح الزرقاني : وكلٌّ واحدة من — هذه — الثلاث كافية في القتل بلا استتابة عند مالك رحمه الله تعالى . ا هـ .

ونقل القسطلاني ، عن الشيخ تقي الدين السبكي ، أنه كان يقول : لم يكن النبي

ﷺ فقيراً من المال قطّ ولا حاله حال فقير ، بل كان ﷺ أغنى الناس ، فقد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله .

وكان الشيخ السبكي رحمه الله يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما « اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفّني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين» : المراد به استكانة القلب . قال الزرقاني : أي تواضع القلب وانكساره إلى الله تعالى ، لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته ، وكان يشدّد النكير على من يعتقد خلاف ذلك . ا هـ .

قال الزرقاني : وهو حسن نفيس . وحاصله أن المنفي سؤال مسكنة ترجع الى القلة وعدم الكفاية . ا هـ .

وقد سبق إلى ذلك الامام البيهقي حيث قال : إنه ﷺ لم يسأل مسكنة ترجع إلى القلة ، بل إلى الاخبات والتواضع .

قال العلامة الزرقاني : ونحوه قول الغزالي رضي الله عنه : استعاذتُه ﷺ من الفقر ، لا تنافي المسكنة ، لأن الفقر مشترك بين معنيين : الأول : الافتقار إلى الله تعالى ، والاعتراف بالذلّ والمسكنة له . والثاني : فقر الاضطرار ، وهو فَقْد المال المضطّر إليه ، كجائعٍ فقد الخبز ، فهذا الذي استعاذ منه ﷺ ، والأول — أي الافتقار إلى الله تعالى — هو الذي سأله ﷺ [1] . ا هـ .

قال عبد الله : وكيف يكون ﷺ فقيراً فقرَ اضطرارٍ وفقدَ مالٍ ، والحال قد عرض الله تعالى عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى ذلك ؟ ! وقد خيّره بين أن يكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ، فقال : « بل نبياً عبداً » .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « عرَض عليّ ربي ليجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فاذا جعتُ تضرّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك » رواه الترمذي وقال حديث حسن ، ورواه الامام أحمد .

(١) انظر جميع تلك النقول في المواهب وشرحها للزرقاني .

وتقدم في بحث تواضعه ﷺ حديث الطبراني باسناد حسن ، عن ابن عباس وفيه : « فأتاه اسرافيل فقال : إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرِض عليك أسيِّرُ معك جبالَ تِهامة زمرُّداً وياقوتاً ، وذهباً وفضةً ، فانْ رضيتَ فعلتُ ، فانْ شئتَ نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ، فأومأ إليه جبريل : أنْ تواضع ، فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » قالها ثلاثاً .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُتيتُ بمقاليد الدنيا على فرسٍ أبلق ، جاءني به جبريل » رواه أحمد برجال الصحيح ، وصححه ابن حبان .

فقد ترفع رسول الله ﷺ بنفسه عن حُطام الدنيا وأموالها ، وذهبها وفضتها ، ولم يركن إلى نعيمها ، ولا إلى ترف عيشها ، مع تيسُّر ذلك له ، بل كانت همته أشرفَ من ذلك وأسمى ، وأمجدَ وأعلى .

قال عبد الله بن مسعود : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثَّر في جنبه فقلنا : يا رسول الله ! لو اتخذنا لك وِطاء — أي فراشاً وطيئاً ليِّناً — فقال ﷺ : « مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ، ثمَّ راح وتركها » رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلتْ عليَّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه صوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت : يارسول الله فلانة الأنصارية ، دخلت فرأت فراشك ، فذهبت فبعثتْ إليَّ بهذا . فقال : « رُدِّيه يا عائشة ، فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » رواه البيهقي .

ورواه أبو الشيخ بلفظ : أن امرأة قالت : دخلتُ على عائشة رضي الله عنها فمسستُ فراش رسول الله ﷺ فاذا هو خشن ، فقلت : يا أم المؤمنين إن عندي فراشاً أحسن من هذا وألين .. » الحديث .

فليس فقره ﷺ فقر اضطرار ، وإنما هو افتقار واختيار (١) ، وليس غناه غنى جمع ومنع واستئثار ، بل غناه ﷺ فياض بالعطاء والجود والايثار .. فكان يأتيه السائلون ، ويقصده المحتاجون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يأتيه السائلون ، فيعطيهم مايعطيهم ، ثم يسألونه فيعطيهم ، حتى لا يبقى عنده شيء من المال ، بل ولا من الطعام قوت إنسان ، فيطوي هو ﷺ وأهله وهم جياع ! .

وكان ﷺ يقول لهم : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم .. » الحديث . كما تقدم في كرمه ﷺ .

ثم إن الله تعالى علّم نبيه ﷺ أن يقابل تلك النعم السابق ذكرها في الآيات ، بما يليق بها من الحقوق والاعتراف والشكر لله تعالى ، فقال الله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدّث » .

وفي هذه الآيات مع التي قبلها لفٌّ ونشر ، فأما اليتيم فلا تذلّه ولا تحقره ؛ بل أكرمه وبرّه ، وأما السائل أيّ سائل بغيته وحاجته ، علماً كان أو مالاً ، فلا تزجره ، ولكن أكرمه بما سأله ، أو رُدّه بقول حسن جميل ، وأما بنعمة ربك فحدث ، لأن في التحدث بها شكراً لله تعالى الذي أنعم بها .

ومن ثَمّ كان رسول الله ﷺ يذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتحدث بما أعطاه من المقامات ، وما خصه به من الخصوصيات ، شكراً غير فخر .

فمن ذلك قوله ﷺ : « أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أي : يقول ذلك من باب الشكر لا من باب الكبر .

وقوله ﷺ : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر » .

وقوله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمامَ النبيين ، وخطيبَهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

إلى ماهنالك مما حدث به ﷺ .

---

(١) يعني أن ذلك افتقار إلى الله تعالى واستكانة له ، واختيار لعظيم الأجر ، ورفعة المقام عند الله تعالى .

فهذه السورة تدل على وجوه من العنايات الإلٓهية برسوله ﷺ ، وأنه سبحانه قد تولى رسوله ﷺ وتعهّده في جميع أطواره ، وسائر أحواله .

حفظ الله تعالى لرسوله محمد ﷺ من مساوئ الجاهلية منذ حداثة سنه

لقد حفظ الله تعالى رسوله الكريم في منشئه ومرباه ؛ فشبّ سيدنا محمد ﷺ على أشرف الأحوال ، وأكرم الخصال ؛ يكلؤه الله تعالى ويحوطه من أدناس الجاهلية ومعايبها ، ومن غلظتها وخشوناتها ، ويُعدُّه الله تعالى ويُمدُّه ، لما يريده سبحانه من إكرامه بالرسالة ، حتى إنه ﷺ بلغ أنْ كان رجلاً ذا شأن عظيم ، ومقام كريم ، أفضلَ قومه مروءةً ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق الدنيئة ، تنزهاً وتكرماً ، حتى سمّاه قومه : الصادق الأمين ، وكانوا يُقرّون له بذلك ، ويعترفون له في مواقفهم الخاصة والعامة .

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت « وأنذرْ عشيرتك الأقربين » صَعِد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : يابني فِهر ، يابني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا — كلهم — فقال ﷺ : « أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ ؟ » قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً .. الحديث .

فلقد أعلنوها أنهم ماجربوا عليه ﷺ إلا الصدق منذ صغره !

ومن ذلك مارواه ابن اسحاق ، أن النضر بن الحارث قال : يامعشر قريش ! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر !! لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا

السحرة ونفثهم ، وعقدهم . وقلتم : كاهن !! لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر !! لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، وهزجه ورجزه . وقلتم : مجنون !! لا والله ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ولا تخليطه . يامعشر قريش فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

قال ابن اسحاق : وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ (١) .

ومن ذلك مارواه ابن اسحاق وغيره ، عن المسور بن مخرمة أنه قال : قلت لأبي جهل — وكان خالي — : ياخال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟ — أي قبل أن يقول : إني نبي الله تعالى — فقال أبو جهل : والله ياابن أختي ، لقد كان محمد وهو شاب يدعى فينا : الأمين ، فلما وخطه الشيب — أي بلغ الاربعين وقارب المشيب — لم يكن يكذب .

قلت : ياخال ! فلم لا تتبعونه ؟ فقال : ياابن اختي ! تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب وكنا — في المكارم والمفاخر — كفرسي رهان — أي متساويين — قالوا — أي بنو هاشم — : منا نبي ! فمتى نأتيهم بهذه ؟ ! أي : من أين نأتي بنبي ، حتى نكون مثل بني هاشم في الفضائل .

ولما جددت قريش بناء الكعبة ، وتنازعوا في رفع الحجر الأسود ، فتركوا الحكم لأول داخل من باب بني شيبة ، فاذا برسول الله ﷺ يدخل عليهم ، فقالوا كلهم : هذا الأمين وكلنا نقبله . وتقدم الحديث في ذلك في البحث حول أرجحية عقله الشريف ﷺ .

فكان ﷺ متصفاً منذ حداثة سنه بالصدق والأمانة ، والعفة والحصانة ، بعيداً كل البعد عن الكذب والخيانة ، والمساوىء والأدناس .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ : ٣٢ .

وكان يُبعد عن الأصنام والأوثان ، وعن تعظيمها ، وعن الحلف بها ، مجانباً لما عليه المشركون .

روى الامام أحمد عن عروة بن الزبير قال : حدثني جار لخديجة بنت خويلد قال : سمعت النبي ﷺ يقول لخديجة : « أي خديجة ! والله لا أعبد اللات أبداً ، والله لا أعبد العزّى أبداً » [١] .

وروى البزار وغيره أنه ﷺ قال : « لستُ من دَدٍ ولا الدَّدُ مني . وفي رواية : ولست من الباطل ولا الباطل مني » [٢] .

وعن زيد بن حارثة قال : طفتُ مع رسول الله ﷺ ذاتَ يوم ، فمسستُ بعض الأصنام ، فقال لي رسول الله ﷺ « لا تمسَّها .. » الحديث [٣] .

وعن علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ماهممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما ، قلت لفتىً كان معي من قريش ، بأعلى مكة في غنم يرعاها : ابصرْ لي غنمي ، حتى أسمُر هذه الليلة بمكة ، كما يسمر الفتيان ، قال : نعم .

فخرجت ، فلما جئتُ أدنى دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، قلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان يتزوج فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني — أي فنمت — فو الله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : مافعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي ، حتى أسمُر ، ففعل ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) وتقدم الكلام على هذا الحديث .

(٣) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وأورده الحافظ ابن كثير في البداية معزواً للبيهقي .

أنظر ، وضرب الله على أذنيّ — أي فنمت — فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممتُ ولا عُدتُ بعدهما لشيء من ذلك ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته . وفي رواية : برسالته » [1] .

سفره ﷺ الى الشام

لما بلغ رسول الله ﷺ اثني عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب الى الشام ، حتى بلغ بُصْرى — مدينة في حَوران — فرآه بَحيرا الراهب ، وكان عالماً بالنصرانية ، فعرف النبيَّ ﷺ بصفاته التي وافقت ماأخبرت به الكتب السماوية السابقة فقال بحيرا : هذا سيد المرسلين ، هذا سيد العالمين . وقد ذكرنا الحديث الوارد في هذه السفرة ، في بحث خاتم النبوة المتقدم من رواية الترمذي .

وعند ابن إسحاق : أن بحيرا قال للنبي ﷺ : ياغلام أسألك بحقّ اللات والعزّى إلا ماأخبرتني — أي إلا أخبرتني — عما أسألك عنه . فقال النبي ﷺ : « لا تسألني بهما شيئاً ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما » فقال له بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه . فقال له ﷺ : « سلني عما بدا لك » فجعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ، ويخبره ﷺ ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته .

قال في الشفا : وإنما سأله بحق اللات والعزى اختباراً . ا هـ . أي لتتبين له صفاته ﷺ المذكورة في الكتب السماوية السابقة ، ومن جملتها بغضه للأوثان والأصنام .

ثم إنه ﷺ خرج أيضاً إلى الشام مرةً ثانية ، في تجارةٍ للسيدة خديجة ، وله خمس وعشرون سنة . وذاك — كما قال الواقدي وابن السكن وغيرهما — أن السيدة خديجة كانت تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومالٍ كثير ، وتجارةٍ تبعث بها إلى الشام ، فيكون

---

(١) انظر ص ٥١٥ من موارد الظمآن ، تحت عنوان : باب في عصمته صلى الله عليه وسلم . وانظره في البداية لابن كثير ٢ : ٢٨٧ معزواً للبيهقي ، وانظره في تاريخ الذهبي ١ : ٥٠ وأورده في مجمع الزوائد تحت عنوان : باب في عصمته صلى الله عليه وسلم من الباطل وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .اهـ

عيرها — في الكمية والعدد — كعامة عير قريش . وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم مضاربةً ، وكانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً فليس عنده شيء .

فقال أبو طالب للنبي ﷺ : ياابن أخي ! هذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالهـا ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضّلتك على غيرك ، لما بلغها عنك من طهارتك ، وإنْ كنتُ أكره أن تأتي الشام ، وأخاف عليك من يهودها ، ولكن لانجد من ذالك بُدّاً ، فقال ﷺ : « لعلها تُرسل إليَّ في ذالك » . وهذا مظهر من مظاهر عزة نفسه ﷺ وعلوّ همته وكرامته الأبية . فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولّي غيرك !

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، وكان بلغها قبل ذالك صدق حديثه ﷺ ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، فقالت : ماعلمتُ أنه يريد هذا . وأرسلتْ إليه وقالت : دعاني إلى البعثة اليكَ ، ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجالاً من قومك .

فذكر النبي ﷺ ذالك لعمه فقال : إن هذا لرزقٌ ساقه الله إليك .

فخرج ﷺ ومعه ميسرة غلام — أي مملوك — خديجة ، وسار حتى بلغ بُصرى ، فنزل تحت ظل شجرة في سوق بصرى ، قريباً من صومعة نَسْطُورا الراهب ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، وكان يعرفه ، فقال نسطورا : يا ميسرة مَنْ هذا الذي تحت هذه الشجرة ؟ فقال : رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبيّ — وفي رواية : بعد عيسى — ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة ؟ فقال ميسرة : نعم . فقال : هو هو ، وهو آخر الأنبياء ، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج ! فوعَى ذالك ميسرة .

ثم حضر ﷺ سوق بُصرى ، فباع سلعته التي خرج بها واشترى ، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعته ، فقال الرجل : احلفْ باللات والعزى . فقال ﷺ : « ما حلفتُ بهما قطُّ » فقال الرجل : القول قولك . ثم قال لميسرة — وخَلا به — :

هذا نبيٌّ ، إنه لهو الذي نجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم . فوعى ذلك ميسرة ، وانصرف أهل العير جميعاً .

وكان ميسرة يرى في الهاجرة — الظهيرة — مَلَكين يُظلاَّنه في الشمس . ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليَّة — غرفة عالية — لها رأت رسول الله ﷺ وهو على بعير ، وملكان يظلاّن عليه ، فأرتْه نساءها ، فعجبن لذلك .

ودخل عليها ﷺ فأخبرها بما ربحوا ، فسُرَّت ، فلما دخل عليها ميسرة ، أخبرته بما رأت ، فقال ميسرة : قد رأيت هذا منذ خروجنا من الشام ، وأخبرها بقول نسطورا ، وقول الرجل الذي خالفه في البيع .

وقدم ﷺ بتجارتها فربحتْ ضِعف ما كانت تربح ، وأضعفت له ما كانت سَمَّته له (١) .

زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد بن أسد

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تُدعى في الجاهلية والاسلام « الطاهرة » لشدة عفافها وصيانتها ، وكانت برّة نقيّة ذاتَ عقلٍ واسعٍ ، وذكاءٍ لامعٍ وجمالٍ وكمالٍ ، وحَسَب ومال ، وقد عرَضت السيدة خديجة رضي الله عنها نفسها على رسول الله ﷺ وله من العمر خمس وعشرون سنة عند أكثر العلماء ، ولها من العمر أربعون سنةً ، فأرسلت إليه نفيسة بنت منية ، كما روى ابن سعد من طريق الواقدي ، عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة امرأةً حازمةً جَلْدة شريفة ، مع ما أراد الله تعالى بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال .

قالت نفيسة : فأرسلتني دَسيساً — أي خفيةً — إلى محمد ﷺ بعد أن رجع في

(١) انظر المواهب وشرحه ، معزواً إلى أبي نعيم والواقدي وابن السكن . وانظر سيرة ابن هشام والروض الأُنُف .

عيرها من الشام ، بالتجارات الرابحة . فقالت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : « ما بيدي ما أتزوج به » قلت : فان كُفيتَ ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : « فمن هي ؟ » قلتُ : خديجة . قالت نفيسة : فذهبتُ فأخبرت خديجة فأرسلتْ إليه : أن ائتِ اهـ .

وهكذا تعرض السيدة خديجة نفسها على رسول الله ﷺ بواسطة نفيسة لتعلم هل يرضى بها . فلما علمت منه الرضا عرضتْ نفسها وكلّمته بلا واسطة ، كما روى ابن اسحاق ، أن خديجة رضي الله عنها عرضت نفسها على النبي ﷺ فقالت : يا ابن عمّ إني قد رغبتُ فيك ، لقرابتك ووساطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

وسبب عرض نفسها على الرسول ﷺ هو ماحدثها به غلامها ميسرة الذي ذهب معه في سفره للشام ، وما شاهده ميسرة من الآيات ، وكذلك أيضاً ما شاهدته هي رضي الله عنها من الآيات ، حين أقبل رسول الله ﷺ من السفر ، وهي في غرفة مشرفة .

وأيضاً من الأسباب التي حملتها على أن تعرض نفسها : ما ذكره ابن اسحاق في المبتدأ قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعْنَ فيه ، فاجتمعن يوماً فيه ، فجاءهنَّ يهودي فقال : يامعشر قريش إنه يوشك فيكن نبيّ ، فأيّتكنَّ استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل ، فحصبْنَه — أي رمينه بالحصباء والحجارة الصغيرة — وأغلظْنَ له بالقول .

وأغْضت خديجة — أي سكتت — على قوله ، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء — أي : لم تشترك مع أولئك النساء فيما تعرّضْنَ له من مقابلة اليهودي بالإغلاظ — ووقر ذلك في نفسها ؛ فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وما رأته هي ، قالت : إنْ كان ما قال اليهودي حقاً فما ذاك — النبيُّ — إلا هذا . اهـ [1] .

---

(١) انظر جميع ذلك في المواهب وشرحها للزرقاني ١ : ٢٠٠ وانظر بعضه في سيرة ابن هشام .

ثم إن رسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فأقرُّوا له ذلك ، ورضوها زوجةً له ﷺ .

خطبتُها من أهلها : خرج النبي ﷺ ومعه عمه أبو طالب [١] وعمه حمزة ، حتى دخلوا على أبي خديجة : خويلدِ بن أسد ، وحضر المجلسَ رؤساءُ مضر ، فخطب فيهم أبو طالب وقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذريَّة إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل ، وضِئْضِيء [٢] معدّ ، وجعلنا حَضَنَة [٣] بيته ، وسُوّاس [٤] حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكّام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمدَ بنَ عبد الله ، لا يُوزَن برجل إلا رَجَح به شرفاً ونُبْلاً ، وفضلاً وعقلاً ، فانْ كان في المال قِلٌ : فان المال ظلٌّ زائل أو حائل ، وعارية مسترجَعَة ، ومحمد بين مَنْ قد عرفتُم قرابته ، وقد خطب إليكم راغباً كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقيَّة ذهباً ونَشّاً — أي نصفاً [٥] — وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم . ا هـ .

فزوَّجها أبوها ، وقيل زوَّجها عمها عمرو بن أسد ، وقيل أخوها عمرو ابن خويلد .

فولدت له ﷺ جميع أولاده الكرام ، إلا إبراهيمَ فانه من ماريةَ القبطية .

---

(١) كما نقله السهيلي ، وعند ابن إسحاق أن الذاهب للخطبة هو حمزة . قال في النور : فلعلهما خرجا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي خطب خطبة النكاح هو أبو طالب ، لأنه أسن من حمزة . ا هـ من شرح الزرقاني .

(٢) الضئضىء : هو الأصل .

(٣) حضنة البيت : الكافلون له ، القائمون بخدمته .

(٤) سواس حرمه : هم المتولون أمر الحرم .

(٥) وقال المحب الطبري : إن المصطفى صلى الله عليه وسلم أصدق خديجة عشرين بكرة ، أي ناقة فتية ، قال الزرقاني : ولا تضاد بين هذا وبين ما يقال أبو طالب أصدقها — أي بما ذكره في خطبة النكاح — لجواز أنه صلى الله عليه وسلم زاد في صداقها ، فكان الكل صداقاً . ا هـ .

أولاده الكرام :

وأولاده الكرام عليه وعليهم الصلاة والسلام : قد اختُلِف في عددهم ، والأصح – كما قال القسطلاني وغيره – أنهم سبعة : ثلاثة ذكور : القاسم وعبد الله ويُلقّب بالطيب والطاهر [1] ، وإبراهيم . وأربع بنات : السيدة زينب وهي أكبرهنّ ، والسيدة رُقَيَّة ، والسيدة أم كُلثوم ، والسيدة فاطمة الزهراء البتول . على أبيهن وعليهن الصلاة والسلام .

وكلهن أدركن الاسلام ، واجتمعن معه في المدينة بعد الهجرة .

والسيدة زينب أكبر بناته ﷺ والخلاف فيها وفي القاسم : أيُّهما وُلد أولاً .

والسيدة فاطمة الزهراء أحبُّ أهله إليه ، فقد روى الترمذي وحسّنه ، والحاكم ، عن أسامة أن النبي ﷺ قال : « أحبّ أهلي إليّ فاطمة » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحداً أشبه سَمْتاً ودَلاً ، وهَدْياً وحديثاً برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت عائشة رضي الله عنها : وكانت فاطمة رضي الله عنها إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إليها ، فقبّلها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامتْ له فقبّلته ، وأجلسته في مجلسها ، فلما مرض رسول الله ﷺ أتتْ فاطمة فأكبّت عليه ، فقبّلته ثم رفعتْ رأسها فبكت ، ثم أكبت عليه ، ثم رفعت رأسها فضحكت ، فلما توفي رسول الله ﷺ قلتُ لها : رأيتُ حين أكببتِ على النبي ﷺ ورفعتِ رأسكِ فبكيتِ ، ثم أكببتِ عليه فرفعتِ رأسكِ فضحكتِ ، ما حملك على ذلك ؟ فقالت : أخبرني أنه ﷺ ميّت من وجعه هذا فبكيتُ ، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به فذلك حين ضحكتُ . أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وقال الترمذي : حسن غريب [2] .

---

(١) وقيل : إن هناك ولداً له صلى الله عليه وسلم يقال له الطيب والطاهر ، وهو غير ولده عبد الله ، وقيل : بل إن الطيب ولد آخر غير الولد الملقب بالطاهر .

(٢) انظر شرح المرقاة على المشكاة .

وروى الامام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخرُ عهده إتيان فاطمة ، وأوّلُ مَنْ يدخل عليه إذا قدم — من سفره — فاطمة رضي الله عنها .

وروى الحافظ أبو عمر أن النبي ﷺ كان إذا قدم من غزوٍ أو سفرٍ بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى أزواجه .

وقد بشرها رسول الله ﷺ أنها سيدة نساء أهل الجنة ، وفي رواية : سيّدة نساء العالمين ، كما جاء في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشيةُ رسول الله ﷺ فقال : « مرحباً بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه ، ثم أسرّ اليها حديثاً ، فبكت ، ثم أسرّ اليها حديثاً ، فضحكت ، فقلتُ : ما رأيتُ كاليوم أقربَ فرحاً من حزن ؟ قالت عائشة : فسألتُها عمّا قال ﷺ ؟ فقالت : ماكنتُ لأفشي على رسول الله ﷺ سرّه .

فلما قُبض ﷺ سألتُها ، فأخبرتني أنه قال : « إن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كلّ سنةٍ مرةً ، وإنه عارضني العامَ مرتين ، وما أُراه إلا قد حضر أجلي ، وإنكِ أوّلُ أهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلفُ أنا لكِ » قالت : فبكيتُ ، فقال ﷺ : « ألا ترضَيْنَ أن تكوني سيدةَ نساء العالمين ؟ » .

وفي رواية لهما : « سيدة نساء أهل الجنة » وعند أحمد : « ألا ترضينَ أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » قالت : فضحكتُ لذلك .

وروى النسائي والحاكم بسند جيد ، عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « هذا ملَك من الملائكة استأذن ربّه ليسلّم عليّ ، وبشّرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة ، وأمّهما سيّدة نساء أهل الجنة » [1] .

---

(١) انظر شرح الزرقاني ٣ : ٢٠٥ .

بعثته ﷺ وبدء نبوته

إن الله تعالى بعث سيدنا محمداً ﷺ رسولاً العالمين ، على تمام أربعين سنة من عمره الشريف ، كما جاء ذلك في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاثَ عشْرة سنة يوحى إليه ؛ ثم أُمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ؛ وعلى ذلك الجمهور . وقال الامام السُّهيلي : هو الصحيح عند أهل السِّيَر والعلم بالأثر . وقال الامام النووي : هو الصواب . ا هـ .

وتمام الأربعين إنما هو في شهر ربيع الأول ، وكان ذلك يوم الاثنين ؛ كما روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم وُلدتُ فيه ، ويوم بُعثت فيه » .

وقال بعض العلماء : كان ذلك في شهر رمضان ، وذلك لأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان ، قال الله تعالى : « شهرُ رمضانَ الذي أُنزل فيه القرآن .. » الآية .

وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان ، كما دل عليه قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » فيكون بدء نبوته ﷺ على تمام أربعين سنة ، وستة أشهر .

وقد جمع المحققون بين القولين — كما ذكره الزرقاني وغيره — بأنه ﷺ نبِّىء بالرؤيا ، أي بدأ الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا ، في شهر ربيع الأول على تمام أربعين سنة ، ثم أتاه جبريل عليه السلام في رمضان . قال الحافظ الزرقاني : وحمل عليه بعضهم — حديث — « الرؤيا جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » لأن مدة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة ، فيها ستة أشهر منه ؛ وذلك جزء من ستة وأربعين . ا هـ .

وقد روى الشيخان — واللفظ البخاري — عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : أولُ ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصادقةُ في النوم . وفي رواية

لهما : الرؤيا الصالحة (١) ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلقِ الصبح .

ثم حُبِّب إليه (٢) الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّث فيه (٣) — وهو التعبُّد — الليالِيَ ذواتِ العدد (٤) قبل أن ينزِع إلى أهله ، ويتزوَّدُ لذلك ، ثم يرجِع إلى خديجة فيتزودُ لمثلها (٥) ، حتى جاءهُ الحق (٦) وهو في غار حراء .

فجاءه الملك فقال له : اقرأ (٧) ، قال : « ما أنا بقارىء (٨) » قال : « فأخذني

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : الرؤيا الصادقة : هي التي لا كذب فيها ، أو لا تحتاج لتعبير ، أو هي ما يقع بعينه — أي كما رؤيت — أو مايعبر في المنام ا هـ . وأما الرؤيا الصالحة : فهي أخص من الصادقة ، وهي ماتأتي بالبشرى . كما في شرح القسطلاني على البخاري .

(٢) أي : ثم إن الله تعالى حبب إليه الخلاء — أي الخلوة — قال الخطابي : وذلك لأن الخلوة فراغ القلب وهي معينة على التفكر ، وبها ينقطع الانسان عن مألوفات البشر ، ويجتمع قلبه ، ويجمع همه . ا هـ وفي قولها « ثم حبب اليه الخلاء » دليل على أن حبه للخلوة إنما هو بتحبيب من الله تعالى ، وليس ذلك عن أمر نفساني ، بل عن وحي إلهامي . كما نبه على ذلك في الفتح .

(٣) التحنث : هو البعد عن الحنث ، وهو الاثم الذي كان عليه المشركون ، وذلك بالتعبد ، لأن التعبد سبب لإزالة الإثم .

(٤) هذا العدد المبهم وضحته رواية الصحيحين عن جابر : أنه صلى الله عليه وسلم قال : جاورت بحراء شهراً ؛ وفي رواية ابن إسحاق عينت ذلك الشهر الذي كان يخلو فيه صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه شهر رمضان . وقد ذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً ، وذلك الشهر هو رمضان .

(٥) قال الزرقاني : فكان صلى الله عليه وسلم يتزود لبعض ليالي الشهر ، فاذا نفد الزاد رجع إلى أهله ، فيتزود قدر ذلك . قال : وفيه أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينقطع بالغار بالكلية ، بل كان يرجع إلى أهله ، لضروراتهم ، ثم يرجع لتحنثه .

(٦) أي : الأمر الحق ، وهو الوحي ، وسمي حقاً : لمجيئه من عند الله .

(٧) فقال له الملك وهو جبريل اتفاقاً : اقرأ . قال الحافظ الزرقاني : هذا الامر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقى عليه — أي : ليتوجه إلى ماسيلقى عليه ثم يقرأ — أو على بابه من الطلب — أي طلب منه القراءة — قال : فهو دليل على تكليف مالا يطاق في الحال ، وإن قدر عليه بعد . ا هـ .

(٨) جاء في رواية « قلت » وفي رواية « فقلت : ما أنا بقارىء » . قال الحافظ في الفتح : (ما) فيه — أي في قوله ما أنا بقارىء — نافية ، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخولها على الباء ، وإن حكي عن =

فغطّني — وفي رواية الطبراني : فضمّني (١) — حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربكَ الذي خلق . خلق الانسان من علَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علّم بالقلم . علّم الانسانَ مالم يعلم » .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنتِ خويلد فقال : «زمّلوني زمّلوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع ، فقال لخديجة — وأخبرها الخبر — : « لقد خشيتُ على نفسي » (٢) .

= الأخفش جوازه ، فهو شاذ ، والباء — في : بقارىء — زائدة لتأكيد النفي ، أي : ما أحسن القراءة ، فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له : اقرأ باسم ربك — أي لاتقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم ، ومضمر الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية . ذكره السهيلي . ا هـ .

قال الزرقاني : وقيل : (ما) استفهامية ، وضعفه عياض وابن قرقول بدخول الباء في خبرها ، وهي لا تدخل على ما الاستفهامية ، قال : وأجيب بأن رواية أبي الأسود ، عن عروة : كيف أقرأ ؟ وابن إسحاق : عن عبيد بن عمير : ماذا أقرأ ؟ — دلتا على أنها استفهامية ، وقد جوز الاخفش دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك في — قولك — بحسبك زيد ، فجعل الخبر حسبك ، والباء زائدة . ا هـ .

(١) ومعنى غطني : ضمني . وهذه الضمات فيها إفاضات وإفراغات أسرار وأنوار الهية ، وعلوم ومعارف ربانية ، نزل بها جبريل عليه السلام من لدن حكيم عليم ، على وجه يعم النفس والقلب والروح ؛ وقد قال ابن عباس : ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم علمه الكتاب » وبذلك فتح على ابن عباس وأفيض عليه .

(٢) أي : لقد خشيت على نفسي أن لا يتحمل جسمي ثقل الوحي ، وذلك لأن للوحي ثقلا لا تقدر له الأقوياء، إلا من أمده الله تعالى بمدد النبوة وقوتها ، وخصوصاً الوحي المحمدي ، فانه من أعلى المراتب قال الله تعالى : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحى إليه . وقد نزل عليه الوحي يوماً وهو على ناقته ، فقعدت به الناقة .

فقالت له خديجة : كلاَّ — والله — ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتصدُق الحديثَ ، وتحمِل الكلَّ [١] ، وتَقْري الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق [٢] .

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفل بنِ أسد ، ابنَ عمّ خديجة ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب — وفي رواية لمسلم : فكان يكتب الكتاب العربي . وفي رواية : ويكتب من الانجيل بالعربية [٣] — وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابنَ عم ! اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟ فأخبره ﷺ خبرَ ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس [٤] الذي نزّل الله على موسى ، ياليتني فيها جَذَعاً ! ليتني أكونُ حيّاً إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجيَّ هم ؟ » قال : نعم ، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلاّ عودي ، وإنْ يُدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزّراً .

ثم لم ينشَب — أي لم يلبث — ورقة أنْ توفي ، وفتر الوحي . أي انقطع الوحي مدة من الزمان ، مقدرة بسنتين ونصف ، وقيل ثلاث سنوات .

ثم أنزل الله تعالى عليه بعد فترة الوحي أوائل سورة المدثر ، كما جاء في الصحيحين

---

(١) أي : الضعيف الذي لا يستقل بأمره .

(٢) أي تعين على دفع الحوادث والكوارث الجارية على الخلق ، بتقدير الحق ، وقيل : النوائب جمع نائبة ، وهي الحادثة ، وإنما أضيفت إلى الحق ، لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر ا ﻫ مرقاة .

(٣) قال الحافظ : والجميع صحيح ، لان ورقة تعلم اللسان العبراني ، والكتابة العبرانية ، فكان يكتب الكتاب العبراني ، كما كان يكتب الكتاب العربي ، لتمكنه من الكتابين واللسانين . ا ﻫ .

(٤) الناموس : صاحب السر . والمراد به جبريل عليه السلام ، لانه صاحب سر وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه ، ويسمى الناموس الاكبر .

عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « جاورتُ [١] بحراء شهراً [٢] فلما قضيت جواري هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ، ونظرتُ عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً — أي جبريل — فلم أثبُت له . وفي رواية : فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه — فرجعت ؛ وفي رواية : فجئت — إلى أهلي ، فقلت : زمّلوني زملوني ، فأنزل الله تعالى : « ياأيها المدثّر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرُّجزَ فاهجر » . فقام ﷺ ينذر الناس ويدعوهم إلى الله تعالى .

وقد جرت عادة الله تعالى مع حبيبه الأكرم ﷺ أنه يناديه في القرآن الكريم بالصفات الكريمة ، التي تؤذن بالرتبة العظيمة ، كقوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً .. » الآية ، وقوله تعالى : « يا أيها الرسول لا يَحزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر .. » الآية .

كما أنه سبحانه يناديه بالصفات المشتقة من الحال التي هو عليها ، تلطيفاً وتأنيساً له ﷺ . ومن ذلك قوله تعالى : « يا أيها المزمّل » وقوله : « يا أيها المدثّر » وفي ذلك إعلان بفضل هذا الرسول الكريم على سائر العالمين ﷺ .

ولم ينادِه باسمه ، كما نادى الانبياء والرسل بأسمائهم ، حيث قال سبحانه : « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم .. » الآية . وقال تعالى : « قلنا يانوح اهبِطْ بسلامٍ منا .. » الآية . وقال تعالى : « يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا .. » الآية . وقال تعالى : « ياموسى لاتخفْ .. » الآية . وقال تعالى : « إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إليّ .. » الآية .

---

(١) أي : أقام فيه . والفرق بين الجوار والاعتكاف — كما قال ابن عبد البر وغيره — : أن الاعتكاف لا يكون إلا داخل المسجد ؛ وأما الجوار فإنه قد يكون خارجه ، وذلك لم يسمه صلى الله عليه وسلم اعتكافاً ، لأن حراء ليس من المسجد .

(٢) أي : في مدة الفترة ، غير الشهر الذي نزل عليه فيه جبريل بأوائل سورة اقرأ ؛ ففي مرسل عبيد بن عمير عند البيهقي ، أنه كان يجاور في كل سنة شهراً ، وهو رمضان . اهـ .

حفظ الله تعالى رسوله ﷺ من شر القرين الجني

روى الامام مسلم وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنّ ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإيّاك يارسول الله ؟ قال : « وإيّايَ ، إلاّ أن الله تعالى أعانني عليه فأسلمَ ، فلا يأمرني إلا بخير » .

وقوله ﷺ « فأسلم » روي بضم الميم ، والمعنى : فأسلم أنا من فتنته وكيده . قال الحافظ الزرقاني : وصحح الخطابي رواية الرفع ، ورجّح عياض والنووي الفتح ، لقوله ﷺ « فلا يأمرني إلا بخير » قال : وقال الدّميري : وهو المختار ، والإجماع على عصمته من الشيطان ، وإنما المراد تحذير غيره من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا النبي ﷺ أن القرين — الجني — معنا ، لنحترز منه بحسب الإمكان . ا هـ .

فهو ﷺ معصوم من الوساوس والتزيينات الشيطانية ، فلا يتكلم إلا بالحق ، ولا ينطق إلا بالصواب ، ولا يعمل إلا بما يرضاه الله تعالى .

حفظ الله تعالى رسوله ﷺ من الخطأ والباطل وتسديده بالحق والصواب في جميع أحواله

إن الله تعالى قد أيّد رسوله سيدنا محمداً ﷺ بالحق ، وسدّده في أقواله وأفعاله في جميع أحواله ، في حال رضاه وغضبه ، وحال جِدّه ومزاحه ، وحال صحته ومرضه .

فكان ﷺ إذا غضب لا يخرجه غضبه عن الحق والصواب ، بل هو على الحق في حال غضبه ، كما هو على الحق في رضاه ، بخلاف غيره من الأمة ، فإن الغضب قد يخرجهم عن الاعتدال والنطق بالصواب ، ولذلك نبهنا رسول الله ﷺ إلى أنه

لا يَعتريه ما يعتري غيرَه في حال الغضب ، بل هو على كمال الاعتدال ، وصواب الأقوال والأفعال ، في سائر الأحوال .

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بَشرٌ يتكلم في الغضب والرضا ؟! فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه — أي فمه — فقال : « اكتبْ ، فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حقٌ » وعند الدارمي : « اكتب ، فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقٌ » .

نعم ما خرج من فمه ﷺ وما يخرج منه إلا حق ! .

كما أن مزاحه ﷺ حق وليس فيه باطل ؛ ولذا قال ﷺ : « إني لأمزح ، ولا أقول إلا حقاً » وقال : « لستُ من دَدٍ — أي لست من أهل اللهو واللعب — ولا الدَّدُ مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني » الحديث كما تقدم في مزاحه ﷺ .

فليس للشيطان عليه تأثير فيخرجه عن الحق والصواب ، بل هو معصوم من ذلك كما تقدم ، وليس للغضب ونحوه عليه تأثير يخرجه عن كمال الاعتدال ، وعن الحق والصواب في الأقوال والأعمال ، ولذا قال : « اكتب كل شيء تسمعه مني فو الله ما يخرج منه — أي من فمه — إلا حق » وليس له من نفسه الطيبة الطاهرة الزكية النقية ، إلا داعيةُ الخير والحق والصواب والصدق ، ولذا قال : « لست من ددٍ ولا الدد مني ، ولست من الباطل ولا الباطل مني » .

فكان سيدنا رسول الله ﷺ صائبَ الرأي ، سديدَ النظر ، حفظه الله من الخطأ في جميع قضاياه وآرائه ، وكيف لا يكون كذلك وقد أعطاه الله تعالى العقل الواسع الأكمل ، والعلم الفائض الأفضل ، ودقّة النظر ، وقوّة الفكر ، وكمال التبصّر في جميع ميادين الأمور ! .

وقد شهدت له بذلك المشاهد ورجالها ، وأثبتت له ذلك الوقائع وقوادها ، حتّى

إنه ﷺ كان يرى الرأي في الأمور ، فاذا خالف بعضُ الصحابة رأيه ، عاد الأمر عليهم بالوبال والشر .

وخذ مثالاً لذلك قضية يوم أحد :

فإنه ﷺ عيَّن خمسين من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، وأمرهم أن يقيموا في موضعٍ عيَّنه لهم ، وقال لهم : « احمُوا ظهورنا فانْ رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تَشْركونا » وفي رواية قال لهم : « إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » اهـ كما في السِّيَر .

وفي مسند الإمام أحمد قال لهم ﷺ : « إن رأيتمونا تخطَّفنا الطير فلا تبرحوا ، حتى أرسل إليكم » فلما هزَم المسلمون المشركين قال أصحاب عبد الله : الغنيمةَ ! ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال لهم عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : إنا والله لنأتينَّ فلنصيبنَّ من الغنيمة . فإذا بالمشركين يأتون من الثغرة وراء المسلمين التي كانت محمية بالرماة ، وحملوا على المسلمين فانهزم كثير منهم ، وكان ذلك بسبب مخالفة أمر النبي ﷺ .

وقد تقدم في بحث أرجَحيَّة عقله الشريفِ ﷺ أنواع من الوجوه الدالَّة على سداد نظره ، وصواب رأيه في مواقفه الخاصة والعامة ، وفي مواقفه مع أعدائه ، وفي جميع المعارك والحروب .

وقد ذهب الجمهور من العلماء والمحققين إلى أن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ بعصمة الله تعالى له ، واستدلوا على ذلك بوجوه من الأدلة المفصلة في مطوَّلات كتب التفسير وأصول الفقه .

قالوا : وإن نسبة الخطأ إليه ﷺ في أمرٍ ما ، تحتاج إلى دليل يثبت ذلك ، ولم يرد نصٌّ من آية أو حديث تثبت تخطئته ﷺ في أمر من الامور ، بل و لم يرد على لسان الصحابة نسبة الخطأ إلى النبي ﷺ أصلاً .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه يجوز الخطأ عليه ﷺ دون أن يُقَرَّ عليه ،

لتنبيه الوحي إيّاه ، واستدلوا على ذلك بقصة أسرى بدر ، وقصة تأبير النخل ، وربما أوردوا قصة نزوله ﷺ يوم بدر في مكان ثم تحوّله عنه ، عملاً برأي الحُباب بن المنـذر .

ولكن لدى التحقيق وتسديد النظر ، يتضح أنه ليس للاستدلال بذلك على ما قالوه من أثر ، بل إن الصواب هو فيما فعله رسول الله ﷺ وفيما قاله قطعاً ، وإنه لم يخطىء رسول الله ﷺ في جميع ذلك أصلاً .

بيان ذلك : أما قصة أسرى بدر : فهي كما في المسند ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : استشار النبي ﷺ الناسَ في الأسرى يوم بدر فقال : « إن الله تعالى قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالامس » فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يارسول الله ! نرى أن تعفوَ عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله تعالى : « لولا كتابٌ من الله سبَق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

وفي رواية لأحمد أيضاً : استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً [١] ، فقال أبو بكر : يانبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء ، فيكون ما أخذناه منهم ، قوةً لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضُداً .

فقال النبي ﷺ : « ما ترى ياعمر ؟ » فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنّي من فلانٍ — قريبٍ لعمر — فأضربَ عنقه ، وتمكّن علياً

---

(١) قال في شرح المواهب : وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم استشار الناس عامة ، كما تقدم في قوله « يا أيها الناس » الحديث . واستشار هؤلاء الثلاثة خاصة . كما دل عليه هذا الحديث ، ولم يذكر عن علي كرم الله وجهه جواب مع أنه أحد المستشارين .

من عقيل ، فيضربَ عنقه ، وتمكن حمزة من فلان ، فيضربَ عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادةٌ للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . قال عمر : فهوِي رسول الله ﷺ — أي أحب — ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان ، فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فان وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال النبي ﷺ : « أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِنَ في الارض » إلى قوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » فأحلّ الله لهم الغنائم .

وروى مسلم وأبو داود والترمذي نحواً من هذا .

فهذه قصة الأسرى يوم بدر ، وليس في النصوص الواردة فيها ما يدل على أنه ﷺ أخطأ — أي لم يُصب فيما سلكه مع الأسرى يوم بدر — بل إن من تأمّل في هذه القصة وتدبّر آياتها وأحاديثها يتضح له جلياً أنه ﷺ كان مصيباً فيما فعله ، وذلك من وجوه متعددة :

الوجه الأول : أن النبي ﷺ عمل بذلك ، بمقتضى المشاورة التى أمره الله تعالى بها في قوله : « وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمتَ فتوكّلْ على الله » .

الوجه الثاني : أنه ﷺ جنَح إلى رأي من قال بالفداء وهوِيه — أي أحبّه — لما فيه من الرحمة والعطف واللين ، بمقتضى المقام الذى أقامه تعالى فيه ، وهو قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » حتى إنه ﷺ لما قيل له يوم أحد — وقد أصيب بجراح — قيل له : أدعُ اللهَ على المشركين ، فقال : « إنما بعثت رحمة ، اللهم اهدِ قومي فانهم لا يعلمون » .

الوجه الثالث : أن فعله ﷺ كان موافقاً لما سبق في الكتاب الأول ، الذي قضى الله تعالى فيه حِلّ الغنائم له ﷺ خاصةً ، ولم تحِلّ لأحد قبله ، كما قال

ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق » : يعني في أم الكتاب الأول ، أن المغانم والأسارى حلال لكم « لمسكم فيما أخذتم » من الأسرى « عذاب عظيم » . اهـ .

قال الحافظ ابن كثير : وروي مثله عن أبي هريرة وابن مسعود ، وسعيد بن جبير وعطاء ، والحسن البصري وقتادة والأعمش أيضاً ، أن المراد : لولا كتاب من الله سبق لهذه الامة ، باحلال الغنائم ، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى . اهـ .

فان قيل : ليس في الآية دليل على حل الفداء ، وإنما هي في حل الغنائم !
أجيب : بأن الفداء في معنى الغنائم ، لأنه مال مأخوذ من الكفرة ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : « وأحلتْ ليَ الغنائم ، ولم تكن تحِلُّ لأحد قبلي » فان هذا الحديث بيّن ما دلت عليه الآية من تخصيصه ﷺ بذلك . كما في شرح الزرقاني .

وفي تفسير العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى : قال محيي السنة : رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى ، كفَّ أصحاب النبي ﷺ أيديَهم عما أخذوا من الفداء ، فنزلت هذه الآية وهي : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً .. » الآية .

أي فعرفوا حِلَّ الفداء من هذه الآية . قال : فالمراد بقوله تعالى « مما غنمتم » إما الفداء ، وإما مطلق الغنائم ، والمراد — أي ويكون المراد — بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . اهـ .

الوجه الرابع : وكما أن قبوله ﷺ الفداء ، وافق قضاء الله تعالى السابق في الكتاب الأول ، فانه وافق أيضاً الشرع اللاحق النازل في الكتاب الحكيم ، وهو قوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً .. » الآية فكيف يقال في أمرٍ وافق الكتابَ الاول ، ووافق الشرعَ النازل بعدُ ، كيف يقال : إنه خطأ ؟ ! ويتضح ذلك بالوجه الخامس .

الوجه الخامس : أن نزول التشريع باحلال الغنائم ، وهو قوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » هو إقرار لما فعله رسول الله ﷺ ، وتصويب لما رآه ، إذ لو

كان فعله ﷺ خطأً ، كيف يقره الله تعالى عليه ويجعله شرعاً باقياً ؟ حتى إنه على قول من جوّز الخطأ عليه ﷺ دون أن يقره الله عليه ، لا يقال : إنه ﷺ أخطأ في قضية أسرى بدر ، لأن الله تعالى أقره على ذلك فمن أين يأتي الخطأ ؟ !

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، أن الإمام مخيَّر فيهم ، إنْ شاء قَتَل ، كما فُعل ببني قُريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فُعل بأسرى بدر ، أو — فادى — بمن أُسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سَبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرقّ مَنْ أسر . هذا مذهب الامام الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف بين الأئمة مقرَّر في موضعه من كتب الفقه . ا هـ كلام ابن كثير .

الوجه السادس : لو كان موقفه ﷺ مع أسرى بدر خطأً ، لأمره الله تعالى أن يردّ الفداء ، وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذي وقع فيه ، مع أنه سبحانه أقرّه على ذلك وشرع له ذلك فقال : « فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً . » الآية . فلو كان خطأً لما أقرّه الله تعالى عليه ، ولما شرع له ذلك ! .

الوجه السابع : لو كان فعله ﷺ بأسرى بدرٍ خطأً ، لما كان رسول الله ﷺ يتمدح ويتحدّث بنعمة الله عليه في حلّ الغنائم له ، مع أنه ﷺ كان يتحدّث بما خصّه الله تعالى به من الخصائص ، ومن أعظمها وأعمّها وأنفعها : تلك العطايا الخمسة الخاصّة به ﷺ ، كما ورد في الصحيحين وغيرهما ، عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « أعطيتُ خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي : كان كل نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصّة ، وبُعثتُ الى الأحمر والاسود ، وأُحلّت ليَ الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي .. » الحديث .

قال العلامّة الخطابي : كان من تقدّم — أي شرائعهم — على ضربين : منهم مَن لم يُؤذن له في الجهاد ، فلم يكن لهم غنائم . ومنهم مَنْ أذن لهم فيه ، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحلّ لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته . ا هـ .

الوجه الثامن : أن موافقته ﷺ على أخذ الفداء من الأسرى ، فيه حكمة رشيدة وخطّة سديدة ، وذلك أن الشرع الذى ينزل بعده إمّا : أن يُقرّه على فعله فهو المقصود ، وقد حصل ذالك والحمد لله ، وإما : أن يأمره بردّ الفداء وضرب الرقاب ، فحينذاك يردُّ الفداء على الاسرى ، ويضرب الرقاب ، ولكن لو أنه كان ضَرَب أعناق الاسرى ، وجاء الشرع بعدُ بقبول الفداء منهم ، فماذا يعمل ﷺ حينئذٍ ؟ فكان تريثُه في القتل هو عينَ الحكمة ، وتبيَّن أنه الصواب . ولذا أقرّه سبحانه وشرعه .

وفي أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى : فان قيل : فقد اختار النبي ﷺ الفداء مع الصحابة الذين اختاروا الفداء ، فهل يكون ذنباً منه ؟

قلنا : كذلك توهّم بعض الناس فقال : إنه كان من النبيّ معصية غير معنيّة .

قال القاضي أبو بكر : وحاشا لله من هذا القول ، إنما كان من النبيّ ﷺ توقفٌ وانتظار — أي لأن يحكم الله تعالى في ذلك — ولم يكن — القتل ليفوت ، مع أنهم كانوا قد قَتَلوا الصناديد ، وأثخنوا في الأرض — وذلك أنهم قتلوا من صناديد المشركين يوم بدر سبعين ، ثم أسروا سبعين — فانتظر النبي ﷺ : هل ذلك كافٍ — أي في الاثخان — أم لا ؟ وهذا بيّنٌ عند أهل الانصاف . ا هـ .

الوجه التاسع : كيف يُحكم بأنه ﷺ أخطأ في أسرى بدر ، مع أنه ﷺ أُمِرَ أن يخيِّر أصحابه في ذلك ، ثم عمل بمقتضى ذلك ؛ فقد روى الترمذي والنسائي ، وابن حبان والحاكم ، باسنادٍ صحيح ، عن عليٍ كرم الله تعالى وجهه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر ، فقال له : خيِّر أصحابك في الأُسارى ؛ إن شاءوا القتل ، وإن شاءوا الفداء ، على أن يُقْتل منهم — أي الصحابة — في العام المقبل مثلهم . فقالوا : نختار الفداء ، ويُقتل منا . أي يقتل منهم سبعون رغبةً في الشهادة في سبيل الله تعالى .

وعند ابن سعد من مرسل قتادة ، فقالوا : بل نُفاديهم ، فنقوى بهم عليهم ، ويدخل العامَ القابلَ منا الجنةَ سبعون . ففادوهم .

قال الحافظ القسطلاني : وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أُذن لهم فيه ا هـ .

الوجه العاشر : كيف يُحكم بأنه ﷺ أخطأ في قبول الفداء من أسرى بدر ، مع أنه ﷺ كان قبل غزوة بدر ، فادى سريّة عبد الله بن جحش ، التي قتل فيها عمرو بن الحضرمي ، ولم يعتب الله تعالى عليه في ذلك .

فقد جاء في السِّيَر وغيرها أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية يعترض بها عير قريش ، فنزلوا بطن نخلة — موضعاً قريباً من مكة — فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله ، والحكَم بن كيسان ، وهرب من هرب ، فاستاقوا العير .

وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء الاسيرين ، وهما عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فقال ﷺ : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا — يعني سعداً وعتبة (١) — فانا نخشاكم عليهما ، فانْ تقتلوهما نقتل صاحبَيْكم » فقدم سعد وعتبة بعدهم بأيام ، ففداهما رسول الله ﷺ كل واحد بأربعين أوقية .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

وقد كانت هذه السريّة في رجب ، وقيل في جُمادى الآخرة ، وكانت غزوة بدر في رمضان ، وكلاهما في ثانية الهجرة ، فما عتب الله تعالى على أخذ الفداء في تلك السرية ، فلو كان ممنوعاً لعتب سبحانه (٢) .

الوجه الحادي عشر : أن قوله تعالى : « ما كان لنبيٍ أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الارض ، تريدون عرض الدنيا واللهُ يريد الآخرة .. » الآية : ليس فيها معاتبة للنبي ﷺ أصلاً ، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي ﷺ بالفداء ، بغية

---

(١) أي لأنهما كانا في السرية ، ولكنهما تأخرا في العودة .

(٢) راجع المواهب وشرحها ، وشرح الشفا للقاضي عياض .

عرَض الدنيا ، وهو المال المفدى به ، حين استشار عامّة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم : أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم ، كما تقدم .

فأراد بقوله سبحانه « تريدون عرَض الدنيا » أولئك النفر الذين أرادوا المال . أما سيدنا رسول الله ﷺ فلم يقصد بقبول الفداء عرَض الدنيا ، وحاشاه من ذلك ! فان الدنيا كلها مالها قيمة عنده ، وقد قال ﷺ : « مالي وللدنيا ! ما أنا والدنيا إلاّ كراكب استظلّ تحت شجرةٍ ، ثم راح وتركها » وقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى ، فأين هو من عرَض الدنيا ؟ ! .

كما أن قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق ، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » فان هذا إعلانٌ من سبحانه بنعمته ومنّته على هذه الأمة ، بفضل نبيها ﷺ وإعلامٌ بأنه سبق منه القضاء ، في الكتاب الأسبق ، بحِلِّ الغنائم لهذه الامة دون غيرها ، فضلاً منه ونعمةً ، بفضل نبيها وكرامته على الله تعالى .

ومن ثمّ كان ﷺ يُشيد بهذه المنقبَة ويتحدث بهذه النعمة في جملة من المناقب التي خصه الله تعالى بها فيقول : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الاحمر والاسود ، وأحلّت ليَ الغنائم ، ولم تكن تحل لأحد قبلي .. » الحديث كما تقدم .

فكما أن إرساله إلى الناس عامّةً دون غيره ، وجَعْل الارض له مسجداً دون غيره ، كل ذلك كان عن قضاء من الله تعالى سابق ، وحكم شرعي محكم من الله تعالى لاحق ، فكذلك جاء احلال الغنائم أيضاً ، فهو شرع مبنيٌّ على حِكَم وإحكام . فاعتبِر في ذلك وتبصّر ، وأنصف وتدبّر .

ولذلك قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى : فان قيل : أليس الله تعالى عاتب رسوله على الفداء ، وقال رسول الله ﷺ : « لو نزل العذاب ما نجا إلا عمر » فدلّ على أن أبا بكر كان مخطئاً ؟

قلنا : هذا لا يجوز أن يُعتقد ، فإن رسول الله ﷺ عمل برأي أبي بكر ، ولا بدّ أن يقع عمل رسول الله إذا أُقِرّ عليه — صواباً — والله تعالى قرّره عليه ، فقال : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً .. » الآية . وتأويل الآية : « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » وكان لك — يارسول الله — كرامة خُصِّصتَ بها رخصةً ، لولا كتاب من الله سبق بهذه الخصيصة لمسّكم العذاب ، لحكم العزيمة على ما قال عمر

ثم قال القاضي أبو زيد رحمه الله تعالى : والوجه الآخر — أي في تأويل الآية —: ما كان لنبي أن يكون له أسرى قبل الاثخان ، وقد أثخنتَ يوم بدر ، فكان لك الاسرى كما كان لسائر الأنبياء عليهم السلام ، ولكن كان الحكم في الاسرى المنّ أو القتل دون المفاداة ، فلولا الكتاب السابق في إباحة الفداء لك — يارسول الله — لمسّكم العذاب .

ثم قال القاضي رحمه الله تعالى : ولو كان حكمه ﷺ فيه خطأ ، لكان الامر بالنقض — أي بردّ الفداء والامر بالقتل — مع أنه ليس فيه إلزامُ ذنب النبي ﷺ ، بل فيه بيان ماخُصّ به وفُضّل به من بين سائر الأنبياء فكأنه سبحانه قال : ما كان هذا لنبيٍّ غيرك ، وأما الخطاب بقوله : « تريدون » : فهو لمن أراد منهم ذلك ، وليس المراد بالمريد النبيّ ﷺ لعصمته [1] . اهـ بحروفه .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : اختلف السلفُ في أيِّ الرأيَيْن كان أصوب ؟ فقال بعضهم : كان رأيَ أبي بكر ، لأنه وافق ماقدّر الله تعالى في نفس الامر ، ولِما استقرّ عليه الامر ، ولدخول كثير منهم في الاسلام ، إمّا بنفسه ، وإمّا بذريته التي وُلدت بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب ، كما ثبت ذلك عن الله تعالى في حقّ من كتب له الرحمة .

وأما من رجّح الرأي الآخر : فتمسك بما وقع من العتاب على أخذ الفداء .

---

(١) وقد نقل هذا عن القاضي أبي زيد في كتاب التقرير والتحبير على تحرير الكمال ابن الهمام في بحث الاجتهاد ٣ : ٢٩٧ وغيره من كتب الاصول .

لكن الجواب عنه : أنه لا يدفع حجة الرجحان عن الأول — أي بل الرأي الأول له الرجحان على غيره — بل ورد — العتاب — للاشارة إلى ذمّ مَن آثر شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قلّ . ا هـ .

يعني أن العتاب الذي قد يفهم من الآية ، موجّه لمن أراد بالفداء عَرَض الدنيا ، وهم بعض الناس الذين أشاروا عليه بالفداء ، حين استشار النبي ﷺ عامة الناس ، قبل أن يستشير خاصتهم ، كما تقدم .

أما قضيّة تأبير النخل : فقد ورد في صحيح مسلم والمسند عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ مرّ بقوم يُلقّحون النخل فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصاً ، فمرّ بهم ﷺ فقال : « ما لنخلكم ؟ » قالوا : قلتَ كذا وكذا ! قال : « أنتم أعلمُ بأمر دنياكم » .

فمن هذا الحديث فهم بعض الناس أن النبي ﷺ قد يخطىء في أمور الدنيا ، وراح يقول : أخطأ رسول الله ﷺ في كذا وأخطأ في كذا ! !

ولكن الحق أحقُّ أن يتبع ، وذلك أن أقواله ﷺ وأفعاله يُفسّر بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً ، وأن الله تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة ، فنقول وبالله التوفيق .

أولاً : إنه ﷺ قد نشأ في تلك الأراضي المباركة التي هي منابت النخيل ، وتربى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل ، وما يتطلبه من عنايات ولِقاحات ، وكيف يُتصور في حقه ﷺ أن تخفى عليه تلك العادة المطّردة في إنتاج النخيل ، ولزوم التلقيح له بموجب الاصول الزراعية ؟ في حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل ، ولا من غوامضها ؛ إذاً لابد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون ، ولكن أراد أن يظهر لهم أمراً لا يستطيعون نيله بأنفسهم .

ثانياً : إن الرسول الكريم ﷺ الذي نال من العلوم ما نال ، وأفاض الله تعالى عليه ما أفاض ، حتى إنه ذكر الصحابة وبحث لهم في كل شيء ، كما روى الطبراني

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : تركَنا رسولُ الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في الهواء ، إلا وهو ذكر لنا منه علماً . فكيف يتصور أنه يخفى عليه ﷺ أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيح بمقتضى العادة في علم الزراعة ؟ .ولكن رسول الله ﷺ أراد أمراً آخر .

ثالثاً : إن الذي يدلنا على ذلك الأمر الآخر الذي أراده ﷺ هو النظر في أشباه هذه الواقعة الصادرة منه ﷺ ، ومن ذلك حديث « ناولْني الذراع » .

ففي المسند عن أبي رافع (١) قال : صُنِع لرسول الله ﷺ شاةٌ مَصْليّة فأُتي بها فقال : « يا أبا رافع ناولْني الذراع » (٢) فناولته ثم قال : « ناولني الذراع » فناولته ، ثم قال : « ناولني الذراع » فقال : يارسول الله هل للشاة إلا ذراعان ؟! فقال ﷺ « لو سكتَّ لناولتني منها ذراعاً ما دعوتُ به » قال : وكان رسول الله ﷺ يعجبه الذراع .

قال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني من طرق ، وقال في بعضها : أمرني رسول الله ﷺ أن أَصْلِيَ له شاةً فَصَلَيْتُها . ورواه في الأوسط باختصار ، وأحد إسنادي أحمد حسن . ا هـ .

وعن أبي عبيد (٣) أنه طَبخ لرسول الله ﷺ قدراً فيها لحم ، فقال رسول الله ﷺ : « ناولني ذراعَها » فناولته ، فقال : « ناولني ذراعها » فناولته ، فقال :

---

(١) أبو رافع القبطي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ومات في أول خلافة أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه . ا هـ من شرح الزرقاني .

(٢) الذراع : هو اليد من كل حيوان ، لكنه من الانسان من طرف المرفق إلى طرف الاصبع الوسطى ، يؤنث ويذكر ، ومن البقر والغنم : مافوق الكراع ، وهو المراد هنا . ا هـ من الزرقاني .

(٣) قال في شرح المواهب ٤ : ٣٢٨ : أبو عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره الحاكم أبو أحمد فيمن لم يعرف اسمه من الصحابة ، هكذا في نسخ المصنف : أبي عبيد ، بلا هاء على المعروف ، ولعله الواقع عند الدارمي وإلا فالذي في الترمذي : أبي عبيدة بهاء . قال الحافظ العراقي : هكذا في أصل سماعنا من كتاب الشمائل « أبي عبيدة » بزيادة تاء التأنيث ، وهكذا ذكره المزي في الاطراف . ا هـ .

« ناولني ذراعها » فقال : يا نبيّ الله كم الشاة من ذراع ؟ ! فقال له ﷺ : « والذي نفسي بيده لو سكتَّ لأعطيتَ ذراعاً ما دعوتُ به » . وهذه القصة غير التي تقدمت ، كما نبه عليه الحافظ الزرقاني وغيره .

وفي مجمع الزوائد ، عن ابن إسحاق قال : حدثني رجل من بني غفار ، في مجلس سالم بن عبد الله، قال : حدثني فلان أن رسول الله ﷺ أُتي بطعامٍ : خبزٍ ولحمٍ ؛ فقال : « ناولني الذراع » فنُوول ذراعاً فأكله ، ثم قال : « ناولني الذراع » فنُوول ذراعاً فأكله ، ثم قال : « ناولني الذراع » فقال : يارسول الله إنما هما ذراعان ! فقال : « وأبيك لو سكتَّ مازلتُ أناوَل منها ذراعاً ما دعوتُ به » قال : ورواه أحمد وفيه راوٍ لم يسمَّ .

فقوله ﷺ : « ناولني الذراع » في المرة الثالثة — مع العلم أن الشاة لها ذراعان — إنما أراد أن يظهر أمراً معجزاً فيه الإكرام ، وفيه البرهان ، وفيه الاشهاد بالعيان ، ولكن لما لم يجد محلاً قابلاً ، لم تظهر تلك المعجزة .

ولذلك قال الحافظ الزرقاني عند قوله ﷺ : « أما إنك لو سكتَّ لناولتني ذراعاً فذراعاً ماسكتَّ » : أي : مدة سكوتك ، لأنه سبحانه يخلق فيها ذراعاً فذراعاً ، معجزةً له ﷺ فحملتِ المناوِلَ عجلتُه المركبةُ في الانسان على قوله : إنما الشاة ذراعان ، فانقطع المدد ، لأنه إنما كان من مدد الكريم سبحانه ، إكراماً لخلاصة خلقه ﷺ ، فلو تلقاه المناوِلُ بالأدب ، ساكتاً مُصْغياً إلى ذاك العجب : لكان شكراً منه مقتضياً لتشريفه باجراء هذا المدد على يديه ، ولكنه تلقَّاه بصورة الانكار ، فرجَع الكرم مولّياً ، لما لم يجد قابلاً ، إذ لا يليق لمشاهدة هذه المعجزة العظيمة — إذ في شهودها نوع تشريف للمطلع عليها — إلا لمن كَمل تسليمه ولم يبقَ فيه أدنى حظّ ولا إرادة . ا هـ .

وهكذا في حادثة تأبير النخل ، لما مرَّ ﷺ بقوم يؤبِّرون النخل ، أراد أن يُكرمهم ويُتحِفهم ، وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطردة في إصلاح النخيل

بالتأبير . فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبير ، إذ هو ﷺ ممن يعلم بموجب العادة حاجة النخيل إلى تأبير كما يعلمون ، لأنه ﷺ بينهم مطلع على أمورهم .

ولكن لمّا لم تقبل قلوب بعض أولئك النفر ، ولم تستسلم كل الاستسلام إلى قوله ﷺ « لو لم تفعلوا — أي التأبير — اصلح » بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فنّ زراعة النخيل ، وأن صلاحه موقوف على التأبير ، فلم يلق الكرم محلاً قابلاً فرجع .

ولذلك ردّهم ﷺ بعد ذلك إلى الاسباب المعتادة لديهم ، المعلومة عندهم التي وقفوا عندها ولم يجاوزوها ، فقال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . أي : فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم .

ويشهد لصحة ماقلناه ، وصواب مافهمناه ، من أنه ﷺ لم يخطىء في ذلك ، قولُ الشيخ العارف بالله تعالى ، صاحبِ « الابريز » نفعنا الله تعالى بمعارفه ، حين سئل عن حديث تأبير النخل؟ فقال رضي الله عنه : قوله ﷺ « لو لم تفعلوا لصلحت » كلام حق ، وقول صدق ، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالاطلاق ، وذلك الجزم مبنيٌّ على مشاهدة سرّيان فعله تعالى في سائر الممكنات مباشرةً بلا واسطة ولا سبب ، بحيث إنه لا تسكن ذرة ، ولا تتحرك شعرة ، ولا يخفق قلب ، ولا يضرب عرق ، ولا تطرف عين ، ولا يومىء حاجب ، إلاّ وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة .

وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيرُه سائرّ المحسوسات ، ولا يغيب ذلك عن نظره لا في اليقظة ولا في المنام ، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة ، ولا شكّ أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره ، ويترقّى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان ؛ فعنده من قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون» مشاهدة دائمة لا تغيب ، ويقين يناسب هذه المشاهدة ، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى ، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة .

قال : ولا شك أن هذا الجزم الذي يكون على هذه الصفة ، تُخرَق به العوائد ، وتنفعل به الأشياء ، وهو سرُّ الله تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة .

فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوطِ الأسباب ، ونسبةِ الفعل إلى ربّ الأرباب كان قوله حقاً ، وكلامه صدقاً .

قال : وأما صاحب الايمان بالغيب فليس عنده في قوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » مشاهدة ، بل إنما يشاهد نسبة الافعال إلى من ظهرت على يده ، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى ، إلا الايمان الذي وهبه الله تعالى ؛ فعنده جاذبان : أحدهما من ربه وهو الايمان الذي يجذبه إلى الحق ؛ وثانيهما : من طبعه وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل .

فهو بين هذين الامرين دائماً ، لكن تارة يقوى الجاذب الايماني ، فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين ، وتارة يقوى الجاذب الطبيعي فتجده يغفل عن معناها اليوم واليومين ، وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة .

فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ لأن — أولئك النفر — من الصحابة رضي الله عنهم فاتهم اليقين الخارق وقتئذٍ ، الذي اشتمل عليه باطنه ﷺ ، وبحسبه خرج كلامه الحق ، وقوله الصدق ﷺ .

ولمّا علم ﷺ العلّة في عدم وقوع ماذكره — لهم — وعلم أن زوال تلك العلّة ليس من طوقهم رضي الله عنهم — وقتئذٍ — أبقاهم على حالتهم ، وقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » اهـ كلام الإبريز .

وعلى كل حال فانه لا يقال : أخطأ ﷺ في قصة تأبير النخل ، كما لا يقال : إنه ﷺ أخطأ في قوله لأبي عبيد « ناولني الذراع » في المرة الثالثة ، فان ذلك ليس من باب الخطأ ، بل من باب الصواب ، وإرادة الاكرام والاتحاف لأولئك النفر ، بأمر فيه اليمن والبركة على وجه خارق العادة ، ولكن تخلّف ذلك لوجود المانع والعارض .

ونظير هذا : انقطاعُ مدد الإكرام والبركة من ظرف السمن ، الذي بارك فيه

النبي ﷺ لما عصرته أم مالك ؛ كما جاء في صحيح مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه ، أن أم مالك الأنصارية كانت تُهدي النبي ﷺ من عكّة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدُم – وفي رواية : فيسألون السمن – وليس عندهم شيء ، فتعمد – أي تقصد – إلى الظرف الذي كانت تُهدي فيه ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يُقيم لها أدُم بيتها حتى عصرتْه – أي عصرت الظرف فنفد السمن – فأتت النبي ﷺ – أي ذكرت له ذلك – فقال : « عصرتيها ؟ » قالت : نعم . فقال ﷺ : « لو تركتيها ما زال – أي السمن – قائماً » .

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه ، أن رجلاً من أهل البادية ، أتى النبيَّ ﷺ يستطعمه ، فأطعمهُ شطر وَسْقٍ من شعير ، فما زال يأكل منه وامرأتُه وضيفُهما – أي أضيافهما الذين ينزلون عندهما – حتى كاله – أي فنقص – فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره ، فقال له : « لو لم تكلْه لأكلتم منه – أي دائماً يكفيكم – ولقام لكم » أي مدة الحياة من غير نقص ، فالكيل العارض منع المدد الفائض .

وقد بين الامام النووي حكمة ذلك كله حيث قال : قال العلماء : الحكمة في ذلك أن عصرها وكَيْله : مضادّة للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة ، وتكلّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله . فعوقب فاعله بزواله ؛ اهـ [1] .

قال الحافظ الزرقاني : ولا يعارض هذا قوله ﷺ « كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه » لأنه فيمن يخشى الخيانة ، أو كيلوا ماتخرجونه النفقة لئلا يخرج أكثر من الحاجة أو أقل ، بشرط بقاء الباقي مجهولاً ، أو كيلوا عند الشراء ، أو عند إدخاله المنزل . اهـ .

أما قضية الحُباب بن المنذر يوم بدر : فهي كما روى ابن اسحاق [2] أن النبي ﷺ خرج يُبادرهم إلى الماء ، حتى جاء إلى ماء في بدر ، فنزل به ، فقال الحُباب ابن المنذر : يارسول الله هذا منزلٌ أنزلكه الله ، لاتتقدمه ولا تتأخرعنه ، أم هو الرأي

---

(١) انظر شرح مسلم ١٥ : ٤١ .
(٢) انظر سيرة ابن هشام وغيرها .

والحرب والمكيدة ؟ فقال ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » . فقال الحباب : فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزل ، ثم نغوِّر [1] ما وراءه من الطلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤها ماءً ، فنشرب ولا يشربون — أي المشركون — فقال ﷺ : « أشرتَ بالرأي » .

وعند ابن سعد : فنزل جبريل فقال : الرأي ما أشار به الحباب .

فليس في هذا الحديث ما يدل على أنه ﷺ كان مخطئاً في رأيه ، لأن هذه الواقعة ليست من باب إلزام القضية أو التزامها ، إنما هي من باب عرض القضية ، لابداء رأي أهل الرأي والخبرة في ذلك ، على عادته ﷺ من عرضه أمثال هذه الأمور على أهل الرأي من الصحابة ، ومشاورتهم فيها ، وليس ذلك من باب أنه رأي رآه ﷺ واستحسنه والتزمه ، وراح يحمل الناسَ عليه ويُلزمهم به ! بل من باب عرض القضية للرأي والمشاورة فيها .

ويدل على ذلك صريح قوله ﷺ للحباب : « أشرتَ بالرأي » فكان موقفه ﷺ موقفَ المستشير الذي عرض القضية ولم يلتزمها ، ولو أنه ﷺ رأى ذلك أو التزم ذلك لحمل الصحابة على ذلك ولاستمرّ على ذلك ﷺ .

إفاضته ﷺ بالبركات والخيرات

كان رسول الله ﷺ فياضاً بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، على القوابل المستعدة ، والمتوجّهة المستمدة .

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : « اللهم علّمه الكتاب » .

فقد نال ابن عباس بهذه الضمّة والدعوة فهماً عظيماً في كتاب الله تعالى .

(١) بالغين المعجمة وشد الواو أي ندفنها ونذهبها . كما في شرح المواهب .

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله إني لأسمعُ منك حديثاً كثيراً أنساه ! فقال : « ابسُطْ رداءك » فبسطتُه ، فغرف بيديه ثم قال : « ضُمَّه » فضممته فما نسيت شيئاً بعدُ . هذا لفظ البخاري . وعند غيره : ثم قال : « ضُمَّه إلى صدرك » فضممتُه ، فما نسيتُ حديثاً بعدُ .

وروى أبو نعيم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا تسألني من هذه الغنائم ؟ » قلت : أسألك أن تعلمني مما علَّمك الله . قال : فنزع نَمِرةً على ظهري ووسَّطها بيني وبينه ، فحدَّثني ، حتى إذا استوعبتُ حديثه قال : « اجمعها فصُرْها إليك » قال أبو هريرة : فأصبحتُ لا أُسقِط حرفاً مما حدثني [1] .

وفي هذا إفاضةُ الحفظِ على أبي هريرة رضي الله عنه ، حتى إنه مانسي حديثاً بَعْدُ .

ومن ذلك إفاضته ﷺ العلمَ بالقضاء على سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه حين أرسله إلى اليمن . ففي المسند والسنن وكذلك روى البيهقي والحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يارسول الله تبعثني وأنا شابٌّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب ﷺ بيده في صدري وقال : « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » فو الذي فلق الحبَّة ، ما شككتُ في قضاء بين اثنين بعدُ . وأورده الحافظ ابن كثير في البداية من طريق أبي يعلى .

وقال جرير بن عبد الله : يارسول الله إني لا أثبُتُ على الخيل ، فضرب رسول الله ﷺ في صدري حتى رأيتُ أثر أصابعه في صدري وقال : « اللهم ثبِّتْه ، واجعله هادياً مَهدياً » كما في المسند .

ومن ذلك إفاضته ﷺ القوة على سفينة وسماه سفينة حيث قال له : « احمل فإنما أنت سفينة » قال : فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل عليَّ . كما في مسند أحمد وغيره .

---

(١) انظر الاصابة ، وما فيها من أنواع الروايات في ذلك .

رسول الله ﷺ يغمسُ يده في الماء ، لتحلَّ فيه البركة والشفاء :

روى الامام مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خَدَم المدينة بآنيتهم ، فيها ماء ، فلا يأتونه باناء إلا غمس فيه يدَه ، وربما جاؤوه بالغداة الباردة فيغمس يدَه فيها .

فكانوا يتبركون بذلك الماء ويستشفون به .

رسول الله ﷺ يغسل يديه ووجهه ، ويمجُّ في الماء ، ويأمر بالشرب منه ، والإفراغ على الوجه : روى الشيخان — واللفظ لمسلم — عن أبي موسى الأشعري قال : كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجِعْرانة ، بين مكة والمدينة ، ومعه بلال ، فأتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ فقال : ألا تنجزني يامحمد ما وعدتني ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أبشِرْ » فقال الأعرابي : أكثرتَ عليَّ من : أبشِر ! فأقبل رسول الله ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال لهما : « إنَّ هذا قد رَدَّ البشرى فاقبلا أنتما » فقالا : قبلنا يارسول الله .

ثم دعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه ومجَّ فيه ، ثم قال : « اشربا منه ، وأفرِغا على وجوهكما ونحوركما ، وأبْشِرا » فأخذا القدح ، ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ ، فنادتْهما أمّ سلمة من وراء السِّتر : أفضِلا لأمِّكما في إنائكما . فأفْضَلا منه طائفةً .

وفي هذا تكريم لأبي موسى وبلال رضي الله عنهما ، لأن في غُسالة أطرافه أسراراً وأنواراً ، وبركات ورحَمات .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل — وفي رواية : فوجدني قد أُغمي عليَّ — فتوضأ وصبَّ عليَّ من وَضوئه ، فعقلتُ — أي أفقتُ من الإغماء — فقلت : يارسول الله لمن الميراثُ ؟ إنما يرثني كلالة ! فنزلت آية الفرائض .

وفي الصحيحين عن أبي جُحَيفة رضي الله عنه أنه قال : خرج علينا رسول الله

ﷺ بالهاجرة — أي الظهيرة — فأُتي بوَضوء ، فتوضأ ، فجعل الناسُ يأخذون من فضل وضوئه فيتمسَّحون به ، وصلّى النبي ﷺ الظهر .. الحديث .

وروى الامام أحمد عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : رأيت قُبةً حمراء من أدَم — أي جلد — لرسول الله ﷺ ورأيتُ بلالاً خرج بوَضوئه ﷺ ليصبَّه — أي ليُريقه — فابتدره الناس ، فمن أخذ منه شيئاً تمسَّح به ، ومَن لم يجد منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه .

وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي مرداس السلمي قال : كنا عند النبي ﷺ فدعا بطَهور ، فغمس يده فتوضأ فتتبّعناه — أي ماء الوضوء — فحسوناه — أي شربناه — فقال النبي ﷺ : «ماحملكم على ما فعلتم به ؟ » قلنا : حبُّ الله ورسوله ! قال : « فان أحببتم أن يُحبّكم الله ورسوله: فأدّوا إذا أئتُمنتُم ، واصْدُقوا إذا حدّثتُم ، وأحْسِنوا جِوار مَنْ جاورَكم » .

فكانت الصحابة يحرصون على غُسالة أطرافه ﷺ ، وعلى ماء وضوئه، حباً في الله ورسوله ، وإيماناً منهم بما يعلمون من خصائصه ﷺ التي خصّه الله تعالى بها ، ورسولُ الله ﷺ يُقرُّهم على ذلك دون إنكار .

مسه الشريف ﷺ وآثاره الطيبة

كان رسول الله ﷺ إذا مسح على وجِـع ذهب وجَعه باذن الله تعالى، وإذا مسح على مريض أو جريح برىء باذن الله تعالى ، وإذا مسح على صدر ضعيف أو خائف قَوِي وأمِن باذن الله تعالى ، وإذا مسح على وجه مسلم بقيت نَضارة الشباب في وجهه مهما كبِرتْ سِنُّه .

روى البخاري عن السائب بن يزيد قال : ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن ابن اختي وَجِـعٌ، فمسح رسول الله ﷺ رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ ، فشربتُ من وَضوئه ﷺ .

وروى الطبراني عن أبيض بن حمَّال أنه كان بوجهه حزازة — يعني القُوْباء — فالتقمتْ أنفه ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهه فلم يُمس ذلك اليوم وفي أنفه أثر (١) .

وعن عطاء مولى السائب بن يزيد قال : رأيتُ مولاي السائب بن يزيد لحيته بيضاء ورأسه أسود ، فقلت : يامولاي ما لرأسكَ لا يبيضُ ؟ ! فقال له : لا يبيضّ رأسي أبداً ، وذلك أن رسول الله ﷺ مضى — أي مرّ — وأنا غلام ألعب مع الغلمان ، فسلَّم وأنا فيهم ، فرددتُ عليه السلام ، فدعاني فقال لي : « ما اسمُكَ ؟ » فقلت : السائب بن يزيد ابن أخت النَّمِر .

فوضع يده ﷺ على رأسي وقال : « بارك الله فيك » . قال السائب : فلا يبيضُ موضع يد رسول الله ﷺ أبداً (٢) .

وعن حنظلة بن حِذْيَم قال : وفدتُ مع جدي حِذْيَم إلى رسول الله ﷺ فأدْناني رسول الله ﷺ ومسح رأسي وقال : « بارك الله فيك » .

قال الراوي عن حنظلة : فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالرجل الوارمِ وجهُه ، أو الشاةِ الوارمِ ضرعُها فيقول : بسم الله ، على موضع كفّ رسول الله ﷺ ، فيمسحه ، ثم يمسح الوارم فيذهب الورم (٣) .

وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه قال : أصابتني رمية ، وأنا أقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم حنين ، في وجهي ، فلما سالتِ الدماء على وجهي وصدري إلى ثُنْدُوَتي ، وضع النبي ﷺ يده ثم دعا لي ، قال حَشْرج : فكان عائذ يخبرنا بذلك كلِّه في حياته ، فلما مات وغسلناه ، نظرنا الى ما كان يصف لنا من أثر يد رسول الله

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان . ا هـ .

(٢) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الثلاثة ثم قال : ورجال الصغير والاوسط ثقات .

(٣) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد ورجاله ثقات ا هـ . وقال الزرقاني : ورواه البخاري في تاريخه وأبو يعلى وغيرهم .

ﷺ التي مسّها ما كان يقول لنا من صدره ، فاذا غرّة" ــ أي بياض ــ سائلة كغرة الفرس . رواه الطبراني والحاكم وغيرهما .

وعن عمرو بن ثعلبة الجهني قال : لقيتُ رسول الله ﷺ فأسلمتُ ، فمسَحَ رأسي ، قال الراوي : فأتتْ على عمرو مائةُ سنة وما شاب موضعُ يد رسول الله ﷺ من رأسه (١) .

وعن عبد الله بن هلال الانصاري رضي الله عنه قال : ذهب بي أبي إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله أدْعُ الله له . قال عبد الله : فما أنسى وَضْع رسول الله ﷺ يده على رأسي ، حتى وجدتُ بَرْدها ، فدعا لي وبارك عليّ .

قال الراوي عنه : فرأيت عبد الله بن هلال يصوم النهار ويقوم الليل وقد كبرت سنُّه (٢) . أي بقيت فيه قوة الشباب وعزيمتهم .

وعن عمرو بن أخطب الأنصاري قال : مسح رسول الله ﷺ على رأسي ولحيتي ثم قال : « اللهم جمّلْه » قال الراوي عنه : فبلغ عمرو بضعاً ومائة سنة وما في لحيته بياض ، ولقد كان منبسطَ الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات (٣) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مسح النبي ﷺ رأسي ودعا لي بالحكمة . وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه كما في المسند أيضاً أنه قال : قلت يارسول الله علمني من هذا القول ، قال : فمسح رسول الله ﷺ رأسي وقال : « يرحمك الله فإنك غُلَيّم معلَّم . . » الحديث .

فلقد نال ابن عباس وابن مسعود بتلك المسحة المحمدية على رؤوسهما خيراً كبيراً وعلماً كثيراً .

وعن أبي عطية البكري رضي الله عنه قال : انطلق بي أهلي إلى النبي ﷺ وأنا

---

(١) قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله إلى أبي نعيم ثقات .

(٢) رواه الطبراني وإسناده حسن .

(٣) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وابن حبان ، كما في شرح المواهب ومجمع الزوائد .

غلام شابٌ فمسح على رأسي . قال الراوي عنه : فلقد رأيت أبا عطية أسود الرأس واللحية وقد أتتْ عليه مائة سنة . أي فلم يشب شعره ببركة تلك المسحة المحمدية صلى الله عليه وسلم .

وعن الحارث بن عمرو السهمي أنه أتى النبي ﷺ في حجة الوداع وهو على ناقته العَضْباء ، وكان الحارث رجلاً جسيماً ، فدنا من النبي ﷺ حتى حاذى وجهه بركبة النبي ﷺ فأهوى نبيُّ الله ﷺ فمسح وجهَ الحارثِ ، فما زالت النضرة على وجه الحارث حتى هلك . أي مات . رواه الطبراني ورجاله ثقات ، كما في الإصابة

وعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال : وضع رسول الله ﷺ تسليماً — يده على رأسي وقال : « يعيش هذا الغلام قرناً » فعاش مائة سنة . وكان في وجهه ثُؤْلول فقال ﷺ : « لا يموت حتى يذهب الثُّؤْلول من وجهه » قال الراوى : فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه (١) .

وعن يحي بن أبي الهيثم قال : سمعتُ يوسف بن عبدالله بن سلام يقول : أجلسني رسول الله ﷺ في حجره ومسح على رأسي وسمّاني : يوسف . رواه أحمد ورواته ثقات .

وأخرج البغوي من طريق ابن وهب قال : حدثني يعقوب بن عبد الرحمن القاريّ قال : أتى أبي بعبد الرحمن وعبد الله ابني عبدٍ إلى رسول الله ﷺ فبرّك عليهما ومسح برؤوسهما ، وقال لعبد الله : « هذا عائذ » فكانا إذا حلَقا رؤوسهما نبتَ موضعُ يد رسول الله ﷺ قبل الباقي . كما في الإصابة .

وروى الطبراني وابن السكن عن مالك بن عمير أن النبي ﷺ وضع يده على رأسه ووجهه ، فعُمِّر — أي طال عمره — حتى شاب رأسه ولحيته وما شاب موضع يد النبي ﷺ من رأسه ولحيته .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني ، والبزار باختصار الثؤلول ؛ ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة . اهـ .

وروى الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد أن النبي ﷺ مسح رأس عبادة بن سعد بن عثمان الزُّرَقي ودعا له فمات وهو ابن ثمانين سنة وما شاب .

ولو تتّبعنا ما ورد في ذلك لعجز القلم عن إحصاء ذلك ، وإن هذه الأحاديث التي أوردناها عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم — لهي أكبر دليل قاطع على إيمان الصحابة رضي الله عنهم كبارهم وصغارهم وقوة اعتقادهم بأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ هو فيّاض بالخيرات والبركات ، والأسرار والأنوار ، ولذا كانوا يحرصون كل الحرص على أن يمنحهم رسول الله ﷺ مسحةً على وجوههم أو رؤوسهم أو صدورهم ، أو يكرمهم رسول الله ﷺ بتفلة من تفلاته الشريفة الفياضة بالبركات من الله تعالى ، أو يكرمهم بسؤره الشريف ، أو ماء وضوئه المبارك أو مجّة يمجّها في فمهم ، وذلك لتسري بركاتها في ذواتهم وذراتهم .

وهم يعلمون كلَّ العلم أن ذلك كلّه من فضل الله تعالى على حبيبه الأكرم ﷺ ومن إكرامه تعالى وإنعامه عليه ﷺ . قال الله تعالى : « وكان فضل الله عليك عظيماً» وقال : « وأما بنعمة ربك فحدّث » . وقال له : « إنا أعطيناك الكوثر » . قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أعطيناك الخير الكثير ، ومن ذلك الخير الكثير : نهرُ الكوثر في الجنة ، والحوض في الموقف . إلى ما وراء ذلك .

مسحاته الشريفة ﷺ على الصدور ليثبت الإيمان في قلوب أصحابها

فمن ذلك قصةُ شيبةَ بن عثمان الأوقصي الذي أسلم يوم الفتح .

قال في الإصابة : وكان شيبة ممن ثبت يوم حنين بعد أن كان أراد أن يغتال النبي ﷺ فقذف الله في قلبه الرعب ، فوضع النبي ﷺ يده على صدره ، فثبت الإيمان في قلبه ، وقاتل بين يدي النبي ﷺ . رواه ابن أبي خيثمة .

قال في الإصابة : وذكره ابن إسحاق في المغازي بمعناه ، وأخرجه ابن سعد عن الواقدي ، وكذا ساق البغوي بإسناد آخر عن شيبة ، وفيه : قال شيبة : فجئتُ النبيَّ ﷺ من خلفه ، فدنوتُ ثم دنوتُ حتى إذا لم يبق إلا أنْ أَتِرَه — أقتُله — بالسيف وقع لي شهاب من نارٍ كالبرق ، فرجعتُ القهقرى — أي إلى الوراء فَزَعاً — فالتفتَ إليَّ النبيُّ ﷺ فقال : « تعالَ يا شيبة » فوضع يده ﷺ على صدري ، فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري . . الحديث .

أي فصار النبي ﷺ أحبَّ من سمعه وبصره بعدما وضع يده الشريفة على صدره وقد كان قبلُ شديد البغض يحاول أن يغتال النبي ﷺ ! فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حوّلته من حالٍ إلى حالٍ ! .

ومن ذلك : قصة أبي محذورة التي جاءت في السنن ومسند أحمد وفيه : أن أبا محذورة قال: خرجتُ في نفرٍ فكنا ببعض طريق حنين ، فقفَل رسول الله ﷺ — أي رجع — من حنين ، فلقينا رسولُ الله ﷺ فأذّن مؤذنُ رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعتُ صوت المؤذّن ونحن متنكّبون ، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به ، فسمع رسول الله ﷺ الصوت ، فأرسل إلينا ، إلى أنْ وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّكم الذى سمعتُ صوته قد ارتفع ؟ » .

فأشار القوم كلُّهم إليَّ ، وصدقوا ، فأرسلهم كلَّهم وحبسني ، فقال : « قم فأذّن بالصلاة » . فقمتُ ولا شيء أكره إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا مما يأمرني به ، فقمتُ بين يدي رسول الله ﷺ فألقى إليَّ رسول الله ﷺ التأذينَ هو نفسُه فقال : « الله أكبر الله أكبر . . » إلى آخر الأذان . ثم دعاني حين قضيتُ التأذين فأعطاني صرّةً فيها شيء من فضّة ، ثم وضع ﷺ يده على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرّ على وجهه مرتين ، ثم مرتين على يديه ثم بلغتْ يد رسول الله ﷺ سُرّة أبي محذورة ، ثم قال رسول الله ﷺ : « بارك الله فيك » .

قال أبو محذورة : فقلت : يارسول الله مُرني بالتأذين بمكة ! فقال : « قد أمرتك به » قال أبو محذورة: فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية ، وعاد

ذلك محبةً لرسول الله ﷺ . . الحديث .

وجاء في رواية أخرى : وكان أبو محذورة لا يجزُّ ناصيته ولا يفرقُها ، لأن رسول الله ﷺ مسح عليها . أي : فهو يريد بقاء بركتها . فانظر في أثر هذه المسحة المحمدية كيف حوّلت المبغض اللدود إلى عاشق ودود .

ومن ذلك : قصة حرملة بن زيد رضي الله عنه ، يأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسانه ريدعو له ، فيذهب النفاق من صدره . روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء حرملة بن زيد فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله الإيمان ها هنا — وأشار إلى لسانه — والنفاقُ ها هنا — وأشار إلى صدره — ولا يذكر الله إلا قليلاً . فسكتَ عنه النبي ﷺ فردّد ذلك عليه حرملة . أي يشكو أمره إلى النبي ﷺ .

فأخذ النبي ﷺ بطرف لسان حرملة فقال : « اللهمَّ اجعلْ له لساناً صادقاً ، وقلباً شاكراً وارزقه حبّي وحبَّ من يحبُّني ، وصيّرأمره إلى الخير » . فقال حرملة : يارسول الله إن لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلُّك عليهم ؟ فقال النبي ﷺ « مَنْ جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومَنْ أصرَّ على ذنبه فالله أولى به ، ولا نخرق على أحدٍ سِتْراً » [1] .

رسول الله ﷺ يمسح وجه قتادة بن ملحان فيصير كالمرآة

عن أبي العلاء بن عمير قال : كنت عند قتادة بن ملحان حيث حضر فمرّ الرجل في أقصى الدار قال : فأبصرته في وجه قتادة ! قال : وكنت إذا رأيته كأن على وجهه الدهان ، كان رسول الله ﷺ مسح وجهه . رواه الإمام أحمد وقال في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح . اهـ . وأورده في الإصابة وعزاه أيضاً إلى ابن مندہ وغيره .

قال في الإصابة : وأخرج ابن شاهين عن حيان بن عمير قال : مسح النبي ﷺ وجه قتادة بن ملحان ثم كبر فبلِيَ منه كل شيء غير وجهه . قال : فحضرته عند الوفاة فمرّتْ امرأة فرأيتُها في وجهه كما أراها في المرآة . ا هـ .

رسول الله ﷺ يعيد عين قتادة بن النعمان بعد سقوطها

روى الطبراني والبيهقي في الدلائل عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن عينه ذهبت يوم أُحد ، فجاء النبيّ ﷺ فردّها فاستقامتْ .

وروى الطبراني وابن شاهين عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصيبتْ عينه يوم أُحد ، فوقعت على وجنته ، فردّها النبي ﷺ فكانت أصحّ عينيه [١] .

وجاء في رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت أتّقي السّهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهماً ندرتْ — أي سقطت — منه حدقتي . فأخذتُها بيدي وسعيتُ إلى رسول الله ﷺ فلما رآها في كفّي دمعتْ عيناه فقال : « اللهمّ قِ قتادةَ كما وقى وجه نبيك ، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدّهما نظراً » فكانت أحسنَ عينَيه وأحدّهما نظراً . وفي رواية : وكانت لا تَرمَد إذا رمدت الأخرى [٢] .

وكان ﷺ يمسح ضَرْع الشاة فيدرّ اللبن منها .

فمن ذلك حديث أبي قِرْصافة قال : كان بدءُ إسلامي أني كنت يتيماً بين أمي وخالتي ، وكان أكثر ميلي إلى خالتي ، وكنت أرعى شُوَيْهاتٍ لي ، فكانت خالتي كثيراً ماتقول لي : يابني لا تَمُرَّ إلى هذا الرجل — تعني النبيّ ﷺ — فيُغويَك ويُضلّك ، فكنت أخرج حتى آتي المرعى ، وأترك شويهاتي ، وآتي النبي ﷺ ، فلا أزالُ أسمع منه ، ثم أروّح غنمي ضُمْراً يابساتِ الضروع ، وقالت لي خالتي : مالغنمكَ يابساتِ الضروع ؟ قلت : ماأدري .

---

(١) انظر الإصابة .   (٢) كما في شرح المواهب .

ثم عدت إليه اليوم الثاني ، ففعل كما فعل في اليوم الأول ، غير أني سمعته يقول : « يأيها الناس ! هاجروا وتمسّكوا بالاسلام ، فان الهجرة لا تنقطع مادام الجهاد » ثم إني رحتُ بغنمي كما رحت في اليوم الأول ، ثم عدت إليه في اليوم الثالث ، فلم أزل عنده أسمع منه ، حتى أسلمت وبايعته ، وصافحتُه وشكوت إليه أمر خالتي وأمر غنمي ، فقال لي رسول الله ﷺ : « جئني بالشياه » . فجئته بهنّ ، فمسحَ ظهورهنّ وضروعهنّ ، ودعا فيهن بالبركة ، فامتلأنَ شحْماً ولبناً .

فلما دخلتُ على خالتي بهنّ — أي بالشياه — قالت : يابنيّ هكذا فارْعَ ! قلت : ياخالة مارعيتُ إلا حيث أرعى كل يوم ، ولكن أخبركِ بقصتي ، وأخبرتها بالقصة ، وإتياني النبيّ ﷺ ، وأخبرتها بسيرته وبكلامه .

فقالت أمي وخالتي : اذهب بنا إليه ، فذهبت أنا وأمي وخالتي ، فأسلمْن وبايعْن رسولَ الله ﷺ (١) .

وقد تقدم حديث أم معبد الخزاعية في أول الكتاب ، لما مرّ عليها رسول الله ﷺ .

ومن ذلك مسحه ﷺ على شاة لم يَنْزُ عليها الفحل ، لمّا مرّ على ابن مسعود وهو يرعى غنماً لعقبة ، كما جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنتُ أرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعيط ، فمرّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال ﷺ : « يا غلام هل من لبنٍ » . قال ابن مسعود فقلت : نعم ، ولكني مؤتمن ، قال : « فهل من شاة لم يَنْزُ عليها الفحل ؟ » فأتيته بشاةٍ ، فمسح ﷺ ضرعها فنزل لبنَ ، فحلبه في إناءٍ فشرب وسقى أبا بكر . وفي رواية : فشرب وشرب أبو بكر ، ثم قال ﷺ الضرع : « اقلِصْ » أي أمسكْ فقلص .. قال ابن مسعود : ثم أتيته بعد هذا فقلت : يا رسول الله علّمني من هذا القول وفي رواية : علمني من هذا القرآن . فمسح رأسي وقال : « يرحمك الله فإنك غُلَيّم معلَّم » قال : فأخذتُ من فيه ﷺ سبعين سورة .

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله ثقات . ا هـ . وتقدم آخر هذا الحديث في بحث كلامه صلى الله عليه وسلم وحلاوة منطقه . (مجمع الزوائد ٩/٣٩٨)

تقبيل الصحابة يد النبي ﷺ وأطرافه تعظيماً وتبركاً به واقتباساً من أنواره

عن أسامة بن شَريك قال : أتيتُ رسول الله ﷺ ، وأصحابُه كأنهم على رؤوسهم الطير ، فَسَلَّمتُ ثم قعدت ، فلما قاموا من عنده جعلوا يقبِّلون يده . قال شريك : فضممتُ يده إليَّ ، فاذا هي أطيبُ من ريح المسك . رواه ابن خزيمة والحاكم

وعن كعب بن مالك : أنه لما نزل عذرُه أتى النبيَّ ﷺ فأخذ بيده فقبَّلها . رواه الطـبراني .

تقبيل الصحابة يد النبي ﷺ وقدميه الشريفتين

عن حصن بن وَحْوح الانصاري ، أن طلحة بن البراء رضي الله عنه ، لما لقي النبيَّ ﷺ جعل يدنو منه ويلصَق برسول الله ﷺ ويقبل قدميه ، وقال : يارسول الله مُرْني بما أحببتَ ، ولا أعصي الك أمراً ، فعجب لذلك النبي ﷺ وهو غلام — أي شاب حدَث — فقال له عند ذلك : « اذهبْ فاقتل أباك » فخرج مولّياً ليفعل ، فدعاه النبي ﷺ فقال له : « أقبِلْ ، فإني لم أُبعثْ بقطيعة رحم » الحديث [1] .

وروى البيهقي والطبراني وأبو يعلى بسند جيد عن مزيدة بن مالك قال : بينما النبي ﷺ يحدّث أصحابه قال لهم : « سيطلع عليكم من ها هنا ركبٌ هم من خير أهل المشرق » فقام عمر بن الخطاب نحوهم ، فلقي ثلاثةَ عشرَ راكباً فقال لهم : مَن القوم ؟ قالوا : من بني عبد القيس ، قال : مَن أقدمكم هذه البلاد ؟ التجارة ؟ قالوا : لا . قال : أما إنّ النبي ﷺ قد ذكركم آنفاً — أي الآن —

---

(١) عزاه في الاصابة بهذا اللفظ إلى البغوي وابن أبي خيثمة ، وابن أبي عاصم ، والطبراني ، وابن شاهين ، وابن السكن . ثم قال : وغيرهم .

ثم مشى معهم حتى أتوا النبي ﷺ فقال عمر القوم: هذا صاحبكم الذي تريدون. فرموا بأنفسهم عن ركائبهم ، فمنهم مَن مشى اليه ، ومنهم مَن هرول ، ومنهم مَن سعى ، حتى أتوا النبي ﷺ .

وفي حديث الزارع بن عامر ، عند أبي داود والبيهقي ، وكان من وفد عبد القيس ، قال : لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا ، نقبِّل يد رسول الله ﷺ ورجله (١) وانتظر الأشجُّ حتى أتى عَيْبته ــ صندوق صغير ــ فلبس ثوبيه ــ الأبيضين ــ ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبَّلها فقال له ﷺ : « إن فيك خَصلتين ــ وفي رواية : خلَّتين ــ يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » .

فقال : يارسول الله أخلتين تخلَّقتُ بهما أم جَبَلني الله عليهما ؟ قال : « بل جَبَلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله . وعند أبي يعلى (٢) : قديماً كانا فيَّ أم حديثاً ؟ فقال : « بل قديماً » فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله .

ومن ذلك تبرُّك عمرو بن أبي عمرو المزني بقَدَم النبي ﷺ ،

قال في الإصابة : أخرج حديثه النسائي والبغوي وابن السكن وابن منده بعلوٍ من طريق هلال بن عامر عن رافع بن عمرو المزني قال : إني لفي حجة الوداع خماسٍ أو سداسٍ ، فأخذ أبي بيدي حتى انتهينا إلى النبي ﷺ بمنى يوم النحر ، فرأيته ﷺ يخطب على بغلة شهباء ، فقلت لأبي : مَن هذا ؟ فقال : هذا رسول الله

(١) انظر سنن أبي داود : باب في قبلة الرجل ٤ : ٤٨٣ .

(٢) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٤ : ١٦ وانظر مجمع الزوائد ٨ : ٤٢ .

ﷺ قال : فدنوتُ حتى أخذتُ بساقه ثم مسحتُها حتى أدخلتُ كفَّي فيما بين أخمص قدمه والنعل ، فكأني أجدُ بَرْدها على كفَّي . فهو يتمسَّح متبركاً بقدم النبي ﷺ.

ومن ذلك : تقبيل عبد الله بن أبي سبقة — ويقال سبقة — ساق النبي ﷺ ورجله .

روى الإمام البغوي عن عبد الله بن أبي سبقة الباهلي رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو واقف على بعيره — زاد ابن منده في روايته : في حجة الوداع — وكأن رجله في غرزةٍ لحماره ، فاحتضنتها ، فقرَعَني بالسوط ، فقلت : يارسول الله القصاصَ . قال : فناولني النبي ﷺ السوط ؛ فقبَّلتُ ساقه ورجله ﷺ . كما في الإصابة .

تقبيل الصحابة مواضع من جسده الشريف ﷺ

قال أبو داود في سننه : باب في قُبلة الجسد ، ثم أسند إلى عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن أُسَيْد بن حُضَير ، بينما هو يحدث القوم — وكان فيه مزاح — بينـــا يُضحكهم ، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود ، فقال : أصْبِرني — أي أَقِدْني — فقال : « اصْطَبِر » فقال أسيد : إن عليك قميصاً وليس عليَّ قميص ، فرفع النبي ﷺ عن قميصه ، فاحتضنه وأخذ يقبِّل كَشْحه وقال : إنما أردتُ هذا يارسول الله .

وروى البيهقي في سننه باسناد قوي — كما قال الذهبي — عن ابن أبي ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلاً صالحاً ضاحكاً مليحاً ، فبينا هو عند رسول الله ﷺ يحدِّث القومَ ويُضحكهم ، فطعنه رسول الله ﷺ باصبعه في خاصرته ، فقال أسيد : أوجعتني يارسول الله ! فقال له ﷺ : « فاقتصَّ » قال : يارسول الله إن عليك قميصاً ، ولم يكن عليَّ — لما طعنتني — قميص ؟ قال : فرفع رسول الله ﷺ قميصه ؛ قال : فاحتضنه أسيد ، ثم جعل يقبِّل كشحه ، وقال : بأبي وأمي يارسول الله أردتُ هـــذا (١) .

---

(١) انظر كشف الخفاء ٢ : ٤١ .

وروى ابن إسحاق عن حبّان بن واسع ، عن أشياخ من قومه ، أن رسول الله ﷺ عدّل الصفوف يوم بدر ، وفي يده قِدْح — سهم — يعدّل به القوم ، فمرّ بسَواد بن غزية رضي الله عنه ، فطعن في بطنه ، فقال : أوجعتني فأقِدْني ، فكشف له ﷺ عن بطنه ، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه ، فقال له ﷺ : « ماحملكَ على هذا ياسواد ؟ » فقال : يارسول الله حضر ما ترى — يعني القتال — فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أنْ يمسّ جلدي جلدَك .

فدعا له رسول الله ﷺ بخير [1] .

وقال الحافظ في الاصابة : قال ابن عبد البر : وهذه القصة لسواد بن عمرو . قال ابن حجر : قلت : لايمتنع التعدد لاسيما مع اختلاف السبب ، ثم قال الحافظ ابن حجر : وأخرج البغوي من طريق عمرو بن سليط ، عن الحسن ، عن سواد بن عمرو وكان يصيب من الخَلوق [2] فنهاه النبي ﷺ . وفيها : فلقيه ذات يوم ومعه جريدة ، فطعنه في بطنه ، فقال : أقِدْني يارسول الله ! فكشف له عن بطنه فقال : « اقتصّ » فألقى الجريدة وطفق يقبّله . أي يقبل بطن رسول الله ﷺ .

تبرك الصحابة بأجزاء النبي ﷺ وآثاره في حياته وبعد وفاته ﷺ

كان أصحاب النبي ﷺ يتبرّكون بأجزاء النبي ﷺ وآثاره ، وثيابه وطعامه وشرابه ، وذلك لإيمانهم بأن أجزاءه الشريفة ، وآثاره الكريمة ، هي مليئة بالخيرات

---

(١) انظر البداية لابن كثير والإصابة ٤ : ٩٤ .

(٢) الخلوق : طيب مركب من الزعفران أو غيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة ، وإنما نهي عنه لأنه من طيب النساء اهـ نهاية .

. والبركات ،لأنها أجزاؤه وآثاره ، ونحن نورد من ذلك نماذج موجزة تعبّر عما وراءها

تبرّك الصحابة بشَعر النبي ﷺ وتكريمهم له وحرصهم عليه :

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ والحلاّق يحلقه ، وأطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شعرة إلاّ في يد رجل . أي تعظيماً لها وتبركاً بها .

وفي الإصابة : جُعْشُم الخير بايَعَ تحت الشجرة وكساه النبي ﷺ قميصه ونعليه وأعطاه من شعره ﷺ .

وفي الصحيحين وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ أتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنىً ، ونحر ، ثم قال للحلاق : « خذ » وأشار إلى جانبه الايمن ، ثم الايسر ، ثم جعل ﷺ يعطيه — أي يعطي شعره — الناس .

وذلك — كما قال الحافظ الزرقاني — للتبرك به ، واستشفاعاً إلى الله تعالى بما هو منه ﷺ وتقرباً بذلك إليه ا ه .

وفي رواية : أن النبي ﷺ قال للحلاق : « ها » وأشار بيده إلى الجانب الأيمن ، فحلق فقسم شعره ﷺ بين مَن بين يديه — من الصحابة — ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر ، فحلق ، فأعطاه لأم سُليم بنت مِلْحان والدة أنس .

وعند الامام أحمد زيادة : وقلّم ﷺ أظفاره ، وقسمها بين الناس .

وفي رواية لهما : أنه ﷺ دفع الأيسر إلى أبي طلحة وقال له : « اقسمه بين الناس » وفي رواية : أنه ﷺ أعطى شعر الجانب الأيمن ، ثم أعطى الجانب الأيسر ، وقال : « اقسمه بين الناس » .

قال الإمام النووي : وفيه التبرك — أي دليل التبرك — بشعر النبي ﷺ وجواز اقتنائه . ا ه .

وقال أبو عبد الله الأُبّيّ : إعطاؤه ﷺ لأبي طلحة ليس بمخالف لقوله « اقسمه بين الناس » لاحتمال أن يكون أعطاه لأبي طلحة ليفرقه ، ويبقى النظر في اختلاف

الروايات في شعر الجانب الأيسر : ففي الرواية الأولى أنه ﷺ فرقه كالأيمن ، وفي الرواية الثانية أنه أعطاه أم سليم ، وفي الثالثة أنه أعطاه أبا طلحة ، وفي الرواية الرابعة أنه ﷺ أعطى الشقين لأبي طلحة . قال : فيحتمل أنه ﷺ أعطاه أم سليم لتعطيه لزوجها أبي طلحة ليفرقه ، ويحتمل أنه ﷺ أعطى الشعر لأبي طلحة على أنه يعطيه أبو طلحة لأم سليم زوجته ، لتفرقه على النساء اهـ أي فيكون شعر الأيمن للرجال وشعر الأيسر النساء .

قال الحافظ الزرقاني : إنما قسم رسول الله ﷺ شعره في أصحابه ، ليكون بركةً باقية بينهم ، وتذكرةً لهم ، وكأنه ﷺ أشار بذلك إلى اقتراب الاجل ، وخصّ أبا طلحة بالقسمة ، التفاتاً إلى هذا المعنى ، لأنه هو الذي حفر القبر الشريف ولحّد له وبنى فيه اللّبِن اهـ .

وروى البخاري عن محمد بن سيرين قال : قلت لعَبيدة السلماني : عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه — أي حصل لنا — من قِبَل — أي من جهة — أنس ، أو من قِبَل أهل أنس ، فقال عبيدة : لأنْ تكون عندي شعرة منه ، أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها . —وفي رواية الاسماعيلي : أحبُّ إليّ من كل صفراء وبيضاء . يعني الذهب والفضــة .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : لما حلق رسول الله ﷺ رأسه — أي يوم حجة الوداع — كان أبو طلحة أوّل من أخذ من شعره ﷺ .

وفي تقسيمه ﷺ شعره الشريف يوم حجة الوداع ، بيانٌ منه وإعلام بما أودع الله تعالى في جسمه وأجزائه الشريفة ، من الخيرات والبركات ، وبما خصّه به من الأسرار والأنوار ، وأن ذلك من باب الحقيقة والواقع وليس من باب الظنّ أو التخيُّل .

انتصار خالد بن الوليد واستفتاحه في حروبه بشعر النبي ﷺ :

عن جعفر بن عبد الله بن الحكم أن خالد بن الوليد فَقَد قلنسوةً له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ، فلم يجدوها . فقال : اطلبوها ، فوجدوها ، فاذا هي قلنسوة خَلِقة

— أي ليست بجديدة — فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه ، فابتدر الناس جوانب شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رُزِقتُ النصر .

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ، ورجالهما رجال الصحيح ، وجعفر سمع من جماعة من الصحابة ، فلا أدري سمع من خالد أم لا ؛

وروى الامام أحمد عن محمد بن عبد الله بن زيد ، أن أباه حدثه أنه شهد النبي ﷺ على المنحر ، هو ورجل من الانصار ، وهو يقسم الاضاحي ، فلم يُصبْه شيء منها ولا صاحبه ، فحلق رسول الله ﷺ رأسه في ثوبه ، فأعطاه — أي بعضاً — لعبد الله بن زيد وقلّم أظفاره ، فأعطاه صاحبه ، قال : فانه لعندنا . يعني أن الشعر الشريف عند عبد الله وقُلامة أظفاره عند صاحبه .

تبرك الصحابة بموضع أصابع رسول الله ﷺ :

روى الامام أحمد عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أُتي بطعام فأكل منه ، بعث بفضله إلى أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه ، وكان أبو أيوب يضع أصابعه حيث يرى أصابع رسول الله ﷺ ، فأُتي النبيُّ ﷺ بقصعة — أي إناء فيه طعام — فوجد ﷺ فيها ريحَ ثوم ، فلم يذقها النبي ﷺ ، وبعث بها إلى أبي أيوب ، فنظر أبو أيوب فيها فلم يرَ فيها أثر أصابع النبي ﷺ ، فلم يذقها ، فأتاه فقال : يارسول الله لم أرَ فيها أثر أصابعك ؟ ! فقال ﷺ : « إني وجدتُ فيها ريح ثوم » فقال أبو أيوب : تبعث إليَّ مالم تأكل ؟ فقال ﷺ : « إني يأتيني الملَك » .

قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . اهـ ورواه مسلم في الصحيح .

تبرك الصحابة بسؤر النبي ﷺ

روى الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أُتي النبي ﷺ بشراب ، فشرب ، وعن يمينه غلام ، وعن يساره الأشياخ ، فقال ﷺ للغلام : « أتأذنُ لي أن أعطي هؤلاء ؟ » فقال الغلام : والله يا رسول الله لا أُوثِرُ بنصيبي منك أحداً ، فتلّه - أعطاه - رسولُ الله ﷺ في يده . أي فشرب الغلام . وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

تبرك الصحابة بإناء مسه فم النبي ﷺ

روى الامام أحمد وغيره ، عن أنس رضي الله عنـه ، أن النبي ﷺ دخل على أمّ سُليم وفي البيت قِربة معلّقة ، فشرب مِن فيها - أي من فم القربة - وهو قائم ، قال أنس : فقَطَعَتْ أمُّ سليم فمَ القِربَة ، فهو عندنا .

والمعنى : أن أم سليم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه ﷺ واحتفظت به في بيتها ، للتبرك بأثر النبي ﷺ .

وتقدم الكلام على تطيُّب الصحابة بعرق النبي ﷺ وتبركهم به ، واستشفائهم بريقه الشريف ﷺ .

تبرك الصحابة بثياب رسول الله ﷺ واستشفاؤهم بها

روى مسلم عن عبد الله مولى أسماء ، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، أنها أخرجتْ إلينا جُبةً طيالسة كسروانية [١] ، لها لِبْنَةُ [٢] ديباجٍ ، وفرجاها

(١) نوع من الثياب لها علم وحاشية .
(٢) بكسر اللام وسكون الباء : رقعة - أي قطعة - في جيب القميص .

مكفوفان بالديباج [١] وقالت : هذه جبة رسول الله ﷺ كانت عند عائشة ، فلما قُبِضتْ رضي الله عنها قبَضتُها - أي أخذت الجبة - وكان النبي ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى ، وفي رواية : نغسلها المريض منا إذا اشتكى ، نستشفي بها . أي لمخالطتها لعرقه الشريف وملابستها لبدنه الطيّب المبارك ﷺ .

وروى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أتت امرأة ببردة منسوجة فيها حاشيتها ، فقالت : يارسول الله أكسوكَ هذه ، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً اليها فلبسها - وفي رواية ابن ماجه : فخرج الينا فيها - فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يارسول الله ماأحسن هذه البردة فاكسُنيها ! فقال له ﷺ : « نعم » .

وفي رواية للبخاري : فجلس ماشاء الله في المجلس ، ثم رجع فطواها ، وأرسل بها إليه . فلما قام ﷺ لامه - أي لام السائلَ - أصحابُه وقالوا للسائل : ماأحسنتَ حين رأيت النبي ﷺ لبسها محتاجاً اليها ، ثم سألته إياها ، وقد عرفت انه لا يُسأل شيئاً فيمنعه ؟ ! - وفي رواية : لا يرد سائلا - فقال الرجل : رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلّي أكفَّن فيها .

تبرك الصحابة بنخامة النبي ﷺ وبماء وضوئه

جاء في الصحيحين - واللفظ للبخاري - من حديث صلح الحديبية قال : ثم إن عروة بن مسعود - الذي جاء وقتئذٍ وسيطاً عن المشركين في مكة - جعل يرمُق النبي ﷺ بعينيه ، قال : فوالله ماتنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم - أي من الصحابة - فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم - رسول الله ﷺ - بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون النظر اليه تعظيماً له ﷺ .

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه - في مكة - فقال : أيْ قوم ! والله لقد

---

(١) قال الزرقاني : أي عمل على جيبها وكمها كفاف من حرير ، وكفة كل شيء : طرفه وحاشيته .

وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إنْ رأيت — أي مارأيت — ملِكاً قطُّ يعظمه أصحابه مثلَ ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً ! والله إن تنخَّم — أي ماتنخم — نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ! وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ! وما يحدّون النظر اليه تعظيماً له ! وإنه قد عرض عليكم خطةَ رشدٍ فاقبلوها . الحديث

مداواة النبي ﷺ أصحابه ببصاقه الشريف واستشفاؤهم بذلك

كان ﷺ إذا بصق على المريض أو نفث أو تفل على موضع مرضه برىء المريض وشفي بإذن الله تعالى ، وقد وقع من ذلك أمور كثيرة شهيرة ، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون كلَّ الحرص على الاستشفاء بريقه ﷺ ؛ فمن ذلك : تفله ﷺ في عيني عليّ كرم الله تعالى وجهه وقد أصابه الرمد الشديد ، حتى إنه لا يستطيع أن يمشي وحده إلا مع رجل يأخذ بيده ، فيبصق رسول الله ﷺ في عينيه فيبرأ في ساعته .

روى الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ يوم خيبر : « لأُعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبُّه اللهُ ورسولُه » .

فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول الله ﷺ وكلُّهم يرجو أن يُعطاها . فقال ﷺ : « أين عليُّ بن أبي طالب ؟ » . فقالوا : هو يارسول الله يشتكي عينيه . قال : « فأرْسِلوا إليه » فأُتي به .

وفي رواية لمسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ ، فجئتُ به أقوده أرْمَدَ ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، فبرىء كأنه لم يكن به وجع . . الحديث ، كما تقدم .

ومن ذلك : نفثاته ﷺ على ساق سلمة وقد أصيبت يوم خيبر فيبرأ من ساعته .

روى أبو داود وغيره عن يزيد بن عبد الرحمن قال : رأيت أثر ضربة في ساق سلمة فقلتُ : ما هذه ؟

فقال : أصابتني يوم خيبر ضربة ، فقال الناس : أُصيبَ سلمة ، فأتَيَ بي إلى النبي ﷺ فنفثَ فيَّ ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة .

وفي الإصابة : أخرج ابن حبان في صحيحه والضياء في المختارة وقال : قال ابن منده : عمرو بن معاذ الأنصاري كان تفل النبي ﷺ على رجله حين قُطِعتْ حتى بــرأت .

ومن ذلك : نفثه ﷺ في فم بشير بن عقربة الجهني فتنحل عقدة لسانه .

روى إسحاق بن إبراهيم الرملي في فوائده عن بشير بن عقربة الجهني أن أباه أتى به النبيَّ ﷺ فقال ﷺ : « مَنْ هذا معك يا عقربَة ؟ » فقال : ابني بحير فقال ﷺ له : « ادنُ » فدنوتُ حتى قعدت على يمينه ، فمسح ﷺ على رأسي بيده فقال : « ما اسمك ؟ » قلتُ بحير يارسول الله فقال ﷺ : « لا . ولكن اسمك بشير » وكانت في لساني عقدة فنفث النبي ﷺ في فيَّ ، فانحلَّتْ العقدة من لساني وابيضَّ كل شيء في رأسي — أي بعد كبر سنه — ما خلا ما وضع ﷺ يده عليه ، فكان أسود . كما في الإصابة .

وروى الطبراني عن محمد بن حاطب قال : لما قدمتْ بي أمي من أرض الحبشة حين مات أبي حاطبٌ ، فجاءت أمي إلى النبي ﷺ وقد أصاب إحدى يديَّ حريق من نار . فقالت : يارسول الله هذا محمد بن حاطب ابن أخيك ، وقد أصابه هذا الحريق من النار .

قال محمد بن حاطب : فلا أكذب على رسول الله ﷺ فلا أدري أنَفَث أم مسح على رأسي ، ودعا لي بالبركة وفي ذريتي . كما في مجمع الزوائد .

قال في الإصابة بعد نقله صدرَ هذا الحديث : ورواه أيضاً عبد الرحمن بن عثمان ابن محمد الحاطبي عن أبيه عن جده ، أخرجه أحمد وابن أبي خيثمة والبغوي وفيه :

أن أمه قالت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب وهو أول مَنْ سُمِّي بك — أي في الحبشة — قالت : فمسح رسول الله ﷺ علىٰ رأسك وتفل في فيك ودعا لك بالبركة .

ومن ذلك : ذهاب بذاءة اللسان ببركة ريقه الشريف ﷺ .

أخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه أن امرأة بذيئة اللسان ، جاءت إلى النبي ﷺ وهو يأكل قديداً فقالت : ألا تطعمني ؟ فناولها مما بين يديه . قالت :لا . إلا الذي في فيك . فأخرجه ﷺ فأعطاها ، فألقته في فمها ، فأكلته فلم يُعلَم من تلك المرأة بعد ذلك الأمرُ الذي كانت عليه من البذاءة والذَّرابة .

الماء يطيب ويحلو بريقه الشريف ﷺ :

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي وأبو نعيم عن وائل بن حُجْر قال : أُتي النبي ﷺ بدلو ماء فشرب من الدلو ، ثم صُبَّ في البئر — أو قال : ثم مجّ في البئر — ففاح منها مثل رائحة المسك .

وروى أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ بزق في بئرٍ في دار أنس فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن بئرِ قُباء فقال : لقد كانت هذه البئر وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح ،فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذَنوب — أي دلو عظيمة — فسُقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأُعيد في البئر ، فما نَزَحَتْ بعدُ . وقد أخرج ابن سعد عن أنس أيضاً نحو ذلك .

وأخرج ابن السكن عن همام بن نفيل السعدي قال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله حفر لنا بئر فخرجتْ مالحة . فدفع إليّ إداوةً فيها ماء فقال : « صُبَّه فيها » فصبه فيها فعذبتْ فهي أعذبُ ماء باليمن .

الصحابة يتبركون بريقه الشريف ﷺ

روى البغوي في معجمه بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب كان يقرِّب ابن عباس ويقول له : إني رأيتُ رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك وتفل في فيك ، وقال : « اللهم فقهْه في الدين وعلمه التأويل » .

أورد ذلك في الإصابة ثم قال : ورواه ابن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالمرفوع نحوه . ا هـ .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يأتون بأولادهم إلى النبي ﷺ ليُحنِّكهم فيَتمصَّون ريقه الشريف ﷺ . وهذا باب واسع جداً .

ومن ذلك : ما جاء في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها أنها حَملتْ بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالتْ : فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ – أي قد دنا وِلادُها – فقدمت المدينة فنزلت بقباء فولدته ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فوضعه في حِجْره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفَل في فيه ، فكان أوَّلَ شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ثم حَنَّكه بالتمرة ، ثم دعا له وبَرَّك عليه فكان أوّل مولودٍ وُلِد في الإسلام . أي أول مولود بالمدينة من المهاجرين .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : وُلِد لي غلام فأتيتُ به رسول الله ﷺ فسمّاه إبراهيم ، وحنّكه بتمرةٍ ، ودعا له بالبركة ودفعه إليَّ . وكان أكبرَ ولد أبي موسى .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه انطلق بابن لأبي طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ قال أنس : فلما رآني رسول الله ﷺ قال : « لعلَّ أم سُليم وَلَدت ؟ » قلت : نعم . قال : فوضعته في حِجْره ﷺ ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عجوة المدينة – أي تمرها – فلاكها في فيه ﷺ حتى ذابتْ ثم قذفها في في الصبيِّ ، فجعل الصبيُّ يتلمَّظُها – أي يتطعَّمها – فقال رسول الله ﷺ :

« انظروا حبَّ الأنصار التمر » فمسح وجهه وسمّاه عبد الله . . الحديث .

وروى الزبير بن بكار قال : حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز قال : وُلد عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، فكان ألطف مَنْ وُلِد ، فأخذه جده أبو لبابة في خرقة فأحضره عند رسول الله ﷺ وقال : ما رأيتُ مولوداً أصغر خِلقةً منه . فحنّكه رسول الله ﷺ ومسح رأسه ودعا له بالبركة . قال : فما رؤي عبد الرحمن في قوم إلاّ فرَعهم طولاً ، وزوّجه عمر بنته فاطمة . كما جاء في الإصابة وغيرها .

تبرك الصحابة بدم النبي ﷺ

أخرج الطبراني والبزار والحاكم والبيهقي وأبونعيم في الحلية ، من حديث عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عبد الله بن الزبير قال : احتجم رسول الله ﷺ فأعطاني الدم بعد فراغه من الحجامة وقال : « اذهب يا عبد الله فغيّبه » وفي رواية « اذهب بهذا الدم فوارِه — أي أخفه — حيث لا يراه أحد » .

قال عبد الله : فذهبت به فشربته ، ثم أتيته ﷺ فقال : « ماصنعتَ ؟ » — أي بالدم — قلتُ غيبتُه . قال : « لعلك شربتَه ؟ » قال : نعم . قال : « ويل لك من الناس ، وويل للناس منك » .

وفي رواية : فقال رسول الله ﷺ : « فما حملكَ على ذالك ؟ » فقال : علمتُ أن دَمَك لا تُصيبه نارُ جهنم ، فشربته لذلك . فقال ﷺ : « ويل لك من الناس ، وويل الناس منك » .

وروى الدارقطني في سننه عن أسماء قالت : احتجم ﷺ فدفع دمَه لابني عبد الله ، فشربه ، فأتاه جبريلُ فأخبر النبيَّ ﷺ فقال : « ما صنعتَ ؟ » قال : كرهتُ أن أصبَّ دمك ! فقال ﷺ : « لاتمسّه النار » ومسح على رأسه وقال : « ويل الناس منك وويل لك من الناس » .

وفي سنن سعيد بن منصور من طريق عمرو بن السائب ، أنه بلغه أن مالكَ بن سنان والدَ أبي سعيد الخدري ، لما جُرح النبي ﷺ في وجهه الشريف يوم أحد ، مصّ جرحه حتى أنقاه ، ولاح — أي ظهر محل الجرح بعد المصّ — أبيض ، فقال له ﷺ : « مُجّه » فقال : والله لا أمجّه أبداً ! ثم ازدرده — أي ابتلعه — فقال النبي ﷺ : « مَن أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » فاستشهد — أي بأحد — .

ورواه الطبراني أيضاً ، وفيه : قال ﷺ : « من خالط دمي دمَه لاتمسُّه النار » . قال الهيثمي : لم أرَ في إسناده من أُجمع على ضعفه . اهـ .

وروى سعيد بن منصور أيضاً أنه ﷺ قال : « مَن سرّه أن ينظر إلى رجل خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان »[1] .

قال العلامة القسطلاني : وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون ، أن ابن الزبير لما شرب دم حجامة النبي ﷺ تضوّع — أي فاح — فمه مسكاً ، وبقيت رائحته موجودة في فمه ، إلى أن قتل رضي الله عنه .

وأخرج الطبراني عن سفينة رضي الله عنه قال : احتجم النبي ﷺ فقال : « خذ هذا الدمَ فادفنْه » حفظاً من الدواب والطير والناس . قال : فتغيّبتُ فشربته ، ثم ذكرت ذلك له ﷺ فضحك .

قال الهيثمي بعدما أورده : رجال الطبراني ثقات . اهـ .

تبرك الصحابة بدراهم مسّها يد النبي ﷺ

قال الحافظ ابن حجر في الجزء الثالث من المطالب العالية : باب التبرك بآثار الصالحين ، ثم أورد الاحاديث التالية :

عن محمد بن سوقة عن أبيه قال : أتيت عمرو بن حُريث أتكارى منه بيتاً في داره . فقال : تكارَ — أي استأجِرْ — فانها مباركة على من هي له ، مباركة على مَن سكنها ، فقلت : من أيّ شيءٍ ذلك ؟

(١) انظر المواهب وشرحه للزرقاني ٤ : ٢٢٨ .

قال : أتيت رسول الله ﷺ وقد نُحِرتْ جزور ، وقد أمر ﷺ بقسمتها ، فقال للذي يقسمها : « أعطِ عمرواً منها قسماً » قال عمرو : فلم يعطني وأغفلني ، فلما كان الغد أتيتُ رسول الله ﷺ وبين يديه دراهم ، فقال ﷺ : « أخذت القسم الذي أمرت لك به ؟ » — أي من لحم الجزور — قلت : يارسول الله ماأعطاني شيئاً . قال عمرو : فتناول رسول الله ﷺ من الدراهم فأعطاني ، فجئت بها إلى أمّي فقلت : خذي هذه الدراهم التي أخذتها من رسول الله بيده ثم أعطانيها ، أمسكيها حتى ننظر في أي شيء نضعها ؛ ثم ضرب الدهر ضرباته — أي مضى زمن طويل — حتى اشتريتُ هذه الدار . أي بتلك الدراهم المباركة .

ثم أورد حديث خالد بن الوليد المتقدم وقوله فيه : فحلق رسول الله ﷺ فاستبق الناس الى شعره ، فاستبقتُ إلى الناصية فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدّم القلنسوة ، فما وجهتها في وجهٍ إلا فتح عليّ .

ثم أورد الحديث عن ابن سيرين قال : استوهبتُ من أم سُليم من المسك الذي كانت تعجنه بعَرَق النبي ﷺ ، فوَهَبتْ لي منه . فلما مات ابن سيرين حُنِّط بذلك المسك . (طبقات ابن سعد ، ترجمة أم سليم)

تبرك الصحابة بعصا النبي ﷺ

عن محمد بن سيرين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أنه كان عنده عُصيّة لرسول الله ﷺ فمات — أنس — فدفنتْ معه بين جنبيه وقميصه .

ذكر ذلك صاحب التراتيب الادارية ، نقلا عن جمع الجوامع معزواً البيهقي ، وابن عساكر ، ونقلاً عن كنز العمال .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عبد الله بن أُنيس عن أبيه عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : « إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان ابن نُبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعُرَنة — موضع قريب من مكة — فأْتِه فاقتله» قال : قلت : يارسول الله انعته لي حتى أعرفه . قال : « إذا رأيته وجدتَ له

إقشعريرة » (١) . قال : فخرجتُ متوشّحاً سيفي حتى وقفتُ عليه وهو بعُرَنة مع ظعن يرتاد لهنّ منزلاً ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيتُه وجدتُ ما وصف لي رسول الله ﷺ من الإقشعريرة . قال عبد الله : فأقبلتُ نحوه وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه : أومىء برأسي الركوع والسجود ، فلما انتهيتُ إليه قال : مَنْ الرجل ؟

قلتُ : من العرب سمع بك، وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا . قال : أجل أنا في ذلك . قال عبد الله : فمشيتُ معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملتُ عليه السيف حتى قتلته ، ثم خرجت وتركتُ ظعائنه مكبّاتٍ عليه .

فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ فرآني قال: « أفلح الوجه » قال عبد الله: قلت قتلته يارسول الله . قال : « صدقت » قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل بيته فأعطاني عصاً فقال ﷺ : « أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس » قال : فخرجتُ بها على الناس .

فقالوا : ما هذه العصا ؟ قلتُ : أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها . قالوا : أو لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسألَه عن ذلك ؟ قال : فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ يارسول الله لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟ فقال ﷺ : « آيةٌ — أي هي علامة — بيني وبينك يوم القيامة ، إنّ أقل الناس المتخصّرون يومئذٍ » قال : فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه ، فلم تزل معه ، حتى إذا مات أمر بها فضُمّتْ معه في كفنه ، ثم دُفنا جميعاً . ورواه أبو يعلى والبيهقي ، ورواه الطبراني من طريق محمد بن كعب القرظي وفيه : فأعطاه النبي ﷺ مِخْصَرة — أي عصاً — كان يتخصّر بها رسول الله ﷺ . فقال لعبد الله : « تخصّرْ بها حتى تلقاني بها يوم القيامة » فوضعت على بطنه وكُفّن عليها ودفنت معه . ورجاله ثقات .

(١) في مجمع الزوائد نقلا عن المسند بلفظ : « قُشَعْرِيرة » ، وهي تقبض في الجلد وتجمع وتخشن كالأرض المقشعرة من القحط .

الصحابة يستضيئون بعصا أعطاها لهم رسول الله ﷺ

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : خرجتُ ليلةً من الليالي مظلمةً فقلتُ : لو أتيت رسول الله ﷺ وشهدتُ معه الصلاة وآنسته بنفسي ، ففعلتُ ، فلما دخلتُ المسجد برقتْ السماء ، فرآني رسول الله ﷺ فقال : « يا قتادة ما هاج عليك؟» قلت : أردتُ — بأبي وأمي — أن أؤنسك يارسول الله . فقال : « خذ هذا العُرجون — عصاً — فتحصَّن به ، فإنك إذا خرجتَ أضاء لك عشراً أمامك وعشراً خلفك » ثم قال لي : « إذا دخلت بيتك رأيت مثل الحجر الأخشن » قال : فضربتهُ حتى خرج من بيتي . رواه الإمام أحمد والطبراني ، كما في مجمع الزوائد . وفي رواية : « فاضربه قبل أن يتكلم فإنه شيطان » .

تبرك الصحابة بنعل رسول الله ﷺ

روى البخاري والترمذي في الشمائل ، عن عيسى بن طَهْمان قال : أخرج الينا أنس بن مالك نعلين جَرْداويْن — أي صقيلتين لا شعر عليهما — لهما قِبالان — تثنية قِبال ، وهو زمام النعل — قال ابن طهمان : فحدثني ثابت البُناني بعدُ عن أنس ، أنهما كانتا نعليْ رسول الله ﷺ .

فأنس بن مالك يحتفظ بنعل رسول الله ﷺ عنده للبركة ، ويعرضها على زواره ، ليكرمهم ببركتها .

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خادمَ نعل رسول الله ﷺ وخادم السواك والوســـاد .

وقد روى الحارث وابن أبي عمر ، من مرسل القاسم بن عبد الرحمن ، أن عبد الله بن مسعود كان إذا قام النبي ﷺ ألبسه نعليه ، وإذا جلس ﷺ جعلهما — ابن مسعود — في ذراعيه — أي كل فردة في ذراع — حتى يقوم ﷺ ، فاذا قام ألبسه نعليه في رجليه .

وفي حمل ابن مسعود نعليْ رسول الله ﷺ حين يجلس ، في ذراعيه ، معنى التكريم والتبرك .

تبرك الصحابة بموضع جلوس رسول الله ﷺ على المنبر

أخرج ابن سعد في الجزء الأول من الطبقات ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبدٍ المعروف بالقاري ، أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وضع يده على موضع قعود النبي ﷺ من المنبر ، ثم وضعها على وجهه .

وروى ابن سعد أيضاً باسناده، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط قال: رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجدُ أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر ، بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يَدْعون .

وقد أورد ابن سعد ذلك تحت عنوان : ذكر منبر رسول الله ﷺ ؟

تبرك التابعين بأيدي الصحابة لأنها مست يد النبي ﷺ

روى الامام أحمد في مسنده عن ثابت البُناني أنه قال لأنس بن مالك رضي الله عنه : يأنس مسستَ يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيدك ؟ فقال أنس : نعم ؟ قال ثابت : أرني أقبّلها . أي : لأنها مسَّتْ يد النبي ﷺ ؟

وروى الامام أحمد عن عبد الرحمن بن رزين أنه نزل الرَّبَذَة — بلدة قريبة من الشام — هو وأصحابه يريدون الحج ، قيل لهم : هاهنا سلمة بن الأكوع صاحب رسول الله ﷺ . قال : فأتيناه ، فسلّمنا عليه ، ثم سألناه ، فقال : بايعت رسول الله ﷺ بيدي هذه ، وأخرج لنا كفّه ، كفّه ضخمة ، قال : فقمنا إليه ، فقبّلنا كفّيْه جميعاً . أي : تبركاً بأثر يد النبي ﷺ ؛

ورواه البخاري في الأدب المفرد بلفظ : فأخرج سلمة يديه وقال : بايعت بهاتين النبيّ ﷺ . . الحديث .

وروى أبو نعيم في الحلية عن يونس بن ميسرة أنه قال : دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين ، فدخل عليه واثلة بن الأسقع الصحابي رضي الله عنه ، فلما نظر إليه مدّ يده فأخذ يده فمسح — ابن الأسود — بها — أي بيد واثلة — وجهه وصدره ، لأنه بايع رسول الله ﷺ .

فقال له واثلة بن الأسقع : يا يزيد بن الأسود كيف ظنّك بربك ؟ فقال : حسن . فقال واثلة : أبشر فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إنْ خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ » . يعني أنه إن ظن بالله خيراً عامله بظنه ، وإن ظن بالله شراً عاد سوء ظنه عليه .

اللهم إنا نسألك حسن الظن بك .

كما أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكرمون أياديهم التي صافحوا بها رسول الله ﷺ . فقد روى الطبراني عن الحكم بن الأعرج أن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ بها رسول الله ﷺ .

محبة الصحابة للنبي ﷺ

قال الله تعالى : « قلْ : إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارةٌ تخشوْن كسادها ، ومساكنُ ترضوْنها ، أحبَّ اليكم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ، فتربَّصُوا حتى يأتي الله بأمره ، إنّ الله لايهدي القوم الفاسقين » .

فقد توعّدَ الله عباده بالعقاب ، وحكم عليهم بالفسق ، فيما إذا كان أحدُ هذه الاصنافِ المرغوبةِ المحبوبةِ ، أحبَّ اليهم من الله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ! بل الواجب عليهم أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليهم من جميع ذلك كله !

وأعظمُ صورة واقعية لمن كان الله ورسوله أحبَّ إليهم مما سواهما ، وأجلى مظهر ظهرت فيه تلك الحقيقة الأحبيَّة لله تعالى ولرسوله : هم أصحابُ سيدنا محمد ﷺ كما قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه ، وقد سئل : كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ ؟ فقال :

كان رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا ، وأحبَّ إلينا من الماء البارد على الظمأ .

وتحققوا بقوله ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ اليه من والده وولده ، والناس أجمعين » .

وبقوله ﷺ : « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الايمان : أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما . . » الحديث .

وقد بذلوا نفوسهم إيماناً به ﷺ وحبّاً فيه ، وقدَّموه على نفوسهم ، فهم كما أمر الله تعالى وشرع لهم بقوله : « ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه . . » الآية ؛

بل رغبتهم بنفسه هي المقدَّمة على رغبتهم بأنفسهم ، وحبُّهم لنفسه ﷺ أعظم من حبهم لأنفسهم ، كما دلت على ذاك الوقائع ، وشهدت لهم الشواهد .

ونذكر من ذلك أطرافاً موجزة :

أولاً — إيثارهم محبةَ النبي ﷺ على محبتهم لأنفسهم ، وتقديمهم له على نفوسهم ومن ذلك : قصة زيد بن الدَّثِنَة ، كما رواه أصحاب السير ، ورواها البيهقي عن عروة قال : لما أخرج المشركون في مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه بالتنعيم ، لأنهم كانوا لا يقتلون في الحرم تعظيماً له ، وقد اجتمع في الطريق خُبَيب وزيد بن الدثنة ، فتواصيا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره .

قال أبو سفيان بن حرب — وهو يومئذ مشرك — قال لزيد بن الدَّثِنة : أنشدك بالله — أي أسألك بالله — يازيد : أتحبُّ أن محمداً الآن عندنا مكانك ، تُضرَبُ عنقه ، وأنك في أهلك — أي آمناً من القتل — فقال له زيد : والله ماأحبُّ أن محمداً الآن في

مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وأني جالس في أهلي ! فقال أبو سفيان : مارأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً ! .

فقد آثر زيد أن يقتل ، ولا يصاب رسول الله ﷺ بأقلِّ شيء من الأذى .

قال الحافظ الزرقاني : وفي رواية : أنهم ناشدوا بذلك خُبيباً ، فقال : والله ماأحب أن يفديني رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه ! .

ولا تنافي بين ذلك ، كأنهم قالوا ذلك لكلٍّ من خُبيب وزيد بن الدثنة .

وفي المسند عن أنس رضي الله عنه ، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد ، والنبي ﷺ خلفه يتترَّسُ به ، وكان رامياً ، وكان إذا رمى رفع ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدرَه ويقول : هكذا بأمي أنت وأبي يارسول الله لايصيبك سهم ! نحري دون نحرك ! وكان أبو طلحة يسوّر نفسه — أي يجعل نفسه سوراً — بين رسول الله ﷺ ويقول : إني جَلْد — أي شديد — يارسول الله ، فوجِّهني في حوائجك ، ومُرْني بما شئت .

ومن ذلك : مارواه البيهقي وابن اسحاق — كما حكاه في الشفا وغيره — أن امرأة من الأنصار قد قتل أبوها وأخوها وزوجها ، شهداءَ يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت لما أُخبرت بذلك: مافعَل رسول الله ﷺ ؟ وأرادت بذلك السؤال عن سلامته وبقائه ، وعبَّرت بذلك تأدباً ، لأن الفعل يستلزم الحياة . — وفي بعض النسخ : قالت: مافُعل برسول الله ﷺ — قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبِّين . أي هو سالم منصور مظفَّر .

فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته ﷺ قالت : كل مصيبة بعدك — أي بعد سلامتك ورؤيتك — جَلَل . أي هيِّن حقير ، كما في النهاية .

ثانياً — شَغَفُهم به ﷺ وتعشّقُهم إيَّاه ، فلا صبر لهم ، إذا لم يشهدوا محيَّاه ، فاذا شاهدوا رسول الله ﷺ قرّت أعينهم ، وطابت نفوسهم ، وانشرحت صدورهم.

روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رجلاً — هو ثوبان أو عبد الله بن زيد صاحب قصة الأذان — أتى النبيَّ ﷺ فقال : يارسول الله لأنت — أي والله لأنت — أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي ، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيءُ إليكَ — أي فيطمئن قلبي وتقرَّ عيني — وإني ذكرت موتي وموتك فعرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفعتَ مع النبيين ، وإنْ دخلتُها لا أراك — أي لأنك في مقام لا يصل إليه غيرك — .

فأنزل الله تعالى : « وَمَن يُطعِ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً » فدعا به النبيُّ ﷺ — أي طلب حضوره — فقرأ الآية عليه .

قال الحافظ الزرقاني : والمراد بالمعيّة والمرافقة : كونُه في الجنة يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم ، والحضور معهم متى شاء ؛ وليس المراد التسويةَ في المنزلة . اهـ .

وروى الامام البغوي عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ — أي اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه — وكان شديدَ الحبّ لرسول الله ﷺ ، قليلَ الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغيَّر لونه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما غيَّر لونك ؟ » فقال : يارسول الله ما بي مرض ولا وَجَع ، غير أني إذا لم أرَكَ استوحشتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك ، لأنك ترفع مع النبيين ، وإني إن دخلتُ الجنة فأنا في منزلة أدنى من منزلتك — أي فتقل رؤيتي الك ولا أطيق ذاك — وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً — فالأمر أهمُّ وأعظم — فنزلت « ومَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . . » الآية .

فكان أصحاب النبي ﷺ لا تطيب نفوسهم ولا تقرّ أعينهم إلا بمشاهدته ﷺ حباً فيه وإيماناً به ! .

وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه ، كما رواه عنه الامام أحمد ، أنه قال : قلت : يارسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ؟

فقال ﷺ : « كلُّ شيء خُلق من ماء » أي : ماء الحياة المذكور في الآية « وكان عرشه على الماء » وهو الماء المشتمل على جميع عناصر الحياة ، غيرُ الماء المعروف ، فانه أحد العناصر .

فقال أبو هريرة : قلت : يارسول الله أنبئني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة ؟ فقال : « أفشِ السلام ، وأطعم الطعام ، وصِلِ الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخلِ الجنةَ بسلام » .

ثالثاً — رضاهم بمعيّتهم لرسول الله ﷺ ومرافقته ، فاذا حصل ذلك لهم فسلامهم على الدنيا وما فيها من ذهبها وفضتها وسائر أموالها ! .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه ، أن أناساً من الانصار قالوا حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء — أي أعطاه الله تعالى غنائم كثيرة — فطفِق رسول الله ﷺ وهو بالجِعْرانة ، يعطي رجالاً من قريش المائةَ من الابل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ! يعطي قريشاً ويَدَعُنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟ ! أي تقطر من دماء كفار قريش بمحاربتنا إياهم حتى يدخلوا في الإسلام .

فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الانصار فجمعهم في قبة من أَدَم — أي جلد — ولم يَدْعُ معهم أحداً غيرهم . فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال : « ماحديثٌ بلغني عنكم ؟ » فقال فقهاؤهم — أي علماؤهم وعقلاؤهم — : أمّا ذووا رأينا — أي أصحاب العقول والفهم منا — يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثةٌ أسنانهم قالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويدعُ الأنصار ، وسيوفُنا تقطر من دمائهم ؟ ! .

فقال رسول الله ﷺ : « إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر ، أتألّفهم ، أما ترضَوْن أن يذهب الناس بالاموال ، وترجعون إلى رحالكم — أي منازلكم في المدينة — برسول الله ﷺ ؟ فو الله لَما تنقلبون به — أي ترجعون به — خير مما ينقلبون به ! » قالوا : يارسول الله قد رضينا . فقال لهم النبي ﷺ : « فستجدون أَثَرةً شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فاني على الحوض » .

وفي رواية لهما أيضاً : أن النبي ﷺ قال : « إن قريشاً حديثو عهدٍ بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ » قالوا : بلى — أي رضينا — فقال ﷺ : « لو سلك الناس وادياً ، وسلكتِ الانصار شِعباً ، لسلكتُ واديَ الانصار أو شعب الانصار » .

وفي رواية مسند أحمد : أن النبي ﷺ قال : « يامعشر الأنصار ألَم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ ! وعالةً فأغناكم الله ؟ ! وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟ ! » قالوا : بلى يارسول الله . ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يارسول الله وبماذا نجيبك ؟ المَنُّ لله ولرسوله ! .

قال : « والله لو شئتم لقلتم فصَدَقتم وصدّقتُكم : جئتَنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ، وخائفاً فآمنّاك » فقالوا : الحق لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أوَجدتم في نفوسكم يا معشر الانصار في لُعاعة [1] من الدنيا تألّفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ماقسم الله لكم من الاسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ ! فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعباً ، وسلكتِ الأنصار شعباً ، لسلكتُ شعب الأنصار ولولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم — من الدموع — وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قَسْماً . ثم انصرف وتفرّقوا .

رابعاً — حرصهم الشديد على مرافقة النبي ﷺ في جميع العوالم ، واهتمامُهم بذلك في دعائهم أوقات الاجابة .

روى ابن جرير باسناده عن الربيع ، أن أصحاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا

---

(١) اللعاعة : بضم اللام ، معناها هنا الشيء اليسير .

أن النبي ﷺ له فضل على مَن آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه فصدّقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً — أي يروا رسولَ الله ﷺ — فأنزل الله تعالى هذه الآية : « ومَن يطعِ اللهَ والرسولَ فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم .. » الآيـــة .

وهذا السبب الوارد في نزول الآية لا يتنافى مع ما تقدم من الأسباب ، فان الآية الواحدة قد تنزل في عدة أسباب ، على أن هذه الأسباب كلها من باب واحد ، وهو سؤال الصحابة عامة وخاصة ، عمّا يجمعهم برسول الله ﷺ في عوالم الآخرة ، بحيث يكونون معه لا ينقطعون عنه أبداً .

ومن ذلك : مارواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، أنه قال : كنتُ أبيتُ عند رسول الله ﷺ فأتيتهُ بوَضوئه وحاجته ، فقال لي : « سَل » فقلت : يارسول الله أسألك مرافقتَك في الجنة . فقال ﷺ : « أوْ غير ذالك » قلت : هو ذاك . قال ﷺ : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

ومن ذلك : مارواه ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة قال : سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما الدعاءُ الذي دعوتَ به ليلةَ قال لك رسول الله ﷺ : « سَلْ تُعْطَه ؟ » قال ابن مسعود : قلت : اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيما لا ينفد ، ومرافقة نبيِّك ﷺ في أعلى درجة الجنةِ جنةِ الخلد .

وروى أبو نعيم عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أصلي ذاتَ ليلةٍ ، إذْ مرَّ بي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال النبي ﷺ : « سَلْ تعطه » قال عمر : ثم انطلقت إليه — إلى ابن مسعود — فسألته : ما دعوتَ به ؟ فقال : إن لي دعاءً ما أكاد أن أدعه — أي لا أكاد أتركه — : اللهم إني أسألك إيماناً لا يبيد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى الجنة جنة الخلد .

ولما احتُضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته : واحزناه ! فقال لها : واطرباه ! غداً ألقى الأحبهْ : محمداً وصحبه .

خامساً — بكاء الصحابة رضي الله عنهم لألم فراقه ﷺ ، وبكاؤهم لتذكُر مجالسه ، وبكاؤهم عند ذكره ﷺ وتذكُّره والوحيُ ينزل عليه ، وما ينعكس عليهم من أسراره وأنواره ، وبكاؤهم لتذكر عهودهم معه ﷺ ، وبكاؤهم الشديد لوفاته ﷺ ، وبكاؤهم عند قبره الشريف ﷺ وذاك كله دليل على شدة محبتهم للنبي ﷺ وشغفهم به .

ونحن نذكر من ذالك أطرافاً موجزة :

— **بكاؤهم لألم مفارقته ﷺ** : فمن ذالك ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، خرج يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي في ظل راحلته ، فلما فرغ من وصيته قال : « يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري » .

فبكى معاذ جَشَعاً — أي جزعاً — لفراق رسول الله ﷺ . ثم التفت ﷺ فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أوْلى الناس بي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا » .

قال الزرقاني : رواه أحمد وأبو يعلى برجال ثقات . وقال الهيثمي : رواه أحمد باسنادين ، ورجال الاسنادين رجال الصحيح ، غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد ، وهما ثقتان . ا هـ .

— **بكاؤهم لتذكرهم مجالسه ﷺ** . روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : مرَّ أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار ، وهم يبكون — أي وذالك في حال مرضه ﷺ — فقال — أحدهما — : ما يبكيكم ؟ فقالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا . فدخل أحدهما على النبي ﷺ فأخبره بذلك ، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرْد ، فصعِد المنبر ولم يصعَدْه بعد ذالك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كَرِشي وعَيْبَتي — أي هم موضع سرّي وهم بطانتي — وقد قضَوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

— **بكاؤهم عند ذكره ﷺ وتذكره ﷺ والوحيُ ينزل عليه** : روى الامام

مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة النبي ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها ، كما كان رسول الله ﷺ يزورها ؛ فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يُبكيكِ ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ ؟ ! .

فقالت : إني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ، ولكنْ أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيّجتْهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها . أي : لتذكرهم رسول الله ﷺ ، ونزول الوحي عليه ، وتوارد تلك الأسرار والأنوار .

وأخرج ابن سعد عن عاصم بن محمد ، عن أبيه ، قال : ما سمعت ابن عمر ذكر رسول الله ﷺ إلا ابتدرت عيناه تبكيان .

وروى ابن سعد أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ . ثم يبكي .

ومن ذلك : ما رواه ابن عساكر بسند جيد — كما نص عليه الحافظ الزرقاني — عن بلال رضي الله عنه ، أنه لما نزل بداريّا — اسم مكان قريب من الشام — رأى النبيّ ﷺ — أي بعد وفاته ﷺ — وهو يقول : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورني ؟ فانتبه بلال حزيناً خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي ويمرغ وجهه عليه .

فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فجعل بلال يضمُّهما ويقبّلهما، فقالا له : نتمنى نسمعُ أذانك الذي تؤذن به لرسول الله ﷺ في المسجد .

فعَلا سطح المسجد ووقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر : ارتجّت المدينة . فلما قال : أشهد أن لا إله إلا الله : ازدادتْ رجّتها ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله : خرجَت العواتق — النساء — من خدورهنّ وقالوا : أبُعثَ رسول الله ﷺ ! فما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعده ﷺ أكثر من ذلك اليوم . وذلك لتذكرهم رسول الله ﷺ بسبب سماع الأذان من مؤذنه ﷺ .

وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم قال : خرج عمر بن الخطاب ليلة يحرس ، فرأى مصباحاً في بيت ، فدنا ، فاذا عجوز تطرق شَعراً لها — أي تنفشه — لتغزلـه وهي تقول :

على محمـد صلاة الأبرار صلى عليك المصطفَوْن الأخيار

قد كنتَ قوّاماً بكى الأسحار يا ليتَ شعري والمنايا أطوار

هـل تجمعني وحبيبي الـدار

— تعني النبي ﷺ — فجلس عمر يبكي ، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عمرُ بن الخطاب . قالت : ومالي ولعمر ؟ وما يأتي بعمر في هذه الساعة ؟ فقال : افتحي رحمكِ الله فلا بأس عليك . ففتحت له فدخل ، فقال لها : ردّدي عليّ الكلماتِ التي قلتِ آنفاً ، فرددت عليه فلما بلغت آخرها قال : أسألك أن تُدخليني معكما — أي في الدعاء — قالت :

وعمر فاغفر له يا غفـار

فرضي ورجع . كما في المواهب وشرحها .

وعلى هذا جرى خيار التابعين وأتباعهم رضي الله عنهم . قال مصعب بن عمير : كان الامام مالك إذا ذكر النبيّ ﷺ يتغير لونه حتى يصعب على جلسائه ، فقيل له في ذلك ؟ فقال — مالك — : لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليّ ما ترون ! لقد رأيت محمد بن المنذر — وهو سيد القرّاء — لانكاد نسأله عن حديث إلا يبكي حتى نرحمه ! ولقد كنت أرى السيد جعفراً الصادق بن السيد محمد الباقر كثير التبسم ، ولكن إذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرّ لونه ، مهابةً وإجلالاً !

قال مالك : وما رأيت جعفراً الصادق يحدّث عن رسـول الله ﷺ إلاّ على طهـارة .

قال مالك : ولقد اختلفتُ زماناً — أي ترددت إليه كثيراً — وما كنت أراه إلا على ثلاثِ خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً — أي مستغرقاً بالتفكر في آيات الله

تعالى — وإما يقرأ القرآن . قال : وكان السيد جعفر من العبّاد الذين يخشون الله تعالى اه

وقال مالك : ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير : فاذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتّى لا يبقى في عينيه دموع . ا ه . وكان الزهري من أهنأ الناس — أي أشدهم هناءة وسهولة وليناً — فإذا ذكر النبيّ ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك . أي من إجلاله ومهابته النبيّ ﷺ .

وكان قتادة المفسر إذا سمع الحديث يُقرأ عنده ، أخذه العويل — أي البكاء — والزويل — أي القلق — والانزعاج من سلطان المحبة والمهابة . كما ذكر ذلك كلّه القاضي عياض في الشفا ونقله القسطلاني في المواهب .

وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا ذكر النبي ﷺ يُنظر إلى لونه كأنه قد نَزَف منه الدم وقد جفّ لسانه في فمه .

— **بكاؤهم لتذكُّرهم عهودَهم معه ﷺ** . ومن ذلك ما جاء عن يحيى بن جعدة قال : عاد خبَّاباً ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : أبشر يا أبا عبد الله تَرِد على محمد ﷺ الحوضَ ! فقال : كيف بهذا ؟ وأشار إلى أعلى البيت وأسفله — وفي البيت قليل من الأمتعة والوسائد — وقد قال رسول الله ﷺ : « إنما يكفي أحدَكم كزاد الراكب » .

يعني أنه بكى خوفاً من أن يكون قد توسّع في حطام الدنيا ومتاعها ، فوق زاد الراكب ، كما عهد إليهم رسول الله ﷺ . قال الحافظ المنذري : رواه أبو يعلى والطبراني باسناد جيد .

وعن عامر بن عبد الله أن سلمان الخير رضي الله عنه حين حضرته الوفاة عرفوا منه بعض الجزع فقالوا : ما يجزعك — أي ما يخيفك — يا أبا عبد الله وقد كانت لك سابقة في الخير ؟ شهدتَ مع رسول الله ﷺ مغازي حسنة ، وفتوحاً عظاماً !

فقال : يُجزعني أن حبيبنا ﷺ حين فارقنا عَهِد الينا : « ليَكْفِ المرءَ منكم كزاد الراكب » فهذا الذي أجزعني — أي جعلني في خوف — قال : فَجُمع مال

سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهماً . رواه ابن حبان في صحيحه كما في الترغيب .

فخاف سلمان أن يكون خالفَ عهد حبيبه ﷺ بأن جمع من المال فوق زاد الراكب .

ضجيج بكاء الصحابة لوفاة سيدنا محمد رسول الله ﷺ . قال في المواهب وشرحها : أخرج ابن منده وابن عساكر – واللفظ له – عن أبي ذؤيب الهذلي أنه قال : بلغنا أن النبي ﷺ مريض ، فأوجس أهل الحيّ خيفة على النبي ﷺ وبتُّ بليلة طويلة ، حتى إذا كان قرب السحر نمت ، فهتف بي هاتف يقول :

خطبٌ أجلُّ أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الآطام
قُبِض النبي محمدٌ فقلوبنا تذري الدموعَ عليه بالتَّجسام

قال : فانتبهت من نومي فزعاً ، وعلمت أن النبي ﷺ قبض ، فقدمت المدينه ولأهلها ضجيجٌ بالبكاء كضجيج الحجيج أهلُّوا جميعاً بالاحرام ، فقلت : مَهْ – أي ما السببُ في هذا البكاء ؟ – فقالوا : قبض رسول الله ﷺ !

قال القسطلاني رحمه الله : وقد كانت وفاته ﷺ يوم الاثنين بلا خلاف ، وقتَ دخوله المدينة في هجرته ، حين اشتد الضَّحاء ، ودفن ﷺ يوم الثلاثاء ، وقيل ليلة الاربعاء ، وقيل يوم الاربعاء . ا هـ .

وقال في لطائف المعارف : وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين في شهر ربيع الأول بلا خلاف ، واختلفوا في تعيين ذلك اليوم من الشهر ، فقيل : كانت وفاته ﷺ أول الشهر ، وقيل ثانيه ، وقيل ثاني عشره ، وقيل ثالثَ عشره ، وقيل خامسَ عشره ، والمشهور أنه كان ثاني عشر ربيع الأول . ا هـ .

وقد روى ابن اسحاق وغيره أن وفاته ﷺ كانت ثاني عشر ربيع الأول ، وعليه الجمهور .

وأخرج الواقدي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بينا نحن مجتمعون نبكي لوفاة رسول الله ﷺ لم نمْ ، ورسول الله ﷺ في بيوتنا ، ونحن نتسلّى برؤيته على

السرير ، إذ سمعنا صوت الكرازين — أي صوت الفؤوس يُحفر بها — في السحر .

قالت أم سلمة : فصحنا وصاح أهل المدينة ، فارتجت المدينة صيحة واحدة ، وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبيَّ ﷺ — بقوله : أشهد أن محمداً رسول الله — بكى بلال وانتحب ، فزادنا حزناً وعالج الناس الدخول — أي الوصول إلى قبره ﷺ فغلق دونهم — أي منعوا من الهجوم إلى القبر الشريف وقت الدفن الشريف — قالت : فيالها من مصيبة ! ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ .

وجاء بعض هذا الحديث في طبقات ابن سعد .

ولا شك أن المصيبة بوفاته ﷺ هي أعظم المصائب . وقد روى مالك في الموطأ أن النبي ﷺ قال : « ليُعَزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي » .

وروى ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه : « يا أيها الناس أيُّما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة ، فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فان أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي » أي المصيبة بوفاته ﷺ .

وأخرج مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : بكى الناس على رسول الله ﷺ حين مات ، وقالوا : والله ودِدنا أنا متنا قبله ، ونخشى أن نفتن بعده . انظر ذلك في البداية .

وأخرج الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت : قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، ترثي رسول الله ﷺ :

ألا يارسولَ الله كنتَ رجاءنـــا	وكنت بنـــا براً ولم تكُ جافيـــا
وكنت رحيماً هاديــاً ومعلّمـــاً	ليبكِ عليكَ اليوم من كان باكيا
لعَمريَ ما أبـكي النبيَّ لموتـــه	ولكن لهرْجٍ كان بعدك آتيـــا
كأن على قلبي لفقـــد محمـــدٍ	ومن حبّه من بعد ذاك المكاويا

أفاطمُ صلى الله ربُّ محمدٍ على جدثٍ أمسى بيثرب ثاويا
أرى حسناً أيتمْتَه وتركتَه يبكي ويدعو جدَّه اليوم نائيا
فِدىً لرسول الله أمي وخالتي وعمي وخالي ثم نفسي وماليا
صبرتَ وبلغتَ الرسالة صادقاً ومتَّ قويَّ الدين أبلجَ صافيا
فلو أن ربَّ العرش أبقاك بيننا سَعِدنا ، ولكنْ أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحيةً وأُدخلتَ جناتٍ من العدن راضيا

قال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني وإسناده حسن . ا هـ وانظره في المواهب وشرحها .

بكاء الصحابة عند قبر النبي ﷺ متذكرين مواعظه ووصاياه . ومن ذلك : ما جاء عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد ، فوجد معاذاً عند قبر النبي ﷺ يبكي ، فقال له عمر : ما يبكيك ؟

فقال معاذ : حديث سمعته من النبي ﷺ قال : « اليسير من الرياء شرك ؛ ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الابرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتَقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة » . قال في الترغيب : رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في الزهد ، وقال الحاكم صحيح ولا علة له . ا هـ .

وروى البيهقي عن ابن أبي فُديك قال : سمعت بعض من أدركت من العلماء يقول : بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، إلى : تسليماً » ثم قال : صلى الله عليك يارسول الله سبعين مرةً ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ، ولم تسقط له حاجة — أي لا ترد حاجته ، ولا يخيب دعاؤه بوجاهة الحبيب ﷺ عند الله القريب المجيب .

إفاضة القبر الشريف بالأسرار والأنوار ، والخيرات والبركات على صاحبه أفضل الصلوات والتسليمات

قال الإمام الدارمي في سننه : باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته . ثم روى بإسناده عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال :

قُحط أهل المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوَىً — أي نوافذ مفتّحة — إلى السماء حتّى لا يكون بينه وبين السماء سقف . قال : ففعلوا ، فمطرنا مطراً — أي كثيراً — حتّى نبت العشب وسمنت الإبل حتّى تفتّقتْ من الشحم ، فسمّي : عام الفتق .

ومن ذلك : سماع الأذان من القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

فقد روى الدارمي أيضاً تحت عنوان ذلك الباب — روى بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرّة لم يؤذّن في مسجد النبي ﷺ ثلاثاً ولم يُقَم . قال : ولم يَبْرَح سعيد بن المسيّب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي ﷺ .

ورواه ابن النجار بلفظ : إن الأذان تُرِكَ في أيام الحرّة ثلاثة أيام ، وخرج الناس ، وبقي سعيد بن المسيب في المسجد . قال : فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر — الشّريف — فصليتُ ركعتين ، ثم سمعت الإقامة فصليتُ الظهر ، ثم مضى — أي استمرّ — ذلك الأذان والإقامة في القبر المقدس لكل صلاة حتّى مضت الثلاث ليال . يعني ليالي أيام الحرّة .

وفي ذلك إكرامٌ من الله تعالى لسعيد بن المسيب حيث أسمعه ذلك ومؤانسةٌ له .

وقد روى البيهقي وصححه وروى أبو يعلى والبزار وابن عدي من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون** » . ويشهد

لذلك ما جاء في صحيح مسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أتيت ليلة أسريَ بي على موسى قائماً يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر » .

تمسح الملائكة بالقبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام تبركاً وتشرفاً به

روى الدارمي بإسناده أن كعباً — أي كعب الأحبار — دخل على عائشة رضي الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب : ما من يوم يطلع إلاّ نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفّوا بقبر النبي ﷺ يضربون بأجنحتهم . وفي رواية ابن النجار وغيره : يضربون قبر النبي ﷺ — أي : يمسحون القبر الشريف بأجنحتهم تبركاً وتشرفاً به — ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثل ذلك ، حتى إذا انشقّت عنه الأرض خرج ﷺ في سبعين ألفاً من الملائكة يزفّونه .

وفي روايات غير الدارمي : يوقرونه . قال الحافظ الزرقاني : أي يعظمونه ﷺ إكراماً . قال : ولعل كعباً علم هذا من الكتب القديمة لأنه حبرها . اهـ . ورواه ابن النجار وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والقرطبي في التذكرة كما في المواهب .

* * *

هذا وقد تمّ بفضل الله تعالى وعونه ، جمعُ هذا الكتاب ، وتصنيفه في يوم الاثنين الموافق ١٠ من شهر رجب سنة ١٣٩٤ هجرية ، وسوف يعقبه إن شاء الله تعالى كتاب « سيدنا محمد ﷺ معجزاته وآيات نبوته » .

فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالعافية والتوفيق ، وأن يبارك في عمرنا وعملنا ، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم .

كما وأنني أسأل الله تعالى أن يتقبل مني – بل : يتقبل عني – عملي وأن يتجاوز عن تقصيري في هذا الكتاب تُجاه رسول الله ﷺ ، وأن يعفو عن ذنبي وزللي ، فانه وإن كانت بضاعتي مزجاة ولكن رحمته سبحانه مرجاة .

وإنني أسأل الله العظيم بجاه رسوله الكريم ﷺ أن يرفع مقام والدي وسيدي وشيخي الشيخ العالم العارف المحدِّث المفسّر محمد نجيب سراج الدين ، في أعلى مراتب المقرَّبين ، وأن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يُغدِق عليه كريم العطاء ، وعلينا وعلى إخواننا وأحبابنا والمسلمين أجمعين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، إلى يوم الدين ، كلَّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .
والحمد لله رب العالمين .

* * *

المحتوى

الصحيفة

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

تابع المحتوى

• • •